شرح لمعة الإعتقاد

الإمام موفق الدين بن قدامه المقدسي

رحمه الله تعالى ٥٤١ - ٦٢٠ هـ

جمع وإعداد

الشيخ

عبد الله الغليفي

رحمة الله

دار القران

مكة المكرمة

شرح لمعة الإعتقاد

الهادي إلى سبيل الرشاد

الإمام موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي
رحمه الله تعالى
541 – 620هـ

جمع وإعداد

عبد الله بن محمد الغليفي رحمه الله

الطبعة الأولى 1413

الطبعة الثانية 1440

الطبعة الثالثة 1446

دار القرآن بغليفة

غليفة – مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فسنبدأ –إن شاء الله تعالى– شرح رسالة من رسائل السلف رحمهم الله تعالى في العقيدة ألا وهي رسالة: (لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد) للإمام موفق الدين بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى ،فهى من أحسن متون العقيدة السلفية وأشملها، وقد ضمنها الموفق ابن قدامة رحمه الله كثيراً من القواعد الشرعية والأصول الدينية التي تفيد المسلم في معرفة طريقة السلف في التعامل مع النصوص المتعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته،وقد ضمّت مباحث الاعتقاد، وأثنى عليها العلماءُ بعد الموفَّق رحمه الله تعالى، وهي حقيقةٌ بأن تفصل كلماتها وجُملها، وأن تُبين مباحثُها بشيء من التفصيل، بحول الله تعالى وقوته

نسأل الله أن ينفع بها من كتبها , ومن شرحها , ومن جمعها وعلق عليها ونشرها إنه ولى ذلك والقادر عليه ،فمتن اللمعة من أقدم متون العقيدة وقد يُعد أول المتون النثرية المعتمدة عند الحنابلة, ولكن العجيب هو عدم توفر الشروح لهذا المتن المفيد المهم ,واهتم العلماء بشروحه متأخرا .

ومن أفضل الشروح التى وقفت عليها ومنها أستفدت وأخذت هذا الشرح

1- شرح الشيخ عبدالرحمن بن صالح المحمود وهو شرح مسموع ومطبوع

2- شرح الشيخ المحقق صالح آل الشيخ

3- شرح الشيخ على الخضير المسمى بالزناد ،وقد جمعت بين هذه الشروح الثلاثة وجعلتها العمدة والأصل ،وجعلت الشرح على مراتبٍ من باب التدرج في العلم ، الإختصار للشيخ صالح وفقه الله ، ثم المسائل للشيخ الخضير ،والتفصيل للشيخ المحمود ،فك الله أسرهما وفرج عنهما وعن جميع أسرى المسلمين من العلماء والدعاء والمصلحين والمجاهدين ،وثبتنا الله وإياهم على الحق صابرين محتسبين ،حتى نلقى الله على التوحيد والسنة، وباقى الشروح فروع وحواشي على هذا الأصل ،مع مقدمة في العلم وآدابه وكيفية طلبه ،لأنه الأصل من العلم ،فإن لم يتأدب الطالب ويتخلق بخلق أهل العلم فلا خير فيه ولا في علمه ،وسرعان ما يسقط

من عين الله ولا تجد له أثر بين الناس وإن كان ذوعلم(وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ) ،وكذلك من الشروح المفيدة لمتن الُّمعة 4- شرح الشيخ يوسف الغفيص 5- شرح الشيخ بن جبرين رحمه الله ورضى عنه 6- شرح الشيخ بن عثيمين رحمه الله ورضى عنه 7 - شرح الشيخ صالح الفوزان 8- شرح الشيخ ناصر العقل 9- شرح الشيخ عبد العزيز الراجحى 10- شرح الشيخ وسيم فتح الله ،وقد كثرت شروح اللمعة فى زماننا وأهتم بها العلماء وطلاب العلم شرحاً وتعليقاً وتحقيقاً واختصاراً ولا يغني شرح عن شرح ، فلكلٍ طريقته ومنهجه في الشرح فعليك بالهمة العالية لكي تطالع كل الشروح فلا يخلوا كتاب ولا شرح من فائدة، المهم إخلاص النية فى طلب العلم لرفع الجهل عن نفسك أولاً والتخلص من الهوى والتعصب والكبر والتعالم فإن هذه الآفات مهلكة للقلب فعليك بالإخلاص والتجرد فى طلب الحق حتى توفق إليه وتستفيد منه إفادة تنفعك في الدنيا والأخرة وكان عملى فى هذا الكتاب الجمع بين تلك الشروح واستخراج الفوائد والفرائد وتقريب المتن بشرح معانيه وتفسير كلماته، حتى يستفيد منه طالب العلم المحقق مع شرح لبعض الأسماء والصفات الواردة فى المتن حتى يعلم المسلم كيف يتعبد لله تعالى بتوحيد الأسماء والصفات فليس المقصود من توحيد الأسماء والصفات أن يحصى الطالب أسماء الله ويحفظها ويرددها وإن كان هذا من معانى الإحصاء،ولكن المقصود والأهم هو كيف نحقق توحيد الأسماء والصفات لله تعالى، كيف نعبد الله باسمه الرحمن ،كيف نتعبد لله باسمه الرقيب ،هذا هو المقصود من دراسة الأسماء والصفات نتعرف من خلالها على هذا الإله العظيم الكريم الحليم هذا مما خُلقنا له، فيجب على المسلم ألا يغفل عما خلق له وهو تحقيق العبودية لله رب العالمين وحده لاشريك له، نسأل الله الكريم أن يوفقنا فى هذا الشرح لبيان معنى العبودية لله تعالى وربط قلوب العباد به سبحانه ،كما نسأله سبحانه أن يوفقنا لطاعته ويجعل عملنا فى رضاه ،وأن يجعلنا من أنصار دينه وسنة نبيه وعباده الموحدين ،وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عبد الله بن محمد الغليفى

غليفة– مكة المكرمة

شهر الله المحرم 1413

العلم سلاح الداعية

فالدعوة إلى الله من أحب الأعمال إليه سبحانه وتعالى، ويشهد بذلك قوله عز وجل: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت:33] (ومن دعا إلى هدى كان له أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء) ومن حمل هم وأمانة الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالة الله إلى عباده؛ فقد حمل أشرف الأشياء وأحبها إلى الله سبحانه وتعالى، بل إنه الشيء الذي خلق الله من أجله خلقه وهو عبادته، ولا عبادة إلا بالعلم، ولا عبادة إلا بالبصيرة: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} [يوسف:108] .

فلا بد للداعية أن يستشعر -أولاً- ما هي الدعوة، وما هي الرسالة التي يحملها والأمانة التي في عنقه لأهلها، فإذا عرف عظم هذه المسئولية علم أنه يتكلم لله وفي الله، وابتغاء ما عند الله سبحانه وتعالى، وأنه يعقد الصفقة فيما بينه وبين الله أن يكون أجره على الله لا على أحد سواه {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سبأ:47] وقال عن أنبيائه، نوح وهود وصالح وشعيب ولوط: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:109] أجرك على من بيده خزائن السموات والأرض، ويده سحاء في الليل والنهار أجرك على من يكتب لك الكلمة والجملة والحرف، على من يكتب لك الخطوة والتعب والنصب والسهر، ويكتب لك كل صغيرة وكبيرة سبحانه وتعالى، يحصيها لك فيكتب لك أجرها وثوابها، فتوافيه يوم توافيه بمثاقيل الحسنات إن تقبلها منك، وأجرك على من لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو الله جل جلاله.

على الداعية أن يستشعر أن هذا المقام أحب المقامات إلى الله عز وجل، وهو مقام الأنبياء والرسل، فإن (العلماء ورثة الأنبياء) ، ولابد على الداعية أن يجتهد في طلب العلم حتى يكون عالماً، ولا تكون دعوة إلا بعلم، ومن يريد أن ينال فضل الدعوة على أتم وجوهه، وأن يكون في أكمل صوره فليتم العلم وليأخذ وينهل منه، ويحرص على مجالسه، ويكون من أهل تلك الرياض التي تنشر فيها رحمة الله ويبتغى فيها ما عند الله، وعليه أن يصبر ويصابر ويجد ويجتهد فيها، ويحتسب الأجر عند الله سبحانه وتعالى في جميع ذلك حتى يبلغ من العلم أعلى المراتب، فإذا بلغ ذلك قام بالدعوة على أتم وجوهها وأكملها.

أول ما ينبغي علينا هو طلب العلم، وإذا طلبت العلم فاطلبه بقوة وعزيمة وهمة صادقة، لا يثنيك عنها شيء، لا تثنيك عنها الدنيا وزينتها وغرورها وما فيها من متاعها الزائل وغرورها الحائل، إنما تجد وتجتهد وأنت تعلم أنك أنت الرابح، فلا تقوم بضعف وتظن أن الدنيا ستفوتك، وأن أهل الدنيا يتاجرون ويربحون وأنت لا تربح، لا، بل تطلب العلم وتعلم أنك أربح صفقةً وأكثر ربحاً في تجارتك مع الله سبحانه وتعالى، طلب أقوامٌ العلم فكفاهم الله همَّ الدنيا والآخرة، واقرأ في سير العلماء، فمنهم من كان لا يجد طعمة يومه، وتراه مرقع الثياب، حافي الأقدام، ولكنه أغنى الناس في الله جل جلاله، وأسعد الناس وأشرحهم صدراً، وألينهم جناناً، وأصدقهم لساناً، وأوضحهم بياناً، أغنى الناس بالعلم الذي وضع الله في قلبه وفي لسانه: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:24] لما صبروا في طلب العلم وتحصيله، لا يشتكي أحدهم من السهر ولا من التعب في طلب العلم، إنما يبحث عن هذا العلم بكل همة وبكل صدق وعزيمة.

فإذا جدَّ طالب العلم في طلبه فعليه أن يعلم أن منزلته عند الله على قدر ما يحصل من العلم، فإن الله يرفع بهذا العلم درجات، وقد تجلس في المجلس الواحد وتدرس فيه مسائل قل من يضبطها ويحصلها، فتكفي الأمة همها، وتسد ثغرها، فيكون أجرك عند الله عظيم، فترفع درجتك على نفاسة هذا العلم، وبقدر ما كان علمك نفيساً عظيماً محتاجاً إليه بقدر ما تكون درجتك عند الله أعلى وأسمى.

ويجب أن تعلم أن هذا العلم يحتاج منك إلى الأمانة، فإذا جلست في مجالس العلم ضبطت وتقيدت بما سمعت، فلا تزيد من عندك شيئاً، ولا تحدثن في دين الله برأيك ما لم يكن عندك حجة أو برهان.

احرص في مجالس العلم على أن تسمع وتحفظ ثم بعد ذلك تعمل بضوء ما علمت، وتبلغ ما سمعت، وهذا أكمل ما يكون في العلم، أن يكون قلبك واعياً بكل ما يقال، وتتقيد بالكلمة لا تزيد ولا تنقص، وإن استطعت ألا تأتي بالمعنى وإنما تأتي باللفظ نفسه فهذا شيء حسن، فإذا بلغت ذلك كملت نضارة وجهك، قال صلى الله عليه وسلم: (نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فحفظها وأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع) إذا أردت أن تدعو إلى الله على أكمل المراتب وأفضلها فعليك أن تضبط العلم ضبطاً تاماً.

إذا تعودت على هذا الضبط وضع الله لك القبول، وثق ثقةً تامة أن الله مطلع على سريرتك وعلى ما في قلبك، واعلم أن نظر الله إليك في كل مجلس وفي كل درس، فحاول أن تفهم وتضبط كل كلمة وكل عبارة وكل جملة، فالعلم تسمو به الأرواح والأنفس.

الاجتهاد في طلب العلم والصبر على ذلك

أبو عبيد القاسم بن سلام؛ إمام من أئمة السلف، وديوان من دواوين العلم والعمل، كان آية في القراءات، وفي علم اللغة في لسان القرآن آية في الحديث ويروي بالأسانيد، وآية في الفقه، وهو صاحب كتاب الأموال –رحمة الله عليه– وغيره من الكتب النافعة، وصاحب كتاب الغريب، فهذا الإمام العظيم وقف بعد صلاة العشاء بعد أن استوقفه رجل قدم عليه من خراسان يسأله عدة مسائل في الفقه، يقول: إنه وقف معه في شدة البرد، فقام معه رحمه الله يذاكره ويسأله وهو يراوح بين قدميه، فلم يشعر إلا وقد أذن الفجر.

لا تستغربوا من ذلك، لا تظنوا أنه ضربٌ من الخيال، والله إنك إذا ذقت لذة العلم تسمو عن كل شيء، فإذا ذهبت إلى تلك المعاني المستنبطة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى هذا الكنز العظيم أحسست بالغبن أن سلفك الصالح سهرت عيونهم وتعبت أجسادهم من أجل أن يخرجوا لك هذا العلم، وأنت عنه بعيد ولو لم يجد –الرجل منهم– إلا صخرة يكتب عليها لنقش العلم عليها حتى لا يفوت عمن بعده؛ لأن النصيحة لله ولأمة الإسلام، فرضي الله عنهم ورحمهم برحمته الواسعة، فإذا كانت هذه همة صادقة بذلها السلف لنا من أجل أن نحفظ علومهم، فالغبن كل الغبن أن ننظر إلى كتبهم وبيننا وبينها حواجز، ما نعلمها؛ لأن علمنا علم سطحي لا نتعمق فيه ولا نضبطه ولا نجتهد في طلبه.

طالب العلم اليوم يقف عند الحكم فقط، دون أن يبحث عن الدليل ووجه الدلالة، وهل هو صحيح أو غير صحيح، وإذا كان غير صحيح فلماذا ليس بصحيح؟ فتغوص في أعماق العلم، فإذا أصبحت بهذه المثابة بوأك الله من العلم أعلى المكانة، فإذا تعبت وأصبحت تبحث عن كل صغيرة وكبيرة، وتجد وتجتهد، فلا تشتك من سهر ليل ولا من ظمأ الهواجر أو من غربة أو من تعب ونصب، وإنما تشعر بأنك أنت الرابح.

لا إله إلا الله! كم من تاجر تجده الآن في الموسم، اذهب الآن إلى الأسواق في رمضان وفي ذي الحجة تجد التجار يسهرون ويتعبون ويحسون بالنشاط، والرجل تجده أمام أولاده يقول لهم: هذا موسمي هذا رزقي من الله عز وجل لا أفرط فيه، ويعتبر رجلاً لأنه وضع الشيء في موضعه، وهو يبحث عن الدنيا، فكيف بمن يخوض في رحمة الله جل جلاله؟ مكانك عند الله على قدر العلم، فابحث عن العلم الموروث من الكتاب والسنة، وابحث عن العلم المستنبط من الكتاب والسنة، فكن رجلاً يطلب العلم، ويجد ويجتهد، ولا تقف عند الأمور السطحية، وحاول أن تغوص في أعماق العلم، فإذا تعبت في طلب العلم طالباً أراحك الله مطلوباً، وإذا تعبت في طلب العلم طالباً وذللت فيه أعزك الله مطلوباً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ذللت طالباً وعززت مطلوباً) فكان رضي الله عنه يقف في يوم عرفة يفسر القرآن، يقول بعض أصحابه: (لقد شهدت من ابن عباس مشهداً في يوم عرفة لو رأته الروم لأسلمت) لقد وقف يفسر سورة النور آية آية، وكأنه يغرف من بحور، كان إذا تكلم في اللغة خاض فيها وفي لسانها وبيانها وأسرارها ونكتها وبلاغتها وفصاحتها، وإذا تكلم في علم القرآن رأيت العجب في استنباطاته وهو يستنبط، كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ، ومع كل ذلك العلم ورع وعمل مصحوب مع علمه رضي الله عنه وأرضاه، فهذا هو الذي يبحث عنه الإنسان.

من اجتهد في طلب العلم طالباً أكرمه الله مطلوباً

ما دمت قد عرفت شرف هذا العلم فعليك أن تضحي بكل ما تجد من أجل بلوغه، فإذا نظر الله إليك أثناء الطلب وأنت تتعب وتحصل، فاعلم أنه لا أكرم من الله ولا أوفى منه، فإذا تعبت اليوم فإن الله سبحانه وتعالى سيريك ثمرة تعبك، ولن تموت حتى يقر عينك بما ترى، إن كنت تعبت في الطلب وكنت تحرص على أخذ العلم كاملاً سخّر الله لك طلاب علم يتعبون كما تعبت، ويحبون العلم كما أحببته، ويأخذونه من فمك -طيباً مطيباً- كما أخذته من علمائك طيباً مطيباً، وكما أصبحت أنك قرت عين للعالِم الذي أخذت عنه وهو يراك مجداً محصلاً فلا بد أن يقر الله عينك لطلابك، وهذه سنة لله عز وجل، وانظر في السلف؛ فإنك لا تجد طالباً لزم عالماً وأخذ عنه وضحّى معه إلا ونبغ بعد وفاته، وأصبح مكانه يحاكيه ويماثله؛ ابن عباس عندما توفي جاء بعده سعيد بن جبير، وطاوس بن كيسان، ومجاهد بن

جبر، فإذا نظرت إلى تلامذة ابن عباس كدت لا تفرق بينهم وبينه علماً وعملاً، فلا بد وأن يقر الله عينك بقدر تعبك في طلب العلم.

الآن انظر إلى الذين يأخذون من الكتب ويقرءون فيها -ولو كانوا أذكى الناس- فإنهم إذا رقوا منبراً أو تكلموا في أمة لن تجد لهم من القبول والمحبة والرضا ما تجده لمن تغبَّرت قدماه وذلَّ تحت أقدام العلماء لله جل جلاله، فإنك تجد من المحبة والألفة والقبول لهذا ما لا تجده لذلك، مع أنه أذكى وأحفظ، لكن لن تجد له من القبول مثل ما تجد لهذا؛ لأن الله سبحانه وتعالى عدل، ومن عمل خيراً فإن الله سبحانه وتعالى يوفيه خيراً في الدنيا وفي الآخرة.

المقصود: أنه ينبغي على من أراد أن يدعو إلى الله عز وجل أن يتعب في طلب العلم، ويحرص على ألا يتصدر إلا بعد الضبط والجلوس بين أيدي العلماء حتى يكون له من القبول مثل ما كان لهم، بل إن الله يزيدك، وكان أحد السلف رحمه الله يقول: اللهم اجعلني كفلان، فقيل له: لا، بل قل: خيراً من فلان، فإن فضل الله عظيم وخزائنه ملأى، ويده سحاء في الليل والنهار، ومن أحسن ظنه بالله فإن الله لا يخيبه كما في حديث أحمد في مسنده قال صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فمن ظن بي خيراً كان له) .

يا طالب العلم: لابد لك من قيام الليل؛ فإنه روحك ومدد من الله لك؛ وفيه خير لك في الثبات إذا عظمت الفتن وكثرت المحن؛ لأن الله يحفظ عبده بدعائه وسؤاله وعبادته، فمن تهجد بالليل حفظ الله له دينه في النهار وعصمه، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل:6] .

وكان العلماء والأئمة يوصون طلاب العلم بالمحافظة على قيام الليل، فليسأل كل طالب علم نفسه كم يقوم من الليل؟! وفي كم يختم كتاب الله عز وجل؟! عيب على طالب العلم ألا يكون قواماً لليل! وعيب على طالب العلم ألا يكون ذكاراً لله! وألا يكون صواماً للإثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر! وألا تكون عنده عبادات بينه وبين الله فكيف يذكر الناس غداً؟! ولذلك تجد بعض من يتصدر للوعظ وتذكير الناس في إمامته وخطبته أو في بعض مجالسه -وليست عنده عباده- تجده يقول قولاً لا يجد طعمه في قلبه، وكثيراً ما يشتكي البعض، يقول: أنا أذكر الناس وأجد الغفلة! نعم، لم يذكر الناس أحد بلسانه! ولن تنفع الذكرى إذا كانت باللسان دون الجوارح والأركان! فكيف يُخشع الإنسان القلوب ويذكر

بالله علام الغيوب وهو أغفل الناس عن ربه؟! وكيف يكون هادياً مهدياً واعظاً مؤثراً إذا كان لا يقوم الليل، ولا يصوم النهار، ولا يتلو القرآن إلا هجراً أو بعد مدة طويلة؟! كيف يكون لأقواله ومواعظه أثر في النفوس؟! نسأل الله السلامة والعافية! ولذلك استضاف الإمام أحمد بعض طلابه، فوضع عنده الماء بعد صلاة العشاء ثم نام الإمام أحمد، فلما كان الفجر وجد الماء لم يتغير، فعلم أن هذا الطالب لم يقم الليل، فصار يتعجب الإمام أحمد ويقول: طالب علم لا يقوم الليل! فمن يريد أن يطلب العلم عليه أن يعلم ما هي حقوق طلب العلم؟! وأين مكان طالب العلم في العبادة وفي النزاهة وفي التحفظ وفي الصيانة؟! إن الجلوس في مجالس العلماء له حق، والتأدب بصحبة العلماء له حق، فأنت غداً الأمل فيك -بعد الله عز وجل- أن تكون للأمة في قولك وعملك، فمن اختار الخير في بداية طلبه للعلم، واختار الذكر والطاعة والاستقامة، وأصبح له لسان ذاكر، وقلب شاكر، وإنابة صادقة لله عز وجل، وخشية لله سبحانه وتعالى، ووطن نفسه على محاسن الأمور من العبادات الصالحة والكلمات الطيبة، واستقام لربه كما ينبغي أن تكون الاستقامة، فإنه بإذن الله سيبارك له في علمه ودعوته غداً.

إن الله مطلع على القلوب والقوالب، ومطلع على السرائر والضمائر، والله لا يخادع، ولن ينال الله من عباده القول والعمل فالله غني عن خلقه، قال تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} [الحج:37] .

فعلى طالب العلم أن يوطن نفسه بأن يكون كما ينبغي أن يكون عليه من طلب العلم، تجد من ينتسب إلى العلم من طلاب العلم يقول: أنا في قسوة! أنا في غفلة! أجد ضيقاً! أجد هماً! حتى أصبح بعض طلاب العلم مثل العوام يشتكي مما يشتكي منه العوام! نعم لأن أحوالنا كأحوال العوام وقد تكون أردأ، وقد تجد في العامة من ذكر الله والخوف منه مالا تجده في بعض طلاب العلم.

فعلينا أن نتقي الله عز وجل، وأن نوطن أنفسنا لطلب العلم، وعلى طاعة الله عز وجل.

قال الإمام إبراهيم النخعي -يحكي حال السلف في طلبهم للعلم-: كان الرجل إذا طلب العلم ظهر في وجهه وسمته ودله.

مجرد ما كان يجلس الشخص في مجالس العلماء تجد في وجهه نور العبادة، ومن الخشوع والسكينة والوقار مثل ما تجده في العلماء؛ لأن أشبه الناس بالعلماء هم طلاب العلم.

إنها وصية لكم ولأنفسنا المراد بها المعونة على طاعة الله عز وجل.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، اللهم اجعلنا ممن ظن بك الخير، ووفيته وزدته من فضلك يا كريم، اللهم اجعل علمنا حجةً لنا لا حجة علينا، اللهم بيض به وجوهنا، وثقل به موازيننا، وارحمنا به يوم عرضنا عليك يا أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وآله

كيفية طلب العلم

فلعل من أهم الأمور التي ينبغي أن يعنى بها المسلمون جميعاً وطلاب العلم على وجه الخصوص في هذا العصر هو العناية بالعلوم الشرعية على أصول صحيحة سليمة، ونحن نرى بحمد الله بوادر التفات المسلمين إلى العلم الشرعي في جميع بقاع الدنيا ولا سيما الشباب، وهذا أمر يبشر بخير، ولا شك أنه إن شاء الله من علامات الخير لهذه الأمة ونهضتها على فقه من دينه.

ومع ذلك قد يعتري هذا التوجه شيء من الخلل والتقصير بسبب الفتور الذي حصل بين المسلمين في العصور الأخيرة في تحصيل العلم الشرعي، وبسبب استحداث وسائل لطلب العلم أكثرها مستمد عن غير المسلمين لا يخدم الفقه الشرعي ولا يؤدي إليه بطريق سليم، فمن هنا اختلطت على الناس الوسائل والمناهج والأساليب.

ولعل من أهم الأمور التي ينبغي أن أنبه لها بمناسبة هذه الدورة أن مما يجهله كثير من طلاب العلم الأسلوب الصحيح لطلب العلم الشرعي على أسس سليمة تؤدي إن شاء الله إلى ثمار طيبة وسليمة، يستفيد منها طالب العلم ويفهم ما شُرح له فهماً صحيحاً ينتفع به في الواقع ومن هذه الأسس: أن العلم الشرعي الأصل فيه أن يُطلب على تدرج وأن يُطلب بالتلقي المباشر عن المشايخ الكبار ثم من دونهم ممن يتقنون ولو علماً من العلوم، ولا يشترط أن يتعلم جميع الشباب على الكبار؛ لأن هذا قد لا يتهيأ للجميع، المهم أن يُطلب العلم على أسس سليمة ومنها التلقي المباشر، ولا يُكتفى بمجرد الوسائل، أي الأخذ عن الكتب أو الأشرطة أو النشرات أو غيرها، فهذا لا يكفي، بل ربما يكون ضرره أكثر من نفعه، فعلى هذا لا بد من إعادة الأصول الصحيحة السليمة لتلقي العلم الشرعي.

ومما كثر الخلل فيه أن كثيراً من طلاب العلم لا يتلقونه على أسلوب صحيح من حيث التدرج، والأصل في العلم الشرعي أن يؤخذ تدرجاً، فتؤخذ الأوليات والأصول من المتون الأساسية حفظاً واستيعاباً وهو الأصل، وإن لم يتوفر الحفظ فعلى الأقل لا بد من الاستيعاب للمتون الأساسية في كل علم، بحسب توجه الشخص وميوله وبحسب قدرته واستعداده، فمن عنده استعداد كبير ومواهب فهذا يأخذ أصول العلوم الشرعية واللغوية كلها، ومن ليس عنده قدرة أو استعداد أو وقت فليأخذ ما يناسبه أو ما يرى أنه يحتاجه أو تحتاجه الأمة في وقته.

فعلى هذا لا بد من أخذ المتون أولاً، ثم بعد ذلك الشروح الوسيطة، ثم بعد ذلك الشروح البسيطة، وقد حرص كثير من طلاب العلم جزاهم الله خيراً في الآونة الأخيرة على أخذ هذا المنهج الذي كان عليه سلف الأمة، بمعنى أن يبدأ بالمتون حفظاً واستيعاباً، ، وعلم العقيدة توافرت له بحمد الله في هذا العصر مراجع ومتون وشروح كافية لمن أراد أن يطلبها، وهي متوفرة بأيدي طلاب العلم.

والمفترض في طلب العلم للعقيدة أن يبدأ بمثل هذا المتن أو ما يسبقه ككتاب التوحيد والأصول الثلاثة والمسائل الأربع، ونحوها من الكتب الموجزة، – وقد تم شرح ذلك كله فيما سبق من دورات ،ونسأل الله أن ييسر لنا شرح كتاب معارج القبول بفضله ومنه وكرمه ، فهو من أنفع كتب التوحيد وأشملها ، – ثم مثل هذا المتن الجيد المركز، ومثله متن الطحاوية، ومثله أيضاً منظومة الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله التي شرحها بمعارج القبول والمتون الشاملة أولى من غيرها، وأقصد بالمتون الشاملة المتون التي تشمل أصول عقيدة السلف الصالح من أولها إلى آخرها في الجملة، وذلك أن المتون على نوعين: متون تأخذ شعبة من شعب العلم، ومتون تكون شاملة، ومتون تكون في أكثر العلم أو بعضه أو نصفه أو ثلثه، ومتون تكون في جميع أصول العلم، ومنها هذا المتن لمعة الاعتقاد؛ فإنه في أصل علم العقيدة ويشمل الأصول المهمة التي ينبغي أن يبدأ بها طالب العلم في تحصيل العقيدة السلفية الصحيحة.

نبذة عن مؤلف لمعة الاعتقاد

هو عبد اللّٰه بن أحمد من ذرية عمر بن الخطاب ، وهو قرشي عدوي ، ولد قبيل منتصف القرن السادس تقريباً عام 541هـ ، وتوفي عام 620هـ ، وولد في فلسطين وعاش في دمشق في الشام .

مؤلف هذه الرسالة هو الإمام الفقيه **أبو محمد موفق الدين** عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي الصالحي، وهذا الإمام اشتهر لدى العلماء بأنه صاحب (المغني) ؛ لأن كتابه (المغني) في الفقه يعتبر أوسع موسوعة في مذاهب العلماء وأقاويلهم في مسائل الشريعة الإسلامية؛ فإنه جمع رحمه الله تعالى في هذا الكتاب العظيم الفريد في بابه بين ذكره لأقاويل الصحابة وأقاويل كبار التابعين وتابعيهم، ثم أيضاً ذكره لأقوال الأئمة الأربعة: الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد، بل وكبار أصحابهم رحمهم الله تعالى، وأيضاً استقصى رحمه الله تعالى الروايات داخل مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

ثم إنه أيضاً اعتمد على ذكر الأدلة والتعليلات التي ذكرها الفقهاء، ثم لم يترك أيضاً الخلاف هكذا، وإنما أخذ رحمه الله تعالى يرجح ما يراه راجحاً، فصار كتابه الذي طبع في مجلدات عديدة موسوعة من أهم موسوعات الفقه الإسلامي، ومرجعاً من أهم المراجع لدى العلماء من بعده وإلى عصرنا الحاضر، ومن ثَمّ اشتهر رحمه الله تعالى بأنه صاحب (المغني) ، فكأن شهرة كتابه (المغني) غطت على اسمه رحمه الله تعالى، فإذا قيل: صاحب (المغني) انتقل هذا التعريف إلى هذا الإمام الجليل باختصار.

هذا الإمام الجليل ولد بفلسطين، ببلدة تسمى جماعيل قرب نابلس، إن هذا العالم الجليل تميز فوق تميزه العلمي بمثل كتابه (المغني) بمختصراته الأخرى في الفقه، ككتابه (المقنع) الذي يعتبر للمتوسطين، و (الكافي) وهو فوق ذلك، وأيضاً مثل كتابه (العمدة) للمبتدئين، إضافة إلى كتابه (روضة الناظر في أصول الفقه) وهو كتاب مشهور، وغير ذلك من رسائله وكتبه، ومنها هذا الكتاب الذي سنبدأ دراسته في هذه الدورة إن شاء الله تعالى.

إن هذا العالم الجليل فوق كونه عالماً بارعاً مصنفاً كان أيضاً إماماً مجاهداً، فقد اشتهر رحمه الله تعالى بمشاركاته في الجهاد في سبيل الله مع صلاح الدين الأيوبي هو وجماعته المقادسة من إخوانه وأبناء عمومته رحمهم الله تعالى، فإن هذه الأسرة كانت مع صلاح الدين الأيوبي رحمه

الله تعالى في جهاده، وشارك في المعارك التي دارت سنة (583هـ) لقتال الصليبيين وتحرير بيت المقدس منهم، وكان ابن قدامة رحمه الله تعالى وأفراد أسرته ممن له دور كبير في جهاد الصليبيين.

إذاً: إمامنا هو إمام علم، وإمام عمل وجهاد، وهؤلاء هم سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى الذين كانت صفاتهم تميزهم بهذا التميز: علم مؤصل، ويعقبه عمل ودعوة وجهاد في سبيل الله.

فائدة ترجمة العلماء والمراد منها

ومرادي من ذكر المختصرات في تراجم من ندرس له المراد به أن يكون ثَمَّ اقتباس واقتداء من طلاب العلم بالأئمة المتقدمين، فأما العلم يختلف من زمانٍ إلى زمان ومن مكان إلى مكان، وكما أن الدين يدخله نوعٌ من الغربة كذلك طلب العلم والمنهجية في طلب العلم يدخلها شيءٌ من الغربة، ولذلك ذكر بعض أهل العلم أن العلم كما هو معلوم رفعه في آخر الزمان من أشراط الساعة، ولا يمكن أن يرفع العلم إلا بارتفاع طرق تحصيل العلم، فترفع أولاً طرق تحصيل العلم، ويبذل الساعي ما يبذل لكنه لا يُحَصِّلُ شيئًا من العلم، ثم بعد ذلك يكون العلم على جهة الثقافات وتنويع المعارف كما هو موجودٌ في كثيرٍ في الساحة الآن، وقَلَّ من يُوجَد من أهل العلم لمن كان على سنن المتقدمين ومن كان على طريقة الأئمة الأعلام كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومن قبله ومن بعده.

أرى أن طالب العلم ينبغي أن يعتني بتراجم أهل العلم وأن يجعلها نصب عينيه لا في تلقي الأحكام الشرعية، وإنما يستفيد منها في شيئين اثنين:

أولاً: رفع الهمة، ولذلك ذُكِرَ عن بعضهم: أن التراجم والنظر في أخبار الصالحين أحب إلينا من الفقه. يعني: عند التعب، وعند الركود ونحو ذلك والملل والفتور يرجع طالب العلم إلى السير، وهي لا شك أنها تُحِي الهمة وتذيبها في التحصيل.

وثانيًا: من فوائد النظر في السير والتراجم وخاصةً بعد أن وجد العلوم ضمن مصنفات ومختصرات ونحو ذلك النظر في المنهجية الصحيحة التي كان عليها أهل العلم وهي الجادة التي سلكها العلماء قديمًا وحديثًا، ولذلك تجد من المعاصرين ممن له يدٌ طولى في العلم وإليه الفتوى والرجوع ونحو ذلك تجده قد جمع بين عدة فنون له في الفقه وله في الأصول وله في الحديث وله في اللغة وله في التفسير

مولده ونشأته

فهو شيخ الإسلام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الفقيه الزاهد الإمام شيخ الإسلام وأحد الأعلام موفق الدين أبو محمد، هكذا تجد في كثير من تراجم أهل العلم مصدرة بمثل هذه الألقاب، وإن كان في بعض من يترجم لهم قد يكون ثَمَّ مبالغة، ولكن في كثير من أحوال المترجم لهم إنما تكون على وجه الحقيقة. ولد في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة في جماعيل، قدم دمشق مع أهله وله عشر سنين، فقرأ القرآن، وسَنَنُ كثير من أهل العلم الذين برزوا في العلم إنما كان من أسباب تحصيلهم أن يكون العلم قد نشأ معهم صغرًا، يعني: أخذوا العلم على صغر، وهذا لا يمنع أن يكون الكبير قد يستفيد أكثر مما يستفيد الصغير، ولكن مما كان سببًا في إتقانهم للعلوم وتقدمهم في المعارف أنهم نشئوا مع العلم ونشأ العلم معهم هذا ابن عشر سنين قد طلب العلم وحصل العلم، يعني شرع في طرق تحصيل العلم، فقرأ القرآن وحفظ ((مختصر الخرقي ت ٣٣٤ هـ لعمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي، أبو القاسم الحنبلى من أهل بغداد. رحل عنها إلى دمشق لما ظهر فيها سب الصحابة.نسبته إلى بيع الخرق له تصانيف احترقت، وبقي منها المختصر في الفقه، الذى يعرف بمختصر الخرقي) واشتغل وسمع من والده، وهذه تجدها سمةً لكل من وصف بالتحقيق من أئمة أهل العلم أنه أول ما يبدأ في طلب تحصيل العلم هو الأصل الذي هو منبع الشريعة وهو القرآن الكريم، ولا تجد عالما إلا وقد شرع في العلم بعد أن يقرأ القرآن، ليس بقراءةٍ فحسب وإنما يقال: قرأ بالسبع وبالعشر. والآن قد تجد من يفرط في حفظ القرآن بحجة الاشتغال بالعلم، وهذا ليس على طريقة أهل العلم، هذا خلل في المنهجية، قال سبط ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن أبي محمد بن قدامة: كان إمامًا في فنون – فنون جمع فن – والجمع هنا أقله ثلاثة.وقال عمر بن الحاجب الحافظ في معجمه: هو إمام الأئمة ومفتي الأمة ،قال فيه أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى وهذه شهادةٌ كبرى من إمام من أئمة الإسلام وهو شيخ الإسلام بنفسه يقول عن ابن قدامه: ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفق. رحم الله الجميع، هذه شهادةٌ من إمامٌ في إمام، ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفق، ونُقِلَ عن ابن عبد السلام أنه قال: لم تطب نفسي بالفُتْيَة حتى صار عندي نسخةٌ من ((المغني)

أخلاقه وسيرته

كان كثير الحياء هينًا لينًا متواضعًا جوادًا سخيًّا، متواضعًا عند الخاصة والعامة ذا أناةٍ وحلمٍ ووقار، مع كونه متفننًا في الفنون ومع كونه منشغلاً بالعلم مع كونه يصنف صباح مساء مع تعليمه وتعلمه ونحو ذلك.

قال سبط ابن الجوزي: ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر والعماد(العماد الأصبهاني الكاتب صاحب السلطان الناصر صلاح الدين ت ٥٩٧) أزهد ولا أورع منه، عزوفًا عند الدنيا وأهلها، كثير العبادة دائم التهجد. وهذا ينبغي أن يستحضره طالب العلم، وأن يقرأ تراجم أهل العلم بعد النظر في سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وهي الأصل في الاقتداء، وإنما يُنظر في تراجم أهل العلم من أجل أن يكون ثَمَّ إثارةً للهمة التي تتعلق بطلب العلم، فطالب العلم بدون الهمة لا شيء، وهذه الهمة قد نص ابن القيم رحمه الله تعالى في ((المدارج)) على أنها مرتبطة بالإيمان، وهذا يدخل فيما ذكرنا من كون العلم عبادة، يعني: بعض طلاب العلم تكون عنده همة في وقتٍ، ثم فإذا بها تضعف ثم تضعف حتى قد يترك العلم، نقول: ما السبب في هذا؟ ثم بعد ذلك قد يحضر مجالس علم أو ينظر في تراجم فإذا بالهمة ترجع كما كانت هذا التذبذب وهذا التناقص سببه كما نص عليه ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الهمة في ((مدارج السالكين)) أن الهمة مرتبطة بالإيمان، ، والإيمان عند أهل السنة والجماعة يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصي، إذًا الهمة تزيد بالطاعة، فإذا نقصت حينئذٍ لا بد من النظر في حال طالب العلم، وهذا كثرة الكلام هي التي أضاعت علينا الكثير والكثير، كلمة مثل هذه من ابن القيم رحمه الله تعالى حينئذٍ تصحح مناهج كثير من المسلمين من طلاب العلم على جهة الخصوص، همةٌ مرتبطةٌ بالإيمان، كلما زاد الإيمان زادت الهمة وارتفعت، وكلما نقص الإيمان نقصت الهمة، إذًا الهمة كذلك تزيد بالطاعات ونقصها يكون بالزلات، وهذا لا بد من العناية به، قال هنا: كثير العبادة دائم التهجد. إذًا لا بد من العمل ولا بد من العبادة ولا بد أن يكون طالب العلم يشعر نفسه بأنه مغاير، وهذا ليس فيه إشكال، يعني: نجد من بعض

طلاب العلم أن أخلاقهم وأحوالهم ومحافظاتهم على الأوقات هو والعامي سواء، إلا من رحم الله فيتعامل مع وقته كتعامل العوام دون مراعاة لأهمية الوقت ، يا أخي الكريم يا من يريد طلب العلم أنت إذا وضعت قدمك في طلب العلم أنت في عملٍ جليل شريف لا يساويك أحدٌ البتة، أنت تسلك مسلك الأنبياء والرسل، الأنبياء والرسل ما بعثوا إلا بالعلم، والعلم أصل التوحيد، دعوة الناس قائمة على العلم الشرعي الصحيح، وهذا لا يُنال بالنوم، ولا ينال براحة الجسد، وإنما لا بد من الانشغال ليل نهار بحرقة وتعب ، ولذلك قيل: من كانت بداياته محرقة كانت نهايته مشرقة. فهذا ينبغي أن يتنبه له طالب العلم أن حاله والمحافظة على وقته والنظر في تعامله مع الناس، والنظر في قبل ذلك تعامله مع ربه جل وعلا في التمسك بقيام الليل وصيام النهار ونحو ذلك من الرواتب والنوافل .

التسلسل التاريخي لحصول النزاع في مسائل أصول الدين بين المسلمين

جاء النبي صلى الله عليه وسلم بتقرير مسائل أصول الدين، وذكر مسائل الفروع، وأحكم الشريعة عليه الصلاة والسلام وأكملها، وذهب وتوفي على هذا التمام والكمال الذي قال الله فيه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:3]، ومضى الناس على هذا في خلافة الصديق رضي الله عنه، ثم جاءت خلافة عمر على مثل ذلك، ثم في آخرها ظهرت مقدمات الفتنة، وهي مقتله رضي الله عنه، فإن حذيفة رضي الله عنه لما ذكر الفتنة الكبرى لـ عمر رضي الله عنه -كما في الصحيح- قال: (إن بينك وبينها باباً مغلقاً) ولما سأله عمر: (أيفتح الباب أم يكسر؟ قال حذيفة: بل يكسر)، وكان كسره هو مقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

ثم لما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه فكثر الشر والفتنة من مسلمة الفتوح، من أهل العراق وغيرهم.

ثم جاءت خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فزادت الفتنة، وحصل ما حصل مما هو معروف، وكان أول نزاع بين المسلمين في مسائل أصول الدين هو في مسألة الإيمان: ما هو الإيمان؟ ومتى يكون الرجل مؤمناً؟ ومتى يكون مسلماً؟ ومتى يكون كافراً؟

وأول من أظهر المخالفة والخروج عن السنة والجماعة هم الخوارج، وقد حدَّث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بشأنهم، قال الإمام أحمد رحمه الله: «صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه.«

وحديثهم متواتر، فقد روى مسلم في صحيحه عشرة أوجه من حديث الخوارج، وأخرج البخاري طرفاً منها، وهو حديث متفق عليه بين أهل العلم بالحديث من حديث علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجماعة من الصحابة، وذلك في قصة قسم النبي صلى الله عليه وسلم لذهب من اليمن، فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار،

فقال: (اعدل يا محمد! فإنك لم تعدل! فقام خالد بن الوليد -وفي رواية في الصحيح: عمر بن الخطاب - وقال: دعني أضرب عنقه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لعله أن يكون يصلي، قال: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! قال عليه الصلاة والسلام: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم، ثم نظر إليه وهو مقفٍ، فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)، وفي رواية: (قتل ثمود)، وفي رواية: (قاتلوهم فإن لمن قاتلهم أجراً عند الله)، وفي رواية: (لو يعلم المقاتل لهم ما أعد له من الأجر، لنكل عن العمل).

وخرج هؤلاء في خلافة علي بن أبي طالب، وقالوا: إن مرتكب الكبيرة من المسلمين كافر مخلد في النار.

ثم قارب الخوارج المعتزلة بعد ذلك، ثم ظهر ما يقابلهم، وهم طوائف المرجئة، الذين صاروا على النقيض من مذهب الخوارج والمعتزلة.

والمرجئة طوائف، وقد ذكر الأشعري في مقالاته أنهم ثنتا عشرة طائفة، أشدهم إرجاءً جهم بن صفوان، وأبو الحسين الصالحي، وأخفهم إرجاءً مرجئة الفقهاء؛ أتباع حماد بن أبي سليمان الإمام السلفي الفقيه المعروف، لكنه زلَّ رحمه الله وغلط في مسألة الإيمان، وإلا فهو من أئمة السنة والجماعة، وغلطه -كما قال شيخ الإسلام - من بدع الأقوال وليس من بدع العقائد، وتابعه على غلطه أبو حنيفة، وعلى هذا اشتهر قول مرجئة الفقهاء بتقلد أبي حنيفة له، فشاع في أتباعه من الحنفية.

ولما مضت خلافة الخلفاء الأربعة الراشدين، وجاءت إمارة بني أمية، ظهرت بعض الفرق؛ ففي الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبني أمية -أثناء خلافة يزيد بن معاوية وبعدها- **خرجت القدرية في العراق**، وهم قوم يقولون: لا قدر، والأمر أنف، وجملة

مذهب هؤلاء: أنهم ينكرون خلق أفعال العباد، وغلاتهم ينكرون علم الرب بها قبل وقوعها من العباد.

وهؤلاء القدرية الغلاة المنكرون لعلم الرب هم قوم من الزنادقة من أهل فارس، وإنما أظهروا الإسلام نفاقاً، وليسوا من المسلمين في شيء، وقد أجمعت المعتزلة القدرية –لا نقول أهل السنة– على تكفير هؤلاء الغلاة، فضلاً عن إجماع جملة طوائف المسلمين.

وأما غير الغلاة من القدرية فإنهم أهل بدعة، وقولهم كفر، وإن كانوا ليسوا كفاراً، قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وهذا النوع من القدرية ما علمت أحداً من السلف نطق بتكفيرهم).

فالمقصود: أن الأصل الثاني الذي حصل فيه نزاع هو القدر، فظهرت القدرية، وقابلتهم الجبرية الذين يقولون بجبر العباد، وكان هذا في آخر عصر الصحابة، وبعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين.

وأما المسائل الإلهية فإن عصر الصحابة انقرض ولم يحصل فيها نزاع بين أهل القبلة.

وفي المائة الثانية بعد عصر الصحابة؛ ظهر قوم ينتحلون علم الكلام، وهو علم مولَّد من فلسفة اليونان وغيرها من الفلسفات، وأظهروا تعطيل الصفات؛ ك الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وأمثالهما.

فهؤلاء القوم ضلوا في هذا الباب ضلالاً مبيناً، ولهذا كان السلف رحمهم الله يرون أن قول الجهمية كفر، وقد أجمع السلف على جملة من أقوال الجهمية أنها كفر، وإن كانوا لا يلتزمون تكفير أعيانهم.

فلكون هذه المسألة هي أشرف المسائل التي حصل فيها النزاع؛ قصد المؤلف رحمه الله إلى تعظيم شأنها، وذِكرها على التفصيل في مبدأ رسالته.

وقد شارك المصنف في عصره وقام بالجهاد العلمي والتعليمي العقدي ، حيث ألّف كتباً لبيان عقيدة أهل السنة والجماعة والرد على عقائد الأشاعرة التي تفشت في عصره .

مؤلفاته :

منها كتابه لمعة الاعتقاد في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات والقدر واليوم الآخر وما يتعلق فيه وما يجب تجاه الصحابة والموقف من أهل البدع.

وألف رسالة في مسألة العلو في جزأين . ومسألة العلو تعتبر من أخطر المسائل المثارة في عصر المصنف ، حيث أن الأشاعرة لا يثبتون العلو لله تعالى.

وألّف رسالة في تحريم النظر في كتب أهل الأهواء ، ورسالة في ذم التأويل ، وكتاب آخر في القدر .

والملاحظ على هذه الكتب أنها ضد الأشاعرة وتعنيهم بالدرجة الأولى كما أنها تعني أيضا المعتزلة والخوارج والجهمية .

وقد أشار إلى هذه المؤلفات ابن العماد في كتابه شذرات الذهب ، المجلد الخامس ص88.

وهذه عادة العلماء الربانيين التصدي للعقائد المنحرفة الموجودة في عصرهم وتأليف الكتب والرسائل فيها .

كما أن المصنف أيضاً شارك في الجهاد المسلح لإعلاء كلمة الله وهو ما يسمى اليوم زورا بالتطرف والأصولية ، حيث خاض الجهاد ضد الصليبيين في طردهم من فلسطين وكان عضو فعّالاً في جيش صلاح الدين الذي قابل الصليبيين حتى أخرجهم من القدس .

كما قاتل العبيديين حتى قضى عليهم .

كما أن له مؤلفات في الجانب العلمي الفقهي :

منها المغني ، والكافي ، والعمدة . كما ألف في الأصول : روضة الناظر

ثناء العلماء عليه:

يأتي الثناء على الكتاب من الثناء على صاحبه، يعني: ببيان موقفه من منهج السلف التعامل مع الأسماء والصفات، وثَمَّ كلام لابن رجب رحمه الله تعالى وغيره، فعقيدة المؤلف مزكاةٌ عند كثير من أهل العلم، وإن كان ثَمَّ طعن من جهة ما قد يأتي في هذه

الرسالة أو في غيرها، والإمام إذا ثبتت قدمه في معتقد أهل السنة والجماعة ووجد له ذلة في التعبير أو في معتقد شيء معين لا يخرجه عن وسمه بكونه من أئمة أهل السنة والجماعة، لأن في بعض الألفاظ في هذا الكتاب وكذلك في ((ذم التأويل)) وفي ((تحريم النظر في علم الكلام)) ثَمَّ ألفاظ فيها اشتباه بأن المصنف رحمه الله تعالى قد وقع عنده شيءٌ من التفويض، وهذا سيأتي بحثه في محله، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: وتصانيفه في أصول الدين في غاية الحسن أكثرها على طريقة أئمة المحدثين مشحونة بالأحاديث والآثار وبالأسانيد، كما هي طريقة الإمام أحمد وأئمة الحديث ولم يكن يرى الخوض مع المتكلمين في دقائق الكلام، ولو كان بالرد عليهم وهذه طريقة أحمد والمتقدمين. مع كونه رد على ابن عقيل فهو له رسالة فيه وذكر في آخرها كثير من المباحث المتعلقة بالمقدمة هنا وخاصةً في ((ذم التأويل))، وكان كثير المتابعة للمنقول في باب الأصول وغيره لا يرى إطلاق ما لا يؤثر من العبارات، وهذا مسلك جيد، وهذا الذي ينبغي أن يكون، باب المعتقد بابٌ دقيق من حيث المعنى ومن حيث القالب الذي يؤدي هذا المعنى، يعني: ثَمَّ ألفاظ ومعاني، الأصل في اللفظ أن يكون شرعيًّا بمعنى أن الشرع قد أتى به أو نطق به، وأما إحداث ألفاظ لم يرد في الشرع فهذه فيها تفصيل يأتي ذكره إن شاء الله تعالى، ويأمر بالإمرار كما جاء في الكتاب والسنة من الصفات **من غير تفسير**، هذه كلمة من غير تفسير محل إشكالٍ عند كثيرٍ من المعاصرين من غير تفسيرٍ وإن كان لها وجه، وهذه العبارة أيضًا نقلها في ((شذرات الذهب)) **من غير تغيير** فثَمَّ تحريف في العبارة قد يكون ثَمَّ شيء يتعلق بها إما أن يكون ما نقله ابن رجب فيه تصحيف أو ما نقله ابن العماد فيه تصحيف فأحدهما أصل والثاني فرع.

تفاوت أتباع الأئمة الأربعة في تقرير مسائل الأصول

إن المنتسبين إلى الأئمة الأربعة، الذين استقرت مذاهبهم في جمهور أمصار المسلمين -وهم: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - المتمذهبين بمذاهبهم في فقه الشريعة؛ هم في مسائل أصول الدين على طبقات: فهم المحققون لطريقة المتقدمين من الأئمة، وهم الذين وافقوا الأئمة في مسائل أصول الدين، وحققوا طريقتهم، كـ أبي عمر ابن عبد البر في المالكية، أو كـ ابن كثير في الشافعية، ومن هؤلاء في الحنابلة الموفق بن قدامة رحمه الله، فإنه -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما ذكر أصحاب الأئمة-: من المنتحلين لطريقة الأئمة على التحقيق في مسائل الأصول.

وطبقة أخرى من أتباع الأئمة الأربعة -ممن ينتسب إلى الشافعي أو مالك أو أبي حنيفة أو أحمد - مائلة إلى علم الكلام أو منتحلة لشيء من طرقه؛ فهناك طائفة من فقهاء الحنفية معتزلة، وأكثر فقهاء الحنفية على مذهب أبي منصور الماتريدي، وإنما كان ذلك؛ لأن أبا منصور الماتريدي نفسه كان حنفي المذهب، وطائفة من الحنفية أشاعرة محضة على طريقة المتكلمين من الأشاعرة، وكذلك الشافعية، فإن كثيراً من متأخريهم أشاعرة؛ لأن أبا الحسن رحمه الله إمام الأشعرية كان شافعي المذهب، وكذلك المالكية أكثرهم أشاعرة.

أما الحنابلة فهم من أبعد الطوائف الفقهية الأربع عن علم الكلام، ومع ذلك فإن طائفة من علمائهم المتأخرين تأثروا بعلم الكلام؛ كـ أبي الوفاء ابن عقيل؛ فإنه درس في مطلع أمره على بعض شيوخ المعتزلة؛ كـ أبي علي بن الوليد، وأبي القاسم بن التبان المعتزليين، وكانا من أصحاب أبي الحسين البصري الحنفي، وإن كان ابن عقيل رحمه الله رجع عن طريقته هذه، وكتب: الانتصار لأهل الحديث.

فالمقصود: أن أصحاب الأئمة الأربعة ليسوا شأناً واحداً، فمنهم المتمسك بآثار السابقين الموافق لطريقة الأئمة والسلف، ومنهم من تأثر بشيء من علم الكلام، أو انتحل شيئاً من طرقه المذمومة، ومنهم من هو بين ذلك، كما هي طريقة جماعة من شراح الحديث، الذين شرحوا الصحيحين والسنن وغيرها، فترى أن طائفة من هؤلاء عندهم مادة من التحقيق على طريقة السلف، وعندهم مادة من التأثر ببعض

أصحابهم، فلا يلزم أن الواحد من الفقهاء لابد أن يضاف إلى مذهب معين.
وإذا أردت الإجمال فإنه يصح أن يقال: إن الجمهور من أتباع الأئمة الأربعة منتسبون للسنة والجماعة، معظمون لطريقة السلف، وإن كانوا في تحقيقها على درجات، وأما من انفك عن طريقة السلف انفكاكاً مطلقاً، فإنهم قلة ممن انتسب لمذهب المعتزلة من فقهاء الأحناف، وإنما يقال ذلك؛ لأن سائر الأشاعرة ينتسبون لأهل السنة والجماعة، وكذلك سائر الماتريدية ينتسبون لأهل السنة والجماعة، وإن كان الانتساب وحده لا يكون كافياً، فإن الاعتبار في ذلك إنما هو بتحقيق المسائل؛ لا بمجرد الانتساب إلى مذهب من هذه المذاهب.
فالمتحصل من هذا: أن أتباع الأئمة الأربعة من الفقهاء ليسوا على طريقة واحدة في مسائل أصول الدين، فمنهم المحقق، ومنهم دون ذلك، ومنهم المنتحل لمذهب تظهر في كثير من مسائله وأصوله المخالفة لطريقة السلف.فتحصل من ذلك الفرق بين إمام المذهب ثم الأصحاب وهم التلامذة للإمام ثم الاتباع ثم الذى استقر عليه المذهب ،فيجب أن نفرق بين كل واحد منهم حتى لا ننسب لإمام المذهب ما لم يقله ،فكثير من أتباع المذاهب يخالفون قول إمام المذهب ويقولون هذا هو المذهب!

التعريف بالرسالة

وأما هذه الرسالة -وهي اللمعة في الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد- فهي رسالة فاضلة، جامعة لجملة من مسائل أصول الدين التي تنازع فيها أهل القبلة، وإذا ذكر أهل القبلة فالمراد بهم: سواد المسلمين من أهل السنة وغيرهم.
وقد ذكر فيها المؤلف رحمه الله في رسالته هذه جملة من مسائل أصول الدين على طريقة مقاربة لطريقة الأئمة السالفين، حيث ذكر جملاً من أقوال السلف والأئمة، فضلاً عما يذكره من الدلائل الشرعية من كلام الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
والرسالة الواسطية المعروفة لـ شيخ الإسلام ابن تيمية قد وضعها الإمام ابن تيمية، على محاكاة هذه الرسالة للموفق، وإن كان شيخ الإسلام قد استظهر فيها أكثر في باب الاستدلال بالنصوص، وزاد عليها جملاً وأصولاً، كمسألة العلو والقدر فإنه أطال فيهما وفصل أكثر من الموفق رحمه الله.

وقد وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معظماً لـ أبي محمد الموفق، حتى أنه قال: (لم يدخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من أبي محمد).

فالمحصل: أن الفرق بين الرسالتين: (الواسطية واللمعة) ربما يتحقق في أن كلام الإمام ابن تيمية أكثر تفصيلاً، بخلاف الموفق فإن في كلامه إجمالاً، وإن كان إجمالاً لا ينقطع عن التفصيل والبيان في موضع آخر.

مكانة هذه الرسالة

تعد هذه الرسالة من الرسائل المهمة في تحقيق عقيدة السلف أهل السنة والجماعة، وإن كان بعض المعاصرين ممن تكلم على هذه الرسالة، قد بالغوا في التثريب على صاحبها في بعض المسائل، وذكروا أنه ليس محققاً لمذهب السلف أو طريقتهم، ونظروا في شيء من كلامه في مسألة التفويض وبعض الأحرف الأخرى.

والتحقيق أن هذه الرسالة ليس فيها غلط صريح، وإنما يوجد في بعض المواضع قدر من الإجمال والتردد، وإذا قارنا بين هذه الرسالة وبين رسالة أبي جعفر الطحاوي -المعروفة بالعقيدة الطحاوية- فإن رسالة الموفق أشرف منها، وأبعد عن الغلط في بعض المسائل، أما الطحاوي رحمه الله فقد غلط في بعض مسائل الإيمان غلطاً صريحاً؛ لأنه حاكى مذهب أبي حنيفة في مسألة الإيمان محاكاة تامة، ونقل عن بعض أصحابه من الأشاعرة بعض الجمل المجملة في مسألة العلو، وإن كان لم يلتزم بنتائجها، إلى غير ذلك.

مع أن رسالة أبي جعفر الطحاوي من الرسائل الفاضلة في مذهب أهل السنة والجماعة، لكن رسالة الموفق أقرب إلى طريقة أهل الحديث منها.

والمقصود من هذا: أن اللمعة للموفق ليس فيها غلط محض، وإنما فيها بعض المواضع المجملة المحتملة.- حتى ألزمه بعض الشراح بقول المفوضة ،بل ومنهم من جزم بذلك ونسبه إلى التفويض ، وحاشاه والله أن يكون منهم ،وعقيدته فيها إثبات الصفات على معتقد أهل السنة والجماعة -

ومن رجع إلى مصنفات ابن قدامة –رحمه الله– علم يقينا أنه بعيد كل البعد عن مذهب المفوضة وأهل التأويل لاسيما كتابه "ذم التأويل" الذي رد على أهل التأويل، ومن حذى حذوهم من المفوضة، وأثبت فيه مذهب أهل السنة من الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته لفظا ومعنى، وما ورد عن ابن قدامة هنا (وجب الإيمان به لفظا) من المجمل المتشابه الذي فسر صريحا واضحا بينا في مصنفاته الأخرى، فيجب رده إلى محكم كلامه –عليه رحمة الله–، وكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى المحكم من كلامه في سائر تصانيفه، والله أعلم.

المؤاخذات الثلاث على مؤلف لمعة الاعتقاد

الانتقاد الأول :قال المؤلف رحمه الله: (وما أشكل من ذلك، وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه،:

قال الشيخ صالح آل الشيخ مفصلاً وموضحاً ومفسراً هذه الألفاظ والمواضع

انتقد على المصنف هذه العبارة لأنه المفروض أن يقول الإيمان به لفظاً ومعنى، وأما الإيمان به لفظاً هذا من قول أهل البدع. أ.هـ

الرد على مذهب أهل التفويض

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه، ونرد علمه إلى قائله، ونجعل عهدته على ناقله؛ اتباعاً لطريق الراسخين في العلم الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين بقوله سبحانه وتعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران:7].

هذه العبارة عند ابن قدامة فيها إشكال! وذلك من جهة أنه قال: (وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً وترك التعرض لمعناه) ؛ وسيأتي بعد قليل نقل ابن قدامة عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه قال في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا) وقوله: (إن الله يرى في القيامة) وما أشبه هذه الأحاديث؛ يقول الإمام أحمد: (نؤمن بها، ونصدق بها، لا كيف ولا معنى، ولا نرد شيئاً منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق، ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

فقول الإمام أحمد هنا: **(لا كيف ولا معنى)** ، قد يظن البعض أن منهج الإمام أحمد رحمه الله تعالى –ومثله ابن قدامة في العبارة السابقة– هو التفويض في باب الأسماء والصفات، أي: إثبات ألفاظها فقط دون التعرض لإثباتها حقيقة وإثبات ما دلت عليه من معنىً يليق بجلال الله وعظمته.

ونقول: إن هذا المذهب مذهب أهل التفويض، وهم فرقة مخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، ولم يقل به أحد منهم، وإنما هو مذهب لطوائف انحرفت عن المنهج الصحيح لأهل السنة والجماعة، ولهذا فإن قول الإمام أحمد هنا: (لا كيف) صحيح،

وقوله: (لا معنى) يقصد: أننا لا نتعرض لمعناها بالتأويل والتحريف والتشبيه ونحو ذلك، أي: لا نظهر لها معنىً يخالف ظاهرها الذي دلت عليه، ولهذا قال بعد ذلك: ولا نرد شيئاً منها، ونصدق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهو بين أن منهج السلف إثبات الصفات، وإثبات الصفات لله سبحانه وتعالى هو إثباتها على ما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات المعنى الذي دلت عليه والذي دل عليه النص، وليس المقصود إثبات اللفظ فقط، ولهذا فإن أهل السنة والجماعة يردون على المتأولة، ويردون على الذين يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه أو يكيفونها، ولنضرب مثلاً بصفة السمع أو بصفة العلم: فإن أهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة، ويعلمون معنى العلم ومعنى السمع، فيثبتون هذه الصفة لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ولكنهم وهم يثبتون هذه الصفة لا يتعرضون لتأويلها وتحريفها كما فعل أهل التحريف والتأويل، وأيضاً لا يكيفون هذه الصفة، فلا يقولون: إن كيفية الصفة كذا وكذا، أو يقولون: إنها تشبه صفة الخلق أو أحداً من الخلق أو نحو ذلك، ومن هنا فقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: **(ولا معنى)** أي: لا نقول: إن لها معاني تخالف ظاهرها؛ فنقع في التحريف والتأويل ونحو ذلك، وإنما نثبتها، والتفويض إنما يكون لكيفية الصفة، لا لحقيقة الصفة وما دلت عليه من المعنى؛ فكيفية صفات الله تعالى نفوضه إلى الله؛ لأننا كما لا نعلم ذاته فإننا أيضاً لا نعلم كيفية الصفات، أما الصفة نفسها فإننا نثبتها لله سبحانه وتعالى، فنفرق بين العلم والقدرة، وبين السمع والبصر، وبين الحكيم والخبير، وبين قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، وقوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64] ، وقوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن:27] ، ونحوها؛ لأننا نعرف من قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64] من المعاني غير ما نعلمه من قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، وهكذا.

إذاً: نخلص في هذه القضية إلى أن القول بأن السلف يثبتون ألفاظ نصوص الصفات مجردة، ويفوضون ما دلت عليه، ولا يثبتون لها معاني، هو قول أهل التفويض، وهو مردود، أما منهج أهل السنة والجماعة فهو إثبات هذه الصفات حقيقة على ما يليق

بجلاله وعظمته دون تحريف ودون تشبيه، فيثبتونها ويثبتون ما دلت عليه من المعاني، أما الكيفية فهذه يفوضونها إلى الله سبحانه وتعالى، ويقولون: إنه لا يعلم كيفية صفاته إلا الله سبحانه وتعالى.

هنا قلنا في عبارة الشيخ لما قال: (وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً وترك التعرض لمعناه) : إن كان الشيخ قد قصد ما قصده الإمام أحمد في العبارة التالية فما قاله المصنف هنا صحيح، وهو أن أهل السنة والجماعة لا يتعرضون للمعاني التي هي معانٍ تأويلية فيها تحريف لما دلت عليه هذه الصفات من معانٍ، بل يثبتونها ويثبتون ما دلت عليه كما يليق بجلاله وعظمته، أما إن كان قصد المصنف أن نثبت اللفظ فقط ولا نتطرق للمعنى ولا نفهم أي معنىً للصفة فنقول: هذا فيه شيء من التفويض، والمعروف عن أهل السنة والجماعة أنهم بعيدون جداً عن أهل التفويض؛ لأن مآل مذهب أهل التفويض هو التجهيل للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه؛ لأن القائل إذا قال: نفوض الصفات ونفوض ما دلت عليه معانٍ يئول بنا الأمر إلى أننا نقرأ قول الله تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس:107] فلا نفهم شيئاً؛ وكذلك قوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم:4] ، وقوله: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة:120] ، وقوله: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَه وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:14] ، وقوله: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء:166] ، وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، وقوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن:27] ، وقوله: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [الفتح:6] نقرأ هذه الآيات فلا نفقه منها شيئاً؛ لأننا نفوض المعنى، وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء ينتهي بهم إلى التجهيل الذي قال فيه بعض العلماء إنه شر من التعطيل؛ لأن معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة يتلون القرآن، فما ورد منه متعلقاً بأسماء الله وصفاته فيجب أن يثبتوا لفظه فقط دون أن يثبتوا له أي دلالة وأي معنىً، وهذا مذهب خطير جداً مخالف لمذهب السلف رحمهم الله تعالى! أما حينما نثبت ما دلت عليه هذه النصوص من معانٍ ونقول: إننا نثبتها لله كما يليق بجلاله وعظمته من غير تعطيل ومن غير تشبيه، هذا فإننا نكون قد فهمنا ما دل عليه النص، فنفهم من قوله تعالى: {الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم:3] إثبات

اسمه تعالى العليم واسمه تعالى الخبير، وما دل عليه هذا الاسم (العليم) من صفة العلم، وما دل عليه أيضاً اسمه تعالى (الخبير) من علمه سبحانه وكونه تبارك وتعالى مطلعاً على كل شيء، وهكذا بقية النصوص؛ فإذا أثبتنا ذلك فمعنى ذلك أننا لا نفوض، وإنما نثبت الصفة، ونثبت ما دلت عليه هذه النصوص من صفات كما يليق بجلاله وعظمته.

أما القول بأن أهل السنة والجماعة يثبتون مجرد لفظ الاسم أو الصفة فيقول أحدهم: أثبت العليم، لكن لا أدري ماذا يعني العليم، وأثبت السميع، ولا أدري ماذا يعني اسمه السميع، وأثبت لله صفة الإرادة والقدرة والغضب والرضا، ولا أدري ما معناها، فنقول: هذا معناه تفويض لمعنى هذه الصفات، ويؤدي إلى أنك تجهل النصوص، وتجهل ما دلت عليه، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أنزل علينا القرآن هدىً ورحمة وتبياناً لكل شيء، ولا شك أن من المقطوع به من منهج الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح جميعاً، بل هو ضرورة لكل مسلم أننا حسب ما آتانا الله سبحانه وتعالى من علم نفقه ونعلم نصوص الكتاب ونصوص السنة النبوية، فحينما تأتي آيات في العقائد في أسماء الله وصفاته فإننا نتلوها ونعلم معناها، ونفرق بين هذه الآية وبين تلك الآية، وهذا التفريق مقتضاه أننا نثبت ما دلت عليه من معانٍ، لكن أهل السنة والجماعة يثبتونها كما يليق بجلاله وعظمته؛ فلا يحرفون النصوص، ولا يؤولونها، ولا يعطلونها عما دلت عليه، كما أنهم في المقابل لا يمثلونها، ولا يشبهونها بصفات المخلوقين، وهكذا.

الانتقاد الثاني :

قال المؤلف رحمه الله: (نؤمن بها، ونصدق بها، لا كيف، ولا معنى، ولا نرد شيئاً منها، أخذ على المؤلف هذه العبارة لأنه لم يوضح قصد الإمام أحمد. أ.هـ

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في فتح رب البرية في تلخيص الحموية ص 63 :

المعنى الذي نفاه الإمام أحمد في كلامه هو المعنى الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم وصرفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلى معاني تخالف، ويدل على

ما ذكرنا أنه نفى المعنى ونفى الكيفية ليتضمن كلامه الرد على كلتا الطائفتين المبتدعتين: طائفة المعطلة، وطائفة المشبهة . أ.هـ

معنى قول الإمام أحمد: (نؤمن بأحاديث الصفات ولا كيف ولا معنى)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا) ، (وإن الله يرى في القيامة) ، وما أشبه هذه الأحاديث: نؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف ولا معنى] ،ويلاحظ أن الإمام أحمد هنا استشهد بأحاديث فيها دليل على إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى من السنة الصحيحة، فنزول الله تعالى إلى سماء الدنيا ثابت، ودلت عليه الأحاديث الصريحة الصحيحة الكثيرة، ونزوله كما يليق بجلاله وعظمته ثابت أيضاً، يثبته أهل السنة والجماعة.

وكذلك أيضاً: إن الله يراه المؤمنون في الآخرة دلت عليه الأحاديث المتواترة، وهكذا غيرها من الأحاديث التي تثبت الصفات، قال عنها الإمام أحمد: (نؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف) ، أي: لا نكيفها؛ لأننا لا نعلم ذات الله تعالى فلا نكيفها، ثم قال: (ولا معنى) ، أي: لا نتعرض بالمعاني الأخرى الباطلة، فنأتي لها بمعانٍ جديدة.ولهذا قال: [ولا نرد شيئاً منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

ولهذا لما كان أحد الأئمة –وهو إسحاق بن راهويه – عند ابن طاهر أمير خراسان يحدث له، ويقرأ عليه الأحاديث، فقرأ عليه بأسانيده أحاديث النزول بطرقها: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه) ، فقال عبد الله بن طاهر –وفي بعض روايات القصة: أنه أحد الجالسين–: كيف ينزل؟ كيف تحدث بهذه الأحاديث التي فيها أن الله ينزل؟ وإلى الآن كثير من الناس يعترض ويقول: الذي ينزل هو رحمته الذي ينزل هو أمره الذي ينزل هو ملك من الملائكة؛ لأنهم يستثقلون مثل هذا الحديث الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق عديدة صحيحة، ويظنون أنه يلزم منه التشبيه، وأن نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا مثل

نزول المخلوقين.فهذا الأمير احتار، وقال: كيف ينزل؟ وكيف تحدث بهذه الأشياء؟ فقال له إسحاق بن راهويه: يا أمير! هذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نرويها، بها نحرم الحرام، وبها نحل الحلال، وبها نستحل الفروج، وبها تقطع الرقاب.
يعني: أننا نثبت بها الأحكام، ونفس الإسناد الذي نقطع به رقبة فلان شرعاً هو الذي نحدث به بمثل هذا الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم.
فإذا أردتنا أن نرد هذا فلنرد الشريعة الإسلامية من أولها إلى آخرها، ولنرد سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كلها.فكان الأئمة رحمهم الله تعالى يروون هذه الأحاديث لا يفرقون بينها، المهم أن تكون صحيحة الإسناد، ثابتة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما دلت عليه من صفة فإنهم يثبتونها كما لو دل عليها القرآن، فلا يفرقون بين القرآن وبين السنة في أي شيء.
ولهذا قال الإمام أحمد: (ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، أي: ما دام الإسناد ثابتاً فإننا نؤمن به ونصدقه، ونثبت هذه الصفات كما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ومن غير تكييف، ومن غير تشبيه ومن غير تمثيل
الانتقاد الثالث :قال المؤلف رحمه الله: (فدل على أن للعبد فعلاً وكسباً يجزى على حسنه بالثواب،

قال الشيخ صالح آل الشيخ وفقه الله:انتقد على المصنف هذه اللفظة لأنها من كلام أهل البدع فإذا استخدمت ألفاظ يستخدمها أهل البدع فيجب توضيحها فهنا (كسبت) معناها (عملت) ليس كما تقول الأشاعرة. أ.هـ والله أعلم

قال المؤلف : ((وقال تعالى : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْم﴾)) وقوله : بما كسبت أي كسبته هي , التي فعلته وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو أن افعال العباد تنسب إلى العباد انفسهم, ولا يجوز أن نقول : إذا كان الله هو خالق العباد وافعالهم فإن أفعال العباد تنسب إلى الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اوجد وقدر الأسباب ومسبباته , فدلَّ على أن للعبدِ فِعْلاَ وَكَسْباً , يُجْزَىَ على حسنِهِ بالثوابِ, وعلى سيئِهِ بالعقابِ , وهو واقعٌ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ)) .

فالشمس خلقها الله , وإذا تحركت الشمس وجرت فالله تعالى هو الذي خلق حركتها ومع ذلك إذا تحركت الشمس فلا يقول احد : إن الله هو الذي تحرك, وإنما يقال : الشمس تحركت , والشمس وحركتها مخلوقان لله تعالى .

وكذلك أيضاً من ناحية العبد , فالله تعالى خلق العبد وفعله, ولكن العبد هو الذي يفعل بإرادته وقدرته دون أن يجبره أحد على فعل او ترك , ولذلك كان الصحيح أن افعال العباد من طاعة او عصيان تنسب إليهم لا إلى الله تبارك وتعالى, وإن كان العباد وافعالهم مخلوقين له تعالى .

وهذا هو المعنى الدقيق الذي غفل عن المعتزلة والجبرية؛ لأن الجبرية ظنوا أن كل ما يفعله العبد ما دام مخلوقاً لله فيجوز أن ينسب إلى الله, وهذا باطل, والمعتزلة ظنوا أن العبد مستقل بفعله فهو الذي يخلق الفعل لتوهمهم أن القول بان الله خالق افعال العباد يقتضي جواز نسبة افعالهم إلى الله, وهذا باطل أيضاً , وأهل السنة والجماعة اتخذو منهجاً وسطاً فقالوا :ينبغي أن نفرق بين صفة تقوم بالله , وبين ما هو من مخلوقات الله ومفعولاته المنفصلة عنه, فأفعال العباد من مخلوقات الله المنفصلة عنه فتنسب إلى اصحابها , والكل خلق لله سبحانه وتعالى .

قال المؤلف : ((فدل على أن للعبد فعلاً وكسباً , يجزى على حسنه بالثواب , وعلى سيئه بالعقاب , وهو واقع بقضاء الله وقدره)) وهذا هو المنهج الصحيح في فهم ما يتعلق بالعبد وإثبا ت الفعل له حقيقة, وأنه كاسب لأفعاله محاسب عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولا يظلم ربك احداً, وينبغي أن يعلم أن الكسب الذي ذكره ابن قدامة هو الكسب المذكور في القرآن في مثل قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: من الآية286) وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر:38) , وليس الكسب المنسوب إلى الأشاعرة , والذي أنكره عليهم الأئمة لأنه في الحقيقة ميل إلى الجبر ونفي لقدرة العبد, أو نفي لتأثيرها, ومن ثم فما ادعوه من التوسط بين الجبرية الجهمية المعتزلة بالكسب لا حقيقية له

فالعبد عند السلف فاعل لفعله حقيقة وهو كاسب له , وإن كان العبد وفعله مخلوقين لله تعالى الذي هو خالق كل شيء .

قواعد هامة

القاعدة الأولى: في الواجب نحو نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته :

الواجب في نصوص الكتاب والسنة إبقاء دلالتها على ظاهرها من غير تغيير؛ لأن الله أنزل القرآن بلسان عربي مبين، والنبي صلى الله عليه وسلم يتكلم باللسان العربي؛ فوجب إبقاء دلالة كلام الله، وكلام رسوله على ما هي عليه في ذلك اللسان، ولأن تغييرها عن ظاهرها قول على الله بلا علم؛ وهو حرام لقوله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

مثال ذلك قوله تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)

فإن ظاهر الآية أن لله يدين حقيقيتين، فيجب إثبات ذلك له, فإذا قال قائل :المراد بهما القوة, قلنا له: هذا صرف للكلام عن ظاهره، فلا يجوز القول به؛ لأنه قول على الله بلا علم

القاعدة الثانية: في أسماء الله:

وتحت هذه القاعدة فروع :

الفرع الأول: أسماء الله كلها حسنى:

أي: بالغة في الحسن غايته؛ لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

مثال ذلك: (الرَّحْمَنِ) فهو اسم من أسماء الله تعالى، دال على صفة عظيمة هي الرحمة الواسعة. ومن ثم نعرف أنه ليس من أسماء الله: "الدهر"؛ لأنه لا يتضمن معنى يبلغ غاية الحسن، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر" فمعناه: مالك الدهر المتصرف فيه، بدليل قوله في الرواية الثانية عن الله تعالى: "بيدي الأمر أقلب الليل والنهار."

الفرع الثاني: أسماء الله غير محصورة بعدد معين:

لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: "أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك"، وما استأثر به في علم الغيب عنده لا يمكن حصره ولا الإحاطة به .

والجمع بين هذا وبين قوله في الحديث الصحيح: "إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة"، أن معنى هذا الحديث: إن من أسماء الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة. وليس المراد حصر أسمائه تعالى بهذا العدد، ونظير هذا أن تقول: عندي مائة درهم أعددتها للصدقة. فلا ينافي أن يكون عندك دراهم أخرى أعددتها لغير الصدقة .

الفرع الثالث: أسماء الله لا تثبت بالعقل وإنما تثبت بالشرع :

فهي توقيفية، يتوقف إثباتها على ما جاء عن الشرع فلا يزاد فيها ولا ينقص؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على الشرع؛ ولأن تسميته بما لم يسم به نفسه، أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى، فوجب سلوك الأدب في ذلك .

الفرع الرابع : كل اسم من أسماء الله فإنه يدل على ذات الله، وعلى الصفة التي تضمنها، وعلى الأثر المترتب عليه إن كان متعدياً:

ولا يتم الإيمان بالاسم إلا بإثبات ذلك كله .

مثال ذلك في غير المتعدي: "العظيم" فلا يتم الإيمان به حتى نؤمن بإثباته اسماً من أسماء الله دالاً على ذاته تعالى، وعلى ما تضمنه من الصفة وهي العظمة .

ومثال ذلك في المتعدي: "الرحمن"، فلا يتم الإيمان به حتى تؤمن بإثباته اسماً من أسماء الله دالاً على ذاته تعالى، وعلى ما تضمنه من الصفة وهي الرحمة وعلى ما ترتب عليه من أثر وهو أنه يرحم من يشاء.

القاعدة الثالثة

في صفات الله وتحتها فروع أيضاً:

الفرع الأول: صفات الله كلها عليا صفات كمال ومدح ليس فيها نقص بوجه من الوجوه: كالحياة والعلم والقدر والسمع والبصر والحكمة والرحمة والعلو وغير ذلك لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى} [النحل: 60] .

ولأن الرب كامل فوجب كمال صفاته.

وإذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها فهي ممتنعة في حقه كالموت والجهل والعجز والصمم والعمى ونحو ذلك؛ لأنه سبحانه عاقب الواصفين له بالنقص ونزه نفسه عما

يصفونه به من النقائص ولأن الرب لا يمكن أن يكون ناقصاً لمنافاة النقص للربوبية. وإذا كانت الصفة كمالا من وجه ونقصا من وجه لم تكن ثابتة لله ولا ممتنعة عليه على سبيل الإطلاق بل لابد من التفصيل فتثبت لله في الحال التي تكون كمالا وتمتنع عليه في الحال التي تكون نقصا كالمكر والكيد والخداع ونحوها فهذه الصفات تكون كمالا إذا كانت في مقابلة مثلها؛ لأنها تدل على أن فاعلها ليس بعاجز عن مقابلة عدوه بمثل فعله وتكون نقصا في غير هذه الحال فتثبت لله في الحال الأولى دون الثانية قال الله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30] .

{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً , وَأَكِيدُ كَيْداً} [الطارق: 15، 16] . {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: 142] . إلى غير ذلك.

فإذا قيل هل يوصف الله بالمكر مثلا؟ فلا تقل: نعم، ولا تقل: لا، ولكن قل: هو ماكر بمن يستحق ذلك والله أعلم.

الفرع الثاني: صفات الله تنقسم إلى قسمين:

ثبوتية وسلبية:

فالثبوتية: ما أثبتها الله لنفسه كالحياة والعلم والقدرة. ويجب إثباتها لله على الوجه اللائق به؛ لأن الله أثبتها لنفسه وهو أعلم بصفاته.

والسلبية: هي التي نفاها الله عن نفسه كالظلم فيجب نفيها عن الله؛ لأن الله نفاها عن نفسه لكن يجب اعتقاد ثبوت ضدها لله على الوجه الأكمل؛ لأن النفي لا يكون كمالاً حتى يتضمن ثبوتاً.

مثال ذلك: قوله تعالى: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: 49] .

فيجب نفي الظلم عن الله مع اعتقاد ثبوت العدل لله على الوجه الأكمل.

الفرع الثالث: الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين ذاتية وفعلية:

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها كالسمع والبصر.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش والمجيء.

وربما تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام فإنه باعتبار أصل الصفة صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلما وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام متعلق بمشيئته يتكلم بما شاء متى شاء.

الفرع الرابع: كل صفة من صفات الله فإنه يتوجه عليها ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: هل هي حقيقية ولماذا؟

السؤال الثاني: هل يجوز تكييفها ولماذا؟

السؤال الثالث: هل تماثل صفات المخلوقين ولماذا؟

فجواب السؤال الأول: نعم حقيقية؛ لأن الأصل في الكلام الحقيقة فلا يُعْدَلُ عنها إلا بدليل صحيح يمنع منها.

وجواب الثاني: لا يجوز تكييفها لقوله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} [طه: 110] . ولأن العقل لا يمكنه إدراك كيفية صفات الله.

وجواب الثالث: لا تماثل صفات المخلوقين لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11] . ولأن الله مستحق للكمال الذي لاغاية فوقه فلا يمكن أن يماثل المخلوق؛ لأنه ناقص.

والفرق بين التمثيل والتكييف أن التمثيل ذكر كيفية الصفة مقيدة بمماثل والتكييف ذكر كيفية الصفة غير مقيدة بمماثل.

مثال التمثيل: أن يقول قائل: يد الله كيد الإنسان.

ومثال التكييف: أن يتخيل ليد الله كيفية معينة لا مثيل لها في أيدي المخلوقين فلا يجوز هذا التخيل.

القاعدة الرابعة: فيما نرد به على المعطلة:

المعطلة هم الذين ينكرون شيئا من أسماء الله أو صفاته ويحرفون النصوص عن ظاهرها ويقال لهم المؤولة والقاعدة العامة فيما نرد به عليهم أن نقول: إن قولهم خلاف ظاهر النصوص وخلاف طريقة السلف وليس عليه دليل صحيح وربما يكون في بعض الصفات وجه رابع أو أكثر.

قواعد في أسماء الله تعالى

القاعدة الأولى: أسماء الله تعالى كلها حسنى

أي: بالغة في الحسن غايته، قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديرًا.

مثال ذلك: "الحي" اسم من أسماء الله تعالى، متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال. الحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها.

ومثال آخر: "العليم" اسم من أسماء الله، متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، قال الله تعالى: {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى} ، العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلا، سواء ما يتعلق بأفعاله أو أفعال خلقه، قال الله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} .

ومثال ثالث: "الرحمن" اسم من أسماء الله تعالى، متضمن للرحمة الكاملة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها" يعني: أم صبي وجدته في السبي فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته. ومتضمن أيضا للرحمة الواسعة التي قال الله عنها: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} ، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمنين: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً} .

والحُسْنُ في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك: "العزيز الحكيم" فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيرًا. فيكون كل منهما دالا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم. والجمع بينهما دال على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة،

فعزته لا تقتضي ظلما وجورًا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل، بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل.

القاعدة الثانية:

أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثاني متباينة، لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص.

ف "الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم" كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا.

وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليها، كما في قوله تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ، وقوله: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} ، فإن الآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة. ولإجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يقال: عليم إلا لمن علم، ولا سميع إلا لمن سمع، ولا بصير إلا لمن له بصر. وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل.

وبهذا علم ضلال من سلبوا أسماء الله تعالى معانيها من أهل التعطيل، وقالوا: إن الله تعالى سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعزيز بلا عزة، وهكذا. وعللوا ذلك بأن ثبوت الصفات يستلزم تعدد القدماء. وهذه العلة عليلة، بل ميتة لدلالة **السمع**(السمع هو القرآن والسنة، وسيمر بك هذا التعبير كثيرًا فانتبه له.)والعقل على بطلانها.

أما السمع فلأن الله تعالى وصف نفسه بأوصاف كثيرة مع أنه الواحد الأحد. فقال تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} . وقال تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} ففي هذه الآيات

الكريمة أوصاف كثيرة لموصوف واحد، ولم يلزم من ثبوتها تعدد القدماء.

وأما العقل: فلأن الصفات ليست ذوات بائنة من الموصوف حتى يلزم من ثبوتها التعدد، وإنما هي من صفات من اتصف بها فهي قائمة به، وكل موجود فلا بد له من تعدد صفاته، ففيه صفة الوجود، وكونه واجب الوجود أو ممكن الوجود، وكونه عينا قائما بنفسه أو وصفا في غيره

وبهذا أيضا علم أن "الدهر" ليس من أسماء الله تعالى، لأنه اسم جامد لا يتضمن معنى يلحقه بالأسماء الحسنى، ولأنه اسم للوقت والزمن، قال الله تعالى عن منكري البعث: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاّ الدَّهْرُ} يريدون: مرور الليالي والأيام.

فأما قوله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار" فلا يدل على أن الدهر من أسماء الله تعالى، وذلك أن الذين يسبون الدهر إما يريدون الزمان الذي هو محل الحوادث، لا يريدون الله تعالى، فيكون معنى قوله: "وأنا الدهر" ما فسره بقوله: "بيدي الأمر أقلب الليل والنهار"، فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بين أنه يقلب الليل والنهار وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّب (بكسر اللام) هو المقلَّب (بفتحها) ، وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مرادًا به الله تعالى.

القاعدة الثالثة: أسماء الله تعالى إن دلت على وصف متعدٍّ تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

ولهذا استدل أهل العلم على سقوط الحد عن قطاع الطريق بالتوبة، استدلوا على ذلك بقوله تعالى: {إِلاّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ، لأن مقتضى هذين الاسمين أن يكون الله تعالى قد غفر لهم ذنوبهم، ورحمهم بإسقاط الحد عنهم.

مثال ذلك: "السميع" يتضمن إثبات السميع اسما لله تعالى، وإثبات السمع صفة له، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه، وهو أنه يسمع السر والنجوى، كما قال تعالى {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} .

وإن دلت على وصف غير متعدٍّ تضمنت أمرين:

أحدهما: **ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.**

الثاني: **ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.**

مثال ذلك: "الحي" يتضمن إثبات الحي اسما لله عز وجل وإثبات الحياة صفة له.

القاعدة الرابعة: **دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة، وبالتضمن، وبالالتزام.**

مثال ذلك: "الخالق" يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

ولهذا لما ذكر الله خلق السماوات والأرض قال: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} .

ودلالة الالتزام مفيدة جدًا لطالب العلم إذا تدبر المعنى، ووفقه الله تعالى فهما للتلازم، فإنه بذلك يحصل من الدليل الواحد على مسائل كثيرة.

واعلم أن اللازم من قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم إذا صح أن يكون لازما فهو حق، وذلك لأن كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حقٌّ، ولازمُ الحق حق، ولأن الله تعالى عالم بما يكون لازما من كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فيكون مرادًا.

وأما اللازم من قول أحد سوى قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم **فله ثلاث حالات**:

الأولى: أن يذكر للقائل ويلتزم به. مثل أن يقول: من ينفى الصفات الفعلية لمن يثبتها، يلزم من إثباتك الصفات الفعلية لله عز وجل أن يكون من أفعاله ما هو

حادث. فيقول المثبت: نعم، وأنا ألتزم بذلك، فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالا لما يريد، ولا نفاد لأقواله وأفعاله كما قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً} وقال: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

وحدوث آحاد فعله تعالى لا يستلزم نقصا في حقه.

الحال الثانية: أن يذكر له ويمنع التلازم بينه وبين قوله. مثل أن يقول النافي للصفات لمن يثبتها: يلزم من إثباتك أن يكون الله تعالى مشابها للخلق في صفاته. فيقول المثبت: لا يلزم ذلك، لأن صفات الخالق مضافة إليه، لم تذكر مطلقة حتى يمكن ما ألزمت به، وعلى هذا فتكون مختصة به لائقة به، كما أنك أيها النافي للصفات تثبت لله تعالى ذاتا وتمنع أن يكون مشابها للخلق في ذاته، فأي فرق بين الذات والصفات؟.

وحكم اللازم في هاتين الحالين ظاهر.

الحال الثالثة: أن يكون اللازم مسكوتا عنه، فلا يذكر بالتزام ولا منع، فحكمه في هذه الحال أن لا ينسب إلى القائل، لأنه يحتمل لو ذكر له أن يلتزم به أو يمنع التلازم، ويحتمل لو ذكر له فتبين له لازمه وبطلانه أن يرجع عن قوله، لأن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

ولورود هذين الاحتمالين لا يمكن الحكم بأن لازم القول قول. فإن قيل: إذا كان هذا اللازم لازما من قوله، لزم أن يكون قولا له لأن ذلك هو الأصل، لا سيما مع قرب التلازم. قلنا: هذا مدفوع بأن الإنسان بشر وله حالات نفسية وخارجية توجب الذهول عن اللازم، فقد يغفل أو يسهو، أو ينغلق فكره، أو يقول القول في مضايق المناظرات من غير تفكير في لوازمه ونحو ذلك.

القاعدة الخامسة: **أسماء الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها**

وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزاد فيها ولا ينقص، لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في

ذلك على النص، لقوله تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} وقوله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} ، ولأن تسميته تعالى بما لم يُسَمِّ به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى، فوجب سلوك الأدب في ذلك، والاقتصار على ما جاء به النص.

القاعدة السادسة:

أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: " أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك" الحديث، رواه أحمد وابن حبان والحاكم، وهو صحيح.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحدًا حصره ولا الإحاطة به.

فأما قوله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة" (إحصاؤها: حفظها لفظا، وفهمها معنىً، وتمامه: أن يتعبد لله تعالى بمقتضاها) فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسما، من أحصاها دخل الجنة، أو نحو ذلك.

إذًا فمعنى الحديث: أن هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة. وعلى هذا فيكون قوله: "من أحصاها دخل الجنة" جملة مكملة لما قبلها وليست مستقلة. ونظير هذا أن تقول: عندي مائة درهم أعددتها للصدقة، فإنه لا يمنع أن يكون عندك دراهم أخرى لم تعدها للصدقة.

ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم تعيين هذه الأسماء، والحديث المروي عنه تعيينها ضعيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في الفتاوى (ص 382، ج 6) من مجموع ابن قاسم: (تعيينها ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بحديثة) وقال

قبل ذلك (ص 379) : (إن الوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين، كما جاء مفسرًا في بعض طرق حديثه) اهـ. وقال ابن حجر في "فتح الباري" (ص 215، ج 11، ط السلفية) : (ليست العلة عند الشيخين [البخاري ومسلم] تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج) اه.

ولما لم يصح تعيينها عن النبي صلى الله عليه وسلم اختلف السلف فيه، ورُوِيَ عنهم في ذلك أنواع، **وقد جمعتُ تسعة وتسعين اسماً مما ظهر لي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.**

فمن كتاب الله تعالى:

الله ... الأحد ... الأعلى ... الأكرم ... الإله ... الأول

الآخر ... الظاهر ... الباطن ... البارئ ... البر ... البصير

التواب ... الجبار ... الحافظ ... الحسيب ... الحفيظ ... الحفي

الحق ... المبين ... الحكيم ... الحليم ... الحميد ... الحي

القيوم ... الخبير ... الخالق ... الخلاق ... الرؤوف ... الرحمن

الرحيم ... الرزاق ... الرقيب ... السلام ... السميع ... الشاكر

الشكور ... الشهيد ... الصمد ... العالم ... العزيز ... العظيم

العفو ... العليم ... العلي ... الغفار ... الغفور ... الغني

الفتاح ... القادر ... القاهر ... القدوس ... القدير ... القريب

القوي ... القهار ... الكبير ... الكريم ... اللطيف ... المؤمن

المتعالي ... المتكبر ... المتين ... المجيب ... المجيد ... المحيط

المصور ... المقتدر ... المقيت ... الملك ... المليك ... المولى

المهيمن ... النصير ... الواحد ... الوارث ... الواسع ... الودود

الوكيل ... الولي ... الوهاب ... هذه من القرآن الكريم

ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

الجميل[1] الجواد[2] الحكم[3] الحييُ[4] الرب[5] الرفيق[6] السُّبوح[7] السيد[8] الشافي[9] الطيب[10] القابض[11] الباسط[12] المقدم[13] المؤخر[14] المحسن[15] المعطي[16] المنان[17] الوتر[18].

هذا ما اختاره الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى بالتتبع: واحد وثمانون اسماً في كتاب الله تعالى، وثمانية عشر اسماً في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان عندنا تردد في إدخال (الحفي) ، لأنه إنما ورد مقيدًا في قوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً} وكذلك (المحسن) لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافا مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام.

---

1 مسلم. أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي في "شعب الإيمان". أبو داود 4 أحمد وأبو داود والترمذي.5 أحمد والنسائي.

6 البخاري ومسلم. 7 مسلم 8 أحمد وأبو داود. البخاري. 10 مسلم. أبو داود. أبو داود. البخاري ومسلم.14 البخاري ومسلم.

15 الطبراني في الأوسط، قال الهيثمي: رجاله ثقات.16 البخاري ومسلم. 17 أبو داود والترمذي والنسائي. البخاري ومسلم.

القاعدة السابعة: الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم. وإنما كان ذلك إلحادا لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه، وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بطلانه، فجعلها دالة عليه ميل بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمى الله تعالى بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له: (الأب) ، وتسمية الفلاسفة إياه (العلة الفاعلة) ، وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه ميل بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سموه بها نفسها باطلة، ينزه الله تعالى عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين، فسموا بها أصنامهم، وذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به، لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ، وقوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} وقوله: {لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} فكما اختص بالعبادة وبالألوهية الحقة، وبأنه يسبح له ما في السماوات والأرض، فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله عز وجل ميل بها عما يجب فيها.

والإلحاد بجميع أنواعه محرم، لأن الله تعالى هَدَّدَ الملحدين بقوله: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

ومنه ما يكون شركا أو كفرًا حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية.

قواعد في صفات الله تعالى

القاعدة الأولى: صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها

صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك.

وقد دل على هذا: السمع والعقل والفطرة.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} والمثل الأعلى: هو الوصف الأعلى.

وأما العقل: فوجهه أن كل موجود حقيقة فلا بد أن تكون له صفة إما صفة كمال وإما صفة نقص، والثاني باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحق للعبادة، ولهذا أظهر الله تعالى بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بالنقص والعجز، فقال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} ، وقال عن إبراهيم وهو يحتج على أبيه: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً} ، وعلى قومه: {أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} .

ثم إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة: أن للمخلوق صفات كمال، وهي من الله تعالى، فمعطي الكمال أولى به.

وأما الفطرة: فلأن النفوس السليمة مجبولة مفطورة على محبة الله وتعظيمه، وهل تُحِب وتُعَظِّم وتَعْبُد إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟

وإذا كانت الصفة نقصا لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله تعالى، كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والعمى، والصمم، ونحوها، لقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} ، وقوله عن موسى {فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى} ، وقوله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ} ، وقوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} . وقال النبي صلى

الله عليه وسلم في الدجال: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور"، وقال: "أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا".

وقد عاقب الله تعالى الواصفين له بالنقص، كما في قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} ، وقوله: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} .

ونزّه نفسه عما يصفون به من النقائص، فقال سبحانه: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ، وقال تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} .

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال، ونقصا في حال لم تكن جائزة في حق الله، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تُثْبَت له إثباتا مطلقا، ولا تُنْفَى عنه نفيا مطلقا، بل لا بد من التفصيل، فتجوز في الحال التي تكون كمالاً، وتمتنع في الحال التي تكون نقصا، وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها، فهذه الصفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها، لأنها حينئذٍ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله، أو أشد، وتكون نقصا في غير هذه الحال، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها، كقوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} وقوله: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً} ، وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} وقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} وقوله: {قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} .

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه، فقال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} فقال: فأمكن منهم، ولم يقل: فخانهم. لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، وهي صفة ذم مطلقا.

وبذا عرف أن قول بعض العوام: خان الله من يخون. منكر فاحش يجب النهي عنه

القاعدة الثانية: باب الصفات أوسع من باب الأسماء

وذلك: لأن كل اسم متضمن لصفة كما سبق في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها، كما أن أقواله لا منتهى لها، قال الله تعالى {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

ومن أمثلة ذلك: أن من صفات الله تعالى: المجيء، والإتيان، والأخذ، والإمساك، والبطش، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى، كما قال تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} ، وقال: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ} ، وقال: {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ} ، وقال: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاّ بِإِذْنِهِ} ، وقال: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} ، وقال: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} . وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا".

فنصف الله تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا نسميه بها، فلا نقول: إن من أسمائه الجائي، والآتي، والآخذ، والممسك، والباطش، والمريد، والنازل، ونحو ذلك، وإن كنا نخبر بذلك عنه ونصفه به.

القاعدة الثالثة: صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية. وسلبية.

فالثبوتية: ما أثبت الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك.

فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به، بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً} فالإيمان بالله يتضمن: الإيمان بصفاته، والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم يتضمن: الإيمان بكل ما جاء فيه من صفات الله، وكون محمد صلى الله عليه وسلم رسوله يتضمن: الإيمان بكل ما

أخبر به عن مرسله، وهو الله عز وجل.

وأما العقل: فلأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه، وهو أعلم بها من غيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثا من غيره، فوجب إثباتها له كما أخبر بها من غير تردد، فإن التردد في الخبر إنما يتأتى حين يكون الخبر صادرًا ممن يجوز عليه الجهل أو الكذب أو العيّ، بحيث لا يفصح بما يريد، وكل هذه العيوب الثلاثة ممتنعة في حق الله عز وجل، فوجب قبول خبره على ما أخبر به.

وهكذا نقول فيما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بربه، وأصدقهم خبرًا، وأنصحهم إرادة، وأفصحهم بيانا، فوجب قبول ما أخبر به على ما هو عليه

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات نقص في حقه، كالموت، والنوم، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب. فيجب نفيها عن الله تعالى لما سبق مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه، لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له فلا يكون كمالاً، كما لو قلت: الجدار لا يظلم. وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصا، كما في قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمّة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

مثال ذلك: قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} ، فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

مثال آخر قوله تعالى: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} نفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله.

مثال ثالث: قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ} فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته، ولهذا قال بعده: {إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} ، لأن العجز سببه: إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.
وبهذا المثال علمنا أن الصفة السلبية قد تتضمن أكثر من كمال.

القاعدة الرابعة: الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال

فكلما كثرت وتنوعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.
أما الصفات السلبية فلم تذكر غالبا إلا في الأحوال التالية:
الأولى: بيان عموم كماله، كما في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} .
الثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون، كما في قوله: {أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً} .
الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعيّن، كما في قوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ} ، وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} .

القاعدة الخامسة: الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية. وفعلية.
فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها، كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة. ومنها الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين.
والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.
وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلما، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام

يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء، كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} . وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته. وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئا إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}

القاعدة السادسة: يلزم في إثبات الصفات التخلي عن محذورين عظيمين: أحدهما: التمثيل والثاني: التكييف.

فأما التمثيل: فهو اعتقاد المثبت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين. وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ، وقوله: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} ، وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} ، وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}

وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه قد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينا في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات، لأن صفة كل موصوف تليق به، كما هو ظاهر في صفات المخلوقات المتباينة في الذوات، فقوة البعير مثلاً غير قوة الذرّة، فإذا ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكها في الإمكان والحدوث فظهور التباين بينها وبين الخالق أجلى وأقوى

الثاني: أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابها في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يُكَمِّله؟، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص لحق الخالق، فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصا.

الثالث: أننا نشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية، فنشاهد أن للإنسان يدًا ليست كيد الفيل، وله قوة ليست كقوة الجمل، مع الاتفاق في الاسم. فهذه يد وهذه يد، وهذه قوة وهذه قوة،

وبينهما تباين في الكيفية والوصف، فعلم بذلك أن الاتفاق في الاسم لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة.
والتشبيه كالتمثيل، وقد يفرق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصفات، والتشبيه التسوية في أكثر الصفات، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} .
وأما التكييف: فهو أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيدها بمماثل. وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.
أما السمع: فمنه قوله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} ، وقوله: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} ، ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا، لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تكييفنا قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولاً بما لا يمكننا الإحاطة به.
وأما العقل: فلأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق عنه. وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله عز وجل، فوجب بطلان تكييفها.
وأيضا فإننا نقول: أيُّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى؟.
إن أيَّ كيفية تقدرها في ذهنك فالله أعظم وأجل من ذلك.
وأيَّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى فإنك ستكون كاذبا فيها، لأنه لا علم لك بذلك.

وحينئذ يجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان، أو تقريرًا باللسان وتحريرًا بالبنان.
ولهذا لما سئل مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟، أطرق رحمه الله برأسه حتى علاه الرحضاء (العرق) ثم قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه) ، ورُوِيَ عن شيخه ربيعة أيضا: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول) . وقد مشى أهل العلم بعدهما على هذا الميزان. وإذا كان الكيف غير معقول ولم يرد به الشرع، فقد انتفى عنه الدليلان العقلي والشرعي، فوجب الكف عنه.

فالحذر الحذر من التكييف أو محاولته، فإنك إن فعلت وقعت في مفاوز لا تستطيع الخلاص منها، وإن ألقاه الشيطان في قلبك فاعلم أنه من نزغاته، فالجأ إلى ربك فإنه معاذك، وافعل ما أمرك به فإنه طبيبك، قال الله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} .

القاعدة السابعة: صفات الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها

فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يتجاوز القرآن والحديث) .

ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة أوجه:

الأول: التصريح بالصفة، كالعزة والقوة والرحمة والبطش والوجه واليدين، ونحوها.
الثاني: تضمن الاسم لها، مثل: الغفور متضمن للمغفرة، والسميع متضمن للسمع، ونحو ذلك. انظر: القاعدة الثالثة في الأسماء.
الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقام من المجرمين، الدال عليها على الترتيب قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا" الحديث.
وقول الله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} ، وقوله: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} .

قواعد في أدلة الأسماء والصفات

القاعدة الأولى: الأدلة التي تثبت بها أسماء الله تعالى وصفاته هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا تثبت أسماء الله وصفاته بغيرهما.

وعلى هذا: فما ورد إثباته لله تعالى من ذلك في الكتاب والسنة وجب إثباته.

وما ورد نفيه فيهما وجب نفيه مع إثبات كمال ضده.

وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه، فلا يثبت ولا ينفى، لعدم ورود الإثبات والنفي فيه.

وأما معناه: فيفصل فيه؛ فإن أريد به حقٌ يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أريد به معنىً لا يليق بالله عز وجل وجب ردّه.

فمما ورد إثباته لله تعالى: كل صفة دل عليها اسم من أسماء الله تعالى دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام.

ومنه كل صفة دل عليها فعل من أفعاله، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده يوم القيامة، ونحو ذلك من أفعاله التي لا تحصى أنواعها، فضلاً عن أفرادها {وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} .

ومنه: الوجه والعينان واليدان ونحوها.

ومنه: الكلام والمشيئة والإرادة بقسميها الكوني والشرعي.

فالكونية: بمعنى المشيئة. والشرعية: بمعنى المحبة.

ومنه: الرضا والمحبة والغضب والكراهة ونحوها

ومما ورد نفيه عن الله سبحانه لانتفائه وثبوت كمال ضده:

الموت والنوم والسنة والعجز والإعياء والظلم والغفلة عن أعمال العباد، وأن يكون له مثيل أوكفؤٌ، أو نحو ذلك.

ومما لم يرد إثباته ولا نفيه لفظ: (الجهة) ، فلو سأل سائل: هل نثبت لله تعالى جهة؟، قلنا له: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسنة إثباتا ولا نفيا، ويُغني عنه ما ثبت فيهما من أن الله تعالى في السماء. وأما معناه فإما أن يراد به جهة سفل أو جهة علو تحيط

بالله، أو جهة علو لا تحيط به.

فالأول باطل، لمنافاته لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع.

والثاني باطل أيضا، لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شئ من مخلوقاته.

والثالث حق، لأن الله تعالى العلي فوق خلقه ولا يحيط به شئ من مخلوقاته.

ودليل هذه القاعدة السمع والعقل.

فأما السمع: فمنه قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} ، وقوله: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} ، وقوله: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} ، وقوله: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} ، وقوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} ، وقوله: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ}

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن والسنة.

وكل نص يدل على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن فهو دال على وجوب الإيمان بما جاء في السنة، لأن مما جاء في القرآن الأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم والرد إليه عند التنازع. والرد إليه يكون إليه نفسه في حياته والى سنته بعد وفاته.

فأين الإيمان بالقرآن لمن استكبر عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم المأمور به في القرآن؟.

وأين الإيمان بالقرآن لمن لم يرد النزاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أمر الله به في القرآن؟.

وأين الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمر به القرآن لمن لم يقبل ما جاء في سنته؟.

ولقد قال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ} ، ومن المعلوم أن كثيراً من أمور الشريعة العلمية والعملية جاء بيانها بالسنة فيكون بيانها بالسنة من تبيان القرآن.

وأما العقل فنقول: إن تفصيل القول فيما يجب أو يمتنع أو يجوز في حق الله تعالى من أمور الغيب التي لا يمكن إدراكها بالعقل، فوجب الرجوع فيه إلى ما جاء في الكتاب والسنة

القاعدة الثانية: الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف، لا سيما نصوص الصفات، حيث لا مجال للرأي فيها.

ودليل ذلك: السمع والعقل.

أما السمع: فقوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} ، وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ، وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ، وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليل شرعي.

وقد ذم الله تعالى اليهود على تحريفهم، وبين أنهم بتحريفهم من أبعد الناس عن الإيمان، فقال: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} وقال تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} الآية.

وأما العقل فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين، فوجب قبوله على ظاهره، وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة.

القاعدة الثالثة: ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر، فباعتبار المعنى هي معلومة. وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة.

وقد دل على ذلك السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ، وقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ، وقوله جل ذكره: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} . والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ليتذكر الإنسان بما فهمه منه.

وكون القرآن عربيا ليعقله من يفهم العربية، يدل على أن معناه معلوم، وإلا لما كان

فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها.

وبيان النبي صلى الله عليه وسلم القرآن للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه.

وأما العقل: فلأن من المحال أن يُنَزِّل الله تعالى كتابا، أو يتكلم رسوله صلى الله عليه وسلم بكلام (يقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق) ، ويبقى في أعظم الأمور وأشدها ضرورة مجهول المعني، بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم منها شيء، لأن ذلك من السفه الذي تأباه حكمة الله تعالى، وقد قال الله تعالى عن كتابه: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} .

هذه دلالة السمع والعقل على علمنا بمعاني نصوص الصفات.

وأما دلالتهما على جهلنا لها باعتبار الكيفية فقد سبقت في القاعدة السادسة من قواعد الصفات.

وبهذا علم بطلان مذهب المفوضة الذين يفوضون علم معاني نصوص الصفات، ويَدَّعون أن هذا مذهب السلف. والسلف بريئون من هذا المذهب، وقد تواترت الأقوال عنهم بإثبات المعاني لهذه النصوص إجمالاً أحيانا، وتفصيلا أحيانا، وتفويضهم الكيفية إلى علم الله عز وجل.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في كتابه المعروف ب"العقل والنقل" (ص 116، ج 1) المطبوع على هامش "منهاج السنة": "وأما التفويض فمن المعلوم أن الله أمرنا بتدبر القرآن، وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله) إلى أن قال (ص 118) : (وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلاما لا يعقلون معناه" قال: "ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدى وبيانا للناس، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نُزِّل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته.. لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل، ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بَيَّنَ للناس ما نُزِّل إليهم، ولا بَلَّغ البلاغ المبين، وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي،

وليس في النصوص ما يناقض ذلك، لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، ولا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يُسْتَدَل به، فيبقى هذا الكلام سدًا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحا لباب من يعارضهم، ويقول: إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء، لأننا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون فضلاً عن أن يبينوا مرادهم.

فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد" اه كلام الشيخ، وهو كلام سديد من ذي رأي رشيد، وما عليه مزيد، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجمعنا به في جنات النعيم.

القاعدة الرابعة: ظاهر النصوص ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق ومعنى آخر في سياق، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه.

فلفظ (القرية) مثلاً يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى.

فمن الأول قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً} .

ومن الثاني: قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم: {إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ} .

وتقول: صنعت هذا بيدي، فلا تكون اليد كاليد في قوله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ} ، لأن اليد في المثال أضيفت إلى المخلوق فتكون مناسبة له، وفي الآية أضيفت إلى الخالق فتكون لائقة به، فلا أحد سليم الفطرة صريح العقل يعتقد أن يد الخالق كيد المخلوق، أو بالعكس.

وتقول: ما عندك إلا زيد، وما زيد إلا عندك. فتفيد الجملة الثانية معنى غير ما تفيده الأولى، مع اتحاد الكلمات، لكن اختلف التركيب فتغير المعنى به.

إذا تقرر هذا فظاهر نصوص الصفات ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني.

وقد انقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من جعلوا الظاهر المتبادر منها معنى حقا يليق بالله عز وجل، وأبقوا

دلالتها على ذلك، وهؤلاء هم السلف الذين اجتمعوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والذين لا يَصْدُقُ لقب أهل السنة والجماعة إلا عليهم.

وقد أجمعوا على ذلك، كما نقله ابن عبد البر فقال: "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة" اهـ.

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب "إبطال التأويل": "لا يجوز رد هذه الأخبار، ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها، لكن على ما رُوِيَ عن الإمام أحمد وسائر الأئمة) اه نقل ذلك عن ابن عبد البر والقاضي شيخ الإسلام ابن تيميه في "الفتوى الحموية" (ص 87 89، ج 5" من "مجموع الفتاوى" لابن القاسم.

وهذا هو المذهب الصحيح والطريق القويم الحكيم، وذلك لوجهين:

الأول: أنه تطبيق تام لما دل عليه الكتاب والسنة من وجوب الأخذ بما جاء فيهما من أسماء الله وصفاته، كما يعلم ذلك من تتبعه بعلم وإنصاف.

الثاني: أن يقال: إن الحق إما أن يكون فيما قاله السلف، أو فيما قاله غيرهم. والثاني باطل، لأنه يلزم منه أن يكون السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان تكلموا بالباطل تصريحا أو ظاهرًا، ولم يتكلموا مرة واحدة لا تصريحا ولا ظاهرًا بالحق الذي يجب اعتقاده. وهذا يستلزم أن يكونوا إما جاهلين بالحق، وإما عالمين به لكن كتموه، وكلاهما باطل، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، فتعين أن يكون الحق فيما قاله السلف دون غيرهم.

القسم الثاني: من جعلوا الظاهر المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه، وأبقوا دلالتها على ذلك. وهؤلاء هم المشبهة، ومذهبهم باطل، محرم من عدة أوجه:

الأول: أنه جناية على النصوص، وتعطيل لها عن المراد بها، فكيف يكون المراد بها التشبيه وقد قال الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} .

الثاني: أن العقل دل على مباينة الخالق للمخلوق في الذات والصفات، فكيف يحكم

بدلالة النصوص على التشابه بينهما؟.

الثالث: أن هذا المفهوم الذي فهمه المشبه من النصوص مخالف لما فهمه السلف منها، فيكون باطلاً.

فإن قال المشبِّه: أنا لا أعقل من نزول الله ويده إلا مثل ما للمخلوق من ذلك، والله تعالى لم يخاطبنا إلا بما نعرفه ونعقله.

فجوابه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي خاطبنا بذلك هو الذي قال عن نفسه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ، ونهى عباده أن يضربوا له الأمثال، أو يجعلوا له أندادًا فقال: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} وقال: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} . وكلامه تعالى كله حق، يصدق بعضه بعضا ولا يتناقض.

ثانيها: أن يقال له: ألست تعقل لله ذاتا لا تشبه الذوات؟، فسيقول: بلى. فيقال له: فلتعقل له صفات لا تشبه الصفات، فإن القول في الصفات كالقول في الذات، ومن فرق بينهما فقد تناقض.

ثالثها: أن يقال: ألست تشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية؟. فسيقول: بلى. فيقال له: إذا عقلت التباين بين المخلوقات في هذا، فلماذا لا تعقله بين الخالق والمخلوق، مع أن التباين بين الخالق والمخلوق أظهر وأعظم، بل التماثل مستحيل بين الخالق والمخلوق، كما سبق في القاعدة السادسة من قواعد الصفات.

القسم الثالث: من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله. وهم أهل التعطيل، سواء كان تعطيلهم عاما في الأسماء والصفات، أم خاصا فيهما، أو في أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معاني عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطرابا كثيرًا، وسموا ذلك تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف.

ومذهبهم باطل من وجوه:

أحدها: أنه جناية على النصوص، حيث جعلوها دالة على معنى باطل غير لائق بالله

ولا مراد له.

الثاني: أنه صرف لكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم عن ظاهره. والله تعالى خاطب الناس بلسان عربيٍ مبين ليعقلوا الكلام ويفهموه على ما يقتضيه هذا اللسان العربي، والنبي صلى الله عليه وسلم خاطبهم بأفصح لسان البشر، فوجب حمل كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على ظاهره المفهوم بذلك اللسان العربي، غير أنه يجب أن يصان عن التكييف والتمثيل في حق الله عز وجل.

الثالث: أن صرف كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عن ظاهره إلى معنى يخالفه قول على الله بلا علم، وهو محرم لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} ، ولقوله سبحانه: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} .

فالصارف لكلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عن ظاهره إلى معنى يخالفه قد قفا ما ليس له به علم، وقال على الله ما لا يعلم من وجهين:

الأول: أنه زعم أنه ليس المراد بكلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كذا، مع أنه ظاهر الكلام.

الثاني: أنه زعم أن المراد به كذا لمعنى آخر لا يدل عليه ظاهر الكلام. وإذا كان من المعلوم أن تعيين أحد المعنيين المتساويين في الاحتمال قولٌ بلا علم، فما ظنك بتعيين المعنى المرجوح المخالف لظاهر الكلام؟.

مثال ذلك: قوله تعالى لإبليس: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ} فإذا صرف الكلام عن ظاهره وقال: لم يرد باليدين اليدين الحقيقيتين، وإنما أراد كذا وكذا. قلنا له: ما دليلك على ما نفيت؟، وما دليلك على ما أثبت؟. فإن أتى بدليل وأنّى له ذلك، وإلا كان قائلاً على الله بلا علم في نفيه وإثباته.

الوجه الرابع في إبطال مذهب أهل التعطيل:

أن صرف نصوص الصفات عن ظاهرها مخالف لما كان عليه النبي صلى الله عليه

وسلم وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها، فيكون باطلاً، لأن الحق بلا ريب فيما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها.

الوجه الخامس: أن يقال للمعطل: هل أنت أعلم بالله من نفسه؟. فسيقول: لا.
ثم يقال له: هل ما أخبر الله عز وجل به عن نفسه صدق وحق؟. فسيقول: نعم.
ثم يقال له: هل تعلم كلاما أفصح وأبين من كلام الله تعالى؟. فسيقول: لا.
ثم يقال له: هل تظن أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعمي الحق على الخلق في هذه النصوص ليستخرجوه بعقولهم؟. فسيقول: لا.
هذا ما يقال له باعتبار ما جاء في القرآن.

أما باعتبار ما جاء في السنة:

فيقال له: هل أنت أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟. فيقول: لا.
ثم يقال له: هل ما أخبر به رسول الله عن الله صدق وحق؟. فسيقول: نعم.
ثم يقال له: هل تعلم أن أحدًا من الناس أفصح كلاما وأبين من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟. فسيقول: لا.
ثم يقال له: هل تعلم أن أحدًا من الناس أنصح لعباد الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟. فسيقول: لا.
فيقال له: إذا كنت تقر بذلك، فلماذا لا يكون عندك الإقدام والشجاعة في إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم على حقيقته وظاهره اللائق بالله؟، وكيف يكون عندك الإقدام والشجاعة في نفي حقيقته تلك وصرفه إلى معنى يخالف ظاهره بغير علم؟، وماذا يضيرك إذا أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، على الوجه اللائق به فأخذت بما جاء في الكتاب والسنة إثباتا ونفيا؟، أفليس هذا أسلم لك وأقوم لجوابك إذا سئلت يوم القيامة: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} ؟، أو ليس صرفك لهذه النصوص عن ظاهرها وتعيين معنى آخر مخاطرة منك، فلعل المراد يكون على تقدير جواز صرفها غير ما صرفتها إليه.

الوجه السادس في إبطال مذهب أهل التعطيل:

أنه يلزم عليه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

فمن هذه اللوازم:

أولاً: أن أهل التعطيل لم يصرفوا نصوص الصفات عن ظاهرها إلا حيث اعتقدوا أنه مستلزم أو موهم لتشبيه الله تعالى بخلقه، وتشبيه الله تعالى بخلقه كفر، لأنه تكذيب لقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} . قال نعيم ابن حماد الخزاعي أحد مشايخ البخاري رحمهما الله: (من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها) اه.

ومن المعلوم: أن من أبطل الباطل أن يجعل ظاهر كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبيها وكفرًا أو موهما لذلك.

ثانيا: أن كتاب الله تعالى الذي أنزله تبيانا لكل شيء، وهدى للناس، وشفاء لما في الصدور، ونورًا مبينا، وفرقانا بين الحق والباطل، لم يبين الله تعالى فيه ما يجب على العباد اعتقاده في أسمائه وصفاته، وإنما جعل ذلك موكولاً إلى عقولهم، يثبتون لله ما يشاؤن، وينكرون ما لا يريدون. وهذا ظاهر البطلان.

ثالثا: أن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها كانوا قاصرين أو مقصرين في معرفة وتبيين ما يجب لله تعالى من الصفات، أو يمتنع عليه، أو يجوز. إذ لم يرد عنهم حرف واحد فيما ذهب إليه أهل التعطيل في صفات الله تعالى وسمّوه تأويلاً.

وحينئذ إما أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون وسلف الأمة وأئمتها قاصرين لجهلهم بذلك، وعجزهم عن معرفته، أو مقصرين لعدم بيانهم للأمة. وكلا الأمرين باطل.

رابعا: أن كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ليس مرجعا للناس فيما يعتقدونه في ربهم وإلههم، الذي معرفتهم به من أهم ما جاءت به الشرائع، بل هو زبدة الرسالات. وإنما المرجع تلك العقول المضطربة المتناقضة، وما خالفها فسبيله التكذيب إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً، أو التحريف الذي يسمونه تأويلاً إن لم يتمكنوا من تكذيبه.

خامسا: أنه يلزم منه جواز نفي ما أثبته الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيقال في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} : إنه لا يجيء. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا": إنه لا ينزل. لأن إسناد المجيء والنزول إلى الله مجاز عندهم.

وأظهر علامات المجاز عند القائلين به صحة نفيه ونفي ما أثبته الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من أبطل الباطل، ولا يمكن الانفكاك عنه بتأويله إلى أمره، لأنه ليس في السياق ما يدل عليه.

ثم إن من أهل التعطيل من طرد قاعدته في جميع الصفات، أو تعدى إلى الأسماء أيضا. ومنهم من تناقض فأثبت بعض الصفات دون بعض، كالأشعرية والماتريدية، أثبتوا ما أثبتوه بحجة أن العقل يدل عليه، ونفوا ما نفوه بحجة أن العقل ينفيه أو لا يدل عليه.

فنقول لهم: نفيكم لما نفيتموه بحجة أن العقل لا يدل عليه، يمكن إثباته بالطريق العقلي الذي أثبتم به ما أثبتموه، كما هو ثابت بالدليل السمعي.

مثال ذلك: أنهم أثبتوا صفة الإرادة، ونفوا صفة الرحمة.

أثبتوا صفة الإرادة لدلالة السمع والعقل عليها.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} .

وأما العقل: فإن اختلاف المخلوقات وتخصيص بعضها بما يختص به من ذات أو وصف دليل على الإرادة.

ونفوا الرحمة قالوا: لأنها تستلزم لين الراحم، ورقته للمرحوم، وهذا محال في حق الله تعالى.

وأولوا الأدلة السمعية المثبتة للرحمة إلى الفعل، أو إرادة الفعل، ففسروا الرحيم بالمنعم، أو مريد الإنعام.

فنقول لهم: الرحمة ثابتة لله تعالى بالأدلة السمعية، وأدلة ثبوتها أكثر عددًا وتنوعا من أدلة الإرادة. فقد وردت بالاسم مثل: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} والصفة مثل: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} ، والفعل مثل: {وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ} .

ويمكن إثباتها بالعقل، فإن النعم التي تترى على العباد من كل وجه، والنقم التي تدفع

عنهم في كل حين؛ دالة على ثبوت الرحمة لله عز وجل، ودلالتها على ذلك أبين وأجلى من دلالة التخصيص على الإرادة، لظهور ذلك للخاصة والعامة، بخلاف دلالة التخصيص على الإرادة، فإنه لا يظهر إلا لأفراد من الناس.

وأما نفيها بحجة أنها تستلزم اللين والرقة. فجوابه: أن هذه الحجة لو كانت مستقيمة لأمكن نفي الإرادة بمثلها، فيقال: الإرادة ميل المريد إلى ما يرجو به حصول منفعة أو دفع مضرة. وهذا يستلزم الحاجة، والله تعالى منزه عن ذلك.

فإن أجيب: بأن هذه إرادة المخلوق. أمكن الجواب بمثله في الرحمة، بأن الرحمة المستلزمة للنقص هي رحمة المخلوق.

وبهذا تبين بطلان مذهب أهل التعطيل، سواء كان تعطيلاً عاما أم خاصا.

وبه علم أن طريق الأشاعرة والماتريدية في أسماء الله وصفاته وما احتجوا به لذلك لا تندفع به شبه المعتزلة والجهمية، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه طريق مبتدع لم يكن عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولا سلف الأمة وأئمتها، والبدعة لا تدفع بالبدعة، وإنما تدفع بالسنة.

الثاني: أن المعتزلة والجهمية يمكنهم أن يحتجوا لما نفوه على الأشاعرة والماتريدية بمثل ما احتج به الأشاعرة والماتريدية لما نفوه على أهل السنة، فيقولون: لقد أبحتم لأنفسكم نفي ما نفيتم من الصفات بما زعمتموه دليلاً عقليا، وأولتم دليله السمعي، فلماذا تحرمون علينا نفي ما نفيناه بما نراه دليلاً عقليا، ونؤول دليله السمعي؟، فلنا عقول كما أن لكم عقولاً، فإن كانت عقولنا خاطئة فكيف كانت عقولكم صائبة؟، وإن كانت عقولكم صائبة فكيف كانت عقولنا خاطئة؟، وليس لكم حجة في الإنكار علينا سوى مجرد التحكم واتباع الهوى.

وهذه حجة دامغة، وإلزام صحيح من الجهمية والمعتزلة للأشعرية والماتريدية، ولا مدفع لذلك ولا محيص عنه، إلا بالرجوع لمذهب السلف الذين يطردون هذا الباب، ويثبون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتا لا تمثيل فيه ولا تكييف، وتنزيها لا تعطيل فيه ولا تحريف، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

تنبيه

علم مما سبق أن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما تعطيل المعطل فظاهر، وأما تمثيله: فلأنه إنما عطل لاعتقاده أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه، فمثل أولاً، وعطل ثانيا، كما أنه بتعطيله مَثَّلَهُ بالناقص.

وأما تمثيل الممثل فظاهر، وأما تعطيله فمن ثلاثة أوجه:

الأول: أنه عطل نفس النص الذي أُثبتت به الصفة، حيث جعله دالاً على التمثيل، مع أنه لا دلالة فيه عليه، وإنما يدل على صفة تليق بالله عز وجل.

الثاني: أنه عطل كل نص يدل على نفي مماثلة الله لخلقه.

الثالث: أنه عطل الله تعالى عن كماله الواجب، حيث مثله بالمخلوق الناقص.

فصل في رد شبهات أهل التأويل

اعلم أن بعض أهل التأويل أورد على أهل السنة شبهة في نصوص من الكتاب والسنة في الصفات، ادعى أن أهل السنة صرفوها عن ظاهرها، ليلزم أهل السنة بالموافقة على التأويل، أو المداهنة فيه. وقال: كيف تنكرون علينا تأويل ما أولناه مع ارتكابكم لمثله فيما أولتموه؟.

ونحن نجيب بعون الله تعالى عن هذه الشبهة بجوابين: مجمل ومفصل.

أما المجمل فيتلخص في شيئين:

أحدهما: أن لا نسلم أن تفسير السلف لها صرف عن ظاهرها، فإن ظاهر الكلام ما يتبادر منه من المعني، وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، فإن الكلمات يختلف معناها بحسب تركيب الكلام، والكلام مركب من كلمات وجمل، يظهر معناها ويتعين بضم بعضها إلى بعض.

ثانيهما: أننا لو سلمنا أن تفسيرهم صرف عن ظاهرها، فإن لهم في ذلك دليلاً من الكتاب والسنة، إما متصلاً، وإما منفصلاً، وليس لمجرد شبهات يزعمها الصارف براهين وقطعيات يتوصل بها إلى نفي ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

وأما المفصل: فعلى كل نص ادعى أن السلف صرفوه عن ظاهره.

ولنمثل بالأمثلة التالية: فنبدأ بما حكاه أبو حامد الغزالي عن بعض الحنبلية أنه قال: "إن أحمد لم يتأول إلا في ثلاثة أشياء: الحجر الأسود يمين الله في الأرض. وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن. وإني أجد نَفَسَ الرحمن من قبل اليمن".

نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيميه (ص 398، ج 5) من "مجموع الفتاوى" وقال: (هذه الحكاية كذب على أحمد) .

المثال الأول: الحجر الأسود يمين الله في الأرض.

والجواب عنه: أنه حديث باطل، لا يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن الجوزى في "العلل المتناهية": (هذا حديث لا يصح) . وقال ابن العربي: "حديث باطل، فلا يلتفت إليه". وقال شيخ الإسلام ابن تيميه: (روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد لا يثبت) اه. وعلى هذا: فلا حاجة للخوض في معناه.

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيميه: (والمشهور [يعني: في هذا الأثر] إنما هو عن ابن عباس، قال: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه. ومن تدبر اللفظ المنقول تبين له أنه لا إشكال فيه، فإنه قال: يمين الله في الأرض، ولم يطلق فيقول يمين الله، وحكم اللفظ المقيد يخالف حكم المطلق، ثم فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه، وهذا صريح في أن المصافح لم يصافح يمين الله أصلاً، ولكن شبه بمن يصافح الله. فأول الحديث وآخره يبين أن الحجر ليس من صفات الله تعالى، كما هو معلوم عند كل عاقل) اه (ص 398، ج 6) : مجموع الفتاوى:.

المثال الثاني: "قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن".

والجواب: أن هذا الحديث صحيح، رواه مسلم في الباب الثاني من كتاب القدر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء"، ثم قال رسول صلى الله عليه وسلم: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ".

وقد أخذ السلف أهل السنة بظاهر الحديث، وقالوا: إن لله تعالى أصابع حقيقة، نثبتها له كما أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من كون قلوب بني آدم بين إصبعين منها أن تكون مماسة لها، حتى يقال: إن الحديث موهم للحلول فيجب صرفه عن ظاهره. فهذا السحاب مسخر بين السماء والأرض وهو لا يمس السماء ولا الأرض. ويقال: بدر بين مكة والمدينة، مع تباعد ما بينها وبينهما. فقلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن حقيقة، ولا يلزم من ذلك مماسة ولا حلول.

المثال الثالث: "إني أجد نَفَسَ الرحمن من قبل اليمن ".

والجواب: أن هذا الحديث رواه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأجد نَفَسَ ربكم من قبل اليمن".

قال في "مجمع الزوائد": (رجاله رجال الصحيح، غير شبيب وهو ثقة) . قلت وكذا قال في "التقريب" عن شبيب: (ثقة، من الثالثة، وقد روى البخاري نحوه في التاريخ الكبير) .

وهذا الحديث على ظاهره، والنفَس فيه اسم مصدر ينفس تنفيسا، مثل فرّج يفرج تفريجا وفَرَجا. هكذا قال أهل اللغة، كما في "النهاية" و"القاموس" و"مقاييس اللغة"، قال في مقاييس اللغة: (النَّفس: كل شيء يفرج به عن مكروب) . فيكون معنى الحديث: أن تنفيس الله تعالى عن المؤمنين يكون من أهل اليمن. قال شيخ الإسلام ابن تيميه: "وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة، وفتحوا الأمصار، فبهم نَفَّسَ الرحمن عن المؤمنين الكربات" اه (ص 398، ج 6) "مجموع فتاوى شيخ الإسلام: لابن قاسم.

المثال الرابع: قوله: تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} .

والجواب: أن لأهل السنة في تفسيرها قولين:

أحدهما: أنها بمعنى ارتفع إلى السماء. وهو الذي رجحه ابن جرير قال في تفسيره بعد أن ذكر الخلاف: (وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ} : علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سماوات) اه. وذكره

البغوي في تفسيره قول ابن عباس وأكثر مفسري السلف، وذلك تمسكا بظاهر لفظ {اسْتَوَى} ، وتفويضا لعلم كيفية هذا الارتفاع إلى الله عز وجل.

القول الثاني: أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام. وإلى هذا القول ذهب ابن كثير في تفسير سورة البقرة، والبغوي في تفسير سورة فصلت، قال ابن كثير: (أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا ضُمِّنَ معنى القصد والإقبال، لأنه عدي بإلى) . وقال البغوى: (أي: عمد إلى خلق السماء) .

وهذا القول ليس صرفا للكلام عن ظاهره، لأن الفعل {اسْتَوَى} اقترن بحرف يدل على الغاية والانتهاء، فانتقل إلى معنى يناسب الحرف المقترن به. ألا ترى إلى قوله تعالى: {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} حيث كان معناها يَرْوَى بها عباد الله، لأن الفعل {يَشْرَبُ} اقترن بالباء فانتقل إلى معنى يناسبها وهو يروى، فالفعل يُضَمَّن معنى يناسب معنى الحرف المتعلق به ليلتئم الكلام.

المثال الخامس والسادس: قوله تعالى في سورة الحديد: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} ، وقوله في سورة المجادلة: {وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} .

والجواب: أن الكلام في هاتين الآيتين حق على حقيقته وظاهره. ولكن ما حقيقته وظاهره؟.

هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون مختلطا بهم، أو حالاً في أمكنتهم؟

أو يقال: أن ظاهره وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون محيطا بهم علما وقدرةً وسمعا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانا، وغير ذلك من معاني ربوبيته، مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه؟.

ولا ريب أن القول الأول لا يقتضيه السياق، ولا يدل عليه بوجه من الوجوه، وذلك لأن المعية هنا أضيفت إلى الله عز وجل، وهو أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، ولأن المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن لا تستلزم الاختلاط أو

المصاحبة في المكان، وإنما تدل على مطلق المصاحبة، ثم تفسر في كل موضع بحسبه.
وتفسير معية الله تعالى لخلقه بما يقتضي الحلول والاختلاط باطل من وجوه:

الأول: أنه مخالف لإجماع السلف. فما فسرها أحد منهم بذلك، بل كانوا مجمعين على إنكاره.

الثاني: أنه مناف لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع السلف. وما كان منافيا لما ثبت بدليل كان باطلاً بما ثبت به ذلك المنافي. وعلى هذا فيكون تفسير معية الله لخلقه بالحلول والاختلاط باطلاً بالكتاب والسنة والعقل والفطرة وإجماع السلف.

الثالث: أنه مستلزم للوازم باطلة لا تليق بالله سبحانه تعالى.

ولا يمكن لمن عرف الله تعالى وقدره حق قدره، وعرف مدلول المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن، أن يقول: إن حقيقة معية الله لخلقه تقتضي أن يكون مختلطا بهم أو حالاً في أمكنتهم، فضلاً عن أن تستلزم ذلك. ولا يقول ذلك إلا جاهل باللغة، جاهل بعظمة الرب جل وعلا.

فإذا تبين بطلان هذا القول تعين أن يكون الحق هو القول الثاني، وهو أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون محيطا بهم علما وقدرة وسمعا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانا، وغير ذلك مما تقتضيه ربوبيته مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه.

وهذا هو ظاهر الآيتين بلا ريب، لأنهما حق، ولا يكون ظاهر الحق إلا حقا، ولا يمكن أن يكون الباطل ظاهر القرآن أبدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في "الفتوى الحموية" (ص 103، ج 5) من "مجموع الفتاوى" لابن القاسم: (ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} إلى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن، عالم بكم، وهذا معنى قول السلف إنه معهم بعلمه (كان هذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه. لأنه إذا كان معلوما أن الله تعالى معنا مع علوه، لم يبق إلا أن يكون مقتضى هذه المعية أنه تعالى عالم بنا، مطلع شهيد، مهيمن، لا أنه

معنا بذاته في الأرض.) ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته. وكذلك في قوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ} إلى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} الآية.
ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه في الغار: "لا تحزن إن الله معنا" كان هذا أيضا حقا على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الإطلاع والنصر والتأييد) .

ثم قال: "فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر. فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها، وإن امتاز كل موضع بخاصية، فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق، حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها" اهـ.

ويدل على أنه ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق: أن الله تعالى ذكرها في آية المجادلة بين ذكر عموم علمه في أول الآية وآخرها، فقال: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

فيكون ظاهر الآية: أن مقتضى هذه المعية علمه بعباده، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض.

أما في آية الحديد فقد ذكرها الله تعالى مسبوقة بذكر استوائه على عرشه، وعموم علمه متلوة ببيان أنه بصير بما يعمل العباد، فقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

فيكون ظاهر الآية: أن مقتضى المعية علمه بعباده وبصره بأعمالهم مع علوه عليهم واستوائه على عرشه، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض، وإلا لكان آخر الآية مناقضا لأولها، الدال على علوه واستوائه على عرشه.

فإذا تبين ذلك أن مقتضى كونه تعالى مع عباده أنه يعلم أحوالهم، ويسمع أقوالهم،

ويرى أفعالهم، ويدبر شؤونهم، فيحي ويميت، ويغني ويفقر، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى غير ذلك مما تقتضيه ربوبيته وكمال سلطانه، لا يحجبه عن خلقه شيء. ومن كان هذا شأنه فهو مع خلقه حقيقة، ولو كان فوقهم على عرشه حقيقة.(وقد سبق أن المعية في اللغة العربية لا تستلزم الاختلاط أو المصاحبة في المكان.)

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في "العقيدة الواسطية" (ص 142، ج 3) من "مجموع الفتاوى" لابن قاسم، في فصل الكلام على المعية، قال: "وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش، وأنه معنا، حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة"اه.

وقال في "الفتوى الحموية" (ص 102 103، ج 5) من المجموع المذكور:

"وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصد اتباع الحق، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

ولا يحسب الحاسب أن شيئا من ذلك يناقض بعضه بعضا البتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَلَ وجهه" ونحو ذلك، فإن هذا غلط. وذلك: أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال: "والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه " اه

واعلم أن تفسير المعية بظاهرها على الحقيقة اللائقة بالله تعالى لا يناقض ما ثبت من علو الله تعالى لذاته على عرشه، وذلك من وجوه ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى جمع بينهما لنفسه في كتابه المبين المنزه عن التناقض، وما جمع الله بينهما في كتابه فلا تناقض بينهما.

وكل شيء في القرآن تظن فيه التناقض فيما يبدو لك فتدبره حتى يتبين لك لقوله تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} ، فإن لم يتبين لك فعليك بطريق الراسخين في العلم، الذين يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} . وكِلِ الأمر إلى مُنْزِلِه الذي يعلمه.

واعلم أن القصور في علمك أو في فهمك وأن القرآن لا تناقض فيه.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام في قوله فيما سبق: (كما جمع الله بينهما) .

وكذلك ابن القيم كما في "مختصر الصواعق" لابن الموصلي في سياق كلامه على المثال التاسع مما قيل إنه مجاز، قال: "وقد أخبر الله أنه مع خلقه مع كونه مستويا على عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى:" وذكر آية سورة الحديد، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ، ثم قال: "فأخبر أنه خلق السماوات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: "والله فوق العرش يرى ما أنتم عليه"، فعلوه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق" اهـ.

الوجه الثاني: أن حقيقة معنى المعية لا يناقض العلو، فالاجتماع بينهما ممكن في حق المخلوق، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا. ولا يعد ذلك تناقضا، ولا يفهم منه أحد أن القمر نزل في الأرض. فإذا كان هذا ممكنا في حق المخلوق، ففي حق الخالق المحيط بكل شيء مع علوه سبحانه من باب أولى، وذلك لأن حقيقة المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيميه في "الفتوى الحموية" (ص 103) المجلد الخامس من "مجموع الفتاوى" لابن القاسم، حيث قال: (وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي، لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة) اه.

وصدق رحمه الله تعالى، فإن من كان عالما بك، مطلعا عليك، مهيمنا عليك، يسمع ما تقول، ويرى ما تفعل، ويدبر جميع أمورك؛ فهو معك حقيقة، وإن كان فوق عرشه حقيقة، لأن المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

الوجه الثالث: أنه لو فرض امتناع اجتماع المعية والعلو في حق المخلوق، لم يلزم أن يكون ذلك ممتنعا في حق الخالق، الذي جمع لنفسه بينهما، لأن الله تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيميه في "العقيدة الواسطية" (ص 143، ج 3) من "مجموع الفتاوى"، حيث قال: (وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه) اه.

هذه كانت مقدمات ضرورية بين يدى شرح هذه الرسالة يقف طالب العلم فيها على أهم الضوابط والقواعد في أسماء الله وصفاته .

شرح عنوان الرسالة

هذا الكتاب الذي معنا سماه المؤلف رحمه الله تعالى: **(لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد)**

واللمعة هي: ما خالف بين بقية اللون، كأن يكون -مثلاً- اللون أسود وتكون فيه بقعة بيضاء، فتسمى هذه البقعة البيضاء لمعة.

ولذا اشتهرت هذه الكلمة بأن تطلق على لمعة الفرس التي تكون غالباً في الخيل ونحوها، وتكون هذه اللمعة لمعة بيضاء وبقية الجسم إما أدهم أو قريب من ذلك؛ المهم أنه اشتهر هذا اللفظ بقولهم: لمعة الفرس.

أو أن اللمعة بمعنى: البلغة من العيش، كما يقول أهل اللغة، وعلى هذا أو هذا فإن المصنف رحمه الله تعالى قصد بكلامه أو بكتابه هذا حين سماه بـ (لمعة الاعتقاد) أنه بلغة من الاعتقاد الصالح الصحيح، ومن ثَمّ قال رحمه الله تعالى: **(الهادي إلى سبيل الرشاد)** ، ولاشك أن الاعتقاد الصحيح المبني على الأدلة الصحيحة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو هادٍ لمن سلكه وسار عليه إلى سبيل الرشاد.

وسبيل الرشاد هو في الدنيا بأن يكون من اعتصم بها ممن هدي ورشد واستقام في طريقه، وهو أيضاً سبيل إلى الرشاد في الآخرة حين يهدى من مات على هذا التوحيد الصحيح إلى جنات النعيم، أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا جميعاً من أهل الجنة، وممن وفق وهدي إلى سبيل الرشاد.

وعلى هذا فإن الشيخ رحمه الله تعالى لم يرد من رسالته هذه أن تكون كتاباً مفصلاً في الاعتقاد، وإنما أرادها لمعة تبين الطريق، أو أرادها بلغة للسالكين؛ بحيث إنه إذا قرأها الإنسان واستوعبها وفهمها استقام لديه معرفة العقيدة من جوانبها المتعددة، وهو رحمه الله تعالى ربط عقيدته بالأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فاللمعة معناها في الأصل هي البُلغة، البلغة من العيش سمي لمعة الاعتقاد أي: بلغة من الاعتقاد الصحيح الموافق لعقيدة السلف الصالح؛ ولهذا سماها لمعة الاعتقاد يعني: شيء من الاعتقاد الصحيح الذي يوافق الكتاب والسنة.

اسم الكتاب

هذا الكتاب الذي سنقرؤه بإذن الله تعالى له ثلاثة أسماء.

أولاً: ((جزء الاعتقاد))، وهذا ثابت في ترجمة المصنف فيما ذكرناه سابقًا ((جزء الاعتقاد)).

الثاني: ((لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد)).

الثالث: ((لمعة الاعتقاد))، وهذا من باب الاختصار، وهذا لا إشكال فيه.

اللُمعة بالضم لها معانٍ على وزن فُعلة لُمْعَة فُعْلَة لها معاني في لسان العرب كثيرة ومحتمل هنا في هذا المقام معنيان، الذي يحتمل أن يكون مناسبًا لهذا المقام وأن يكون اسمًا على هذا الجزء ((جزء الاعتقاد)) معنيان:

الأول: البلغة من العيش، يعني: شيءٍ يُبَلِّغُكَ إلى المقصود البلغة من العيش، تأكل من طعام أو شراب هذا الطعام وهذا الشراب هو الذي يكون بإذن الله تعالى بلغةً في حصول العيش.

الثاني: ومن الجسد بريق لونه، ولذلك قال في ((القاموس)): والتلميع في الخيل. التلميع أيضًا من المادة نفسها لَمَعَ لُمعة، والتلميع في الخيل أن يكون في الجسد بقعٌ تخالف سائر لونه، وأول المعنيين أنسب، يعني: أن يكون البلغة من العيش وهو الذي اختاره الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تعليقه على هذا المختصر.

وأول المعنيين أنسب بالموضوع للكتاب مع حجمه فمعنى ((لمعة الاعتقاد)) البُلْغة من الاعتقاد الصحيح المطابق لمذهب السلف رضوان الله تعالى عليهم، بُلْغَة، يعني: لم يذكر كل الاعتقاد وإنما ذكر لك شيئًا من أمور الاعتقاد تبلغك وتصل بك إلى أن تكون على مذهب أهل السنة والجماعة، لأن الكلام في أصول المعتقد على مرتبتين: كلامٌ في الأصول، وكلامٌ في الفروع.

الأصل أن يُذكر الأصل العام، ثم ينطوي تحته من المسائل ما لا حصر له، حينئذٍ إذا ذكر الأصل كفى لك في حصول النسبة إلى معتقد أهل السنة والجماعة، وأما جهل الفروع أو بعض الفروع التي لا تؤثر في إثبات الأصول فهذا يستفيد منه الناظر طالب العلم وغيره، وأما العامة فلا.

الاعتقاد من حيث هو فهو حكم الذهن الجازم فإن طابق الواقع فصحيحٌ وإلا ففاسد، يعني: الاعتقاد ليس كل اعتقادٍ يكون صحيحًا، أليس كذلك؟ هل كل اعتقاد يكون صحيحًا؟ لا،

العقيدة قد تكون فاسدة كعقيدة الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، وقد تكون صحيحة كعقيدة أهل السنة والجماعة، حينئذٍ القدر المشترك أن كلاً منهما عقيدة، بمعنى أنه محله القلب ومعقودٌ عليه بالجزم، هذا قدر مشترك بين النوعين، وأما المعقود عليه الذي هو محلٌ للوصف بالصحة وعدمها الفساد، والحق والباطل هذا مما يفارق فيه أهل السنة والجماعة غيرهم، حينئذٍ نقول: ليس كل عقيدةٍ تكون صحيحة، ولذلك قيدها إن صحت النسبة لابن قدامة ((لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد))، إذًا ليس كل اعتقاد يكون هاديًا إلى سبيل الرشاد، وهذا وصفٌ جيد قوله: الهادي. صفةٌ للاعتقاد للاحتراز لأنه ليس كل اعتقادٍ يكون صحيحًا حينئذٍ الاعتقاد الصحيح المطابق للحق ولمنهج السلف من الصحابة والقرون المفضلة هو الذي يهدي من اعتقده إلى سبيل الرشاد

موضوع الكتاب وهو توحيد الأسماء والصفات،

ولا شك أن التوحيد ينقسم عند أهل العلم إما بالتقسيم الثلاثي أو القسمة الثنائي وكلاهما النتيجة واحدة، توحيد الإلوهية، توحيد الربوبية، توحيد الأسماء والصفات، وهذه كلها مترابطة ولكن كتب أهل العلم الذين ألفوا في المعتقد قد لا تجد شيئًا من ما يتعلق بالتوحيد الإلوهية أو الربوبية إلا على جهة الإجمال، يعني: يجملون في توحيد الإلوهية وهذا تجده مثلاً في الكتاب الذي معنا وتجده في ((الواسطية)) وتجده في ((الطحاوية)) وغيرها، تجده يجمل في توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية ويفصل في توحيد الأسماء والصفات، هل لكون توحيد الأسماء والصفات أهم من توحيد الإلوهية؟ **الجواب**: لا، وإنما كل مصنف يصنف بنظرٍ إلى عصره، يعني: ما شاع فيه الخلاف في عصره هو الذي يعتبر في التأليف، يعني: التأليف والكتابة ليست شهوة عند أهل العلم ليست شهوة أريد أن أُأَلف فقط؟ لا، وإنما يؤلف من أجل أن يفيد غيره من أجل أن يصحح معتقد قد وقع فيه خلط بين العامة ثَمَّ حكمٌ شرعي غاب عن الناس ثَمَّ خلل في المعتقد ثَمَّ خلل في العبادة ... إلى آخره

سبب تأليف الكتاب:

أن عصر المؤلف رحمه الله تعالى هو آخر القرن السادس انتشرت فيه البدع العقدية عمومًا وعقائد الأشاعرة على جهة الخصوص لم يوجد تمكن لبعض الفرق المبتدعة مثل ما وجد للأشاعرة، فألف هذه الرسالة لبيان مخالفتهم لأصول أهل السنة والرد عليهم.:

فقد كان عصره وهو عصر النصف الثاني من القرن السادس يمتاز بثلاث ميزات

1 - ظهور عقائد الأشاعرة في عصره وانتشارها بين الناس ، بل إن الدولة كان منهجها الرسمي في العقائد هي الأشعرية وهي دولة الأيوبيين خصوصاً صلاح الدين الأيوبي رحمه الله مع أنها كانت دولة مجاهدة .

2 - تسلط الصليبيون واستيلائهم على فلسطين وقد استولى الصليبيون على فلسطين وكان عمر المصنف رحمه الله 8 سنوات ، مما سبب هجرة أفراد عائلته إلى دمشق .

3 - وجود الرافضة قبحهم الله في عصر المصنف وكانت لهم دولتهم في ذلك الوقت وهي دولة الرافضة العبيديين الملاحدة لعنهم الله في مصر الذين قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وجزاه خيرا .

المتن

بسم الله الرحمن الرحيم

1 – الحَمْدُ للهِ المحمُودِ بِكُلِّ لِسانٍ، المعبودِ في كُلِّ زَمانٍ، الَّذِي لا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكانٌ، ولا يشغَلُه شانٌ عن شانٍ، جلَّ عَنِ الأشباهِ والأنْدادِ، وتَنَزَّهَ عَنِ الصَّاحِبَةِ والأولادِ، ونَفِذَ حُكمُهُ في جميعِ العبادِ، لا تُمَثِّلُهُ العقولُ بالتفكيرِ، ولا تَتَوَهَّمُهُ القلوبُ بالتصويرِ، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11]، {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} (1) والصفاتُ العُلى، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:5 – 7]، {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:12]، وقَهَرَ كلَّ مخلوقٍ عِزَّةً وحُكْمًا، ووسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعِلمًا، {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه:110]، مَوْصوفٌ بما وصفَ به نفسَهُ في كتابِهِ العظيمِ، وعلى لسانِ نَبِيِّهِ الكريمِ.

الشرح: وهذه الخطبة التي ذكر المؤلف بين يدي كتابه ورسالته، فيما يسميه علماء البلاغة براعة الاستهلال؛ و براعة الاستهلال يعتني بها أهل العلم، ومعناها أن يُضمِّنوا الخطبة التي بين يدي كتبهم، أو بين يدي كلامهم وخطبهم؛ يضمنونها ما سيتكلمون به أو يُفصِّلونه، فلما كان بحثُ هذا الكتاب في الاعتقاد، وفي تنزيه الله جل وعلا، وما يستحقه جل وعلا، وهذا أعلى وأعظم ما في مباحث الاعتقاد, ضمّن هذه الخطبة الثناء على الله جل وعلا، وذِكر استواءه جل وعلا على عرشه، وذِكر علمه جل وعلا واحاطته بكل شيء، وذَكر أنه جل وعلا موصوف بما وَصف به نفسه، وغير ذلك مما بيَّنه في هذه الخطبة، وأمّا خطبة الحاجة المشهورة التي وردت في حديث ابن مسعود وغيره، مِن أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يقول بين يدي حاجاته ''إن الحمد لله نحمده ونستعينه...'' إلى آخره، فهذه مشروعةٌ بين يدي الحاجات وكثيرا ما كان يقولها عليه الصلاة والسلام، ولكن ليس هذا أمراً مطَّرداً، ولهذا أهل العلم تارة يبدؤون كتبَهم وخطبهم ومؤلفاتهم بتلك الخطبة المعروفة بخطبة الحاجة، وتارة يجعلون خطبهم مذكورة بما يريدون ذكره في خطبتهم أو مؤلفهم أو رسالتهم، وهذا هو الذي يسمى براعةالاستهلال، ولهذا يجتهد أهل العلم في الابتداء بمثل هذا اللفظ

العظيم الموجز الذي يدلّ على المراد، بل ويتنافس العلماء في أن يُضمِّنوا صدور خطبهم لكتبهم ولغيرها ما يريدون إيضاحه في كتبهم أو في خطبهم ونحو ذلك.

المسألة الثانية أن مباحث الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة مبنية على شرح أصول الإيمان الستة؛ ألا وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى؛ فالإيمان بالله يشمل الإيمان بأنه جل وعلا واحد في إلهيته مستحق للعبادة دونما سواه، والإيمان بأسمائه جل وعلا وصفاته، وأنه واحد في أسمائه وصفاته لا شبيه له ولا مثيل في أسمائه وصفاته، وهذا البحث -أعني الكلام على الإيمان بالله- لم يكن في أول الإسلام -يعني في القرون الأولى-؛ لم يكن ثَمَ حاجة إلى إفراد الكلام عن توحيد الألوهية بخصوصه؛ وإنما كانوا يكتفون بالإجمال فيه لأجل عدم وقوع الشرك في هذه الأمة وعدم ظهوره، فكانت جُل مباحث الاعتقاد فيما يتصل بمبحث الإيمان بالله عن الأسماء والصفات، وغيرُها يُعرض له بشكلٍ من الإجمال، لكن لما ظهر الشركُ وفشى كان لزاما أن يفرد هذا بالتصنيف، ولهذا لا تجد في مباحث الاعتقاد التي في هذه الرسالة الكلام مفصلا عن توحيد العبادة وعن توحيد الالهية بما اعتنى به العلماء من بعد، وإنما تجد الكلام مفصلا في مباحث توحيد الأسماء والصفات، وهذا لأجل الحاجة إليه في زمن تأليف مثل تلك الرسالة، فكلَّما كانت حاجة العباد إلى إيضاح أمر أكثر كلما اعتنى به أهل العلم، وأظهرُ إذن كتبُ توحيد الإلهية توحيد العبادة مثل كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وثلاثة الأصول ونحوها من الكتب هذه فيها بيان لتوحيد الإلهية الذي هو أحد مباني العقيدة في ركنه الأول وهو الإيمان بالله. ثم يذكر الإيمان بالملائكة والكتب والرسل -كما سيأتي إيضاحه إن شاء اللهُ تعالى-، ثم الإيمان باليوم الآخر وهذا يدخل فيه الإيمان بالغيبيات، إذا أتى أهل العلم للكلام على اليوم الآخر والإيمان به فإنهم يذكرون الكلام على الغيبيات وما يجب على المسلم اعتقاده فيها، وطريقة أهل السنة والجماعة فيها المخالِفة والمنابِذة لطرق أهل الزيغ والضلال والبدعة، ثم الإيمان بالقدر خيره وشره، فإذا تم بيان أركان الإيمان الستة ذكروا ما يتبع ذلك من أمور الاعتقاد التي اعتنى بها أهل السنة والجماعة؛ وهي في أصلها ليست من مسائل الاعتقاد، لكنها أُدرجت في مسائل الاعتقاد لأجل الحاجة إليها من جهة أن أهل السنة والجماعة خالفوا فيها أهل الزيغ والضلال وأهل البدعة والفرقة؛ من مثل الكلام في الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومن مثل

الكلام في أمهات المؤمنين جميعا على المؤمنين بعامة، ومن مثل الكلام في الإمامة وما يجب من طاعة أولي الأمر في المعروف، وأن الإمامة واجبة، وأن البيعة للإمام الذي بُويع أنها متعيِّنة، ولا يجوز الخروج على الأئمة بجورهم وتجب الصلاة خلفهم والجهاد معهم، ونحو ذلك من مباحث الإمامة التي خالف بها أهل السنة والجماعة الخوارج والمعتزلة ومن شابههم, كذلك يذكرون من مباحث الاعتقاد مثل المسح على الخفين، وذلك مخالفة لمن لا يرى المسح على الخفين، كذلك يذكرون في مباحث الاعتقاد كرامات الأولياء وما يُجري الله على أيديهم من أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات كما هو معلوم ويبسطون ذلك لأجل وجود من يُخالف في الأولياء وفي كراماتهم من جهة إنكارها تارة كما فعلت المعتزلة، ومن جهة الغلو في الأولياء حتى جعلتهم طائفة فوق منزلة الأنبياء، وهكذا مسائل الأخلاق تُذكر ضمن مسائل اعتقاد أهل السنة والجماعة.

إذن فمعتقد أهل السنة والجماعة يشمل هذه الأمور جميعاً، وليس معتقد أهل السنة والجماعة خاص بالاعتقاد في الله جل وعلا وأسمائه و صفاته واليوم الآخر والقدر كما قد يُظن؛ بل معتقد أهل السنة والجماعة يشمل هذا جميعا، لأنهم به فارقوا أهل البدع والزيغ الذين يردُّون النصوص، ولا يلتزمون بالسنة، ولا يخضعون لها ويحكِّمونها على أنفسهم تحكيماً تاماً، وبهذا التوجّه تميَّز أهل السنة بأنهم يعظمون السنة ويعظمون أهلها، وينبذون من خالفها أو خالف أئمتها.

شرح البسملة

بدأ المصنف رحمه الله تعالى رسالته هذه بما يبدأ به المصنفون من أئمة الإسلام رحمهم الله تعالى فقال: **بسم الله الرحمن الرحيم** والكلام على البسملة منتشر في كافة شروح الكتب من جميع الأنواع، في اللغة وفي النحو وفي كتب العقائد والفقه وغيرها، ولا يكاد من شرح كتاباً من هذه الكتب إلا وتكلم عن البسملة، وعن معناها وما دلت عليه من الأسماء لله سبحانه وتعالى: الله، الرحمن، الرحيم.

ونحن نشير إلى ذلك إشارة مجملة فنقول: قول المؤلف رحمه الله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم) المعنى: أبتدئ كتابي مستعيناً بالله تبارك وتعالى، وإذا كان الإنسان يدخل بيته أو يدخل مكانه ويقول: باسم الله، فيكون معناها: أدخل هذا المكان باسم الله، أي مستعيناً بالله تبارك وتعالى.

و (الله) الصحيح فيه: أنه مشتق وليس بجامد؛ لأن العلماء رحمهم الله تعالى اختلفوا في لفظ الجلالة (الله) ، فبعضهم قال: إنه علم جامد وغير مشتق، وبعضهم قال: إنه مشتق، ثم اختلفوا في الاشتقاق هل هو من أله يأله فهو مألوه، أو من أله يأله فهو آله؟ فذهب بعض المتكلمين: إلى أنه من أله يأله فهو آله، أي: أن الله يأله عباده، ومن ثَمَّ فسروه بتوحيد الربوبية وهو الخلق، أي: أن الله يأله عباده؛ فهو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم إلى آخره، وبناءً على هذا التفسير وقع خطأ كبير عند كثير من المتكلمين حين فسروا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بأن معناها: لا خالق إلا الله؛ بناءً على هذا الفهم في الاشتقاق.

القول الثاني هو: أنها من أله يأله فهو مألوه، أي: معبود، أي: أن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبودية، وهذا هو القول الصحيح، ومن ثَّم جاء تفسير كلمة الشهادة (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله تبارك وتعالى، وهذا هو توحيد العبادة، وهذا هو الصحيح في معنى (لا إله لا الله) ، وهو الصحيح أيضاً في اشتقاق كلمة (الله) .

و (**الرحمن الرحيم**) اسمان من أسماء الله تبارك وتعالى؛ الرحمن: اسم، وهو صيغة مبالغة خاص بالله سبحانه وتعالى لا يوصف به مخلوق.

والرحيم أيضاً: اسم من أسمائه تبارك وتعالى، لكن قد يوصف المخلوق بأنه رحيم.

إن اسمه تبارك وتعالى (الرحيم) دال على صفة الرحمة، وكذلك أيضاً اسم الله (الرحمن) ، ونثبتهما لله تبارك وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته من غير مشابهة للمخلوقين؛ ول ابن القيم رحمه الله تعالى في أول (مدارج السالكين) كلام قيم جداً حول البسملة، وحول أيضاً اسمه تعالى (الرحمن الرحيم) ، فمن أراد فليرجع إليه؛ فإن فيه فوائد جمة.

معنى الحمدلة

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[الحمد لله المحمود بكل لسان]** .

(أل) في الحمد للاستغراق، والمقصود بقول القائل: الحمد لله: ذكر أوصاف المحمود، والاعتراف بها، والثناء على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله.

وقول المؤلف رحمه الله تعالى هنا: (**بكل لسان**) يدل على أمر مهم، وهو أن الله سبحانه وتعالى فطر جميع الخلق على حمده سبحانه وتعالى والاعتراف له بالربوبية، ومن ثَمَّ فقوله: (**المحمود بكل لسان**) ، يشمل لسان الحال، ويشمل أيضاً لسان المقال؛ أما لسان الحال فإن الله سبحانه وتعالى يحمده جميع المخلوقات، وأما لسان المقال فإنه سبحانه وتعالى المحمود على جميع الألسنة، فمهما اختلفت اللغات فإن الله سبحانه وتعالى يحمده أهل تلك اللغة بما علموا من أوصافه سبحانه وتعالى بما هو أهله، وهذا من خصائص الربوبية والألوهية التي لا تكون لأحد.

أقسام العبودية ومعناها

ثم قال رحمه الله تعالى: **[المعبود في كل زمان]** .

أي: أنه سبحانه وتعالى له العبودية، والعبودية قسمان: **القسم الأول** منها: عبودية عامة شاملة لا يخرج عنها أحد، بل تشمل جميع الخلق، كما قال عز وجل: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم:93] ، وهو سبحانه وتعالى معبود -أي: العبودية التي هي مقتضى الربوبية- عند جميع الخلق؛ لأنه سبحانه وتعالى هو خالقهم، وهو ربهم تبارك وتعالى، لهذا فإن هذه العبودية العامة الشاملة لا يخرج عنها أحد من إنس ولا من جن، ولا مؤمن ولا كافر، ولا من البشر ولا من الملائكة، ولا من شمس ولا من أرض، ولا من بحر ولا من هواء، فالكل عبيد لله سبحانه وتعالى مسخرون له تبارك وتعالى مطيعون، وهذا مما دلت عليه النصوص الكثيرة؛ فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق، وهو الذي

يأمرهم، وهو الذي يقدر لهم ما يشاء، وهم خاضعون له؛ فحتى بني آدم الذين أعطاهم الله سبحانه وتعالى عقولاً هم أيضاً في نشأتهم في هذه الأرض وفي حياتهم فيها، بل وفي رزقهم وأجلهم وموتهم وألوانهم وأطوالهم وما يجري داخل أجسامهم من حركات القلب والدم والهضم إلى آخره؛ كل ذلك هو خاضع لله سبحانه وتعالى؛ فليس للإنسان إرادة في أن يختار كيفية معيشته، ولا كيفية نفسه، ولا كيفية ضخ الدم في عروقه إلى آخره.

إذاً: هذا في الإنسان العاقل المكلف، فكيف بغيره من المخلوقات؟! هذه هي العبودية الشاملة التي لا يخرج عنها أحد.

النوع الثاني من العبودية: العبودية الخاصة، وهذه العبودية الخاصة هي التي يتميز بها المؤمنون عن الكفار، فالمؤمنون هم الذين يعبدون الله تبارك وتعالى مخلصين له على وفق شريعته التي أمر بها على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

فقول المؤلف رحمه الله تعالى: (المعبود في كل زمان) قد يدخل فيه العبودية العامة وقد يدخل فيه العبودية الخاصة بالمؤمنين.

وقوله: **(في كل زمان)** أيضاً وفي كل مكان، والمعنى: أنه لا يخلو زمان أو مكان من وجود من يعبد الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الذي علمناه من أخبار رسل الله الكرام، ومما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بالحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تباك وتعالى) .

شمول علم الله سبحانه وتعالى

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[الذي لا يخلو من علمه مكان]** .

وهذا فيه إثبات شمول علم الله سبحانه وتعالى؛ فلا يخلو من علمه أي مكان، سواء كان هذا المكان ظاهراً أو باطناً، في جوف البحار أو في جوف الأرض أو تحت صخور الجبال أو ما هو غائب، فعلم الله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء، كما قال عز وجل: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام:59] ، فعلمه سبحانه وتعالى أحاط بكل مكان، كما قال عز وجل: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر:19] .

شمول قدرة الله عز وجل

ثم قال: **[ولا يشغله شأن عن شأن]** أي: لكمال صفاته، فالمخلوق لضعفه حتى لو كان عنده بعض الصفات لا يستطيع أن يشتغل بأكثر من أمر في وقت واحد، ويندر أن يجمع قواه العقلية لتكون في شغلين متكافئين، وإنما غاية ما يحصل عند الإنسان أن يشتغل بأمر يعمل فيها ذهنه، ثم يشتغل بيده أو برجله بشغلة أخرى لا تحتاج إلى إعمال الذهن، أما ماعدا ذلك فلا يستطيع.

أما الله سبحانه وتعالى فهو يسمع، وسمعه وسع السماوات والأرض؛ فيسمع في وقت واحد دعاء الداعين وأقوالهم على اختلاف الزمان والمكان، وهو سبحانه وتعالى كل يوم في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، فيغفر لهذا، ويتوب على هذا، ويستجيب لهذا، ويرزق هذا، ويحيي هذا، ويميت هذا، سبحانه وتعالى وتقدس؛ لأنه كامل الصفات، فلا يقاس بغيره، وهذا هو حقيقة فهم أئمة أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى لأسمائه وصفاته؛ حيث إنهم يفهمونها كما يليق بجلاله وعظمته، ومن ثمَّ فلا يحتاجون إلى تأويل.

أما أهل الكلام الباطل فإنهم أولاً يقعون في التشبيه، فإذا سمعوا صفة من صفات الله تبارك وتعالى ظنوا أنها كصفة فلان فيقعون في التشبيه، ثم يضطرون إلى التأويل والتعطيل؛ أما أهل السنة والجماعة فيثبتون لله الصفات كما يليق بجلاله وعظمته، ولا يحتاجون إلى تأويل ولا إلى تحريف ولا إلى تعطيل.

تنزيه الله عز وجل عن الند والشبيه والصاحبة والولد

ثم قال رحمه الله تعالى: **[جل عن الأشباه والأنداد]** .

أي: تقدس وتنزه.

وقوله: **(عن الأشباه والأنداد)** ، **الشبيه هو**: المشابه ببعض الوجوه دون بعض، وهو سبحانه وتعالى جل أن يشبه شيئاً من خلقه لا في ذاته ولا في أي صفة من صفاته تبارك وتعالى، كما أنه أيضاً جل وتقدس عن **الند والمثيل**، سواء في الربوبية أو في الخالقية أو في أي صفة من صفاته سبحانه؛ فهو الرب المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: **[وتنزه عن الصاحبة والأولاد]** .

وهذا بنص القرآن؛ فقد دلت عليه الأدلة المعروفة، فلم يتخذ صاحبة ولا ولداً سبحانه وتعالى، فهو ليس له صاحبة ولا ولد، وفي ذلك نقض لما ادعاه المشركون حين قالوا: إن الملائكة بنات الله! أو النصارى حينما يقولون: إنما المسيح ابن الله! أو اليهود حينما يقولون: إن العزير ابن الله! فالابن يحتاج إلى صاحبة، والله سبحانه وتعالى تنزه عن الصاحبة والولد، وتعالى عما يقول هؤلاء جميعاً علواً كبيراً.

نفوذ حكم الله القدري في جميع الخلق

ثم قال: **[ونفذ حكمه في جميع العباد]** .

أي: أن حكمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع العباد، وهذا الحكم النافذ في جميع العباد الأصل فيه أنه حكمه القدري، فما شاء الله كان، وما شاء لم يكن، وهذا هو الذي ينفذ في الجميع: المؤمن والكافر؛ فجميع العباد نفذ فيهم وينفذ فيهم حكم الله سبحانه وتعالى، فهم جاءوا إلى هذه الدنيا بأمر الله، ويحيون بأمر الله، ويموتون بأمر الله، فحكمه فيهم نافذ، وقد يدخل في عموم هذا الكلام أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يحكم بين العباد، كما قال تعالى: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف:54] ، والخلق هو التقدير، والأمر هو نفاذ شرع الله سبحانه وتعالى؛ فهو سبحانه وتعالى هو الذي يحكم بين عباده، ويشرع لهم ما يشاء؛ وبما أنه هو القاهر فوق عباده وحكمه القدري هو النافذ فهو أيضاً سبحانه وتعالى الذي له الشرع والحكم بين عباده، كما قال تعالى: {وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف:26] ، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب:36] ، ويقول سبحانه وتعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ} [القصص:65-66] ، وقال تعالى بعد ذلك: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [القصص:68] ، وقال سبحانه: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف:54] ؛ فهو سبحانه وتعالى الذي ينفذ حكمه في جميع العباد قدراً، وهو الذي يجب أن ينفذ حكمه في جميع العباد أمراً وشرعاً.

تحريم تمثيل الله عز وجل وتوهمه بالعقول والقلوب

قال رحمه الله تعالى: **[لا تمثله العقول بالتفكير]** .

أي: أنه سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته لا يمكن أن تمثله أو تشبهه العقول في تفكيرها، أي: مهما بلغ العقل في فهمه وسعة خياله أو نحو ذلك فلا يستطيع أن يمثل أو يشبه ذات الله أو صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وكيف يستطيع عقل الإنسان القاصر الصغير أن يمثل ذات الله أو صفة من صفاته، والله سبحانه وتعالى يقول عن نفسه: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر:67] ، فتصور هذا! فأنى لهذا الإنسان الذي يعتبر خلقاً صغيراً جداً يجري على هذه الأرض، وهذه الأرض بالنسبة لكون الله الشاسع لا تمثل إلا ذرة صغيرة جداً، ومع ذلك فإن الأرضين والسماوات بكواكبها ومجراتها وسعتها تكون كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر:67] ، فكيف يأتي العقل ليمثل صفات الله سبحانه وتعالى؟! فالله سبحانه وتعالى لا تمثله العقول بالتفكير.

ثم قال رحمه الله: **[ولا تتوهمه القلوب بالتصوير]** .

أي: أن القلب مهما توهم لا يمكن أن يصل إلى وهم معين بتصوير ذات الله سبحانه وتعالى أو صفاته، ولهذا قطع أئمة السلف رحمهم الله تعالى أن كيفية صفات الله سبحانه وتعالى لا تدرك ولا يحاط بها، ولذا فإن أهل السنة والجماعة يثبتون لله الصفات، لكن الكيفية يكلون أمرها إلى الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى عن نفسه: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [الأنعام:103] ، أي: أنه سبحانه وتعالى وإن كان يراه المؤمنون يوم القيامة رؤية عيانية حقيقية إلا أنهم مع رؤيتهم له لا يدركونه، ولا يحيطون به سبحانه وتعالى.

وفرق بين الرؤية وبين الإدراك، فنحن الآن -مثلاً- نرى السماء أو نرى الشمس أو نرى القمر لكننا لا نستطيع أن ندركه، بل نرى الجبل في الأرض لكن لا نستطيع أن ندرك تفاصيل هذا الجبل ونحو ذلك، ولله المثل الأعلى؛ فالله يرى، لكن مع ذلك هو سبحانه وتعالى كما قال عن نفسه: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:103] ، فهو سبحانه لا تتوهمه القلوب بتصوير معين، سواء كان هذا التصوير مما يتوهمه القلب لصفة ذاتية لله سبحانه وتعالى أو لصفة معنوية.

تنزيه الله عز وجل عن التمثيل

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى قاعدة من قواعد أهل السنة المستنبطة من كتاب الله تبارك وتعالى فقال: [**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** [الشورى:11].وهذا هو منهاج أهل السنة والجماعة، فقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) رد على المشبهة والممثلة؛ فهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فلا يماثل أحداً من خلقه، ولا تماثل صفاته صفات أحد من خلقه، ولذا قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:11] ؛ وشيء هنا تعم، لأنها نكرة في سياق نفي وهو قوله: (ليس) .

والكاف في قوله: (كمثله) جاءت للتأكيد، والأصل فيه: (لَيْسَ مِثْلِهِ شَيْءٌ) ، فأكدها بقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) .

وبعض العلماء قالوا: إن الكاف بمعنى: مثل، فيكون المعنى: (ليس مثل مثله شيء) ، قالوا: وهذا من باب المبالغة: أنه إذا نفى مثل المثل فالمثل من باب أولى، وإذا كان مثل المثل ليس كمثله سبحانه فإن المثل من باب أولى.

وقوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11] هذا لبيان إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى.

فأول الآية رد على المشبهة وآخرها -وهو قوله-: (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) رد على المعطلة؛ لأن قوله تعالى: (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) اسمان لله دالان على صفة السمع والبصر له تبارك وتعالى.

وإذا كان قوله: (السميع البصير) اسمان إلا أن هذين الاسمين لا يمكن أن يثبتا إلا بإثبات مدلولهما، وهو صفة السمع والبصر، ولذا اقترح بعض المعتزلة على أحد خلفاء بني العباس - في زمن تسلط المعتزلة- أن يكتب في سترة الكعبة أو نحوها وكان مكتوباً عليها: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11] اقترح عليه أن يمحو هذه ويكتب: (ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم) ! فبعضهم يقول: ما الفرق بين (السميع البصير) وبين (العزيز الحكيم) ؟ فنقول: إن هذا المعتزلي أراد أن يثبت أن الله عزيز حكيم، وهذان الاسمان قد يرجعهما إلى ربوبيته ونحو ذلك، لكنه أراد أن يمحو: (السميع البصير) ؛ حتى ينفي ما دلا عليه من صفة السمع والبصر؛ نظراً لتوهمه التشبيه.

إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى لله عز وجل

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[له الأسماء الحسنى]** .

والحسنى هي: الحسنة بالغة الحسن، وهذا بنص القرآن: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف:180] ، فأسماؤه سبحانه وتعالى كلها حسنة بالغة الكمال في الحسن.

ثم قال: **[والصفات العلى]** .

أي: أن له سبحانه وتعالى الصفات العالية بكمالها وقدرها وعظمتها؛ لأنها صفات عظيم فهي صفات كاملة.

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى أراد أن يمثل في بداية هذه العقيدة لبيان منهاج السلف رحمهم الله تعالى ببعض الصفات التي قد يقع فيها خلاف أو كلام أو نحو ذلك بين الفرق والطوائف فقال: [{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5]] .

فهو أولاً ذكر قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11] ، أي: أن له الأسماء الحسنى، ثم قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، فجمع رحمه الله تعالى بين الثناء على الله بما هو ثابت من صفاته مثل صفة الاستواء على العرش، وسيأتينا -إن شاء الله تعالى- في أثناء هذه الرسالة الكلام على صفة الاستواء ومدلوله، والمصنف هنا إنما أراد أن يشير إشارة إلى هذه الآية، لكن أيضاً أراد رحمه الله تعالى مع الثناء أن يبين منهاج السلف رحمهم الله تعالى في إثبات الصفات، وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الاستواء لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته؛ لأن استواء الله على العرش ورد في كتاب الله تبارك وتعالى في سبعة مواضع.

أما من فسره بالاستيلاء أو نحوه أو تأوله بذلك فتأويله باطل، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- مناقشة ذلك.

إحاطة الله عز وجل بكل شيء

ثم قال المصنف مستشهداً: [{لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [طه:6]] .

وهذا لبيان كمال صفاته، فهو سبحانه مالك الملك؛ لا يملك أحد شيئاً ،حتى ملوك الدنيا فملكهم ناقص من جهتين: من جهة أنه ملك لا يستطيع هو أن يحرزه ويتصرف فيه كما

يشاء؛ ومن جهة أخرى: أن ملكه هذا إما أن يرحل هو عنه أو يرحل عنه ملكه؛ أما مالك الملك الذي له ما في السماوات وما في الأرض فهو الخالق له وهو المالك تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: **(وَمَا بَيْنَهُمَا)** ، أي: ما بين السماء والأرض؛ (وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) ، وهذا لبيان أن الله سبحانه وتعالى له كل شيء.

ثم قال: [{وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:7]] .

هذا لبيان كلام الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ} [طه:7] ؛ لبيان أن الجهر بالقول أو العلانية عنده سواء، ولذا جاء التعليل بقوله: {فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:7] ، **والسر**: قيل: هو ما يسره الإنسان لشخص آخر، فيقال: ساره بكذا، أي: كلمه سراً بينه وبينه؛ فقوله تعالى: **(وَأَخْفَى)** ، أي: ما هو أخفى من السر، أي: مما يجهله الإنسان من نفسه هو؛ فإن الإنسان يسر أمراً فيعلمه، لكن في نفسه أمور هي أخفى مما يسره، فالله سبحانه وتعالى يعلمها؛ فكيف بما فوق السر من الجهر بالقول؟! لا شك أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:7] .

ولذا قال المصنف هنا: **[أحاط بكل شيء علماً]** .

وهذا هو مدلول الآية التي ذكرت: أن الله أحاط بكل شيء علماً؛ كما قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [البقرة:255] ، وقال: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:7] ، فالله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً، وهذا نص الآية: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:12] .

وقوله: (بكل شيء) ، هذه نكرة تعم، أي: أن علمه أحاط بكل شيء مهما دق أو صغر أو خفي في ليل أو نهار في أعماق البحار أو تحت الثرى أو نحو ذلك، فقد أحاط الله تبارك وتعالى وتقدس بكل شيء.

قهر الله عز وجل لكل شيء

ثم قال: **[وقهر كل مخلوق عزة وحكماً]** .

أي: أنه سبحانه وتعالى قهر الجميع عزة وحكماً؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العزيز في ملكه، الحكيم في أمره وشرعه، فهو سبحانه وتعالى قهر كل مخلوق، وهذا واضح جلي؛ فالكل داخل تحت مشيئته سبحانه وتعالى؛ وسبق أن بينا أن كل مخلوق سائر على ما يقدره الله سبحانه وتعالى.

ولنضرب أمثلة بمن قد يظن أنهم أوتوا قدرة: فلو أن رجلاً أوتي قوة عضلية أو أوتي قوة مال أو قوة سلطان أو قوة في قيادة الجيش أو نحو ذلك من القوى؛ فانظر إلى حال هذا الإنسان بذاته تجده بالنسبة لربه مقهوراً، يأتيه المرض فلا يستطيع أن يرده، ويأتيه الهرم فلا يستطيع أن يوقفه، ويأتيه الموت فيعجز هو ومن في الأرض جميعاً عن أن يؤخروا أجله لحظة! إضافة إلى أنه مقهور في وجوده في هذه الأرض بغير إرادة، وفي ولادته، وفي تحديد لونه وطوله، ونحو ذلك.

شمول رحمة الله عز وجل لكل شيء

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[ووسع كل شيء رحمة وعلماً]** .

أي: أنه سبحانه وتعالى قهر عباده، ووسعهم برحمته؛ فكما أنه وسعهم علماً وسعهم رحمة؛ ورحمة الله سبحانه وتعالى امتدت ووسعت كل شيء؛ حتى البهائم والحشرات، وحتى الكفار؛ لأننا نشاهد أن الكفار يرحم بعضهم بعضاً، ويرحمون أولادهم، فرحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، كما أن علمه تبارك وتعالى وسع كل شيء.

إحاطة علم الله عز وجل بالخلق

ثم قال المصنف مستشهداً: [{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه:110]] .

فهو سبحانه وتعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ويعلم ما أمامهم مما سيعملونه، فإن علم الله أحاط بكل شيء سابق ولاحق، والله تبارك وتعالى علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وجوب إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى قاعدة من قواعد منهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، فقال رحمه الله تعالى: **[موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان نبيه الكريم]** .

أي: أنه تبارك وتعالى موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم وعلى لسان نبيه الكريم، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ فإنهم يصفون الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير أن يعطلوا الصفات أو يشبهوها أو يحرفوها أو يتأولوها تأويلاً يبعد بها عن معانيها اللائقة بها، مع قولهم واعتقادهم ويقينهم وإيمانهم أن كيفية هذه الصفات لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى؛ وهذه هي قاعدة أهل السنة والجماعة في هذا الباب؛ أي: إثبات الأسماء والصفات لله سبحانه وتعالى كما وردت في الكتاب والسنة وكما يليق بجلال الله وعظمته، وهذه القاعدة هي التي سار عليها المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه هذا؛ وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ذكر تفصيل ما ورد من أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته وبقية مسائل الاعتقاد.

وجوب الإيمان بكل ما جاء في القرآن والسنة من صفات الله عز وجل

ثم أوضحها رحمه الله تعالى ببيان أمر خطير ومهم تميز به أهل السنة والجماعة فقال: **[وكل ما جاء في القرآن أو صح عن المصطفى عليه السلام من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل]** .

وهذه هي قاعدة أهل السنة والجماعة؛ فإنهم يقولون: إن كل ما جاء في القرآن العظيم فإننا نأخذ به.

وقد يقول قائل: وأيضاً أهل الكلام والمعطلة يأخذون بما في القرآن؟ فنقول: هناك فرق عظيم بين أن يؤخذ بما في القرآن مفسراً للقرآن بالقرآن ومفسراً للقرآن بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومثبتاً لما ورد، وبين من يأخذ بالقرآن ثم يعمل فيه تحريفاً وتأويلاً.

فالذي قال -مثلاً- في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] : إن (استوى) بمعنى: استولى، هو في الظاهر أخذ بالقرآن، لكنه في الحقيقة لم يثبت ما في القرآن على الوجه الذي يليق بالله سبحانه وتعالى، فحرف اللفظ والنص عن المعنى اللغوي الدال عليه، وهذا

هو التحريف والتأويل الباطل الذي منعه الأئمة رحمهم الله تعالى، لكن أهل السنة والجماعة يأخذون بما في القرآن، ويثبتونه على مقتضى ما عرف من لغة العرب التي نزل بها القرآن مضبوطة ومقيدة بالأدلة الأخرى من الكتاب ومن السنة ومن فهم الصحابة رضي الله عنهم جميعاً لهذه النصوص.

أما أن ينطلق إلى نصوص القرآن ثم يعمل فيها كل إنسان بما يشاء فهذا هو الذي فرق الفرق، فحين تأتي إلى المعتزلة أو الخوارج أو المرجئة أو الرافضة تجد أن كلاً منهم يحتج بآيات من القرآن، فهل معنى ذلك أن مذاهبهم صحيحة؛ لأنهم احتجوا بالقرآن؟ نقول: لا؛ لأن الاحتجاج بالقرآن لابد أن يكون على منهاج صحيح وعلى منهاج سليم، ولا يصح أن الواحد يأخذ من النصوص ما يريد ويدع منها ما لا يريد بناءً على أهوائه؛ فإن هذا هو منهاج أهل الأهواء؛ أما منهاج أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى فهو القائم على أسس صحيحة منضبطة في الاستدلال بنصوص الكتاب الكريم، وهكذا في كيفية الاستدلال والفهم.

ولذا قال: (وكل ما جاء في القرآن) ، أي: من الأسماء والصفات، فنحن نثبته لله كما يليق بجلاله وعظمته، ونسلم به.

وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ أو صَحَّ عنِ المصطفى عليه السلامُ منْ صفاتِ الرحمنِ وَجَبَ الإيمانُ بِهِ وتَلَقِّيهِ بالتَّسْليمِ والقَبُولِ، وتَرْكِ التَّعَرُّضِ لَهُ بالرَّدِّ والتَّأْويلِ، والتَّشْبِيهِ والتَّمْثِيلِ. وما أَشْكَلَ مِنْ ذلك وَجَبَ إثْباتُه لفْظا، وتَرْكُ التَّعَرُّضِ لِمعْناه، ونرُدُّ عِلْمَه إلى قائله، ونجعلُ عُهْدَتَهُ على ناقِلِه، إتّباعا لطريقِ الرَّاسِخِين في العِلْمِ، الّذين أثْنَى اللهُ علَيْهم في كتابِهِ المُبِين بقوله سبحانَهُ وتعالى { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } [آل عمران:7]، وقالَ في ذَمِّ مُبْتَغِي التَّأْوِيلِ لمتشابِهِ تَنْزِيلِهِ { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } [آل عمران:7]، فَجَعَلَ ابْتِغَاءَ التَّأْويلِ علامَةً الزَّيْغِ وقَرَنَهُ بابْتِغَاءِ الفِتْنَةِ في الذَّمِّ، ثم حَجَبَهُمْ عمَّا أَمَّلُوهُ، وقَطَعَ أَطْمَاعَهُمْ عمَّا قَصَدُوهُ، بقوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } [آل عمران:7].

هذا بيان للأصل الأول؛ ألا وهو أنّ أهل السنة والجماعة تميّزوا عن غيرهم بالتسليم لما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – من القرآن العظيم ومن سنته عليه الصلاة والسلام، فسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحي، والقرآن كلام الله جل وعلا، فما أتانا في الكتاب والسنة وجب اعتقاده والتسليم له، وتصديقه في الأخبار، وإتباعه في الأمر والنهي والأحكام.
وهاهنا ذكر المؤلف أن ما أشكل من النصوص وجب الإيمان به لفظا وترك التعرض لمعناه، وهذا لأنّ أهل السنة والجماعة قالوا: إن النصوص – نصوص الكتاب والسنة– واضحة بيّنة.
لأن الله جل وعلا أنزل كتابه وجعله واضحا بيّنا بلسان عربي مبين.
وجعله محكماً كما قال جل وعلا { الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود:1]؛ فجعل جل وعلا كتابه كله محكماً؛ يعني بيّناً واضحاً لا يستبهم معناه، ولا يغمض ما دل عليه على الناس.
كذلك هو جل وعلا ذكر أن كتابه متشابه، فقال جل وعلا { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا } [الزمر:23] فجعله كلّه متشابها ومعنى ذلك أنه يشبه بعضُه بعضا.
وفي آية آل عمران جعل جل وعلا { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7] وهذا يعني أنّه منه ما هو واضح بيّن، ومنه ما هو مشتبه.
فكيف نجمع بين هذه الآيات الثلاث؟ المؤلف ذكر الخلاصة لكن تحتاج إلى إيضاح.
فنقول: القرآن محكم كله، ومتشابه كله، ومنه محكم ومنه متشابه:
فالإحكام بمعنى الوضوح والبيان فهو كله واضح بيّن على جنس الأمة، قد لا يكون واضحا بينا لكل أحد، لكنه واضح بيّن لجنس الأمة.
كذلك وصفه بأنه متشابه بقوله { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا } [الزمر:23] يعني يشبه بعضه بعضا، فهذا أمر وهذا أمر، وهذا نهي وهذا نهي، وهذا خبر وهذا خبر، وهذا وصف للجنة وذاك للجنة، وهذه قصة لنبي من الأنبياء وهذه قصة للنبي نفسه، وهكذا بعضه يشبه بعضا.
أمّا الثالث –يعني القسم الثالث– هو ما ذُكر في آية آل عمران بقوله { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ } [آل عمران:7] يعني بعضه محكم واضح المعنى بيِّن الدلالة، وبعضه ليس كذلك؛ مشتبه المعنى ومشتبه الدِّلالة، وهذا المشتبه المعنى والمشتبه الدِّلالة لا يوجد في القرآن ولا في السنة

عند أهل السنة والجماعة بمعنى التشابه المطلق؛ يعني أن قوله تعالى { وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7] يُعنى به التشابه النسبي الإضافي؛ يعني أنه يشتبه على بعض الناس دون بعض، أمّا التشابه المطلق بحيث يقال هذه الآية من المتشابه، أو يقال { الم } هنا من المتشابه يعني لا أحد يعلم معناه فهذا من الخطأ، ولا يقول به أهل السنة، بل أهل السنة يقولون: إنه يُمكن أن توجد الآيات تشتبه على بعض أهل العلم فلا يُعلم معناها. لا يُعلم معناها من جهة هذا المطالع، لكن ليس من جهة الأمة بأجمعها، فيعلم بعض أهل العلم المعنى، والبعض الآخر لا يعلم المعنى، ولهذا ابن عباس لما تلا هذه الآية قال "أنا ممن يعلمون تأويله" فإذن يُقال هذه الآية من المتشابه لا يوجد المتشابه المطلق؛ يعني الذي لا يعلم أحد معناه، بل لابد أن يوجد في الأمة من يعلم معنى كل نص، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، نزل ليهتدي به الناس، كذلك السنة، فلا يوجد نص يشتبه على جميع أهل العلم وعلى الأمة, لا، وهذا القول بأنه هناك ما يشتبه على الجميع، ولا يفهم معناه الجميع، هذا إنما هو قول أهل البدع.

فإذن المؤلف هنا قسم إلى قسمين:

باعتبار بعض الناس لا باعتبار الجميع فقال (النصوص نتلقاها بالتسليم والاعتقاد من غير أن نرُدها أو نُشبِّه أو نمثل) وهذا هو في القسم الأول يعني الآيات المحكمات الواضحات.

ما اشتبه عليك قال (وجب الإيمان به لفظا) وهذا اللفظ الذي ذكره في قوله (وجب الإيمان به لفظا) مما أُنتقد على الإمام موفق الدين بن قدامة فإنه في هذه العقيدة الموجزة أُنتقدت عليه ثلاث مسائل هذه أولها وهي قوله (وجب الإيمان به لفظا) ويمكن أن يُخَرَّجَ كلامه يعني أن يُحمل على محمل صحيح ،كما سبق بيانه في المقدمة -

أما الانتقاد فهو أن يُقال: إن الواجب أن نؤمن به لفظا ومعنىً، لكن إذا جهلنا المعنى نؤمن بالمعنى على مراد الله جل وعلا، أو على مراد الرسول - صلى الله عليه وسلم -،كما سيأتينا من كلمة الإمام الشافعي أنه قال "آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مراد رسول الله" يعني إذا جهل المعنى, فإذا جهلتَ المعنى تؤمن باللفظ والمعنى لكن المعنى على مراد من تكلم به، ووجه الانتقاد الذي أُنتقد به الإمام ابن قدامة في هذه اللفظة أنه يجب الإيمان باللفظ والمعنى، أمّا الإيمان بلفظ مجرد عن المعنى فهذا هو قول أهل البدع؛ الذين

يقولون: نحن نؤمن بألفاظ الكتاب والسنة دون إيمانٍ بمعانيها لأن معانيها قد تختلف.
والجواب أن هذا غلط بل معاني الكتاب والسنة هي على المعنى العربي فالقرآن نزل بلسان عربي، والنبي – صلى الله عليه وسلم – تكلم بلسان عربي، فلهذا وجب أن يُؤْمَنَ بالكتاب والسنة على ما تقتضيه لغة العرب، وعلى ما يدل عليه اللسان العربي، وهذا أصل من الأصول لكن إذا اشتبه عليك المعنى؛ كلمة في القرآن ما علمت معناها, حديثا إمّا في الصفات أو في الغيبيات لم تعلم معناه، نقول نؤمن به لفظا – ومعنىً؛ يعني معناه مفهوم، لكن على مراد الله، ومراد رسوله – صلى الله عليه وسلم –، وهذا هو الذي جاء في الآية حيث قال جل وعلا { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } [آل عمران:7].
هنا قال (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ماذا يُعنى بهذا التأويل؟ إذا قلنا أن كل آية لابد أن نعلم معناها وكل حديث لابد أن يوجد في الأمة من يعلم معناه فما معنى (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)؟

الجواب أن ما أنزل الله جل وعلا على قسمين:

إمّا أن يكون أخبارا.

وإمّا أن يكون أحكاما.

وتأويل الأخبار يكون بوقوعها. وتأويل الأحكام؛ الأمر والنهي يكون بإيقاعها.
فقول الله جل وعلا هنا (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) يعني تلك الأخبار ما يعلم تأويلها إلا الله، لأن الله جل وعلا هو الذي يعلم حقيقة ما تؤول إليه، أو يعلم ما تؤول إليه حقيقة تلك الألفاظ وتلك الآيات، وذلك أن **التأويل في القرآن أتى بمعنيين لا ثالث لهما:**
الأول: التأويل بمعنى ما تؤول إليه حقيقة الشيء وهذا كما في قوله تعالى { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ } [الأعراف:53] الآية (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) يعني ما تؤول إليه حقيقة أخباره وأحكامه، فحقيقة الأخبار تؤول إلى ظهورها من الصفات والغيبيات، كذلك الأحكام حقيقتها تؤول إلى ظهور أثر من تمسك بها وامتثلها ممن عصى وخالف، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: وهو فرع عن هذا، التأويل بمعنى التفسير قال { أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } [يوسف:45] بتأويله يعني بتفسير الرؤيا، وهذا مرتبط بالمعنى الأول؛ يعني الحقيقة التي تؤول إليها الرؤيا في الواقع المشاهَد.

فإذن قوله هنا (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ليس هو التأويل الحادث الذي يقوله بعض أهل الأصول؛ وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى غيره لمرجح أو لقرينة تدل عليه. لا، هذا إنما هو اصطلاح حادث، أما التأويل فهو في القرآن والسنة له معنيان لا غير.

فإذن قوله هنا (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) فإذا كان في آيات الصفات ووقفنا على هذه الآية وقلنا (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ووقفنا، فنريد بالتأويل ما تؤول إليه حقيقة الأسماء والصفات يعني الكيفية لا يعلم الكيفية؛ وهي الحقيقة التي تؤول إليها آيات الأسماء والصفات والأحاديث التي فيها الأسماء والصفات، لا يعلم كيفية اتصاف الله جل و علا بها إلا هو سبحانه، وإذا أُريد بالتأويل معنى التفسير لا الكيفية فإن الراسخين في العلم يعلمون، ولهذا طائفة من السلف يرون الوقف على كلمة (الْعِلْمِ) يقولون (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) ويقف، لأن الراسخون في العلم يعلمون المعنى، لكن لا يعلمون الكيفية، فإذا كان الاشتباه واقع في المعنى كان الراسخون في العلم ممن يعلمون، وإذا كان الاشتباه وقع في الكيفية كان العلم مقصورا على ربِّ الأرض والسماوات.

وهذا معنى قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ولهذا قال ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويلَه.

إذاً منهاج أهل السنة والجماعة هو: أن كل ما جاء به القرآن أو صح عن المصطفى عليه الصلاة والسلام من صفات الرحمن فإنه يجب الإيمان والتصديق به، ويجب تلقيه بالتسليم والقبول؛ فإذا صح الإسناد ودرسناه ولم يعترض عليه أحد من الأئمة، فنأخذه ونتلقاه بالقبول، لأن هذا الذي وصلنا من طريق هؤلاء الأئمة العدول هو المنقول عن رسولنا صلى الله عليه وسلم، ولو رددنا هذه الأحاديث لكان ذلك مدخلاً لأن نرد أيضاً أحاديث الأحكام، كما فعلت بعض الطوائف وقالت: ما دام حديث الآحاد محكماً فكيف نأخذ به في أمورنا كلها؟ ولذا كان الأئمة رحمهم الله تعالى لا يفرقون، ولما قيل لـ إسحاق بن راهويه رحمه الله تعالى: تروي حديث النزول؟! فقال: نعم أرويه.

فقيل: كيف تروي حديث (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) ؟! وكأن السائل توهم أن فيه نوعاً من تشبيه أو مما لا يليق أن ينسب إلى الله سبحانه وتعالى! فانتفض إسحاق بن راهويه رحمه الله تعالى وقال: هذه الأحاديث والروايات هي التي بها نحلل الدماء وبها نحرم، بها نحلل الفروج وبها نحرم، بها نحلل الأموال وبها نحرم، فكيف نأخذ بخبر الآحاد ونقطع به رقبة نفس معصومة، ثم لا نأخذ به حين يأتي بهذا الإسناد نفسه مخبراً عن صفة من صفات الله تبارك وتعالى؟! لا شك أن هذا عين التناقض.

لذلك أخذ بها الأئمة رحمهم الله تعالى، وعملوا بها، ولم يفرقوا رحمهم الله تعالى بينها؛ حتى إن بعضهم صار يصرح بلفظ الشهادة؛ فإذا ساق إسناداً متصلاً رواته كلهم عدول ثقات أثبات يأتي ويقول: أشهد بالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا الحديث! ولا شك أنها ليست شهادة على باطل؛ لأنه بناها على علم، فقد وصل بذلك إلى علم اليقين، أما إذا رفضنا هذه الأحاديث فمعناه أنا رفضنا جزءاً كبيراً من الشريعة، والشيخ رحمه الله تعالى قال: (تتلقى بالتسليم وبالقبول فلا نرد شيئاً منها) .

وقوله: (وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل كما فعل أهل الباطل) وقوله: (دون التعرض له بالرد والتأويل) أما التأويل فهو: صرف اللفظ من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به.

هذا هو التعريف المشتهر عند كثير من أهل أصول الفقه وغيرهم، ولكن لفظ التأويل الوارد في الكتاب والسنة وعند السلف الصالح رحمهم الله تعالى يطلق على إطلاقين: **أحدهما**: أنه بمعنى التفسير، فيقول الإنسان: تأويل الآية كذا، أي: تفسيرها كذا، وهذا منهج ابن جرير الطبري في تفسيره؛ فإنه دائماً يقول: القول في تأويل قوله تعالى، أي: تفسير قوله تعالى.

الثاني: أن التأويل بمعنى الحقيقة التي يئول إليها الشيء، فتأويل صفات الله، أي: حقيقة صفات الله، وتأويل الرؤيا، أي: حقيقة الرؤيا، كما قال الله تعالى عن يوسف أنه قال: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف:100] ، أي: حقيقة الرؤيا التي رآها أولاً تحققت من خلال ما جرى له عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم؛ ومن هنا فإن هذين المعنيين للتأويل هما المعنيان المشهوران المعروفان عند السلف الصالح.

وأما المعنى الثالث للتأويل وهو الذي ذكرته أولاً وهو الذي قصده المصنف هنا؛ فهو معنىً حدث بعد الافتراق الذي وقع في هذه الأمة، وهذا التأويل له حالتان: الحالة الأولى: أن يكون الدليل صحيحاً والصارف عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح صحيحاً، ففي هذه الحالة يكون هذا التأويل صحيحاً.

الثاني: أن يكون التأويل لغير دليل، بل أحياناً يكون مخالفاً للدليل، فهذا هو التأويل الباطل، وهو الذي قصده المصنف هنا.

ولهذا قال: (دون التعرض له بالرد والتأويل) ، وهو يقصد رحمه الله تعالى بهذا منهج المنحرفين في باب الأسماء والصفات الذين أولوا النصوص، فيأتي أحدهم -مثلاً- إلى قول الله تبارك وتعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، فيتأول النص الظاهر إلى معنىً آخر بعيد جداً، فيقول: استوى بمعنى: استولى.

ويأتي إلى قول الله تبارك وتعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة:64] ، فيقول: اليدان هما القدرة أو النعمة، أو القدرة والنعمة وهكذا، ويأتي على كل صفة ثابتة فيتأولها إلى معانٍ أخرى، وتكون هذه المعاني بعيدة لم يدل عليها النص، وإن دل عليها فدلالة ضعيفة جداً، بل إن تأويله هذا مصادم للنصوص الأخرى، ولمنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى في إثبات هذه الصفات على ما يليق بجلاله وعظمته، لهذا فإن السلف رحمهم الله تعالى يثبتون الأسماء والصفات لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته دون تأويل، ولهذا قال بعد ذلك: **(والتشبيه والتمثيل)** ، أي: دون التعرض لها بتشبيه؛ **والتشبيه هو** أن يجعل صفة من صفات الله تعالى مشبهة لصفة من صفات المخلوقين، أو بالعكس: أن يجعل صفة من صفات المخلوقين مشبهة لصفة من صفات الله تعالى.

والتمثيل: أن يجعلها مماثلة له، فالفرق بين التشبيه والتمثيل: أن التشبيه إنما يكون في بعض الأشياء، وقد لا يكون فيها جميعاً، أما التمثيل فإنه يكون في جميع الأشياء، فإذا قلت: هذا مثل هذا، فأنت تقصد أنه مماثل له تماماً، لكن إذا قلت: هذا يشبه هذا فأنت تقصد أن بينهما شبهاً، وأن بينهما أيضاً فرقاً.

فأهل السنة والجماعة وسط بين أهل التعطيل الذين دخلوا في التأويل والتحريف لنصوص الصفات وأهل التشبيه والتمثيل الذين شبهوا الله بخلقه، وشبهوا صفاته تعالى بصفات خلقه.

الرد على مذهب أهل التفويض

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه، ونرد علمه إلى قائله، ونجعل عهدته على ناقله؛ اتباعاً لطريق الراسخين في العلم الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين بقوله سبحانه وتعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران:7]]** .

هذه العبارة عند ابن قدامة فيها إشكال! وذلك من جهة أنه قال: (وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً وترك التعرض لمعناه) ؛وقد فصلناها في مقدمة الشرح وجاوبنا على الإشكال والاعتراضات الثلاثة على الجمل المحتملة لابن قدامة رحمه الله ، وسيأتي بعد قليل نقل ابن قدامة عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه قال في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا) وقوله: (إن الله يرى في القيامة) وما أشبه هذه الأحاديث؛ يقول الإمام أحمد: (نؤمن بها، ونصدق بها، لا كيف ولا معنى، ولا نرد شيئاً منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق، ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقول الإمام أحمد هنا: **(لا كيف ولا معنى)** ، قد يظن البعض أن منهج الإمام أحمد رحمه الله تعالى -ومثله ابن قدامة في العبارة السابقة- هو التفويض في باب الأسماء والصفات، أي: إثبات ألفاظها فقط دون التعرض لإثباتها حقيقة وإثبات ما دلت عليه من معنىً يليق بجلال الله وعظمته.

ونقول: إن هذا المذهب مذهب أهل التفويض، وهم فرقة مخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، ولم يقل به أحد منهم، وإنما هو مذهب لطوائف انحرفت عن المنهج الصحيح لأهل السنة والجماعة، ولهذا فإن قول الإمام أحمد هنا: (لا كيف) صحيح، وقوله: (لا معنى) يقصد: أننا لا نتعرض لمعناها بالتأويل والتحريف والتشبيه ونحو ذلك، أي: لا نظهر لها معنىً يخالف ظاهرها الذي دلت عليه، ولهذا قال بعد ذلك: ولا نرد شيئاً منها، ونصدق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهو بين أن منهج السلف إثبات الصفات، وإثبات الصفات لله سبحانه وتعالى هو إثباتها على ما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات المعنى الذي دلت عليه والذي دل عليه النص، وليس

المقصود إثبات اللفظ فقط، ولهذا فإن أهل السنة والجماعة يردون على المتأولة، ويردون على الذين يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه أو يكيفونها، ولنضرب مثلاً بصفة السمع أو بصفة العلم: فإن أهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة، ويعلمون معنى العلم ومعنى السمع، فيثبتون هذه الصفة لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ولكنهم وهم يثبتون هذه الصفة لا يتعرضون لتأويلها وتحريفها كما فعل أهل التحريف والتأويل، وأيضاً لا يكيفون هذه الصفة، فلا يقولون: إن كيفية الصفة كذا وكذا، أو يقولون: إنها تشبه صفة الخلق أو أحداً من الخلق أو نحو ذلك، ومن هنا فقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (ولا معنى) أي: لا نقول: إن لها معاني تخالف ظاهرها؛ فنقع في التحريف والتأويل ونحو ذلك، وإنما نثبتها، **والتفويض إنما يكون لكيفية الصفة**، لا لحقيقة الصفة وما دلت عليه من المعنى؛ فكيفية صفات الله تعالى نفوضه إلى الله؛ لأننا كما لا نعلم ذاته فإننا أيضاً لا نعلم كيفية الصفات، أما الصفة نفسها فإننا نثبتها لله سبحانه وتعالى، فنفرق بين العلم والقدرة، وبين السمع والبصر، وبين الحكيم والخبير، وبين قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، وقوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64] ، وقوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن:27] ، ونحوها؛ لأننا نعرف من قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64] من المعاني غير ما نعلمه من قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] ، وهكذا. إذاً: نخلص في هذه القضية إلى أن القول بأن السلف يثبتون ألفاظ نصوص الصفات مجردة، ويفوضون ما دلت عليه، ولا يثبتون لها معاني، هو قول أهل التفويض، وهو مردود، أما منهج أهل السنة والجماعة فهو إثبات هذه الصفات حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته دون تحريف ودون تشبيه، فيثبتونها ويثبتون ما دلت عليه من المعاني، أما الكيفية فهذه يفوضونها إلى الله سبحانه وتعالى، ويقولون: إنه لا يعلم كيفية صفاته إلا الله سبحانه وتعالى.

المحكم والمتشابه في كتاب الله عز وجل

قال المصنف رحمه الله تعالى بعد ذلك: [وقال في ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7] ؛ فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ، وقرنه بابتغاء الفتنة في الذم، ثم

حجبهم عما أملوه، وقطع أطماعهم عما قصدوه بقوله سبحانه: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7]] .

معنى آية آل عمران والوقف فيها

وهذه الآية في سورة (آل عمران) ، وهي قول الله سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران:7] ، فالقرآن ورد أنه كله محكم، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} [هود:1] ، أي: أنه كله متقن، وورد أنه كله متشابه، كما في قوله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزمر:23] لأنه يشبه بعضه بعضاً في الإحكام والإتقان؛ ثم إنه تعالى في هذه الآية أخبر أن في القرآن آيات محكمات، وفيه آيات متشابهات، فبين الله تبارك وتعالى في هذه الآية أن أهل الزيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وإثارة الفتنة بين الناس لإغوائهم عن الحق.

وقوله: **(وابتغاء تأويله)** ، أي: تأويل النصوص لتوافق ما عندهم.

ثم قال تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7] ، والعلماء رحمهم الله لهم في الوقف هنا أقوال، والوقف هنا سواء كان على قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7] ، أو على قوله: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران:7] ، مبني على معنى التأويل في الآية: فإذا قيل: إن معنى التأويل في الآية هو التفسير، أي: وما يعلم تفسيره إلا الله، فحينئذٍ يجوز الوقف، فيكون المعنى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ في العلم} [آل عمران:7] ؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تأويل وتفسير القرآن الكريم.

أما على المعنى الثاني المشهور عند السلف، وهو: أن التأويل حقيقة الشيء، فيكون الوقف واجب على قوله: (إلا الله) ، ويكون معنى قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7] ، أي: وما يعلم حقيقة هذه الصفة، أو حقيقة ما أعد الله للمؤمنين في الآخرة، أو حقيقة ما أعد الله للكفار في النار إلا الله، ثم قال: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران:7] يسلمون ويقولون: (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) .

– قالَ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ حنبلٍ – رضي الله عنه – في قولِ النَّبي – صلى الله عليه وسلم – «إنَّ اللهَ ينزلُ إلى سماءِ الدُّنْيَا»و«إنَّ الله يُرى في القيامَةِ» وما أشبه هذه الأحاديثَ، قال: نؤمِنُ بها ونُصَدِّقُ بها لا كَيْفَ ولا مَعْنَى ولا نَرُدُّ شيئا منْها، ونَعْلَمُ أنَّ ما جاءَ به الرَّسولُ حقٌّ، ولا نَرُدُّ على رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – ولا نَصِفُ اللهَ بأكْثَرَ مما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ، بِلاَ حَدٍّ ولا غايَةٍ { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الشورى:11]. ونقولُ كما قالَ، ونَصِفُهُ بما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، لا نَتَعَدَّى ذلك، ولا يَبْلُغُهُ وصفُ الواصِفِينَ، نُؤْمِنُ بالقرآنِ كُلِّهِ مُحْكَمُهُ ومُتَشَابِهُهُ ولا نُزِيلُ عَنْهُ صفةً مِنْ صفاتِهِ لشَنَاعَةٍ شُنِّعَتْ، ولا نَتَعَدَّى القرآنَ والحديثَ، ولا نَعْلَمُ كيفَ كُنْهُ ذلك إلاَّ بتصديقِ الرَّسولِ – صلى الله عليه وسلم – وتَثْبِيتِ القرآنِ.

هذا الكلام من إمام أهل السنة والجماعة أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المتوفى سنة 241هـ الإمام الذي نصر به الله جل وعلا السنة وقمع به البدعة، وجعله جل وعلا في وقته ميزانا يوزن به الناس، يقول فيه (**إننا نؤمن بما جاء من النزول–وغير ذلك من آيات الصفات– كما جاء، لا نتجاوز القرآن والحديث، قال: بلا كيف ولا معنى**) وهذا الكلام منه رحمه الله تعالى رحمة واسعة، أشكل على بعضهم كيف يقول بلا كيف ولا معنى؟ وحقيقة هذا اللفظ الذي ورد عنه أنه يوافق مذهب المفوّضة، والمفوضة طائفة كانت تقول نؤمن بالألفاظ بلا معاني، يعني نفوض المعنى والكيفية جميعا، وهذا معتقد باطل وبدعة شنيعة، وإنما الواجب تفويضُ العلم بالكيفية، أما المعنى فهو ظاهر لأن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، فإذا كان أهل السنة والجماعة يؤمنون بالألفاظ والمعاني؛ يعني بما دل عليه اللفظ من كلام العرب، فكيف إذن يُحمل كلام الإمام أحمد بقوله(بلا كيف ولا معنى) وهذه أيضا مما أُخذ على المؤلف حيث لم يُوضِح المراد من كلام الإمام أحمد.

وأهل العلم يقولون إن الإمام أحمد أراد بقوله (بلا كيف ولا معنى) الرد على طائفتين:

الطائفة الأولى المشبهة المجسمة رد عليهم بقوله (بلا كيف) يعني الكيفية التي تتوهمها العقول، أو وَصَفَ اللهَ جل وعلا بها المجسمة أو الممثلة.

وقوله (ولا معنى) ردّ بها رحمه الله على المعطلة، الذين جعلوا معاني النصوص على خلاف الظاهر المتبادر منها، فقالوا إن معنى النزول الرحمة، وقالوا إن معنى الاستواء الاستيلاء، وقالوا

إن معنى الرحمة الإرادة؛ إرادة الإحسان أو إرادة الخير، وإن الغضب معناه إرادة الانتقام ونحو ذلك فهذا تأويل منه.

فالإمام أحمد يقول (**بلا كيف**) الكيف الذي جعله المجسمة، (ولا معنى) الذي جعله المعطلة، يعني المعنى الباطل الذي صرف الألفاظ إليه المبتدعة المؤولة. فإذن قوله (بلا كيف ولا معنى) يريد بقوله (ولا معنى) المعنى الباطل الذي تأول به وإليه المبتدعة نصوص الصفات والنصوص الغيبية.

وهذا نأخذ منه قاعدة مهمة: وهي أن طالب العلم الذي يعتني بأمر الاعتقاد يجب عليه أن يفهم اعتقاد أهل السنة والجماعة تماما، فإذا فهمه وورد بعد ذلك ألفاظ مشكلة عن الأئمة, عن التابعين, من تبع التابعين، عن بعض الأئمة فإنه بفهمه للاعتقاد الصحيح سيوجّه معناها إلى معنىً مستقيم، لأنه لا يُظن بالإمام أحمد وهو إمام أهل السنة والجماعة الذي حكم بالبدعة على المفوضة أنه يقول (ولا معنى) يعني ليس للآيات والأحاديث معنى يفهم بتاتا، فإذن فهمُك لأصول الاعتقاد وأصول ما كان عليه أهل السنة والجماعة، وضبطُك لذلك، به يمكنك أن تجيب على كثير من الإشكالات، ونحن في هذا الزمان ربما كتب بعض الناس كتابات في أن السلف يقرّون التأويل، وأنه وُجد التأويل للصفات في زمن الصحابة، أو وجد في زمن الصحابة من ينكر بعض الصفات، أو وجد في التابعين من يؤول، والإمام أحمد أوَّلَ، ونحو ذلك، وهذا من جرّاء عدم فهمهم لأصول أهل السنة والجماعة، وابتغاء الفتنة، وابتغاء التأويل الذي وصف الله جل وعلا به الزائغين، وإذا فهمت الصواب وفهمت المنهج الحق والاعتقاد الحق فإنه يمكن بذلك أن تجيب عن ما ورد عن بعض أئمة أهل السنة من ألفاظ ربما خالف ظاهرُها المعتقد، أو ظُن أن فيها شيء من التأويل، يمكن أن تجيب عليها بأجوبة محققة واضحة.

فنلاحظ أن الإمام أحمد هنا استشهد بأحاديث فيها دليل على إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى من السنة الصحيحة، فنزول الله تعالى إلى سماء الدنيا ثابت، ودلت عليه الأحاديث الصريحة الصحيحة الكثيرة، ونزوله كما يليق بجلاله وعظمته ثابت أيضاً، يثبته أهل السنة والجماعة.

وكذلك أيضاً: إن الله يراه المؤمنون في الآخرة دلت عليه الأحاديث المتواترة، وهكذا غيرها من الأحاديث التي تثبت الصفات، قال عنها الإمام أحمد: (نؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف) ، أي: لا نكيفها؛ لأننا لا نعلم ذات الله تعالى فلا نكيفها، ثم قال: (ولا معنى) ، أي: لا نتعرض بالمعاني الأخرى الباطلة، فنأتي لها بمعانٍ جديدة.

ولهذا قال: **[ولا نرد شيئاً منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم]** . ولهذا لما كان أحد الأئمة -وهو إسحاق بن راهويه - عند ابن طاهر أمير خراسان يحدث له، ويقرأ عليه الأحاديث، فقرأ عليه بأسانيده أحاديث النزول بطرقها: (إن الله تعالى ينزل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه) ، فقال عبد الله بن طاهر - وفي بعض روايات القصة: أنه أحد الجالسين-: كيف ينزل؟ كيف تحدث بهذه الأحاديث التي فيها أن الله ينزل؟ وإلى الآن كثير من الناس يعترض ويقول: الذي ينزل هو رحمته الذي ينزل هو أمره الذي ينزل هو ملك من الملائكة؛ لأنهم يستثقلون مثل هذا الحديث الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق عديدة صحيحة، ويظنون أنه يلزم منه التشبيه، وأن نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا مثل نزول المخلوقين.

فهذا الأمير احتار، وقال: كيف ينزل؟ وكيف تحدث بهذه الأشياء؟ فقال له إسحاق بن راهويه: يا أمير! هذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نرويها، بها نحرم الحرام، وبها نحل الحلال، وبها نستحل الفروج، وبها تقطع الرقاب.

يعني: أننا نثبت بها الأحكام، ونفس الإسناد الذي نقطع به رقبة فلان شرعاً هو الذي نحدث به بمثل هذا الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

فإذا أردتنا أن نرد هذا فلنرد الشريعة الإسلامية من أولها إلى آخرها، ولنرد سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كلها.

فكان الأئمة رحمهم الله تعالى يروون هذه الأحاديث لا يفرقون بينها، المهم أن تكون صحيحة الإسناد، ثابتة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما دلت عليه من صفة فإنهم يثبتونها كما لو دل عليها القرآن، فلا يفرقون بين القرآن وبين السنة في أي شيء.

ولهذا قال الإمام أحمد: (ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم)، أي: ما دام الإسناد ثابتاً فإننا نؤمن به ونصدقه، ونثبت هذه الصفات كما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ومن غير تكييف، ومن غير تشبيه ومن غير تمثيل.

أهل السنة لا يصفون الله بأكثر مما وصف به نفسه

ثم قال المصنف: [**ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حد ولا غاية**: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11] ، ونقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه] .

قوله: (ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه) قيد مهم في منهج أهل السنة والجماعة، بمعنى: أن الأسماء والصفات توقيفية، وأنه ليس كل معنىً صحيح نثبته لله سبحانه وتعالى صفة؛ لأنه معنىً صحيح، يشبه هذا أننا لا نأتي إلى عبارة صحيحة ونقول: قال رسول الله. فمثلاً: لو جاء رجل وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افعل الخير، وأحسن إلى جارك إحساناً في الليل وفي النهار.

فهذا المعنى صحيح، وما المانع من أن يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم؟ فنقول: لا، حتى ولو كان المعنى صحيحاً فلا يجوز أن ننسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يثبت عنه بالإسناد الصحيح.

وكذلك أيضاً لا نأتي إلى صفة من الصفات -وإن كان معناها صحيحاً- ونقول: هذه الصفة نثبتها لله.

فمثلاً: لو أن كلمة (مهندس) أعجبتنا وقلنا: إن فن الهندسة في العصر الحديث تعتبر فناً دقيقاً ورائعاً، وإن هذا الفن في خلقه رائع وعظيم جداً، فما المانع من أن نقول: إن الله هو مهندس الكون، وإن من أسمائه المهندس، ومن صفاته هذه الصفة؟!

الجواب :لا ينبغي ذلك، وإن كان المعنى صحيحاً، فلا يجوز لنا أن نصف الله إلا بما ورد. لكن بعض العلماء قالوا: نتساهل في باب الإخبار، يعني: إذا كنت تخبر أو تشرح فلا مانع من أن تأتي بكلمات ولو لم ترد فتنسبها إلى الله سبحانه وتعالى من باب الإخبار، فتقول مثلاً: إن الله صنع هذه الكون، إذا كنت تريد أن تشرح وتوضح، لكن لا تأتي وتقول: إن من أسمائه تعالى الصانع؛ لأنه لم يثبت هذا الاسم.

فقالوا: في باب الإثبات حينما تثبت لله اسماً من أسمائه أو صفة من صفاته لابد أن يكون قد دل الدليل من كتاب الله أو من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، لكن في باب الإخبار يجوز أن تخبر وأن توضح وأن تشرح هذه الأمور، ولو كان شرحك مما يتعلق بالله سبحانه وتعالى إذا أحسن الإنسان التعبير، وأتى بالعبارات اللائقة.فباب الإخبار أوسع

كلام السلف رحمهم الله في الحد والغاية

[ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حد ولا غاية: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11].

ابن قدامة رحمه الله يقرر هنا منهج أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته، وهو أنهم يثبتون ما أثبته الله وأثبته رسوله من غير نقص، سواء كان هذا النقص بنفي أو تعطيل أو نحو ذلك، ويثبتونها بغير زيادة، فلا يأتون من عند أنفسهم بصفات ولو ظنوها حسنى، ولا بأسماء ولو ظنوها حسنى، فلا يأتون بشيء لم يرد ليصفوا الله سبحانه وتعالى به، بل صفات الله سبحانه وتعالى عمادها التوقيف على ما ورد، أي: أننا نثبت ما ورد إثباته، وننفي ما ورد نفيه، ونتوقف عما لم يرد إثباته ولا نفيه.

ثم إن المصنف هنا قال: **(بلا حد ولا غاية)** ، ومقصوده رحمه الله أننا نثبت لله سبحانه وتعالى هذه الصفات على ما يليق بجلاله وعظمته، ونقول: إن صفاته ليست لها غاية، أي: ليس لعلم الله غاية ومنتهى، كما أنه ليس لكلام الله سبحانه وتعالى أيضاً غاية ومنتهى، فالله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم، يعلم ما كان وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما أن كلامه تعالى لا ينقضي، ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله} [لقمان:27] ، وفي الآية الأخرى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف:109] .

قال العلماء في تفسير هاتين الآيتين: إن العدد غير مراد، فلا يعني أنه لو جئنا بسبعة أبحر نفدت كلمات الله، بل لو جئنا بسبعة وسبعة وسبعة ما نفدت كلمات الله أبداً، ومعنى الآيتين: أننا لو قطعنا الأشجار التي على الأرض وبرينا غصونها وأعوادها لتتحول إلى أقلام ثم

تحول البحر إلى مداد وحبر وكتب بتلك الأقلام بذلك المداد كلمات الله ما نفدت كلمات الله أبداً.

وهذا من عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لأن لكل مخلوق منتهى، أما الخالق سبحانه وتعالى فلا منتهى لأمره وعلمه ولا لكلامه سبحانه.

ولهذا فإن ربنا تبارك وتعالى عظيم عظمة لا يمكن أن يتصورها مخلوق، ومهما تصور المخلوق فالله أعظم من ذلك، وأقرب مثال على ذلك أننا إذا قلنا: إن السماوات والأرض كلها بمجراتها وأفلاكها في يد الرحمن سبحانه وتعالى كخردلة في يد أحد، تبين بذلك كيفية عظمة الله سبحانه وتعالى، وكيف أننا لا نستطيع ولن نستطيع أن نقدر قدره سبحانه وتعالى.

وقول ابن قدامة: (إن صفاته نثبتها بلا حد ولا غاية) أي: لا نجعل لصفاته منتهى، فهو العظيم الذي لا عظيم فوقه سبحانه وتعالى.

ولكن كلمة الحد هنا كلمة فيها إجمال، ولهذا ورد عن بعض السلف إثبات الحد لله سبحانه وتعالى، فأين ورد إثبات الحد؟ وما معناه؟ وما هو القول الحق في هذه المسألة؟ نقول: ورد إثبات الحد لله سبحانه وتعالى في باب الاستواء، فقد سئل عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: هل نثبت أن الله على العرش استوى؟ فقال: نعم، نثبت أن الله على العرش استوى.

فقال السائل: بحد؟ قال: بحد.

فما الذي قصده ابن المبارك وغيره من السلف من إثبات الحد لله؟ الذي قصده هؤلاء هو أن يثبتوا الفارق بين المخلوق والخالق، فنحن مخلوقون مربوبون نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى فوقنا، ونصدق بأنه على العرش استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى.

ولكن قد يخطر ببال بعض عوام الناس، أو ببال بعض الصوفية الحلولية، أو ببال بعض الذين يقولون: إن الله في كل مكان، أن الله عظيم لا منتهى لعظمته، وإذا كان لا منتهى لعظمته في ذاته فإننا مهما تصورنا شيئاً فالله يمكن أن يكون أعظم من ذلك، والنتيجة: أنه لا يصبح هناك فارق بين الخالق وبين المخلوق، فأراد هؤلاء العلماء أن يقرروا البينونة بين الخالق والمخلوق حتى يردوا على الحلولية وعلى الاتحادية وعلى غيرهم من الصوفية الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق.

فهؤلاء قالوا: نؤمن بأن الله على العرش استوى، ونؤمن ببينونة الله عن خلقه، وهذه البينونة مقتضاها -كما أشار بعضهم- أن يكون لله حد لا يعلمه إلا هو، حتى نفصل بين الخالق وبين المخلوق.

ولهذا سئل بعض السلف: بحد؟ فقال: نعم، بحد لا يعلمه إلا هو، أي: من باب إثبات البينونة بين الخالق وبين المخلوق، أما إذا أطلقنا هذا الأمر على قول هؤلاء العلماء، وقلنا: إن الله عظيم وبلا حد، فقد يتوهم متوهم أن هذه المخلوقات داخلة في الله سبحانه وتعالى.

فأراد أن يبين هذه البينونة التي دلت عليها النصوص الكثيرة من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بين الخالق وبين المخلوق.

وبعض السلف رحمهم الله تعالى قالوا: كلمة الحد لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ثمَّ فنحن لا نطلقها، ولا نقول: بحد، وإنما نقول: على العرش استوى، ونثبت لله الصفات، ونتوقف في هذا.

إذاً: انتهينا إلى خلاصة مهمة في هذا الباب مفادها: أن من السلف من لم يطلق لفظ الحد، وكأن عبارة ابن قدامة هنا موحية بهذا القول، ولهذا قال: بلا حد ولا غاية؛ لأن هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعض السلف أثبت الحد لله، لكن حداً لا يعلمه إلا هو سبحانه، وإنما أثبتوه للرد على الحلولية وللرد على كثير ممن ينكر علو الله سبحانه وتعالى واستواءه على العرش، وليثبتوا البينونة بين الخالق والمخلوق، ولهذا نقول: إن لفظ الحد من الألفاظ المجملة، فنستفسر هذا الذي يثبت لفظ الحد: فإن كان يقصد أن الله يحده شيء، فنحن نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء، والله سبحانه وتعالى لا يقدر قدره إلا هو، وإن قصد بلفظ الحد بيان البينونة بين الخالق والمخلوق، وأن الله تعالى على العرش استوى، ليس على الأرض بذاته سبحانه وتعالى، وإنما علمه أحاط بكل شيء، فنقول: المعنى الذي أثبته صحيح، ولكن إثباتك للفظ الحد لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فنلحق لفظ الحد بلفظ الجسم والجهة والحيز ونحو ذلك، ونستفصل قائلها، فإن أراد معنىً صحيحاً قبلنا المعنى، وإن أراد معنىً باطلاً رددنا الكل، ونتوقف في إثبات هذه الألفاظ حتى ترد في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.ومعلوم أن كلام السلف هذا من باب رد البدع

وجوب إثبات أسماء الله وصفاته من غير تشبيه ولا تعطيل

ثم إن الإمام أحمد أيضاً استشهد بقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11] ، وهذه قاعدة مشهورة لأهل السنة والجماعة، فقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:11] رد على المشبهة، وقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11] رد على المعطلة.

وقوله: (ونقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه) واضح.

ثم قال: **[لا نتعدى ذلك، ولا يبلغه وصف الواصفين]** .

أي: أن الله سبحانه وتعالى هو العظيم، وهو ذو الجلال والإكرام، فإن الواصفين له مهما وصفوه لن يبلغوا وصفه، ولن يبلغوا المبلغ اللائق به سبحانه وتعالى؛ فإنه تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا، ونحن إنما نعلم بعضاً من هذه الصفات، ونعلم بعضاً من المعاني اللائقة بالله سبحانه وتعالى من هذه الصفات، أما نحن البشر المقصرين، فإننا لا نستطيع أن نصل إلى أن نصف الله سبحانه وتعالى بكل وصف وبكل اسم ثبت له، لا نستطيع أن نصل في ذلك إلى المبلغ والغاية.

ولهذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن لله سبحانه وتعالى أسماء استأثر الله تبارك وتعالى بها في علم الغيب عنده، كما قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك؛ سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك) ، فلله أسماء وصفات استأثر بها، فمن أين لبشر أن يحيط بذلك؟!

لكن نثبت لله سبحانه وتعالى ما علمنا مما ورد في الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته كما يليق بجلاله وعظمته.

أهل السنة لا يردون شيئاً من الأسماء والصفات لشناعة شنعت عليهم

ثم قال: [نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت، ولا نتعدى القرآن والحديث، ولا نعلم كيف كنه ذلك، إلا بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيت القرآن] .

وهذا الكلام دل على عدة أمور، دل على بعض الأمور التي سبقت، مثل: أننا لا نكيف، ولا نعلم كنه الصفة، أي لا نعلم كيفية وحقيقة صفات الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه الأمور

لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى، ولكن نحن نثبت الصفات لله كما يليق بجلاله وعظمته، أما كيفيتها فلا يعلمها إلا الله.

وكذلك أيضاً لا نتعدى القرآن والحديث؛ فنثبت ما ورد فيهما، ولا نتعدى ذلك.

وقوله: **(ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت)** ، أي: أن كل ما ثبت بالدليل من كتاب الله أو من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم صفة لله فإننا نثبتها، ولا نرد هذه الصفة أو نتأولها لأجل تشنيع المخالفين، مثل أن يأتي قائل ويقول: كيف تثبت لله الوجه وتثبت لله اليدين؛ فإن إثبات الوجه واليدين والعين تجسيم؛ وأنت حين تثبت الصفات كأنك تشبه الله بالمخلوقين، فمن أثبت لله الوجه واليدين فقد أثبت لله أبعاضاً، فهو مجسم؟ فيشنع علينا عندما نثبت هذه الصفات بمثل هذه الشناعات؛ لأن هذا عنده تشبيه، وهذا تجسيم، وهذا لا يليق بالله، وكأنك تمثل الله بخلقه إلى آخره.

فما هو موقفنا من ذلك؟ هل نخضع لتشنيع هؤلاء، أم ماذا نصنع؟ منهجنا أهل السنة والجماعة أننا لا ننظر إلى التشنيع، بل نثبت لله ما ثبت ولو شنع علينا من شنع، فإذا جاءوا وقالوا: إثبات الوجه لله تجسيم، فنقول: نحن نثبت لله الوجه، وسمه تجسيماً أو لا تسمه فنحن لا نلتفت إلى قولك، نحن نثبت لله اليدين كما يليق بجلاله وعظمته، وإذا سميت هذا تشبيهاً وتجسيماً فنحن لا نلتفت لتسميتك، ولن نرد الصفة لأجل تشنيعك علينا بأننا مجسمة أو مشبهة أو حشوية أو نابتة أو غير ذلك، كما أننا -مثلاً- لا نرد محبة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأجل تشنيع الرافضة حينما يقولون: لا ولاء إلا ببراء.

فالرافضة يقولون: من لم يبغض الصحابة فهو ناصبي، فنقول لهم: كيف سميتموه ناصبياً؟ هذه الشناعات لا نلتفت إليها، نحن نحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً، وبالمقابل لو قال لنا ناصبي: لا تحبوا آل البيت؛ لأن محبة آل البيت رفض، فنقول: حتى ولو شنعتم علينا وقلتم إن محبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفض، فنحن لا نخضع لقولكم، بل نحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة اللائقة بهم، حتى ولو شنعتم وسميتم ذلك رفضاً، وحالنا كما قال الشاعر: إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي والآخر يقول: إن كان نصباً حب صحب محمد فليشهد الثقلان أني ناصبي يعني: أن

العبارات والشناعات لا تغير من حقائق الأمور، فنحب أصحاب الرسول، ونحب آل بيت رسول الله، ولو أن هؤلاء سموه نصباً وأولئك سموه رفضاً.

كذلك أيضاً نثبت لله الوجه واليدين والاستواء والنزول **كما أثبته الله لنفسه** بما يليق بجلاله وعظمته، حتى وإن سمت المعطلة هذا تشبيهاً أو تجسيماً أو غير ذلك.

فلا ينبغي للمتمسك بمنهج أهل السنة والجماعة أن يستسلم لتشنيع هؤلاء، ومثله تماماً ما يفعله كثير من الناس اليوم، إذا أحدهم رأى الشاب المسلم قال: هذا متطرف متزمت أصولي إرهابي إلى آخره! فلا ينبغي للإنسان أن يترك سنة الرسول وأن يترك التمسك بما أوجب الله عليه وأوجب عليه رسوله صلى الله عليه وسلم لأجل شناعات هؤلاء.

فمثلاً: الذي يرفع ثوبه فوق الكعبين، يقال عنه: إنه متطرف أو متشدد، أو يشنع عليه بأنواع الشناعات، فلا ينبغي للإنسان أن يلبس ثوباً وينزله تحت الكعبين حتى تزول عنه الشناعة، وإنما يلتزم هدي الرسول صلى الله عليه وسلم ولو شنع المشنع، فيجب الالتزام بكل سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهكذا مسيرة أهل الزيغ والضلال متشابهة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى ما شاء الله، فإنهم في كل وقت يخترعون ألقاباً جديدة يشنعون بها على المتمسكين وعلى المتشبثين بكتاب ربهم وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم.

والمؤمن الصادق الواثق من نفسه الواثق من منهجه هو الذي لا يعبأ بمثل هذه العبارات، ولا بمثل هذه الشناعات، بل يعتز بدينه اعتزازاً قوياً، والله سبحانه وتعالى مؤيده وناصره ومثبته.

معنى قول الشافعي: (آمنت بما جاء عن الله على مراد الله)

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله]** .وهذه عبارة عظيمة للإمام الشافعي رحمه الله.

أي: أنه يؤمن بالله تعالى وبما جاء عن الله في كتابه، وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته على مراد الله وقصده، وعلى مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصده.

والمعنى: أنني آمنت بهما كما أراد الله تبارك وتعالى وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد يقول القائل: وهل معنى ذلك التسليم: أنني آمنت بما آمنت به لكن لا أعرف معناه؟ فنقول: لا؛ فإن الله تعالى لما أنزل علينا القرآن أراد منا أن نتلوه، وأن نعرف معناه، وأن نفهمه، وأن نعمل به، وإلا فكيف نعمل بالقرآن ونحن لا نفقه معناه؟! قال عز وجل: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد:24] ، وقال: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [المؤمنون:68] ، وقال: {أَفَلا تَعْقِلُونَ} [البقرة:44] إلى آخر الآيات.

أذاً: مراد الله لما أنزل علينا هذا القرآن وفيه أسماء الله وفيه صفاته أن نتدبر.

ومن هنا فنحن نثبتها على ما أراد الله؛ لأن سياقات هذه الآيات القرآنية دالة على ذلك، فحينما يقول الله سبحانه وتعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:2] أراد الله أن نفهم أنه شديد العقاب، لا أن نثبت اللفظ ولا نفقه المعنى، فوالله! لو كان هذا هو المراد ما فقهنا آيات القرآن من أولها إلى آخرها؛ لأنه لا تخلو –تقريباً– جملة من الآيات في سياق واحد من التذكير بأسماء الله وصفاته، فإذا كنت لا تفهم معنى أن الله شديد العقاب فمعنى ذلك: أنك ما فقهت الوعيد الذي ترتب عليه في هذا النص حينما نهاك الله سبحانه وتعالى عن مخالفة أمره، وأمرك باتباع ما أمرك وهكذا.

وكذلك أيضاً على مراد رسول الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم حدث أصحابه، وقال لهم: (ينزل ربنا) ، وقال: (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة أن يثبتوا أن الله يُرى كما يُرى القمران، والتشبيه إنما هو للرؤية، وليس للرئي بالمرئي، فهذا هو معنى عبارة الشافعي رحمه الله تعالى.

وعلى هذا دَرَجَ السَّلَفُ وأَئِمَّةُ الخَلَفِ – رضي الله عنهم –، كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ على الإقْرارِ، والإمْرارِ والإثْباتِ لما وَرَدَ مِن الصِّفاتِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لتأْوِيلِهِ. وقد أُمِرْنا بالاقْتِفَاءِ لآثارِهِمْ والاهتداءِ بمنارِهِم، وحُذِّرْنا المُحْدَثاتِ، وأُخْبِرْنا أنَّها مِنَ الضَّلالاتِ، فقالَ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – «عَلَيْكُم بِسُنّتِي وَسُنّةِ الخُلَفاء الرّاشِدِينَ المَهْدِيّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضّوا عَلَيْهَا بِالنّوَاجِذِ, وَإِيّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ, فَإِنّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ, وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ».

التعريف بالسلف والخلف

ثم قال المصنف: **[وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم]** .

السلف هم السلف الصالح رحمهم الله ،وعلى الإطلاق هم الصحابة رضى الله عنهم

وقول المصنف هنا: (وأئمة الخلف) ، الخلف لها معنىً لغوي ولها معنىً اصطلاحي، كما أن السلف لها معنىً لغوي ولها معنىً اصطلاحي.

فالمعنى اللغوي للسلف والخلف هو: أن السلف من سبق، والخلف من لحق، فيقال: هؤلاء سلف، وهؤلاء خلف لهم، فمن تقدم سلف، ومن جاء بعدهم يقال لهم خلف، هذا المعنى اللغوي، لكن بعد الخوض وبعد التفرق الذي وقع في الأمة الإسلامية صار لكل من السلف والخلف معنى خاص به، وهذا المعنى يدل دلالة اصطلاحية معينة، فصار السلف يدل على من سار على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، سواء كان في عهد الصحابة أو في عهد التابعين، أو من بعدهم إلى آخر الزمان.

وصار الخلف يصطلح على من حرف وغيرَّ وبدل، فيقال: هذا من الخلف، أي: أنه مغير لا يسير على منهج السلف، فكلمتا (السلف والخلف) كلمتان متقابلتان، فالخلف: كل من يتأول، سواء كان في الزمن الأول -يعني في عصر التابعين ومن بعدهم- أو في العصر الحديث، فكل من تأول النصوص نقول عنه: هذا على منهج الخلف.

والمصنف قال: (وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم وأرضاهم، فكلمة السلف سواء كانت هنا بالمعنى اللغوي أو الاصطلاحي ليس فيها إشكال، لكن كلمة (الخلف) المقصود بها: المعنى اللغوي.

وقوله: (وأئمة الخلف) ، أي: الأئمة الذين جاءوا بعد السلف، فإنهم ساروا على منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى، ولم يقصد أن أئمة الخلف وأئمة البدع هذا منهجهم، وإنما قصد أئمة الخلف الذين جاءوا بعد أولئك السلف رضي الله عنهم.

فكلام الإمام الشافعي واضح، وقد استدل به المؤولة بأن الشافعي رحمه الله لا يعلم معاني تلك الآيات والأحاديث التي في الصفات، فقال "آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله–

صلى الله عليه وسلم –'' فقالوا هذا يعني أنه أحال المعنى على مراد من تكلم به، وهذا يدل على أنه لم يفهم المعنى، وهو الإمام الشافعي.

والجواب أنه لم يُرد ذلك، وإنما هذا إيمان مجمل، فنحن نقول كما قال الإمام الشافعي: آمنا بالله وبما جاء عن الله فيما علمنا وفيما لم نعلم على مراد الله. هذا يقتضي تمام التسليم وتمام الامتثال لما أُمرنا به، كذلك: آمنا برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبما جاء عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على مراد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما علمنا من النصوص وما لم نعلم. فهذا إيمان مجمل، معناه أننا لا نترك شيئا مما جاء عن الله ولا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا ونحن مؤمنون به ما علمنا منه وما لم نعلم كل من عند ربنا. والشافعي رحمه الله قال هذه الكلمة إتباعا لما أمر الله جل وعلا به في كتابه حيث قال { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } [آل عمران:7]، فما علمنا معناه واضح الإيمان به، وما جهلنا معناه واشتبه علينا نقول: آمنا به على مراد ربنا جل وعلا وعلى مراد رسولنا – صلى الله عليه وسلم –، حتى نسأل فيه أهل العلم، فإذا سألنا فيه أهل العلم وبينوا لنا معاني الكتاب والسنة هنا نعتقد المعنى كما نعتقد في الألفاظ.

ثم ذكر أن التأويلات هذه مُحْدَثة، وهذا ظاهر بين فإن الصحابة – رضي الله عنهم – في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – تلقوا النصوص من الكتاب والسنة بالتسليم, بل إن هذا الأمر وهو حال الصحابة رضوان الله عليهم مع نصوص الكتاب والسنة هو الذي هدى اللهُ جل وعلا به بعض كبار الأشاعرة؛ مثل الجويني له رسالة مشهورة، وكان مما قال فيها: أنني وجدت النبي – صلى الله عليه وسلم – يأتيه الأعرابي وغير الأعرابي، والذكي والبليد، والفطن وغير الفطن، فيسمعون منه الآيات المشتملة على الصفات التي يقتضي ظاهرُها التشبيه والتمثيل؛ يعني عند المؤولة، ويشمل الآيات التي تشتمل على الأمور الغيبية، ثم إن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يُتبع ذلك ببيان يقول فيه ولو مرة واحدة، لا تعتقدوا ظواهر هذه النصوص فإن لها معاني تخفى، فيأتيه الأعرابي من البادية فيسمع القرآن، ويأمره الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يؤمن بالكتاب، وبما يسمع من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – بما يفهمه من معنى بلغة العرب. قال: وهذا يدل دلالة واضحة بينة على أن ظواهر هذه النصوص مُراد، وأنه لا يجوز تأويلها بحال؛ لأنه لو جاز تأويلها حيث إن ظاهرها يوهم

المشابهة والمماثلة لوجب على النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يبين ذلك للأعراب الذين يأتونه من بقاع شتى وهم على جهل وعلى عدم علم وربما توهمت أنفسهم في تلك المعاني ظاهر ما يدل عليه اللفظ. فقال: لما لم يتبع ذلك ببيان دل على أن ظواهر النصوص مُرَادٌ وأن الإيمان بتلك النصوص واجب على ما ظهر من معناها على قاعدة قطع المماثلة التي ذكر الله جل وعلا في قوله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى:11].

إذن في عهد الصحابة لم يحدث تأويل ولم يحدث خلاف في الاعتقاد، وكذلك في عهد التابعين، حتى بدت في أواخر عهد التابعين الضلالات تظهر مع طوائف من الخوارج، ثم المعتزلة ثم انتشر ذلك في الأمة، وهذا يدلّك على أن التأويل والمخالفة في النصوص؛ في التسليم للنصوص أن هذا من البدع والمحدثات، والبدع والمحدثات مردودة «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» من أحدث في أمرنا هذا في الأمور العلمية ما ليس منه فهو رد، يعني مردود على صاحبه ومن أحدث في أمرنا هذا مما في الأمور العملية ما ليس منه فهو رد؛ مردود على صاحبه، وهذا يدخل فيه الأمور العلمية والعملية، وهذا كما سيأتي من كلام ابن مسعود – رضي الله عنه – حيث قال '' اتَّبِعُوا ولا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ ''.

معنى اتفاق السلف وأئمة الخلف على الإقرار والإمرار

ثم قال المصنف: [كلهم متفقون على الإقرار والإمرار] .

قوله (على الإقرار) أي: الإقرار واليقين والإيمان والإثبات لتلك الصفات الواردة في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقوله: (والإمرار) أي: أنهم يمرونها ولا يتعرضون لتأويلها وتحريفها.

ولذا قال المصنف: [والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله] .

وهذا واضح المعنى، ولكن نقف عند قوله: (والإمرار) ؛ لأنه ورد عن جمهرة من السلف أنهم سئلوا عن الصفات، فقالوا: أمروها كما جاءت.

فهل معنى قولهم: (أمروها كما جاءت) أن نمر بلفظها دون التعرض لها، ودون إثبات ما دلت عليه من المعاني؟ نقول: بعض المفوضة ظنوا أن مثل هذه العبارة دليل لهم على التفويض، لكن الصحيح أنها ليست كذلك؛ فإن السلف رحمهم الله تعالى أثبتوا الصفات، وأثبتوا ما

دلت عليه، ثم إذا سئلوا عن الصفات قالوا: أمروها كما جاءت، يعني: لا تتعرضوا لتأويلها كما تعرض لها أهل التأويل.

والدليل على ذلك أنه ورد عن السلف مثل هذه العبارة في غير ما حديث، فسئل الإمام أحمد عن أحاديث الوعيد، كقوله عليه الصلاة والسلام: (اثنتان في أمتي هما بهم كفر) وقوله: (والله! لا يؤمن) ، وقوله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) ، فقال رحمه الله تعالى: تمر كما جاءت.

فدل على أن كلمة (تمر كما جاءت) ليست خاصة بصفات الله؛ حتى لا يأتي قائل ويقول: المقصود بذلك التفويض، وإنما المقصود -كما أشرنا- عدم التعرض لها بتحريف أو بتأويل أو تعطيل أو نحو ذلك.

الأمر بالاهتداء بمنهج السلف والتحذير من المحدثات

ثم قال المصنف: **[وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم والاهتداء بمنارهم]** .

أي: أمرنا بأن نقتدي بهؤلاء السلف رحمهم الله تعالى، وأن نهتدي بمناراتهم العالية المضيئة التي أبرزوا من خلالها المنهج الحق الوسط، منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى.

ولهذا قال: [وحذرنا المحدثات، وأخبرنا أنها من الضلالات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم، (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين والمهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم! ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)] .

وهذا استشهاد من المصنف رحمه الله تعالى بهذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أمته باتباع السنة، وحذرهم من البدع، وأمرهم باتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ولهذا لو تأملت ما ورد عن الخلفاء الراشدين لوجدته تطبيقاً عملياً لما في كتاب الله وما في سنته صلى الله عليه وسلم، ولم يقع منهم تحريف أو تأويل أو تغيير أو تفويض، وأما الخلاف في باب الأحكام فهذا واقع حتى بين الصحابة، كما حدث حين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فاختلف الصحابة، لكن في باب إثبات الأسماء والصفات لم يقع في هذه العهود المفضلة بين الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أي اختلاف.

ولهذا أمرنا باتباع هدي وسنة الخلفاء الراشدين؛ وذلك في باب العقيدة وفي باب المنهج.
ثم قال صلى الله عليه وسلم: (وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) ، فحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمور المحدثة التي هي بدع وضلالات.
والبدعة هي: أمر محدث في الدين، فيه مضاهاة لما ورد في الشريعة، وإنما قلنا هذا حتى يخرج عن ذلك الأمور الحادثة التي هي من باب العادات، فلا يقول إنسان مثلاً: إنهم كانوا يركبون الإبل في الزمن القديم، فالسيارات بدعة، لأن هذه الأمور من باب العادات، والأصل فيها الإباحة، وإنما تضبط بقواعد الشرع العامة فقط من خلال المقاصد ونحو ذلك.
لكن المقصود بالبدعة: أن يبتدع الإنسان أمراً في الدين، سواء كان هذا الأمر أمراً عقدياً أو أمراً يتعلق بالعبادة والشرع، فهو بدعة وضلالة.
فأهل الأهواء تجد كل واحد منهم ابتدع بدعاً كثيرة مخالفة لنص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فنقول: هذه بدعة، كبدع الجهمية في باب الصفات، وفي باب القدر، وبدع المعتزلة في باب الصفات وفي باب القدر، وبدع الروافض في باب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرها، وبدع القدرية وبدع المرجئة، هذه كلها بدع محدثة في باب العقائد مخالفة لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام.
ومثله أيضاً البدع العملية، مثل أولئك الذين يبتدعون أوراداً أو أذكاراً أو موالد أو غير ذلك، فهذه بدع عملية؛ لأن صاحبها يريد أن يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بهذا العمل، فاخترع هذا الذكر بهذا الشكل وبهذه الصياغة وبهذه الجماعية في هذا الوقت، فهذه الأمور كلها تحول هذا الأمر إلى أمر بدعي.
ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البدع جميعاً فقال: **(وكل بدعة ضلالة)** ، ولهذا فإن المنهج الصحيح هو السير على منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهاج أصحابه، فإن ذلك لا يتعارض أبداً مع مستجدات العصر.
بمعنى: أنه لا يمكن أن يأتي زمان -مهما كان هذا الزمان- نحتاج فيه إلى تغيير في شرع الله تعالى؛ لأن الشرع كامل صالح لكل زمان ومكان، فقد تتغير أمور الناس، وتتغير أشكال حياتهم، وتتغير الوسائل، لكن تبقى الأصول التي أمر الله بها وأمر بها رسوله وشرعها الله وشرعها الرسول صلى الله عليه وسلم لا تتغير ولا تتبدل أبداً.

وهذه هي الثوابت في دين الله تعالى التي لا تقبل التغيير أبداً، وأي تغيير فيها هو اتهام لهذه الشريعة بالنقص، سواء كان في باب العقائد والتصورات ونحو ذلك، أو في باب الشريعة وتطبيقها، أو في باب العبادات التي يتقرب بها العباد إلى ربهم سبحانه وتعالى، كل هذه الأمور مما جاءت به الشريعة كاملة، ولا تتغير هذه الأمور أبداً مهما اختلف الزمان، ومهما تغير المكان، وهذا واضح جداً، والحمد لله تعالى.

شرح أثر ابن مسعود رضي الله عنه (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم)

قال المصنف رحمه الله: **[وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كفيتم]**

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ – رضي الله عنه – كلامًا معناهُ "قِفْ حيثُ وَقَفَ القومُ، فَإِنَّهُم عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وبِبَصَرٍ نافِذٍ كَفُّوا، وَلَهُمْ عَلَى كَشْفِها كانوا أَقْوَى، وبالفَضْلِ لوْ كانَ فيها أَحْرَى، فَلَئِنْ قُلْتُمْ حَدَثَ بَعْدَهُم، فَمَا أَحْدَثَهُ إلا مَنْ خَالَفَ هَدْيَهُمْ، وَرَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ، ولقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ ما يُشْفِي، وتَكَلَّمُوا مِنْه بما يَكْفي، فَما فَوْقَهُم مُحَسِّرٌ، وما دونَهم مُقَصِّرُ، لَقَدْ قَصُرَ عَنْهُم قَوْمٌ فَجَفَوْا، وَتَجاوَزَهُمْ آخَرُون فَغَلَوْا، وإِنَّهُمْ فِيما بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مستقيمٍ".

وقالَ الإمامُ أبو عمْرٍو الأوزاعيُّ – رضي الله عنه – "عليْكَ بآثارِ مَنْ سَلَفَ وإنْ رَفَضَكَ النّاسُ، وإيّاك وآراءَ الرِّجالِ وإنْ زَخْرَفُوهُ لَكَ بالقوْلِ"

قوله: (اتبعوا) ، أي: ابحثوا عن الاتباع، وقوله: (ولا تبتدعوا؛ فقد كفيتم) ، أي: أن الشريعة كاملة، ومنهج السلف الصالح الذين طبقوا هذه الشريعة كان منهجاً كاملاً، فلستم بحاجة إلى أن تخترعوا أشياء، ولهذا من العجيب جداً أن كثيراً من المسلمين يظن أن الأمور لا تصلح إلا بأن يأتي هو بشيء جديد، ويريد أن يزيد تعبيد الناس لربهم تبارك وتعالى، فمثلاً: في باب الأذكار نجد أذكاراً مبتدعة؛ ونحن لسنا بحاجة إلى أذكار التيجانية ولا النقشبندية ولا الأحمدية ولا غيرها من الطرق الصوفية، فإن عندنا مما ثبت من كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم مئات الأذكار التي لو طبقناها وأخلصنا في تطبيقها لكنا أعبد الناس، ففي كل حالة وفي كل لحظة من لحظات الإنسان هناك أذكار، فهناك أذكار في الصباح في المساء

أعقاب الصلوات في القدوم في الركوب في السفر في النوم في الاستيقاظ، بل حتى والإنسان في أخص خصوصياته مع أهله، كل هذه الأمور ورد فيها ذكر.

فهل نحن بحاجة إلى أن نقول: إن الناس فعلاً انحرفوا وضلوا، فنحن بحاجة إلى أن نقربهم؟

الجواب

لا، والله! لقد كفينا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد أكمل الشريعة، وأكمل التبليغ، ووصلنا هذا كاملاً والحمد لله بأسانيد صحيحة، فلسنا بحاجة أبداً إلى أن يأتينا أناس يكملون.

ولهذا صارت هذه الأمور ما هي إلا بدع وضلالات؛ لأن فيها اتهاماً للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ما كمل هذا الدين، وما كمل التبليغ، وفيها اتهام لربنا تبارك وتعالى وتقدس وتنزه أنه لم يكمل لنا الشريعة.

يقول ابن مسعود: (فقد كفيتم) ، نعم نحن مكفيون بكتاب الله عز وجل وبما صح من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومكفيون بذلك التطبيق العملي من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فلسنا بحاجة إلى أن نأتي ببدع نزعم أننا نقرب الناس بها إلى ربهم تبارك وتعالى.

كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في الوقوف عندما وقف عنده الصحابة

قال المصنف رحمه الله: [وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: قف حيث وقف القوم] .

وهذا الكلام مروي عن عمر بن عبد العزيز في كثير من كتب السنة.

و الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى له موقف فريد مع أهل البدع، فقد اشتهر رحمه الله تعالى بالعدل، ووصفت بأنها راشدة، فكأنها تابعة لخلافة الخلفاء الراشدين؛ وإن كانت ولايته زمنها يسير إلا أنه حرص على أن يعود بالأمة إلى المنهج الحق والصدق في كثير مما انحرفت عنه، وإلا فالأمة الإسلامية في وقته كانت في غالب أمورها سائرة على المنهج الصحيح، لكن وقع شيء من الظلم وبعض الانحراف، خاصة لما نشأ التفرق والخلاف بين الطوائف والأحزاب ونحو ذلك، فأراد عمر بن عبد العزيز أن يعود بالأمة إلى منهج الصواب. وحاول رحمه الله تعالى محاولة جادة، ووفق في ذلك أيما توفيق.

وصية عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالوقوف حيث وقف السلف

قال رحمه الله تعالى موصياً أصحابه وإخوانه: (قف حيث وقف القوم) ، والمقصود بالقوم هنا السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين ساروا على منهاجهم رضي الله عنهم جميعاً، فلا تغير ولا تبتدع، ولكن انظر ماذا قالوا فقل، وانظر أي موقف وقفوا فقف معهم حيث وقفوا.

منهج السلف مبني على علم

ثم إنه رحمه الله تعالى علل ذلك بتعليل دقيق جداً فقال: [فإنهم عن علم وقفوا] .

وهذه العبارة عبارة منهجية في الصميم، تبين منهج أهل السنة والجماعة.

فإنهم عن علم وقفوا وليس عن عجز، وبعض المتكلمين المتأخرين الذين ابتدعوا الكلام إذا قيل لهم: إن السلف ما تحدثوا عن ذلك، قالوا: كانوا مشغولين بالجهاد.

بل إن بعضهم قد يتهم الصحابة ومن بعدهم بأنهم لم تكتمل عقولهم ومعرفتهم العقلية واطلاعهم على القضايا المنطقية، أي أنه يقول: لو اطلعوا على ذلك لتكلموا هذا الكلام.

وهذا القول قول غير صحيح إطلاقاً، كما قال عمر بن عبد العزيز: (فإنهم عن علم وقفوا) ، بمعنى: أن السلف الصالح رحمهم الله تعالى سلكوا ذلك المسلك في باب الأسماء والصفات عن قناعة منهجية علمية، وليس كما يزعم البعض أن هؤلاء السلف إنما يسمعون النصوص وينقلونها كما سمعوها فقط، بل أولئك السلف سمعوا النصوص وفهموها وعرفوا مدلولاتها وأثبتوها، بل هم أرجح الناس عقلاً، وأعظم الناس فهماً، وأكمل الناس ديناً وتقوى، ومن ثَمَّ كان فهمهم أصح الأفهام، وعلمهم أعمق العلم وأدقه بالنسبة لمن بعدهم.

فهم لما جاءتهم هذه النصوص نظروا إليها بالميزان الصحيح، فوجدوا أن هذه الأمور إنما هي أمور إخبارية تتعلق بالله وأسمائه وصفاته، والخبر عن الله وأسمائه وصفاته مما لا تدخل في مجاله العقول؛ فإن البشر مهما أعملوا عقولهم فلا يمكن أن يصلوا إلى هذه الحقائق، فلما كان الأمر كذلك وكلوا كيفية الاطلاع والعلم بهذه الأمور إلى الخبر الصادق، فوجدوا أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فيها البيان فأثبتوها.

إذاً: المنهج الحق العلمي الصحيح لأهل السنة والجماعة ليس هو أن تعمل عقلك في كل شيء، وأن تزعم بأن إعمال العقل في كل الأمور هو دليل عمق الفهم ودقة التعبير والتحصيل ونحو ذلك، وإنما المنهج الصحيح هو أن تعطي كل ذي حق حقه، فإذا كان هناك خبر عن

غائب فأنت والحالة هذه يجب أن تأخذ الخبر من مصدره؛ لأنه لا مجال لذلك الخبر بالنسبة لعقلك، مهما أعملت فكرك فيه، وهذه قضية منهجية.

وأما في المجالات الأخرى، التي للعقل فيها مجال فإنهم أعملوا عقولهم، وعمروا الدنيا، وخططوا إدارياً وعسكرياً واقتصادياً وسياسياً، بل إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتبت كتابات مستقلة -وهو قائل هذه العبارات- عن مناهجه في هذا الباب، وفي هذه الأمور كلها، وقبله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

إذاً: في المجال الذي يفيد المسلمين وللعقل وللتفكير فيه مجال فكروا وأنتجوا ما ينفع المسلمين، لكن المجال الذي مهما أعمل الإنسان فيه عقلاً لم ينتج وقفوا.

نفوذ بصر السلف رحمهم الله

ومن هنا قال رحمه الله تعالى هذه العبارة العظيمة المحددة لمنهج أهل السنة، قال: [فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا] .

قوله: (وببصر نافذ) ، البصر: بصيرة العقل، ولهذا ورد في حديث رواه البيهقي في الزهد وغيره: (إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات) .

فهؤلاء عن بصر نافذ دقيق جداً وتبصر حقيقي منهجي كفوا عن الخوض في هذه المسائل، فلم يخوضوا فيها كما خاض المتأخرون، ولم يقولوا: هذا نثبته وهذا لا نثبته، وهذا مجاز، وهذا العقول خالفته وناقضته، ونتأول أو لا نتأول، ما خاضوا في هذه الأمور، وإنما أثبتوا ما ورد، ووقفوا، فهم رحمهم الله تعالى ببصيرة وعقل كفوا عن الخوض فيها، لا عجزاً كما يدعي بعض المتكلمين الذين أشرنا إليهم قبل قليل حينما يسألون عن اختلاف منهجهم عن منهج السلف الصالح السابق، فيأتون بتلك العبارة المشهورة فيقولون: مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم! وهذه عبارة خاطئة، بل إن مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم، ومذهب الخلف ليس أسلم ولا أعلم ولا أحكم.

كف السلف عن الخوض في المسائل التي ابتدعها المتأخرون

ثم قال رحمه الله تعالى: [وهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى] .

قوله: (وهم على كشفها كانوا أقوى) أي: إن أولئك السلف الصالح رحمهم الله تعالى لو أرادوا أن يخوضوا في تلك المسائل بعقولهم لاستطاعوا أن يخوضوا فيها، وهذه الأمور التي ابتدعها المتأخرون وقالوها لو كانت خيراً لسبق أولئك إليها.

ولو كان ما فيها من معانٍ هي مما يليق بالله سبحانه وتعالى لسبق أولئك ولكشفوها؛ فإنهم كانوا أعمق الناس، وأذكى الناس، وأرجح الناس عقولاً، رحمهم الله تعالى.

وقوله: **(وبالفضل لو كان فيها أحرى)** ،أي: أنهم كانوا أسبق إلى الفضائل، ولهذا كل من جاء بعدهم أقل فضلاً منهم، والرسول صلى الله عليه وسلم أعطى ذلك القرن الخيرية فقال: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) .

فالقرن الذي نبتت فيه نابتة الافتراق والاختلاف والأقوال البدعية وغيرها، لا يمكن أن يكون أفضل من القرن الذي كان فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا فهم كانوا أسبق الناس إلى أنواع الفضائل من أولها إلى آخرها، فكانوا أسبق الناس إلى كل فضل وإلى كل خير.

ثم قال رحمه الله تعالى: [**فلئن قلتم: حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من خالف هديهم، ورغب عن سنتهم**] . يعني: أن هذه الأمور المحدثات كلها مخالفة لهدي أولئك السلف الكرام رحمهم الله تعالى، ورغبة عن سنتهم، فكل ما ابتدعه المتأخرون -كما أشار عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى- مخالف لهم، ومخالف لهديهم وسنتهم.

ثم قال: [**ولقد وصفوا منه ما يشفي، وتكلموا منه بما يكفي**] .

قوله: (وصفوا منه ما يشفي) ، أي: أن أولئك الصحب الكرام نقلوا ما ورد من هذه الصفات ومسائل العقيدة كلها، وكل ما نقلوه إلى من بعدهم هو مما يشفي القلوب، ولهذا من اقتصر على هديهم انشرح صدره، وشفي قلبه، ومن لم يقتصر على ذلك بل ظن أنهم قصروا فأعمل عقله وأدخل نفسه في باب التأويلات الباطلة ونحوها، انتابته الأمراض المتعددة.

وبلا شك أن اطمئنان السلف الصالح ليس كفوضى المتأخرين، فمن سلك سبيلهم كان أكثر اطمئناناً، فهم رحمهم الله تعالى وصفوا لنا وبلغونا ما يشفي، وتكلموا بما يكفي؛ فإنهم رحمهم الله تعالى كان كلامهم قليلاً، لكن كان مفيداً، وكان كلامهم مربوطاً بعمل، بخلاف من كان

بعدهم، فقد كثر كلامهم، وقل فقههم، وتقلص عملهم، فأصبح المتأخرون يقولون ما لا يفعلون، ويكثر كلامهم بلا فائدة.

حال من خالف منهج السلف الصالح

ثم قال رحمه الله تعالى: **[فما فوقهم محسر، وما دونهم مقصر]** .

أراد رحمه الله تعالى أن يبين أن منهجهم وسط، فمن أراد أن يغلو ويثبت غير ما أثبتوه، ويظن أنهم أنقصوا بعض الحاجات، فإنه غالٍ عنهم، غير متبع لطريقتهم، ومن دونهم قصر ولم يأخذ بجميع ما جاءوا به، وإنما اكتفى ببعضه ونحو ذلك، فهو مقصر.

ولهذا فلفظة (محسر) هنا ترجع إلى بعض المعاني اللغوية، فإن المقاتل الذي ليس عليه درع ولا على رأسه مغفر يسمى حاسراً.

ولهذا في قصة بني قينقاع كان يقول أحد المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم: يا محمد أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع تضرب أعناقهم مرة واحدة، هذا لا يكون.

فقوله: حاسر، يعني: ليس معهم سلاح، وليس عليهم دروع، وليس على رءوسهم المغفر الذي يتقون به ضرب السيوف، فهم حُسَّر، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى بالنسبة للسماء: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك:1-4] .

ومعنى (حَسِيرٌ) : كليل ضعيف من شدة النظر؛ فإن الإنسان إذا نظر واشتد نظره إلى شيء، ولم ينته فيه إلى أمر، رجع إليه البصر حسيراً كليلاً؛ لأنه لم يصل إلى غاية، وهذا واضح

هذا الإكلال جاء من شدة المبالغة في النظر.

وهنا يقول عمر بن عبد العزيز: فما فوقهم محسر، أي: من أراد أن يقول أنا أفضل من الصحابة ويثبت ما لم يثبتوه، ويعمل ما لم يعملوه مما فيه هدي الرسول صلى الله عليه وسلم فهو محسر، فيرجع كليلاً، ولهذا قيل: إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

ولهذا قال شارحاً ذلك: **[لقد قصر عنهم قوم فجفوا]** .

فالجافي هو المقصر؛ لأن المقصر هو الذي أعرض، فكأنه أعرض عن بعض منهجهم.

ثم قال: [وتجاوزهم آخرون فغلوا] .وهذا تفسير للعبارة السابقة.

ثم قال: **[وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم]** .

أي: إن أولئك السلف والصحب الكرام رحمهم الله تعالى كانوا بين ذلك على طريق مستقيم. فرضي الله عن عمر بن عبد العزيز فقد نصحنا بنصيحة شافية كافية لو كان في القلوب حياة, قال ''عليك بآثار من سبق'' ثم وصف من سبق وهم الصحابة – رضي الله عنهم –، بأنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفُّوا, **فقسم حال الصحابة إلى قسمين:**

الأول: أنهم وقفوا على علم؛ فهم أعلم الناس، أعلم هذه الأمة هم صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وهم أحرى بالعلم من غيرهم وما بعدهم ينقص فيهم العلم، فالصحابة هم أهل العلم، وأهل الإدراك، وأهل العقول المستقيمة، وأهل الأفهام المستنيرة, هم أهل فهم الكتاب والسنة, وتفسير الكتاب والسنة إنما يؤخذ من مشكاة الصحابة رضوان الله عليهم, وصفهم عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – بقوله ''فإنهم على علم وقفوا'' وقفوا على علم؛ العلم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، أو على علم علموه من الكتاب والسنة بما فهموه بما تقتضيه لغة العرب، أو بما علّمه بعضهم بعضا، فما ذكروه من المسائل ذكروه على علم وعلى بصيرة،

والقسم الثاني: ما كفوا عنه وسكتوا عنه قال ''وببصر نافذ كفوا'' ببصر كفوا عمّا كفُّوا عنه، فلم يدخلوا في مسائل مما دخل فيها ممن بعدهم، لأجل عجزهم؟ لا، ولكن لأجل نفوذ بصرهم وبصيرتهم وفهمهم وإدراكهم وعلمهم، فإنهم تكلموا فيما تكلموا فيه على علم وقفوا عليه، وما سكتوا عنه أو لم يدخلوا فيه فإنهم كفوا عنه ببصر وبصيرة.

وهذا الذي يجب، فإنه يجب علينا أن ننبذ الآراء والعقول والأفهام التي تخالف ما كان عليه صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أمور الإعتقاد جميعا، بل وفي أمور الدين جميعا، فكل ما كان عليه صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهذا هو الميزان المستقيم الذي تزن به فهمك، وتزن به الأحوال والأمور والفئات والناس، لأننا أُمرنا بالاتباع، وعمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – أوصانا بهذه الوصية الكافية الشافية؛ بأننا نتبع الصحابة لأنهم تكلموا فيما تكلموا فيه على علم، فهدي الصحابة واجب الاتباع، سواء كان ذلك في الأمور الاعتقادية، أو كان ذلك في الأمور العملية، أو كان ذلك في الأمور

السلوكية؛ يعني في أمور الأخلاق والعبادات والزهد ونحو ذلك، فما جاوز طريقتهم فهو غلو، وما قَصُرَ عن طريقتهم فهو تحسير، فما دونهم مقصر، وما زاد على ما أتوا به فهو من الغلاة والذين سيكون مآلهم إلى التقصير والحسرة،لذلك فإن دعوتنا إحياء منهج الصحابة وفقههم.

فهذا كلام عمر بن عبد العزيز كمنهج عام، وهو الذي اتبعه الأئمة في أبواب الاعتقاد والعمل والسلوك إلى آخره، فقالوا ما جاء عن الصحابة نأخذه، فمنهاج الصحابة هو الميزان، وفهم الصحابة هو الميزان، و طريقة الصحابة هي الميزان، فهم أهل العلوم وأهل العقول وأهل الأفهام، وما حدث بعدهم فإنما حدث بالرأي، مثل ما أوصاك به أبو عمرو الأوزاعي الإمام المشهور إمام أهل الشام البيروتي حيث قال "**إياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول**" وإن زخرفوا الآراء بالأقوال، ونمّقوا القول وزخرفوه وجملوه، فإياك وإياه، لا ترغب عن السنة لأجل تحسين من حسّن رأيه بألفاظ، وخُذ بالسنة وبما جاء عن أهلها وإن كان أهلها لا يحسنون اللفظ ولا تجميله؛ لأن الميزان هو الاتباع، فمن اتبع فهو الناجي، ومن ابتدع فهو الهالك، وقانا وإياكم سُبُل الهلاك.

وصية الأوزاعي رحمه الله باتباع آثار السلف وترك آراء الرجال

ثم نقل كلمة الإمام الأوزاعي فقال: [وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي رضي الله عنه] .

وهو أحد الأئمة المشهورين، وله فقه عظيم، وهو من أئمة التابعين المشهورين رحمه الله تعالى، متوفى سنة (157هـ) .

يقول: **[عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس]** .

وهذه وصية لجميع العلماء، فقوله: (عليك) أي: الزم، (بآثار من سلف) أي: آثار السلف رحمهم الله تعالى، (وإن رفضك الناس) أي: وإن ابتعد عنك الناس أو رفضوا مقالك أو رفضوا منهجك أو رفضوا طريقتك فلا تعبأ بهم، فما دمت سائراً على منهج السلف فلا تعبأ بهؤلاء.

ثم قال: [وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول] .

أي: إياك أن تجعل معتمدك آراء الرجال ولو زخرفوه وحسنوه بالعبارات المنمقة وغيرها، وتترك الكتاب والسنة.

لكن آراء الرجال إذا كانت شارحة أو موضحة لمنهج السلف الصالح فإن الاطلاع عليها مما يعين على ذلك؛ لكن إذا كانت آراء الرجال وزخرفتهم للقول وتنميقهم له مخالفة لما ورد من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاحذر ذلك حذراً شديداً.

وقالَ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الأَذْرَمِيُّ لرَجُلٍ تكَلَّمَ ببدْعَةٍ وَدَعَا الناسَ إليها: هَلْ عَلِمَهَا رسولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكْرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ أوْ لَمْ يعلَموها؟ قال: لَمْ يعلَموها، قال: فَشَيْءٌ لَمْ يعلَمْه هؤلاء أَعلِمْتَهُ أنتَ؟ قال الرَّجلُ: فإنِّي أقولُ قدْ علِمُوها، قال: أَفَوَسِعَهُمْ أنْ لا يتكَلَّمُوا به ولا يدْعُوا الناسَ إليه، أمْ لَمْ يَسَعْهُمْ؟ قال: بَلْ وَسِعْهُمْ، قال: فَشَيْءٌ وَسِعَ رسولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – وخلفاءَه، لا يَسَعُكَ أنتَ؟ فانْقَطَعَ الرَّجلُ، فقال الخليفةُ، وكان حاضِرا: لا وَسَّعَ اللهُ على مَنْ لَمْ يَسَعْهُ ما وَسِعَهُمْ.

وهكذا مَنْ لَمْ يَسَعْهُ ما وَسِعَ رسولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – وأصحابَه والتَّابعين لَهُم بإحسانٍ، والأئمةَ مِنْ بَعْدِهِمْ، والرّاسِخين في العِلْم، مِنْ تِلاوَةِ آيات الصِّفاتِ وقِراءَةِ أخْبارِها، وإِمْرارِها كما جاءَت، فلا وَسَّعَ اللهُ عليه.

فمِمَّا جاءَ مِنْ آياتِ الصِّفاتِ قولُ الله عزّ وجل { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27]، وقولُه سبحانَهُ وتعالى { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64]، وقولُهُ تعالى إخْبارًا عنْ عيسى عليه السلامُ أنَّه قال { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } [المائدة:116]، وقولُه سبحانه { وَجَاءَ رَبُّكَ } [الفجر:22]، وقولُه تعالى { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ } [البقرة:210]، وقولُه تعالى { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } [المائدة:119].

هذا شروع في ذكر آيات الصفات، أو نصوص الصفات التي اشتملت على ذكر أسماء الله جل وعلا أو ذكر صفاته، وصفات الله جل وعلا تنقسم **بأحد الاعتبارات إلى قسمين: صفات ذاتية، وصفات فعلية.**

فالصفات الذاتية: هي التي لا تنفكّ عن الموصوف مطلقا، وهي في حق الله جل وعلا التي لم يزل الله جل وعلا متصفا بها، يعني لا يتصف بها في وقت دون وقت، بل اتصافه بها دائما؛ من مثل صفة الوجه، كما قال جل وعلا { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27]، ومن

مثل صفة اليدين كما قال جل وعلا { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64]، وقال جل وعلا { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص:75] ونحو ذلك من صفات الذات.
وقوله هنا { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27] هذه أول الآيات التي ذكر، وهذه الآية صريحة في إثبات صفة الوجه لله جل وعلا، وقوله(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) وجه الدلالة منه أنه أضاف الصفة -التي هي الوجه- إلى المتصف بها؛ قال(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ).
ونحن نعلم أنه ما يُضاف إلى الله جل وعلا -وهذه قاعدة-: تارة يكون معنى، وتارة يكون ذات.

وإذا كان ذاتا: فتارة تكون ذاتا تقوم بنفسها، وتارة لا تقوم بنفسها:
مثال المعنى مثل الرحمة، والغضب، والرضا، فنقول رضا الله, رحمة الله ونحو ذلك، وهذا إضافة معنى إلى الله جل وعلا.
أما إضافة الذات؛ يعني إلى شيء يكون ذاتا، تارة هذا الذي يكون ذاتا -يعني مستقل له معنى، يعني شيء محسوس، يعني يمكن أن تفهمه بأنه ليس وصفا بدون ذات ولكنه ذات- هذا تارة يكون قائما بنفسه مثل قوله { نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا } [الشمس:13] فهنا أضاف الناقة إلى نفسه جل وعلا فقال (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) والبيت بيت الله كما جاء في الحديث «ثم خرج إلى بيت من بيوت الله» أو «ثم مشى إلى بيت من بيوت الله» فهذا أضاف البيت إلى الله، ومثل القسم الثاني وجه الله, ويد الله، وساق الله, وقدم الله, وعين الله جل وعلا ونحو ذلك، فإذن إذا أضيف ما يقوم بنفسه، فهذا الأصل أنه **تكون الإضافة للتشريف والتعظيم**, فقوله { نَاقَة اللَّهِ } أضاف الله جل وعلا الناقة إلى نفسه، ومعلوم أن الناقة ذات منفصلة تقوم بنفسها، فهذا يقتضي تشريف ما أضافه الله جل وعلا إلى نفسه، ويقتضي تعظيمه.
الثاني مثل بيت الله كذلك, أما وجه الله, { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [الفتح:10]، { بِأَعْيُنِنَا } ونحو ذلك، فالعين، والوجه، واليد، والقدم، والساق، ونحو ذلك، هذه ذوات لكنها لا تقوم بنفسها, يعني لا وجود وجه بدون صاحب وجه, لا توجد يد بدون صاحب يد, لا توجد عين بدون صاحب عين، فهذه إذا أُضيفت إلى الله جل وعلا أو إلى غيره فهذه تقتضي الصفة لا تقتضي التشريف بها.

فإذن تلخص هنا أن الإضافة للذوات على قسمين:

تارة تكون إضافة للتشريف: وهو ما أضيف من الأعيان مما يقوم بنفسه.

وتارة الإضافة تقتضي الوصف: إذا كان لا يقوم بنفسه.

فقوله هنا { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27] وجه الاستدلال أنه أضاف الوجه إلى الله جل وعلا؛ فقال عز من قائل سبحانه (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) فأضاف الوجه إلى الرب، فدل على أنه صفة له، المبتدعة يقولون وجه هنا بمعنى الذات، يعني ويبقى ربك نقول هنا قال جل وعلا(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) ثم وصف الوجه بقوله { ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن:27]، ولما أراد أن يصف الرب جل وعلا قال { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن:28] فوصف الله جل وعلا في أول السورة الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام ووصف نفسه سبحانه دون اسمه في آخر السورة بقوله { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن:28], وذلك أن الله جل وعلا هو ذو الجلال والإكرام وكذلك صفاته ذات جلال وإكرام.

قوله { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64] يداه تجرى عليها القاعدة، هذه من آيات الصفات ؛ لأنه أضاف ذاتا لا تقوم بنفسها إلى الله جل وعلا، أضافها إلى نفسه، فدل أنه إضافة الصفة إلى متصف بها، **واليد في القرآن أتت تارة مفردة، وتارة مثنّاة، وتارة مجموعة:**

فأما المجموعة في قوله-يعني أيدي- { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا } [يس:71]**هذا واحد**.

اثنين قال { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص:75]. وكما قال هنا { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64] فجعلهما اثنتين.

الثالث أنه ذكر يدا واحدة فقال { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } [الملك:1].

وهذا التعارض بين الإفراد والتثنية والجمع, وهل يوصف أن الله جل وعلا له يدا واحدة؟ أو يوصف بأن له يدين؟ أو يوصف بأن له أيديا؟

الجواب:أنه يوصف جل وعلا بأن له يدين, وأما إضافة اليد الواحدة إليه جل وعلا فهذا من إضافة الجنس، فهذا معروف؛ تضيف المفرد وتريد به الجنس, وأما الجمع في قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا } [يس:71]فهنا جمع لأن العرب من لغتها أن المثنى إذا أضيف إلى ضمير جمع أو تثنية فإنه يُجمع, من لغة العرب أن المثنى إذا أضيف إلى ضمير تثنية

أو جمع فإنه يُجمع لأجل خفة اللفظ؛ ممن مثل قوله تعالى { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4] (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ) هما امرأتان, أليس كذلك؟ فخاطبهما بقوله(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ) ثم قال (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)، والمرأتان لهما كم قلب؟ لهما قلبان؛ كل واحدة لها قلب واحد, فإذا كان كذلك فلما جمع؟ الجواب:لأن هذا من سَنن لسان العرب؛ أنه أضيف المثنى إلى ضمير مثنية أو جمع فإنه يجوز جمعه طلبا لخفة اللفظ، فهنا في قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا } [يس:71] (أَيْدِينَا) هنا جَمَع، وليس ثم معارضة بين الجمع هنا وبين قوله { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64]، بل جَمَعَ هنا لأنه أضاف المثنى أصلا إلى ضمير الجمع، فجَمَعَ لأجل الخفة خفة اللفظ، أصل الكلام أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت يَدَيْنَا أنعاما، ثم صارت (أَيْدِينَا)، يعني ما يقتضيه اللسان العربي، فإذن نصف الله جل وعلا بأن له يدين جل وعلا، والآيات التي فيها ذكر اليدين تدل على التثنية، وأما المفرد فلا يعارض التثنية، والجمع كذلك لا يعارض التثنية، على أن بعض أهل العلم حمل قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا } [يس:71] قال هذا جمع وأقل الجمع اثنان, وهذا إحالة إلى أمر مختلف فيه، إذن بعض أهل العلم يقول إن الجمع ثلاثة، ولا يسوغ في مثل هذه المسائل المشكلة أن يُحال إلى أمر مختلف فيه، بل إلى أمر متيقن منه، وهو ما نعلمه من لغة العرب بدلالة تحفظونها، والأشعار على هذه المسألة كثيرة والشواهد كثيرة – معروفة في النحو– لكن إن تحفظ آية سورة التحريم { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }

القسم الثاني: وذكر المجيء والإتيان هذه صفات فعلية، والصفات الفعلية هي التي يتصف الله جل وعلا بها بمشيئته واختياره، يعني يتصف بها بوقت دون وقت، فهو جل وعلا ليس دائما ينزل إلى السماء الدنيا، وليس دائما يجيء، وإنما يجيء إذا شاء في وقت دون وقت، وهذه تسمى الصفات الفعلية الاختيارية.

وقولُه تعالى { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة:54]، وقولُه تعالى في الكفّارِ { غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } (1) وقولُه تعالى { اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ } [محمد:28] وقولُه تعالى { كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ } [التوبة:46].

هذه كلها من الصفات الفعلية؛ لأنه أضاف المعاني مثل الغضب, الرضا, الكره, السخط, هذه معاني أضافها إلى نفسه، والإضافة هذه تقتضي إضافة صفة إلى موصوف, المؤولة يتأولون مثل هذه النصوص فيقولون في مثل الرضا يقولون هو إرادة الإنعام، والغضب يقولون إرادة الانتقام. طيب، إذا سألتهم قلت لما أوّلتم الغضب مثلا بإرادة الانتقام؟ قالوا: لأن حقيقة الغضب هو ثوران أو غليان دم القلب، هذا حقيقة الغضب؛ غليان دم القلب، وهذا يجب تنزيه الله جل وعلا عنه. نقول: لاشك يجب تنزيه الله جل وعلا عن مثل هذا، ولكن هل هذا هو الغضب؟ وتلاحظ أنك في فهمك لنصوص الصفات، أو في فهمك لشبه المؤولة، لابد أن تغوص إلى أصل كلامهم وشبهتهم حتى تستطيع الرد؛ لأنه أحيانا يمكن أن يزخرف القول، لكن إذا رجعت إلى أصل الكلام وجدت أنه باطل، فمثل هذا الأشاعرة والماتريدية والكلابية قبلهم ومن نحى نحوهم يقولون: الغضب هو إرادة الانتقام، لماذا؟ قالوا لأن حقيقة الغضب هو غليان دم القلب. فنقول: الصواب أن الغضب صفة ينشأ عنها في ابن آدم غليان دم القلب؛ لأن ابن آدم أولا يغضب، ثم بعد غضبه ينتج عنه غليان دم القلب، ويظهر ذلك باحمرار الوجه والانتفاخ إلى آخره. نقول: **هذا أمر ينشأ عن الغضب، وليس هو الغضب نفسَه**. فإذن هم يؤولون لأنهم بنوا على مقدمات باطلة، وأصل هذا التأويل من نفي الصفات هذه؛ من رضا وغضب ونحو ذلك، أصله من جراء القول بنفي الصفات الاختيارية، وأن الله جل وعلا لا يتصف بصفة في وقت دون وقت، فإما أن يتصف بها مطلقا أو إما أن لا يتصف بها مطلقا. فلهذا يؤولونه، لما يؤولونه إلى الإرادة؟ ذلك أن الإرادة من الصفات العقلية السبع التي يثبتونها، فيؤولون الصفات غير السبع بإحدى الصفات السبع التي يثبتونها، فهم يثبتون -الأشاعرة والماتريدية ونحوهم- سبع صفات، فهم يؤولون هذه الآيات بإحدى الصفات السبع وسَمَّوها صِفاتِ المعاني، وهي: العِلمُ، والقُدْرةُ، والإرادةُ، والحَياةُ، والكَلامُ، والسَّمْعُ، والبَصَرُ، وبعضُهم يُثبِتُ صِفةَ الإدْراكِ
المقصود من هذا أننا نثبت هذه الصفات سواء كانت صفات ذاتية أو صفات فعلية اختيارية أو غير اختيارية نثبتها جميعا لله جل وعلا دون تفريق كما جاء في نصوص الكتاب والسنة. وهذا أصل من الأصول، ونقول إن هذا الاتصاف لله جل وعلا بهذه الصفات على أساس

قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الشورى:11] فهنا قال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) والكاف هنا:

من أهل العلم من يقول هي صلة يعني زائدة, ومعنى كونها زائدة يعني للتأكيد، فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) في تقدير قولك ليس مثله شيء, ليس مثله شيء، لأن العرب تزيد حرفا أو كلمة وتريد بالزيادة تكرير الجملة؛ يعني وتأكيد الجملة, فقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على هذا القول؛ وهو أن الكاف هنا صلة يكون المعنى ليس مثله شيء, ليس مثله شيء، فهو تأكيد للجملة بتكرارها، وهذا من مثل قوله { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:1]، { لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [القيامة:1] هل هو ترك للقسم أو إثبات للقسم؟ من أهل العلم وهو القول الظاهر أنه قسم { لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [القيامة:1] يعني أقسم، لكن (لا) هنا صلة لتأكيد القسم، فيكون المعنى بوجود (لا) معناه: أقسم بيوم القيامة، أقسم بيوم القيامة. وهذا من أسرار اللسان العربي الشريف.

القول الآخر: أن الكاف هنا بمعنى المثل، هي حرف لكنها اسم، بمعنى مثل فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) يعني (ليس مثلَ مثلِه شيء) هذا يقتضي المبالغة في نفي المثيل، وورود الكاف بمعنى مثل، معروف في اللغة من مثل قوله تعالى في سورة البقرة { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [البقرة:74] ومن مثل قول الشاعر:

لو كان في قلبي كقدر قلامة ... حبا لغيرك ما أتتك رسائلي

يعني لو كان في قلبي مثل قدر القلامة لغيرك كذا وكذا.

فإذن هنا الكاف إما أن تكون بمعنى هذا أو هذا، فقوله جل وعلا هنا (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) هذا فيه أبلغ النفي لوجود المثيل لله جل وعلا، ثم لما نفى أثبت، وهذا على القاعدة المعروفة: أن النفي يكون مجملا، والإثبات يكون مفصلا. فنفى مجملا فقال (ليس مثلَ مثله شيء) ثم فَصَّل فقال (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ). لما خص السمع والبصر هنا؟ وصف الله جل وعلا هنا نفسه بالسمع والبصر؛ قال بعض أهل العلم: لأن السمع والبصر من أكثر الصفات اشتراكا بين ذوات الأرواح. فالسمع يوجد في الذباب, يوجد في النمل، كذلك البصر يوجد في البعوض ويوجد في الإنسان ويوجد في الهرّ؛ يعني جميع المخلوقات -تَدَرَّجْ بها- فيها سمع وبصر. فينبهك على أنه هل سمع البعوض وبصره هل هو مثل سمع ابن آدم وبصره؟ لا,

يشترك ابن آدم مع البعوض في بعض معنى السمع والبصر؛ لأن السمع ما تدرك به المسموعات، والبصر ما تدرك به المرئيات، فالبعوض له سمع وبصر يناسب ذاته, ابن آدم له سمع وبصر يناسب ذاته ولا يقارن به سمع وبصر البعوض. فنبه الله جل وعلا بهاتين الصفتين السمع والبصر لأجل اشتراكها في كثير من ذوات الأرواح؛ من أنه كما أنها لا تتماثل ذوات الأرواح في الاتصاف بهاتين الصفتين، فكذلك جل وعلا له سمع وبصر (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)، مع قطع المماثلة وقطع طمع إدراك الكيفية لصفات الله جل وعلا، فله جل وعلا سمع وبصر يناسب ذاته العظيمة الجليلة جل وعلا وتقدس وتعاظم.

مناظرة عبد الله بن محمد الأذرمي في خلق القرآن

ثم قال رحمه الله تعالى: [**وقال عبد الله بن محمد الأذرمي لرجل تكلم ببدعة ودعا الناس إليها: هل علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو لم يعلموها؟ قال: لم يعلموها! قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء علمته أنت؟! فقال الرجل: فإني أقول: قد علموها؛ قال: أفوسعهم ألا يتكلموا به، ولا يدعوا الناس إليه أو لم يسعهم؟ قال: بلى وسعهم، قال: فشيء وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه لا يسعك أنت؟! فانقطع الرجل، فقال الخليفة -وكان حاضراً-: لا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم**] .

قوله: (الأذرمي) ، الصحيح: أنه بالذال، أي: الأذرمي، وهو إمام مشهور اسمه: عبد الله بن محمد الأذرمي، تتلمذ على وكيع بن الجراح وسفيان بن عيينة وغيرهم، روى عنه أبو داود، وروى عنه النسائي وعبد الله ابن الإمام أحمد وأبو يعلى الموصلي وغيرهم، وهذا العالم الفاضل مترجم في (تهذيب التهذيب) في اسم: عبد الله، وقد أشار ابن حجر في (تهذيب التهذيب) إلى هذه القصة التي معنا؛ كما أن ياقوت في (معجم البلدان) لما جاء إلى مدينة أذرمة ترجم لهذا العالم، وأشار إلى هذه القصة.

وقول ابن قدامة: (لرجل تكلم ببدعة) هذا الرجل هو شيخ المعتزلة في وقته أحمد بن أبي دؤاد، والبدعة التي جرى حولها النقاش هي بدعة القول بخلق القرآن؛ ومنهج هذا الإمام في مناقشة أحمد بن أبي داؤد منهج قوي جداً، ولقد وفق في أسلوب العرض أيما توفيق.

ضلال المعتزلة في القول بخلق القرآن

قد تكلمنا كثيراً فيما سبق من شروحات كتب التوحيد والسنة عن مسألة خلق القرأن لأن قضية القول بخلق القرآن هي القضية التي جعلها المعتزلة عنواناً لبدعتهم، فإن المعتزلة ينفون عن الله الصفات، ومما نفوه عنه صفة الكلام، فلما كان مستقراً في نفوس المسلمين أن هذا القرآن الذي معنا هو كلام الله؛ **قالوا**: لا، هذا القرآن مخلوق من المخلوقات المنفصلة عن الله سبحانه وتعالى، فكما خلق السماوات والأرض وبني آدم خلق هذا القرآن، فلم تقم بالله سبحانه وتعالى صفة الكلام.

والذى نعتقد نحن أنها صفة من صفات الله تليق بعظمته وجلاله.

وسمعت أن بعض الناس يقول: لماذا تحولت عند المسلمين إلى مشكلة في ذلك القرن، وليس فيها إشكال؛ وسواء قلنا بخلق القرآن أو لم نقل بخلق القرآن فالمسألة يسيرة، وبعضهم قال: ما كانت لتستحق تلك المشكلة والفتنة الكبرى في تاريخ الأمة الإسلامية التي امتحن فيها المؤمنون امتحاناً شديداً، وثبت الله إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وبعض العلماء على ذلك! فأقول: إن هذه القضية قضية مرتبطة بمنهج المعتزلة العقلاني؛ فالمعتزلة أدخلوا عقولهم في هذا الباب، ودخلوا هذا المدخل الذي سموه توحيداً، وذلك من خلال قضايا متعددة أبرزها قضيتان: **الأولى**: أن إثبات الصفات يلزم منه التشبيه، فقالوا: إن إخلاص التوحيد هو بنفي الصفات عن الله؛ حتى لا نشبه الله بخلقه.

الثانية: أن المعتزلة ناقشوا النصارى، وناقشوا شرك النصارى، وأن النصارى يقولون بأن هناك ثلاثة آلهة، فقالوا للنصارى: أنتم مشركون تقولون: الأب والابن وروح القدس، هذا شرك بالله؛ فالله واحد لا شريك له.

فقال النصارى: نحن غير مشركين، نحن نقول: هذه أقانيم لإله واحد، فالأب والابن وروح القدس يساوي إلهاً واحداً، فجعلوها نظرية رياضية بدهية: ثلاثة تساوي واحداً.

وهذا الكلام غير معقول وغير مقبول، فهؤلاء النصارى قالوا: أنتم يا مسلمون! إذا كنتم تتهموننا بأننا نقول بثلاثة آلهة فأنتم تقولون بسبعة أو بعشرة أو بأكثر! قيل لهم: كيف؟ قالوا: أنتم تقولون: الله السميع البصير له الكلام الإرادة القدرة، وتقولون: هذه صفات لله، وهذا شرك أكبر من شركنا؛ لأنكم إذا قلتم: إن صفات الله أزلية مع الله إذاً جعلتم مع الله أكثر من إله، فبسبب هذا النقاش قال المعتزلة: إخلاص التوحيد هو أن ننفي عن الله جميع الصفات؛

لأننا لو أثبتنا لله أي صفة وقلنا إن هذه الصفة أزلية لله فقد أثبتنا مع الله إلهاً آخر، فأدى بهم هذا الفهم القاصر إلى نفي جميع الصفات عن الله سبحانه وتعالى، وذلك من خلال مناهجهم العقلية الباطلة، وضربوا بالكتاب والسنة ونصوصها عرض الحائط، وأعملوا فيها تأويلاً وتحريفاً وتعطيلاً.

وقد وصلوا في الدولة العباسية إلى مناصب كبرى، ومنها وصول أحمد بن أبي دؤاد قاضي المعتزلة وشيخهم وكبيرهم إلى أن كان قاضي القضاة والمقرب من الخليفة، وقد أثر هذا القاضي المعتزلي على الخليفة حتى أقنعه بهذه البدعة، بل وأقنعه بأنها هي الحق الذي لا حق غيره، وأنه ينبغي له أن يلزم الناس بها، وفعلاً تبنت الدولة آراء المعتزلة، وتحولت قضية الاعتزال من خلاف بين أهل السنة وبعض المخالفين إلى أن تعلن الدولة قراراً حاسماً قوياً بأن هذه البدعة هي الحق، بل ويجب على كل إنسان أن يقول رأيه فيها، وأن يقول الرأي الموافق للمعتزلة، فنشأت فتنة القول بخلق القرآن.

إذاً: هي ليست قضية جزئية، وإنما هي مسألة جعلت عنواناً لقضية أكبر في باب الاعتقاد وفي باب المنهج وفي باب الصفات، وفعلاً امتحنت الدولة ومن خلفها من أئمة الاعتزال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مما كان تحت سلطانهم، وكانت تحت سلطانهم كل البلاد الإسلامية في ذلك الوقت الذي اتسعت فيه الفتوحات؛ إذ بلغت إلى حد كبير جداً في نهاية القرن الثاني، واستمر على ذلك مجموعة من الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق، يوصي بعضهم بعضاً، وكانوا ينشرون مسألة القول بخلق القرآن، وأصدروا قرارات: من لم يقل بخلق القرآن يعزل إذا كان قاضياً في بلد أو كان فقيهاً أو كان إماماً! وحاربوا أرزاق الناس.

وهذا الشيء مؤسف جداً، حيث يتحول الاختلاف في الرأي إلى أن يتجه الأقوى إلى حرب الناس في أرزاقهم؛ فالله هو الرزاق ذو القوة المتين، لكنه منهج الضعفاء، فمنهج الضعفاء أن تحارب الناس في أرزاقهم، وأن تظن أنك إذا قطعت الرزق قد قضيت على صاحبه، ولهذا فإن بعض العلماء اضطر إلى التورية، فكان بعضهم إذا سئل محاكمة: هل تقول بخلق القرآن؟ قال: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور هذه مخلوقة، ويقصد يديه.

ثبات الإمام أحمد رحمه الله في قضية القول بخلق القرآن

لكن الإمام أحمد بن حنبل تحول في ذلك الوقت إلى أن تتجه الأنظار إليه؛ لأن صمود الإمام أحمد بن حنبل صار فيصلاً بين قضيتين كبيرتين، ومن هنا ثبت الله الإمام أحمد، فصار الاسم له، وإلا فهناك غيره من العلماء من وقف موقفه رحمه الله تعالى؛ فالإمام أحمد بن حنبل امتحن وسجن وعذب وضرب، وطلب منه الإقامة الجبرية، وامتحن في هذه العهود، ثم امتحن بالرخاء في عهد المتوكل.

فالإمام الزاهد أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى مر بجميع أنواع الابتلاء التي يمكن أن يمر بها مؤمن صادق وداعية صادق، وكان الإمام أحمد في علمه وفي زهده جبلاً، فهو الذي كان يحفظ مئات الألوف من الأحاديث يحدث بها، ولا شك أن الناس أحوج ما يكونون إلى علمه، فكيف يترك ليسجن ويضرب ويموت تحت التعذيب؟! فجاءه بعض الناصحين وقالوا له: يا إمام! إن الناس يرون فيك فضلاً وعلماً فأبق على نفسك! أي: أبق على نفسك لا لنفسك وإنما للناس، فلو أنك وريت كما ورى غيرك وانتهت المشكلة؛ لكن الإمام أحمد وقد تحدد الأمر بالنسبة له كان يفقه القضية بعمق، وكان يعرف أن الناس ينتظرون مقالته، وأنه لو قال بخلق القرآن ولو كان مورياً فلربما عذر نفسه أو عذره اثنان بجانبه، لكن ملايين من خلفه ستأخذ الأمر على ظاهره؛ ولهذا كانوا إذا أرادوا أن يحاكموا الإمام أحمد بعد التعذيب لينطق، يكونون قد جمعوا الناس معهم الأقلام حتى يسمعوا مباشرة؛ لأنه لو نقل عن الخلافة أنه أجاب لما صدق أحد، ولكنهم كانوا يجمعون الناس من باب التوثيق، وما كان عندهم توثيق بالصوت والصورة مثلما عندنا، وإنما كان التوثيق أمام الناس، فيجمعون الناس ويدخلونهم قصر الإمارة ومعهم الأقلام؛ ليسمعوا ماذا يقول الإمام أحمد.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في السجن، فجاءه أحدهم قبل لحظات من المحاكمة المتكررة، وقال له: يا إمام! لو أنك وريت فأبقيت على نفسك! فقال لهذا الرجل: انظر من خلفك، فنظر من خلفه فإذا ألوف قد جلسوا ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد، فقال له الإمام أحمد: يا هذا! لو أن الإمام أحمد ورى ما يدري هؤلاء أن الإمام أحمد يقول بالتورية، من يتحمل أثر إضلال هؤلاء وظنهم أن الإمام أحمد قال بخلق القرآن؟! وفعلاً ثبته الله سبحانه وتعالى، وكان يقول لهم: ائتوني بكتاب الله وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون له: ماذا تقول فيه؟ فيقول: القرآن كلام الله، فيقولون له: هل تقول: إن القرآن

مخلوق أم أنه كلام الله منزل غير مخلوق؟ فيقول: ائتوني بكتاب الله وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ائتوني بدليل! ولو أردنا أن نستطرد ما جرى في تلك القصة لطال المقام؛ فإن فيها عبراً كثيرة جداً، فإنهم حاولوا معه محاولات كثيرة، حتى إنهم حاولوا محاولات فكرية، وبحثوا عن الحجج والدلائل ليجدوا ما يلزمونه به حتى يقول بخلق القرآن، ومع ذلك نقض كل شبهة، بل إنه رحمه الله تعالى قد ثبته الله سبحانه وتعالى حتى بنصائح من داخل السجن، وقد كان مسجوناً مع اللصوص وغيرهم، ولهذا كان بعد الإفراج عنه يترحم على أحد السجناء اللصوص، فأحد أبنائه قال له: يا أبتِ! كثيراً ما تترحم على هذا؟ قال: هذا واحد من اللصوص التقيت به في السجن، قال: ولماذا تترحم عليه؟ قال: كنت جالساً في السجن فأتاني أحد أصحابي وجاء ليثبتني ويقول لي: اثبت يا إمام! فقلت له: إنما أخاف ألا أقوى على الضرب؛ يعني: أن الإمام أحمد قد يخاف ألا تقوى نفسه على تحمل الضرب فيقول غير الحق، فكان بجانبه أحد اللصوص يسمع الحوار، فقال له: اثبت يا إمام على الضرب، فو الله إنني لأثبت على الضرب وأنا على باطل، أفلا تثبت على الضرب وأنت على الحق؟! فكان الإمام أحمد بن حنبل يدعو لهذا الإنسان؛ لأنه أعطاه درساً.

المهم أن فتنة القول بخلق القرآن هي البدعة التي وردت في هذه القصة، وجعلها المعتزلة عنواناً لمنهج فكري عقدي في الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، فليست كما يقول البعض: لماذا كبرت هذه المشكلة؟ ولماذا ضخمت؟ ونحن نقول: والله لو لم يكن فيها إلا صفة الكلام لله وقد ابتدعها هؤلاء، لكان حقيقاً أن يتحمل الإنسان في سبيل إثبات منهج أهل السنة والجماعة ما تحمل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

شرح قصة الأذرمي مع المبتدع والعبرة منها

وأما قصة عبد الله الأذرمي فإنها كما حكاها ابن الجوزي في ترجمة الإمام أحمد، وحكاها أيضاً الذهبي في (سير أعلام النبلاء) في المجلد الحادي عشر أيضاً في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل وكذلك هي موجودة في كتاب الحيدة والاعتذار لعبد العزيز الكناني في مناظرته لبشر المريسي أمام المأمون والمعتصم ، و هي: أن هذا الرجل الأذرمي أتي به مقيداً ليمتحن بالقول بخلق القرآن، وكان كل من يرد الامتحان يكون الخليفة حاضراً، وقاضي القضاة حاضراً، وكانت المسألة نوعاً من المحاكمة والنقاش، فدخل وهو في قيوده، ويقال: إن الفتنة كانت في عهد

الواثق، والذي يحكيها ابنه: فقال هذا الشيخ: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال الخليفة: لا سلام عليك ولا رحمة؛ مذنب مجرم مرتكب لبدعة إثبات كلام الله سبحانه وتعالى، وأنه يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال هذا القاضي بكل أدب: بئس ما علمك مؤدبك، إن الله يقول: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [النساء:86] ، هنا انتبه أحمد بن أبي دؤاد؛ حيث كان يظن أن أمامه شيخ عادي، فقال أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي: يا أمير المؤمنين! إن الرجل صاحب حجة، فدعني أحاجه؟! قال: تفضل، فبدأت المحاجة بينهما: فقال هذا الشيخ الأذرمي لـ أحمد بن أبي دؤاد: أسألك أو تسألني؟ فقال أحمد بن أبي دؤاد -من باب أن يعرف ما عنده-: اسأل أنت.

فقال له الشيخ: هذا الذي تدعو إليه -القول بخلق القرآن- أعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر؟ فالمعتزلي قال: لا، فقال له: سبحان الله! شيء علمته ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر، والله ما هذا علم ينفع، فانقطع.

ولهذا جاء في بعض الروايات أنه قال للخليفة: هذه واحدة، يعني: سجلنا عليه نقطة في انقطاعه في الحوار، فقال أحمد بن أبي دؤاد: أقلني، يعني: أقلني عن الجواب الأول، فإنني أقول: قد علموها.

إذاً: صارت النتيجة أن أحمد بن أبي دؤاد يدعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر علموا هذه البدعة التي قال بها، فقال له ذلك الرجل: لما علموها هل تكلموا بها ودعوا الناس إليها؟ فقال له: لا، لم يتكلموا بها ولم يدعوا الناس إليها، فقال له: أفلا وسعك ما وسعهم؟ يعني: أمر وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، ولم يسعك أنت إلا أن ترغم الناس وتلزمهم بذلك؟! فصار الخليفة يردد عبارته الأخيرة: وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أفلا يسعنا ما وسعهم؟! ويكررها ويفكر فيها، ثم قال في الحال: فكوا قيوده.

ففكوا قيوده، وأطلقوا سراحه.

ويقال: إنه بسبب هذه القصة توقف الخليفة الواثق في آخر أمره عن القول بخلق القرآن، حتى يقال: إنه ما مات إلا وقد تاب من ذلك.

ولننظر إلى منهج هذا الإمام في النقاش؛ حيث قال له: هل علموها أو لا؟ لأن هذا الإنسان ابتدع بدعة جديدة، فإذا كانوا لم يعلموها فكيف صرت أعلم من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم؟ بل أعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام؟! ثم بعد ذلك أيضاً لما قال له إنهم علموها، قال: هل دعوا الناس إليها؟ وفعلاً هم ما دعوا الناس إلى القول بخلق القرآن، فلما تبين أنهم لم يدعوا إليها قال: ألا يسعنا ما وسع هؤلاء؟ فانقطع الرجل المبتدع وأخرس، ولا شك أن هذا من توفيق الله سبحانه وتعالى.

إذاً: العبرة من هذه القصة هي منهجية هذا الإمام، وكيف أنه أسكته لا بحجج عقلانية وغيرها، وإنما بالحجة القوية اليسيرة في عرضها وفهمها، لكن لأنها كانت منهجية كانت قوية في إفحام هذا المبتدع؛ لأنها كانت تعتمد هذا المنهج الصحيح في أن الأمور ترجع إلى ما كان عليه السلف الصالح، وأن من ابتدع بدعة فقد أحدث، وكانت نتيجة ما وفق الله سبحانه وتعالى هذا الإمام لهذا العرض القوي: أن قال الخليفة -وكان حاضراً-: (لا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم) .

من لم يسعه ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلا وسع الله عليه

قال ابن قدامة رحمه الله تعليقاً: **[وهكذا من لم يسعه ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان، والأئمة من بعدهم، والراسخين في العلم، من تلاوة آيات الصفات وقراءة أخبارها وإمرارها كما جاءت؛ فلا وسع الله عليه]** .

فما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون لهم بإحسان يجب أن يتبع.

وقوله: (بإحسان) ؛ لأنه قد وجد في التابعين من كان منحرفاً، لأنه لم يتبع الصحابة رضي الله عنهم بإحسان، فلا يتبع.

وقوله: **(والأئمة من بعدهم والراسخين في العلم)** ، ولا شك أن من أعظم علامات الرسوخ في العلم هو أن يرجع الإنسان فيما لم يعلم إلى من يعلم؛ ولهذا كل من كان راسخاً في العلم فإنه يقول عن الشيء الذي لا يعلمه: لا أدري؛ فالإمام مالك وهو الإمام مالك سئل عن أربعين مسألة؟ فأجاب عن أربع، وقال عن ست وثلاثين منها: لا أعلم، فكيف بباب أخبار الصفات؟ فالراسخ في العلم هو الذي يقف عند الخبر الصادق، وهذا لا شك أنه من أعظم الرسوخ في العلم.

التحذير من الابتداع في الدين وانتهاج غير طريقة السلف في الأسماء والصفات والعقائد:

ذكر المصنف رحمه الله نصوصاً في التحذير من الابتداع، ومنه الابتداع في صفات الله ووصفه بما لم يصف به نفسه، وفائدة هذه المسألة: أن الابتداع في الدين بغير طريقة السلف في نصوص الصفات محرم ويؤدي إلى الانحراف.

والنصوص التي ذكر المصنف خمسة:

أ – حديث: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ... " رواه أبو داود والترمذي.

ب – كلام ابن مسعود في التحذير من الابتداع حيث قال: " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم

د – كلام عمر بن عبد العزيز بقوله: " قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا ...

هـ – كلام الأوزاعي: " عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس ".

و – وهي عبارة عن مناظرة بين سني ومبتدع، وهي تعتبر منهج في الرد على المبتدعة، ومنهج في مناقشة المبتدعين. والمناظر هو عبد الرحمن الأذرمي ناظر الجهمي أحمد بن أبي دؤاد في زمن الواثق. والمصنف قد اختصرها هنا. وقد ذكرها ابن بطة في (الإبانة) في كتاب الرد على الجهمية، لما ذكر المناظرات التي قيلت بين يدي الملوك.

وخلاصة هذه المناظرة أن أي مبتدع في الدين يوجه له سؤال: هل ما أحدثته علمه الرسول أم لم يعلمه.

فالجواب لا يخلو من أمرين: إما أن يقول: علمه، أو: لم يعلمه. فإن قال لم يعلمه فنقول: كيف اهتديت إلى شيء لم يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة رضى الله عنهم. وإن قال: علمه فنقول: هل فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا الناس إليه؟ فإن قال: دعى الناس إليه يطالب بالإثبات. وإن قال: لا. نقول له: شيء لم يدعو إليه الرسول صلى الله عليه وسلم لا خير فيه. وقد سبق الأذرمي في هذه الطريقة في المناظرات ابن مسعود رضى الله عنه ، فقد روى عنه ابن وضاح في كتاب البدع في مقدمة الكتاب: أن ابن مسعود مر

على قوم ابتدعوا طريقة في التسبيح والذكر، فقال لهم: " لقد هديتم إلى ما لم يهتدي إليه نبيكم، أو أنكم لتمسكن بذنب ضلالة " وكذلك الكنانى صاحب كتاب الحيدة

ثم عقد المصنف فصلا بذكر بعض صفات اللَّه عز وجل، وذكر ما يقارب من ثماني عشرة صفة لله سبحانه، هي كالتالي:

١ . صفة الوجه لله تعالى

٢ . ثم صفة اليدين لله تعالى

٣ . ثم النفس لله تعالى

٤ . ثم المجيء

٥ . والإتيان لله تعالى

٦ . ثم الرضى لله تعالى

٧ . ثم المحبة لله تعالى

٨ . ثم الغضب لله تعالى

٩ . ثم السخط لله تعالى

١٠ . ثم الكراهية لله تعالى

١١ . ثم النزول لله تعالى

١٢ . ثم العجب لله تعالى

١٣ . ثم الضحك لله تعالى

١٤ . ثم الاستواء لله تعالى

١٥ . ثم العلو لله تعالى

١٦ . ثم الكلام لله تعالى

١٧ . ثم رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة

١٨ . ثم صفة أنه تعالى فعال لما يريد ومعها ذكر صفتي الإرادة والمشيئة تبعا.

هذا على وجه الإجمال، أما على وجه التفصيل فهي كالتالي:

ذكر المصنف آيات الصفات، وذكر مجموعة من الأحاديث، ومجموعة الصفات التي ذكر ثماني عشرة صفة وكان أحياناً، إذا ذكر مجموعة من الصفات يعقب بعد ذلك بالتذكير بمذهب السلف في الصفات، وقد يطيل التعقيب أحياناً، وقد يختصر أحياناً.

فذكر في البداية ثلاث عشرة صفة ثم عقب بعد ذلك، وذكر قاعدة السلف في الصفات وهذا هو التعقيب الأول، ثم عاد مرة أخرى بذكر بعض الصفات، فذكر صفتين مهمتين، يدور دائماً حولهما الجدل، وهي **صفة العلو والاستواء**، ثم عاد للتعقيب مرة أخرى، وذكر منهج السلف، فنقل عن مالك طريقة السلف، ثم ذكر صفة الكلام لله عز وجل وأطال فيها ثم تكلم عن القرآن وأطال في ذلك أيضاً، وذكر صفة الإرادة والتقدير وأطال في ذلك، وذكر رؤية المؤمنين لله يوم القيامة وأطال في ذلك ثم بعد ذلك انتهى من آيات وأحاديث الصفات التي ذكر.

والملاحظ على المصنف رحمه الله عندما يتحدث عن الصفات لله تعالى الملاحظات التالية:

١ – أنه يقتصر على ذكر إثباتها وأن السلف يثبتونها ويستدل على ذلك ولا يذكر مذاهب المعطلة في الصفات.

٢ – أنه يختصر غالبا فلا يذكر إلا دليلاً واحداً لكل صفة ماعدا بعض الصفات التي ذكرها في آخر بحثه.

٣ . أنه لم يذكر حكم من أنكر صفة من الصفات.

٤ – لا يهتم بالرد على مذهب المعطلة ومناقشة شبهاتهم.

ويبدو أنه وضعه فقط لبيان مذهب السلف بالأدلة هذا هو مقصده والله أعلم، ولذا سوف نحاول إن شاء الله ذكر مذاهب المعطلة؛ لأنه بضدها تتبين الأشياء كما قيل.

والآن نبدأ بمشيئة الله بالتفصيل في ذكر ما ذكره المصنف من الصفات وسوف نبحث كل صفة إن شاء الله على شكل مسائل، : فنقول وبالله التوفيق

وقوله: **(من تلاوة آيات الصفات)** ، يعني: الواردة في القرآن العظيم.

وقوله: **(وقراءة أخبارها)** أي: أخبار الصفات الواردة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان الأئمة يتلون القرآن، ويعلّمونه الناس، وإذا مروا على آيات الصفات لا يعطلونها ولا يشبهونها، وإنما يثبتونها، لكن جاء من بعدهم وقال: إذا جئتم عند قوله تعالى: {وَيَبْقَى

وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن:27] وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5] قال: قفوا ولا تفهموا من الآية ظاهرها؛ لأن هذه الآية لو وقفنا عند ظاهرها لوقعنا في التشبيه، ولذا يقول: استوى بمعنى استولى، ووجهه بمعنى ذاته؛ وهكذا يعمل فيها تأويلاً، والأئمة من قبله كانوا يقرءونها ويتلونها ويفسرونها بلا تأويل.

وكذلك أيضاً قراءة أخبار الصفات: كان الأئمة يحدثون بالأحاديث ولا يفرقون بين أحاديث الأحكام وأحاديث الصفات، وإنما كانوا يحدثون بها جميعاً؛ وهذه فائدة لطالب العلم ليعلم **أن مناهج الأئمة في تخريج الحديث على أقسام**: منهم من صنف **الحديث على الأبواب،** مثلما فعل البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم، فهؤلاء بوبوا: الصلاة الزكاة الإيمان القدر إلى آخره.

ومنهم من ذكر الأحاديث حسب الأسانيد، إما حسب أسانيد الصحابة، مثل مسند الإمام أحمد وغيره من المسانيد، أو **حسب معجم شيوخه**، مثل معجم الطبراني في الصغير، فالذي ذكر أسانيد الصحابي -كالإمام أحمد بن حنبل مثلاً- يذكر كل مرويات هذا الصحابي، ولا يفرق بين العقيدة ولا بين غيرها، ولا يقول: لا تقل إلا أحاديث الأخبار والأحكام فقط، أما أحاديث الصفات فهذه أمرها عظيم، ونخاف أن تشبهوا، ونخاف أن تمثلوا، لم يقل أحد منهم ذلك، بل كانوا يقرءونها ويوردونها ويتلونها ويحدثون بها، ولا يفرقون بينها وبين غيرها من الأحاديث، وهذا منهجهم.

ثم قال: (وإمرارها كما جاءت) ، ثم دعا عليه في الأخير فقال: (فلا وسع الله عليه) .

قوله: (إمرارها كما جاءت) سبق أن شرحناها في عبارة سابقة، أي: أنهم يوردونها كما جاءت بالإثبات؛ فيثبتونها ويثبتون ما دلت عليه من معنى، لكن كيفية هذه الصفة يفوضون علمه إلى الله سبحانه وتعالى، وكما قلنا سابقاً: فإن عبارة أمروها كما جاءت، أو تمر كما جاءت ليست حجة لأهل التفويض؛ لأن الأئمة ذكروها حتى في غير باب الصفات، وقد سبق شرح ذلك ولله الحمد.

فمِمَّا جاءَ مِنْ آياتِ الصِّفاتِ قولُ الله عزّ وجل { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27]، وقولُه سبحانَهُ وتعالى { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64]، وقولُهُ تعالى إخْبارًا عنْ عيسى عليه السلامُ أنَّه قال { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ }

[المائدة:116]، وقولُه سبحانه { وَجَاءَ رَبُّكَ } [الفجر:22]، وقولُه تعالى { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ } [البقرة:210]، وقولُه تعالى { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } [المائدة:119]. وقولُه تعالى { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة:54]، وقولُه تعالى في الكفّارِ { غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } وقولُه تعالى { اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ } [محمد:28] وقولُه تعالى { كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ } [التوبة:46].

13_ ومِنَ السُّنَّةِ قَوْلُ النّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – «يَنزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلّ ليلةٍ إلى سماءِ الدّنيا»وقولُه «يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»، وقولُه «يَضحَكُ اللهُ إلى رجُلَين يَقُتلُ أحدُهما الآخرَ يَدخُلانِ الجنّة».

14– فهذا وما أشْبَهَهُ مِمّا صَحَّ سَنَدُهُ، وعُدِّلَت رُوَّاتُه، نُؤْمِنُ بِهِ، ولا نَرُدُّهُ، ولا نَجْحَدُهُ، ولا نَتَأَوَّلُهُ بِتَأْوِيلٍ يُخالِفُ ظاهِرَه، ولا نُشَبِّهُهُ بصفاتِ المخلوقين، ولا بِسِماتِ المُحْدِثِينَ، ونعلَمْ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى لا شبيهَ لَهُ، ولا نظيرَ { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الشورى:11]، وكلُّ ما تُخِيِّلَ في الذِّهْنِ أوْ خَطَرَ بالبَالِ, فإنَّ اللهَ تعالى بخلافِه.

15– ومِنْ ذَلكَ قولُه تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه:5]. وقولُه تعالى { ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } [الملك:16]، وقولُ النبيّ – صلى الله عليه وسلم – «رَبُّنَا الله الّذِي في السّماءِ تَقَدّسَ اسْمُكَ» وقال للجاريَّة «أيْنَ اللهُ؟» قالتْ: في السَّماءِ قال «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رواه مالكُ بنُ أنَسٍ ومسلمٌ وغيرُهما مِنَ الأئمة.

16– وقالَ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – لِحُصَيْنٍ«كَمْ إلهًا تَعْبُدُ؟» قال: سبْعةً؛ سِتَّةً في الأرضِ وواحِدًا في السَّماءِ، قالَ «مَنْ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قالَ: الّذي في السَّماء، قالَ«فَاتْرُكْ السِّتَّةَ وَاعْبُدْ الذِي في السَّماءِ وَأَنَا أُعَلِّمُكَ دَعْوَتَيْن»فَأَسْلَمَ وَعَلَّمَهُ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – أَنْ يَقُولَ«اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي».

17_وَفيمَا نُقِلَ مِنْ عَلاماتِ النبيّ – صلى الله عليه وسلم – وَأصحابِهِ في الكُتُبِ المتقدّمةِ أنَّهم يَسْجُدون بالأرْضِ، ويَزْعُمون أنَّ إلهَهُمْ في السَّماءِ.

18_ وَرَوَى أبو داودَ في سُننه أنَّ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – قالَ «إنَّ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إلَىَ سَمَاءٍ مَسِيرةُ كذَا وَكذَا –وذَكَرَ الخَبَرَ إلى قَوْلِهِ– وَفَوْقَ ذَلِكَ العَرْشُ وَالله سُبْحَانَهُ فَوْقَ ذَلِكَ».

19_ فَهَذَا وَمَا أشْبَهَهُ مِمَّا أَجْمَعَ السَّلَفُ رَحِمَهم اللهُ على نَقْلِهِ وقَبُولِهِ ولم يَتعَرَّضُوا لِرَدِّهِ ولا تَأْوِيلِهِ ولا تَشْبِيهِهِ ولا تَمْثِيلِه.

(28/1)

20_ سُئِلَ الإمامُ مالك بنُ أنسٍ رَحِمه اللهُ فَقِيلَ: يا أبَا عبدِ الله { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه:5] كيْف استوى؟ فقال: الاسْتِواءُ غيْرُ مجهولٍ، والكيْفُ غيْرُ معْقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ والسُّؤالُ عنْه بدعةٌ، ثُمّ أَمَرَ بالرَّجُلِ فأُخْرِجَ.

مذهب أهل السنة والجماعة في صفة الوجه:

أهل السنة والجماعة يثبتون أن لله عز وجل وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، قال ابن خزيمة في كتابه التوحيد في باب إثبات الوجه، قال فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز واليمن وتهامة والشام مذهبنا أن نثبت لله ما أثبته لنفسه من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين ثم قال في الباب الذي بعده، نحن نقول وعلمائنا جميعاً في جميع الأقطار أن لمعبودنا عز وجل وجهاً كما أعلمنا في محكم تنزيله فذوَّاه (أي وصفه بأنه ذو جلال) وحكم له بالبقاء ونفى عنه الهلاك ونقول أن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجه كل شيء أدركه بصره "

مذاهب الناس في صفة الوجه:

أ – مذهب أهل السنة والجماعة وقد مضى الكلام عنه.

ب – مذهب الجهمية وهو نفي صفة الوجه لله عز وجل ويؤلون ما جاء في القرآن من ذكر الوجه لله بأربع كلمات أنه الذات أو القبلة أو الثواب أو الأعمال الصالحة، فيقولون: ويبقى وجه ربك أي ذاته، أي يبقى اللَّه، ويقولون في قوله: {إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى} ، أي: إبتغاء الثواب. وفي قوله: {فثم وجه اللَّه} أي: القبلة. وقد رد عليهم الدارمي في كتابه: الرد على بشر المريسي، فتناول تأويل الجهمية ورد عليهم ردوداً مفحمة.

جـ – المعتزلة: ومذهبهم في صفة الوجه مثل الجهمية، فهم ينفون الوجه عن اللَّه عزوجل ويؤولون ذلك بالذات، أو بأن وجه اللَّه هو اللَّه وقد نقل الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين ، مذاهب الناس في الوجه، وذكر مذهب المعتزلة ونسب إلى أبي الهذيل المعتزلي أنه قال إن وجه اللَّه هو اللَّه، وأن غيره قال الذات، انتهى.

ولعله يقصد النظام وهو من أئمة المعتزلة، والأشعري خبير بمذهب المعتزلة فقد استمر أربعين سنة على الاعتزال ولذلك فأن أقواله مهمة في معرفة اعتقاد المعتزلة وغيرهم.

وهناك من ينتسب إلى السنة وإلى الحديث وإلى الحنابلة لكنه خلط، واضطرب بصفة الوجه، فمره يفسرها بتفسير المعتزلة ومره بمذهب المفوضة ومرة بمذهب السلف، وهو ابن الجوزي رحمه الله، ففي كتابه: " دفع شبه التشبيه . " اختار مذهب المعتزلة في تفسير الوجه، وفي كتابه " تلبيس إبليس" ذهب مذهب المفوضة، وفي كتابه " مجالس ابن الجوزي " ذهب مذهب السلف وأهل السنة، مما يدل على اضطرابه وتخليطه في هذه الصفة.وقدفصلنا ذلك في شرح كتاب صيد الخاطر لابن الجوزى رحمه الله تعالى وغفر له

د– الكلاّبية: وهؤلاء يثبتون صفة الوجه لله تعالى كأهل السنة ويثبتون جميع الصفات الذاتية لله كالوجه واليد والعين، ابتداءً من إمامهم عبد اللَّه بن سعيد بن كلاّب، وكذا الأشعري فإنه يثبت صفة الوجه لله تعالى كما في كتابه الإبانة ص٣٥، والأشعري على الصحيح أنه كُلاّبي، وقد ذكر ذلك عنه ابن حجر في كتابه " لسان الميزان "، لما ترجم لعبد اللَّه بن سعيد بن كلاّب، قال: " وقد مشى الأشعري على طريقته ".

ومن الكلاّبية الذين أثبتوا صفة الوجه (القلانسي) والحارث المحاسبي، المتصوف، وابن مهدي الطبري والباقلاني، كما أثبتها بعض المحدثين الذين فيهم كلاّبية، كالبيهقي وابن فورك.

والبيهقي في كتابه " الأسماء والصفات "، وابن فورك في كتابه " مشكل الحديث "، قد أثبتوا صفة الوجه لله عز وجل.

والبيهقي رحمه اللَّه تأثر بالكلاّبية في باب صفات اللَّه الاختيارية ومثله شيخه ابن فورك.

وخلاصة مذهب الكلاّبية المحضة أو من تأثر بهم في بعض الوجوه فإنهم يثبتون صفة الوجه كأهل السنة والجماعة.

هـ – مذهب المجسّمة والمشبّهة: فإنهم يثبتون لله وجها كوجه المخلوقين، تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً، وقد رد عليهم ابن خزيمة في كتابه التوحيد في باب إثبات الوجه، وذكر مذهبهم الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين.

و – مذهب الماتريدية: فهؤلاء ينفون صفة الوجه ولا يثبتونها، ويفسرون الوجه بتفسيرات الجهمية، أنها الذات أو الثواب أو القبلة .

ز – **الأشاعرة**: وهؤلاء قسمان:

١ – **أوائل الأشاعرة**: فهؤلاء في الحقيقة كلاّبية كأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، وهؤلاء يثبتون صفة الوجه.

٢ – **متأخري الأشاعرة**: ويسمون الأشاعرة المحضة، فهؤلاء ينفون صفة الوجه عن الله عزوجل ويفسرون آيات الوجه بمعنى الذات أو الثواب أو الجزاء أو الأعمال الصالحة إلا أنهم يضيفون تفسيراً خاصاً بهم وهو (الرضى).

مسألة: هل كل آية في القرآن ذكر فيها الوجه مضافاً إلى الله هي من آيات الصفات؟

الجواب: نعم، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ومنسجم مع أصولهم.

مسألة: هل الأحاديث الوارد فيها صفة الوجه مضافاً إلى الله هي من أحاديث الصفات؟

الجواب: نعم، وهذه القاعدة أن الله إذا أضاف الوجه إليه فهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف إلا في آية واحدة، اختلف فيها السلف هل هي من آيات الصفات، أم لا؟ وهي قوله تعالى: **{ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}** ، هذه الآية يتناولها أهل البدع ويفسرونها بتفسير لا يثبتون فيه وجه الله، وهذا ليس غريباً عنهم؛ لأنهم لا يثبتون صفة الوجه لله في الآيات التي هي أصرح من هذه الآية، كقوله: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، لكن السلف المثبتون للوجه اختلفوا في تفسير هذه الآية على قولين:

– **الأول**: قاله مجاهد والشافعي واختاره ابن تيمية أنها ليست من آيات الصفات، وإنما يراد به القبلة، وقد رواه ابن جرير عن مجاهد، وذكر ابن تيمية في الفتاوى لما تكلم عن الواسطية أن الاشاعرة أوردوا عليه هذه الآية وقال: إن السلف أولوها بالقبلة، فقال هذه الآية ليست في محل النزاع، المراد بها القبلة.

– **الثاني**: أنها من آيات الصفات وتدل على صفة الوجه لله تعالى، وهذا الذي اختاره الدارمي في رده على بشر المريسي، واختاره ابن خزيمة في كتابه (التوحيد) فقد ذكراه ضمن آيات الصفات التي تدل على صفة الوجه لله تعالى، واختارها ابن القيم في كتابه مختصر الصواعق المرسلة. وأطال النفس في ذلك، وذكر الأقوال، وعند تفسيرها بالقبلة شدد في الأمر، وهذا القول يدل عليه الأصل، ولأنها صفة أضيفت إلى الله عز وجل.

بعض المسائل المتعلقة بصفة الوجه لله تعالى:

١ – ما جاء في الأحاديث من ذكر سبحات وجه الله تعالى، **فما هي السبحات؟**

قبل تفسيرها نذكر الأحاديث الوارد فيها ذكر السبحات:

حديث أبي موسى مرفوعاً: " إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، إلى أن قال: حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".رواه مسلم.

أما تفسير السبحات فقد قال الإمام أبو عبيد في كتابه غريب الحديث لما تكلم عن الحديث – لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره – قال: السبحة هي جلال وجهه ونوره

وفسر السبحات أيضاً الإمام الدارمي في كتابه الرد على بشر المريسي، قال: السبحات أي الجلال والنور، وقال مرة: لو كشف الحجب لأحرقت نور الرب وجلاله، وقال مرة: لو أدركه شيء من سبحات وجهه في الدنيا لاحترق.

ويتضح من كلام الإمامين أن السبحات مضافة إلى وجه الله، وأنها من صفات الوجه، ولذا قال ابن خزيمة في كتاب (التوحيد) أن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء، وفسر ابن خزيمة السبحات بالنور والضياء والبهاء، فأصبح السبحات صفة للوجه، وهذا هو التفسير الراجح.

وجاء عن بعض أهل السنة أنه فسر السبحات بنور الذات، وبعضهم فسر السبحات بالنور المخلوق وأنه هو معنى حديث: " إن الله احتجب عن خلقه بالنور، وإن السبحات هي التي رآها الرسول عليه الصلاة والسلام لما عرج به، وقيل له هل رأيت ربك؟ فقال: نور أنّى أراه " مسلم وأبو داود.

وبعضهم فسرها بمحاسن الوجه، وهذا التفسير قريب من تفسير ابن خزيمة بأنها الضياء والبهاء لأن هذا محاسن للوجه.

وأما تفسير السبحات بنور الذات ففيه توسع لأن السبحات نُسبت إلى الوجه لا إلى الذات كما في الحديث: " حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " رواه مسلم، في كتاب الإيمان.

والراجح في المسألة التفسير الأول الذي عليه الأئمة الثلاثة أبو عبيد والدارمي وابن خزيمة، إذ أن السبحات صفة مضافة إلى الوجه.

أما التفسير الثاني أنها نور الذات فهو تفسير ابن القيم نقله عنه الشيخ عبد اللطيف في الرسائل والمسائل النجدية أما تفسيرها بأنها نور مخلوق هذا ضعيف.

٢ – مسألة الحجب التي احتجب الله بها عن خلقه.

وهي مسألة يذكرها بعض أهل السنة عند ذكر الوجه ويجعلونها من المسائل التابعة للوجه كما فعل الدارمي في رده على الطاغية بشر المريسي،قال الإمام الذهبي في ترجمته (المتكلم المناظر البارع أبو عبد الرحمن ، بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم البغدادي المريسي ، من موالي آل زيد بن الخطاب –رضي الله عنه.

كان بشر من كبار الفقهاء ، أخذ عن القاضي أبي يوسف ، وروى عن]ص 200 : [حماد بن سلمة ، وسفيان بن عيينة .

ونظر في الكلام ، فغلب عليه ، وانسلخ من الورع والتقوى ، وجرد القول بخلق القرآن ، ودعا إليه ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقته أهل العلم ، وكفره عدة ، ولم يدرك جهم بن صفوان ، بل تلقف مقالاته من أتباعه.

قال البويطي :سمعت الشافعي يقول : ناظرت المريسي فقال : القرعة قمار ، فذكرت له حديث عمران بن حصين في القرعة ثم ذكرت قوله لأبي البختري القاضي ، فقال : شاهدا آخر وأصلبه.

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم :كان والد بشر يهوديا قصارا صباغا في سويقة نصر .وللمريسي تصانيف جمة.

ذكره النديم ، وأطنب في تعظيمه ، وقال :كان دينا ورعا متكلما . ثم حكى أن البلخي قال : بلغ من ورعه أنه كان لا يطأ أهله ليلا مخافة الشبهة ، ولا يتزوج إلا من هي أصغر منه بعشر سنين مخافة أن تكون رضيعته.

وكان جهميا له قدر عند الدولة ، وكان يشرب النبيذ ، وقال مرة لرجل اسمه كامل :في اسمه دليل على أن الاسم غير المسمى.

وصنف كتابا في التوحيد ، وكتاب " الإرجاء " ، وكتاب " الرد على الخوارج " ، وكتاب " الاستطاعة " ، و " الرد على الرافضة في الإمامة " ، وكتاب "كفر المشبهة " ، وكتاب " المعرفة " ، وكتاب " الوعيد " ، وأشياء غير ذلك في نحلته.

ونقل غير واحد أن رجلا قال ليزيد بن هارون :عندنا ببغداد رجل ، يقال له : المريسي ، يقول : القرآن مخلوق ، فقال : ما في فتيانكم من يفتك به ؟

قلت : قد أخذ المريسي في دولة الرشيد ، وأهين من أجل مقالته.

روى أبو داود ، عن أحمد بن حنبل ، أنه سمع ابن مهدي أيام صنع ببشر ما صنع يقول : من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب ، فإن تاب ، وإلا ضربت عنقه.

وقال المروذي :سمعت أبا عبد الله ، وذكر المريسي ، فقال :كان أبوه يهوديا ، أي شيء تراه يكون ؟!

وقال أبو عبد الله :كان بشر يحضر مجلس أبي يوسف ، فيصيح ، ويستغيث ، فقال له أبو يوسف مرة : لا تنتهي أو تفسد خشبة . ثم قال أبو عبد الله :ما كان صاحب حجج ، بل صاحب خطب.

وقال أبو بكر الأثرم :سئل أحمد عن الصلاة خلف بشر المريسي ، فقال : لا تصل خلفه.

وقال قتيبة :بشر المريسي كافر.

قلت : وقع كلامه إلى عثمان بن سعيد الدارمي الحافظ ، فصنف مجلدا في الرد عليه.

ومات في آخر سنة ثماني عشرة ومائتين وقد قارب الثمانين . فهو بشر الشر ، وبشر الحافي بشر الخير ، كما أن أحمد بن حنبل هو أحمد السنة ، وأحمد بن أبي دواد أحمد البدعة ومن كفر ببدعة وإن جلت ، ليس هو مثل الكافر الأصلي ، ولا اليهودي والمجوسي ، أبى الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، وصام وصلى وحج وزكى وإن ارتكب العظائم وضل وابتدع ، كمن عاند الرسول ، وعبد الوثن ، ونبذ الشرائع وكفر ، ولكن نبرأ إلى الله من البدع وأهلها). وقد سقنا ترجمته لما فيها من الدروس والعبر وعدم الاغترار بعلم وزهد وورع أهل البدع فعلمهم فاسد وورعهم بارد يجب الحذر والتحذير منهم ومن بدعتهم نصحاً للأمة

وقد ثبت في القرآن والسنة ذكر الحجب، أما في القرآن قوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب}

ومن السنة: فقد جاء في الصحيح من حديث صهيب " إذا دخل أهل الجنة الجنة ... إلى أن قال: فيكشف الحجاب "، ثم ذكر الرؤية دليل على أن الحجاب من مسائل رؤية وجه الله سبحانه وتعالى.

وحديث أبي موسى مرفوعاً: " حجابه النور ". وروى الدارمي وغيره، عن ابن عمر موقوفاً عليه احتجب الله عن خلقه بأربع، بنار ونور وظلمة ونور

جاء شاهد لحديث ابن عمر، جاء عن عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه أن الله احتجب بأربع، وروى الدارمي بسنده عن زرارة بن أبي أوفى مرفوعاً أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سأل جبريل: هل رأيت ربك، قال بيني وبينه سبعين حجاباً من النور، رواه البيهقي في الأسماء والصفات، وابن خزيمة في التوحيد.

وخلاصة المسألة: أن الحجب ثابتة وأن الله احتجب عن خلقه بحجب عدة، والله أعلم بها من حيث العدد والماهية وإن كان جاء في بعض الآثار أنها أربع وفي بعضها سبعين فالله أعلم، ومن حيث الماهية وإن كان جاء في بعض الآثار أنه نور، نار، ظلمة فالله أعلم.

مسألة: هل من صفات الوجه أن يقال له صورة أي للوجه صورة؟

٣ – جاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً قال: " من قاتل فليجتنب الوجه، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن "

أما بالنسبة للحديث هذا فقد رواه ابن أبي عاصم في السنة، ورواه غيره، لكن الحديث ضعيف؛ لأن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف الحديث، أما من حيث إثبات الصورة لله، فإن أهل السنة بالإجماع يثبتون الصورة لله عزوجل، وقد دل على ذلك حديث متفق عليه، فإن الله خلق آدم على صورته، وفي رواية على صورة الرحمن.

والصحيح في الضمير أنه يرجع إلى الله عز وجل، وهذا هو اختيار جميع السلف، وقد نقل الإجماع ابن تيمية، حيث قال في نقض التأسيس لم يكن بين السلف والقرون المفضلة الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلى الله عز وجل، فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة، وقال مرة: علماء الأمة لم تنكر إطلاق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا.

وجاء عن بعض السلف إعادة الضمير على المضروب، وهذا القول اختاره ابن خزيمة في كتاب التوحيد، لكنه ضعيف جداً، وهذا القول محجوج بإجماع السلف قبله، وممن أعاد الضمير إلى غير الله من السلف: أبي ثور، وأبي الشيخ الأصبهاني، ذكر ذلك عنهما الدكتور عبد الله الدميجي في تعليقه على الشريعة للآجري ، وهناك قول ثالث في إرجاع الضمير لآدم

أي أن الله خلق آدم على صورته-أي على صورة آدم-، وهذا القول هو قول الجهمية وأهل الكلام ولا يجوز القول به.

وقد قال الإمام أحمد: من قال إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي.

مسألة: ذكر البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في تفسير سورة القصص، قوله تعالى: {كل شيء هالك إلا وجهه} قال البخاري: يقال إلا ملكه، ويقال: إلا ما أريد به وجهه، انتهى.

وهذا فيه إشكال، ووجه الإشكال تفسير الوجه بالملك، وتفسير الوجه بإرادة الثواب أو الإخلاص، ولكن **الإشكال يزول إذا عرفنا مسألتين:**

أ - أن البخاري على مذهب السلف في مسألة الوجه بل إنه في آخر صحيحه في كتاب التوحيد، قال: باب ما جاء في كل شيء هالك إلا وجهه، وذكر حديث الاستعاذة بوجه الله مما يدل على أنه يثبت الوجه.

ب - أن البخاري في نقله لمن فسر الوجه بالملك، قال (يقال) وهذه صيغة تمريض تدل على أنه لم يثبت القول، وإنما ذكره رحمه الله لبيان ضعفه. ومما سبق في كلام البخاري تبين لنا حسن صنيعه رحمه الله.

والغريب أيضاً أن ابن جرير الطبري في تفسير سورة القصص لما فسر قوله: {كل شيء هالك إلا وجهه} قال: اختلف في معنى إلا وجهه، وذكر أقوالا ثم قال، وقال بعضهم إلا ما أريد به وجهه، وأبهم ابن جرير القائل على خلاف عادته في ذكر السند إلى من ينقل عنهم التفسير من السلف.

علماً بأن ابن جرير من أهل السنة ومن أئمة السلف يثبت الوجه على طريقة السلف.

الكلام على تقسيم الصفات إلى فعلية وذاتية ونحو ذلك

وهنا ونحن نتكلم عن صفة الوجه لله تعالى أحب أن أقف وقفة قصيرة تتعلق بتقسيم الصفات؛ لأن بعضهم يقول: صفة الوجه واليدين صفات خبرية، وصفة العلم والحياة والإرادة والقدرة والسمع والبصر صفات عقلية، وأحياناً يقولون: صفة الوجه واليدين والحياة والعلم والسمع والبصر صفات ذاتية، وصفة الرضا والغضب والاستواء والمجيء والنزول والإتيان صفات فعلية، أي: أنها متعلقة بفعله وبإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى، **وهذه التقسيمات لم**

تكن معروفة بهذا الشكل لدى السلف الصالح رحمهم الله تعالى، ولهذا تجدهم يثبتون جميع ما ورد من الصفات دون أن يفرقوا بين صفة وأخرى، كما فعل ابن قدامة هنا، حيث ذكر صفات عديدة لله سبحانه وتعالى دون أن يميز ويقول: هذه خبرية، وهذه عقلية، وهذه ذاتية، وهذه فعلية.

ولهذا فإنني أنصحكم بقراءة آخر كتاب من صحيح البخاري رحمه الله تعالى الذي عنون له بعنوان: كتاب التوحيد، وهذا الكتاب عظيم جداً، ومن تأمل تبويب البخاري واستشهاده بالآيات ثم ذكره للأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى في هذا الكتاب عجباً! ومن هنا فإن من تأمل تبويبات البخاري رحمه الله تعالى يجد أنه سار في ذلك أيضاً دون أن يفرق بين اسم من أسماء الله ولا بين صفة من صفات الله؛ فارجعوا إليه، إما إلى متنه أو ارجعوا مع المتن إلى شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الله الغنيمان؛ فإنه شرحه في مجلدين كبيرين، وشرحه من الشروح الوافية المهمة، وهكذا ارجعوا إلى شرح من قبله، مثل شرح ابن حجر في (فتح الباري) أو العيني في (عمدة القاري) أو السيوطي الذي لخص الشرحين في (إرشاد الساري) أو غيرها من شروح البخاري، فيستعين الإنسان بها، لكن شرح الغنيمان لكتاب التوحيد الذي هو آخر كتاب من كتب صحيح البخاري جاء مبسوطاً على وفق منهج أهل السنة والجماعة، مع المناقشة لمن أخطأ أو انحرف في هذا الباب.

المهم هو أن هذه التقسيمات إنما جاءت بعد ذلك، وإذا كان بعضها له حظ من المعنى فإن بعض الصفات فعلاً خبرية، مثل صفة الوجه أو اليدين؛ لأنه لا يمكن أن نطلع عليها إلا بخبر الصادق، وبعضها خبري عقلي، مثل صفة العلم لله سبحانه وتعالى والإرادة، فإن هذه الصفات دلت عليها الأدلة من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأيضاً دل عليها دليل العقل، لكن العمدة في الإثبات أولاً إنما هو النقل؛ لأن هذه متعلقة بأسماء الله وصفاته، لكن لا يمنع بعد إثباتها بالنقل أن ندلل عليها بدليل العقل إذا كان الاستدلال منهجياً وصحيحاً.

وكذلك أيضاً التقسيم بأن هناك صفات ذاتية، مثل صفة الحياة لله سبحانه وتعالى، وأن هناك صفات فعلية، هذا أيضاً مما له حظ من المعنى، وقد دلت عليه النصوص؛ فإن بعض صفات الله سبحانه وتعالى تتعلق بمشيئته وإرادته، فاستواء الله على العرش -مثلاً- له دلالتان: دلالة

العلو، وهذه أزلية، ودلالة الاستواء على العرش، وهذه من صفات أفعاله، فليست أزلية؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد:4] ، فاستواؤه تبارك وتعالى على العرش بعد خلقه له، مثله نزوله تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء، كل هذا مما يتعلق بإرادته ومشيئته، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ذكر لذلك.

الرد على الذين ينكرون صفة الوجه لله تبارك وتعالى أو يؤولونها

ونقف عند صفة الوجه لله سبحانه وتعالى؛ لأنها نموذج لبقية الصفات، فنحن نثبتها ولا نتأولها، والذين انحرفوا في هذا الباب تأولوا هذه الصفة قائلين: **إن وجهه هو ذاته**، فقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:88] ، يعني: إلا ذاته، **وهذا تأويل باطل**؛ لأن دلالة الوجه على الذات لا شك فيها، ودلالة الصفة على الموصوف لا شك فيها، وأن له ذاتاً ليست كذوات المخلوقين لا شك فيها، لكن أن يقال: إن معنى صفة الوجه لله سبحانه وتعالى هي ذاته، ولا تدل على أن لله وجهاً يليق بجلاله وعظمته، نقول: هذا هو التأويل الخاطئ، بل يجب إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته؛ وهذا هو منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى؛ فإنهم يثبتون الصفة ولا يتأولون ولا يكيفون ولا يمثلون، وإنما يثبتون هذه الصفة لأن الله أخبرنا بها، وهو أعلم بنفسه، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بها وهو صلى الله عليه وسلم أعلم بربه، ومن ثَمَّ فنحن نسير على منهاجهم، خاصة وأن سلف الأمة أجمعوا على ذلك.

وقد يقول قائل: ولكن يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة:115] ، فإن بعض المفسرين من السلف قال: أي: قبلة الله، وظن هؤلاء أن قولهم: قبلة الله، إنما هو تأويل لهذه الصفة، ولهذا لما ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (العقيدة الواسطية) التي هي عقيدة جامعة لمسائل عظيمة، وخالفه من خالفه من أهل الكلام، قال لهم شيخ الإسلام ابن تيمية: أنا أمهلكم ثلاث سنوات، فإن أتيتموني بكلمة واحدة عن السلف رحمهم الله تعالى تخالف ما في العقيدة الواسطية فإنني أعترف لكم بأنني مخطئ.

أو كلاماً نحو ذلك؟ فبحث المخالفون له، ودعوه إلى مناظرة حول عقيدته الواسطية في قصة ومحنة جرت له رحمه الله تعالى، ولكن الشاهد ما يتعلق بهذه المناظرة فيما نحن بصدده، وهو صفة الوجه لله سبحانه وتعالى.

وكانت مناظرته حول الواسطية مع مخالفيه من أهل الكلام، وغالبهم أشعرية رحمهم الله جميعاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلما جلسنا قالوا لي -وكأنهم كانوا فرحين-: لقد وجدنا عن السلف تأويلاً، قال: فانقدح في ذهني، فقلت: لعلكم تقصدون قول الله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة:115] ؟ قالوا: نعم، نقصد هذه الآية، فإن بعض السلف قالوا: فثمَّ قبلة الله، فقال لهم شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الآية ليست من الصفات، وما فسروه به بأن المقصود بها: فثمَّ قبلة الله حق؛ لأن الآية جاءت في سياق بيان القبلة: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة:115] ، أي: أينما تتجهوا بوجوهكم وتعبدون الله سبحانه وتعالى مخلصين في صلاتكم فثمَّ قبلة الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن سياق الآية دال على هذا.

لكن يبقى في الكلام بقية، ألا وهي أن شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر من كتبه احتج بهذه الآية، وأثبت منها صفة الوجه لله تبارك وتعالى، فكيف ذلك؟ نقول: نعم، الاحتجاج بهذه الآية على إثبات صفة الوجه لله صحيح، وأرجو أن تنتبهوا لهذه المسألة؛ لأنكم ستجدون أنفسكم محتاجين إليها في بعض القضايا التي هي متعلقة بصفات الله سبحانه وتعالى، فكيف تكون هذه الآية حجة؟ هذه الآية سيقت مساق بيان الضد، لكن لا يعبر عنها بنسبة الصفة إلى الله إلا ما صح أن يكون صفة لله.

إذاً: قوله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة:115] المعنى يدل على القبلة، لكنه قال: (وجه الله) فنثبت من هذا صفة الوجه؛ لأنه ما أتى بهذا التعبير إلا والله سبحانه وتعالى له وجه يليق بجلاله وعظمته، ولهذا اختلف السلف رحمهم الله تعالى في بعض الصفات، مثل صفة الجنب، وذلك عند قوله تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} [الزمر:56] ؛ فبعض السلف قال: نأخذ منها إثبات صفة الجنب لله، وبعضهم قال: لا نثبت؛ لأن سياق الآية يدل على أنها تتحسر على ما فرطت في حق الله وطاعة الله، ولم تأت هذه الآية لبيان الصفة، وكلا القولين فيهما حق؛ لأن الذين قالوا: نثبت منها الصفة

قالوا: نحن معكم على أن معنى الآية: على ما فرطت في حق الله وطاعة الله، وهذا واضح الدلالة جداً، ولو أراد إنسان أن يشرح هذه الآية وقيل له: تلك النفس التي تتأسف يوم القيامة على ما فرطت، ما معنى قول الله تعالى حكاية عنها: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} [الزمر:56] ؟ لفسرها: بأنها تتحسر على ما فرطت في الإيمان بالله وطاعة الله والصلاة والعبادة وغير ذلك، ويكون التفسير صحيحاً، لكن من قال: إنه يؤخذ منها صفة، قال: لا نصف الله سبحانه وتعالى إلا بما يصح أن يوصف الله سبحانه وتعالى به، ومن ثمَّ فقوله تعالى: (على ما فرطت في جنب الله) يدل على المعنى الذي دل عليه سياق الآية، وأيضاً نستفيد منه: أن لله جنباً يليق بجلاله وعظمته، ولا فرق بين الجنب والساق والقدم والرجل والوجه واليدين والعين، وهذه الصفات كلها دلت عليها أدلة صريحة صحيحة، بعضها في كتاب الله وبعضها في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،فمن أثبت لله الوجه مع التنزيه ،ثم فسر الوجه هنا بالقبلة لدلالة السياق والمعنى ،فتفسيره صحيح موافق للسنة ،ومن فسر الوجه بالقبلة ثم تأول صفة الوجه ،فهذا تفسير وتأويل باطل مخالف لأهل السنة .

إثبات صفة اليدين لله عز وجل

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وقوله سبحانه وتعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64]] .

وصفة اليدين لله سبحانه وتعالى أيضاً مما وردت أدلتها نصاً في كتاب الله تبارك وتعالى في مثل هذه الآية التي استشهد بها الشيخ، ومثل قول الله تبارك وتعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات:47] ، ومثل قول الله تبارك وتعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:75] ، ومثل قول النبي صلى الله عليه وسلم في أحد ألفاظ البخاري: (يد الله ملأى لا يغيضها نفقة -يعني: لا ينقصها نفقة- سحاء الليل والنهار) ، والسحاء: كثيرة الصب.

فقوله: (يد الله ملأى) يدل على إثبات صفة اليد لله سبحانه وتعالى.

وأيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يقبض الله السماوات بيمينه والأرضين بشماله) ، على رواية مسلم.

وأيضاً حديث الشفاعة حينما يأتي الناس إلى آدم ويقولون له: (وخلقك الله بيده) ، فهذه دالة على إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى.

والنصوص الواردة في مثل قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك:1] تدل على صفة اليد؛ وهكذا قوله: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس:71] ، ولا تعارض في ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يتكلم عن نفسه، وهو المعظم لنفسه والمعظم لصفاته، أو يقال: أقل الجمع اثنان، فتتفق آية: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس:71] مع آية: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64] ، وآية: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:75]

ذكر ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق **الوجوه التي وردت في صفات اليدين فقال:** فلفظ اليد ورد في الكتاب والسنة، وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع وروداً متنوعاً متصرفاً مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقية من الإمساك والقبض والطي، والبسط والمصافحة والحثيات، والنضح باليد إلى أن قال ،والمسح وأنه مسح ظهر آدم بيده وذكر الرفع والخفض وذكر الهز، انتهى بتصرف.

فيدل ما سبق على أن هذه الأشياء من أعمال اليد فإن الله يمسك بها، ويقبض ... إلخ.

مذاهب الناس في صفة اليدين لله تعالى:

١ – مذهب أهل السنة والجماعة إثبات اليدين لله.

٢ – مذهب ابن حزم حيث أثبت أن لله أيدي كثيرة، فقال في كتابه الدرة فيما يجب اعتقاده قال: إن لله يداً ويدين وأيدي.

٣ – مذهب أبو العباس القلانسي الرازي الكلاّبي وهو معاصر لأبي الحسن الأشعري، قال: إن اليد صفة واحدة لا صفتان.

٤ – مذهب المشبهة وهم الذين يثبتون لله أيدي كأيدي الناس، أمثال هشام بن الحكم الرافضي، وهشام بن سالم الجواليقي، وداود الجواربي.

وكل هؤلاء يسمون الهشامية، وهم روافض ومذهبهم إثبات أن لله جميع أعضاء الإنسان إلا الفرج واللحية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال هشام بن سالم: إن الله على صورة الإنسان وأن له يد ورجل وأذن وأنف وذكر أشياء، وهذا المذهب ذكره أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين

٥ – مذهب المجسمة، وهم المقاتلية أصحاب مقاتل بن سليمان فمذهبهم أن الله جسم وجثة على صورة الإنسان، له جوارح وأعضاء وهو مع هذا لا يشبه غيره، ذكر ذلك عنهم الأشعري في مقالات الإسلاميين والفرق بين المشبهة والمجسمة فرق واحد وهو أن المجسمة يثبتون أن لله جسما وينفون عنه أنه يشبه غيره، والمشبهة يثبتون أن الله له جسم ويشبهونه بغيره.

٦ – مذهب المعطلة من الجهمية والمعتزلة والماتريدية والأشاعرة المحضة أي متأخري الأشاعرة، فإنهم ينفون اتصاف الله بصفة اليد ويؤولونها بأحد عشر تفسيراً: القدرة، القوة، الملك، النعمة، السلطان، العطاء، الرزق، الخزائن، البركة، الكرامة، العناية.

٧ – مذهب الكلاّبية، ومتقدمي الأشاعرة، فهؤلاء مثل أهل السنة، فيثبتون صفة اليدين لله عز وجل ولا يؤولونها.

مسألة:إن لله سبحانه وتعالى يدان توصف إحداهما باليمنى واختلفوا في مسمى الثانية على أقوال **وهذا الخلاف داخل في مذهب أهل السنة والجماعة:**

القول الأول:أن الثانية تسمى اليمنى أيضاً، فكلتا يديه يمين، واستدلوا بالحديث الصحيح " كلتا يديه يمين وهو قول الإمام أحمد، راجع طبقات الحنابلة لأبي يعلى فإنه قال كما صح الخبر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال كلتا يديه يمين، الإيمان بذلك. انتهى. واختاره ابن خزيمة في كتاب التوحيد، وانتصر لذلك ونفى أن تسمى شمالا، وقال في أول كلامه، إن مذهبنا ومذهب أهل الأثر، وذكر إثبات اليد وقال: ونقول كلتا يديه يمين لا شمال فيهما، وذكره أيضاً ابن بطة في كتابه "الإبانة" في كتاب الرد على الجهمية، ذكر باب كلتا يديه يمين.

القول الثاني:

أنها تسمى بالشمال (أي اليد الثانية) واستدلوا بحديث رواه مسلم من حديث ابن عمر أنه قال ثم يطوي الأرضين بشماله وذهب إلى هذا القول الدارمي، والشيخ محمد بن عبد الوهاب في آخر كتاب التوحيد وأبي يعلى في كتاب (إبطال التأويل).

وزاد الدارمي أنها تسمى (يسار) أيضاً، أي شمال أو يسار، واستدلوا على ذلك بحديث سلمان في إثبات الشمال، والحديث إن الله خمّر طينة آدم بيده، فخرج كل طيب بيمينه، وكل خبيث بشماله، وأما استدلالهم باليسار، فهو حديث أبي الدرداء مرفوعاً: " خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه الأيمن فأخرج ذرية بيضاء إلى أن قال: وضرب كتفه اليسرى فقال للتي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للتي بيساره إلى النار ولا أبالي ".

القول الثالث:

أن اليد الثانية تسمى الأخرى ولا يطلق عليها يمينا ولا يسارا ولا شمالا، وإنما يقال اليد الأخرى، ودليلهم في ذلك ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: " ثم يطوي الأرضين بيده الأخرى ".

والراجح في المسألة: القول الأول، وهي أن تسمى الثانية يمين، أما الرد على أدلة المخالفين، فحديث ابن عمر في مسلم في ذكر الشمال فوصف الشمال شاذ، تفرد بها عمر بن حمزة وضعّفها البيهقي في الأسماء والصفات

ورواه نافع وعبد الله بن مقسم رويا حديث ابن عمر عند البخاري ومسلم ولم يذكرا الشمال، وأما حديث سلمان أنه أخرج كل خبيث بشماله، هذه ضعفها البيهقي في الأسماء والصفات

، أما حديث أبي الدرداء، الشاهد قوله: " وقال للتي في يساره " روا بن الوزير اليمانى في العواصم من القواصم ،والبحر الزخار للبزار باسناد صحيح.

صفة الأصابع لله تعالى ومن يثبتها:

بعض أهل العلم يجعلون الأصابع تابعة لليد ويجعلون من صفة اليد لله الأصابع لها، لأن هذا مقتضى اللغة العربية، وهذا ما يفهمه العربي حينما يقال له ذلك.

لكن الأحسن أن يحتاط في المسألة، ويسكت عن نسبة الأصابع إلى اليد، إنما يقال له أصابع أو لله أصابع، ولذا السلف يقولون: إثبات الأصابع لله ولا يقولون إثبات الأصابع ليد الله ونسبتها إلى الله في قول أصابع الله أدق وأحوط، مع أن القول الأول له قوة من ناحية دلالة اللغة العربية عليه فالأول أقوى دليلا والثاني أحوط لمن أشتبه عليه، ونسأل الله أن لا يكون في كلامنا هذا شيء من التنطع المذموم والتعمق ونستغفر الله ونتوب إليه والله أعلم.

وأما ثبوت الأصابع لله فقد جاء ثبوتها في السنة بأحاديث صحيحة منها حديث: " يضع السموات على إصبع " وهو في الصحيح من حديث ابن مسعود وكذلك حديث أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأهل السنة والجماعة مجمعون على إثبات الأصابع لله على ما يليق بجلاله.

ومذاهب الناس في إثبات الأصابع على أقسام:

١ – أهل السنة والجماعة وهم على إثبات الأصابع لله عز وجل.

٢ – الذين يؤولون الأصابع كتأويل اليد، فيؤولونها بالقدرة والملك ... إلخ. وهذا مذهب الجهمية والمعتزلة ومتأخري الأشاعرة والماتريدية، ويضاف على ذلك آخرون أثبتوا اليدين كما مر معنا لكنهم أولوا الأصابع كالبيهقي وشيخه ابن فورك.

3 – من أنكر إثبات الأصابع لله ونفى صحة ورود ذلك كالخطابي، نقل ذلك عنه السفاريني في عقيدته جـ١ لما تكلم عن صفة الأصابع لله عز وجل.

مسألة: عدد الأصابع وهل يثبت لله عدد محدد للأصابع كما أثبتنا أن له يدان اثنتان؟ الذي ورد في حديث ابن مسعود خمسة أصابع، وفي حديث تقليب القلب ذكر إصبعين، فنثبت هذا العدد لأنه ورد.

ونقول: " آمنا بما جاء عن اللَّه على مراد اللَّه وبما جاء عن رسول اللَّه على مراد رسول اللَّه "، ونسكت عن تحديد ذلك، ونقول: اللَّه أعلم. ويسعنا ما وسع من قبلنا من ترك تحديد العدد مع إثبات ما ورد.

مسألة: الكف:

أهل السنة والجماعة على أن لله كفاً، واستدلوا بحديث رواه مسلم لما ذكر الصدقة، قال ما تصدق أحد بصدقة .

.. إلى أن قال: فتربوا في كف الرحمن " وأهل السنة والجماعة يثبتون الكف لله، وأما المعطلة فيؤولونها كتأويل اليد.

مسألة: هل يقال أن اليد هي الكف أم بينهما فرق؟

من ناحية لغة العرب فإنهم أحياناً يطلقون لفظ الكف على اليد فيكون معناهما واحد وأحياناً يجعلون اليد أوسع من الكف، أما بالنسبة لله تعالى فهذا يحتاج لنصوص من القرآن أو السنة أو كلام السلف، لكن لا ننسى أن القرآن والحديث مبني على اللغة العربية وجاء بما يفهمه العرب، والعربي يفهم من الكف ما هو دارج معروف وكذا في الأنامل والأصابع وهذا من حيث المعنى، أما الكيفية فلا تُعرف إنما هي من أمور الغيب لا يعلمها إلا الله، وكلامنا هنا هو نفس كلامنا السابق في مسألة الأصابع إعمالاً لقاعدة أهل السنة في الصفات (**التَّوقُّفُ في الألفاظِ المُجمَلةِ الَّتي لم يرِدْ إثباتُها ولا نَفْيُها**) وهذه قاعدة مهمة يجب التقيد بها

مسألة: الأنامل: هل نثبتها لله عز وجل؟

أهل السنة والجماعة يثبتون ذلك لأنه ورد في الحديث فيما رواه أحمد والترمذي وابن خزيمة وهو حديث صحيح ويسمى حديث (اختصام الملأ الأعلى)، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: " فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري

والشاهد قوله (أنامله) فأضافها إليه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. وقد أثبت الأنامل ابن تيمية في رده على الرازي في كتابه نقض أساس التقديس، لما أول الرازي الأنامل بالعناية وفي هذا الحديث دليل على إثبات الكف لله، وأما عدد الأنامل فينظر هل ورد عن السلف شيء في ذلك فيثبت وألا نقف حيث وقفوا.

ومثله عدد الكف هل يقال إن الله له كفان كاليدين، وهل يقال أن فيهما كف يمنى؟

الجواب: إن ورد شيء عن السلف في ذلك فنقول بما قالوا وأن لم يرد فنقف حيث وقفوا

مسألة: الساعد والذراع: فهل يثبت لله ساعد وذراع؟

البيهقي تكلم عن أحاديث الساعد في كتابه "الأسماء والصفات"،فقال: باب ماذكر في الساعد والذراع ثم ذكر بسنده (رَوى أبو الأَحْوَصِ عن أبيه قال: أتيتُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ((هل تُنْتَجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذانُها، فتعْمِدُ إلى الموسَى فتقْطَعُ آذانَها، فتقولُ: هَذِهِ بُحُرٌ، أو تَشُقُّ جُلُودَهَا، وتقولُ: هَذِهِ صُرُمٌ، فتحرّمُهَا عَلَيْكَ وعلى أهْلِكَ؟ قال: قُلْتُ: نَعَمْ، قال: فكُلُّ ما آتَاكَ اللهُ لكَ حِلٌّ؛ سَاعِدُ اللهِ أشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، ومُوسَى اللهِ أحَدُّ مِنْ مُوسَاك)) .

وإثباتُ صِفةِ السَّاعِدِ لله عزَّ وجلَّ كصِفَة اليَدِ والكَفِّ والأصَابع، وغيرِهَا من الصِّفاتِ: لا تَستحيلُ عليه سُبحانَه، ولا يَسْتَوْحِشُ الموحِّدُ من إثباتِهَا بما يَليقُ به سُبحانَه، إنما يَسْتَوْحِشُ مِن ذلك المعَطِّلَةُ، لكنْ لا يُعلَمُ عن أحدٍ من السَّلَفِ أنَّه صرَّح بإثباتِ صِفةِ السَّاعِدِ لله عزَّ وجلَّ إلَّا الفَرَّاءَ في كِتاب (إبطال التَّأويلات) ، كما بوَّب ابْنُ مَنْدَهْ في كِتابِهِ (الرَّدُّ على الجَهْمِيَّة) بباب: ذِكْرُ خَبرٍ آخَرَ يدُلُّ على ما تقدَّمَ في معنَى اليَدِ، وذَكَرَ الحديثَ، وأورده الملطِيُّ في كِتابه (التَّنبيهُ والرَّدُّ على أهل الأَهْوَاء والبِدَع) في إثباتِ صِفَة اليدِ للهِ سُبحانَه وتعالى.

والأقربُ أنَّه مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللهُ أعلمُ بمُراد رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) وفسره البيهقى بالقدرة والنفوذ والقوة قال ويوضح ذلك أن معنى موساه أي قطعه أسرع من قطعك اهـ.

ثم ذكر أحاديث الذراع مثل (غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا بذراع الجبار) وحديث (خلق الملائكة من نور الذراعين) ولم يجعل ذلك من باب الصفة لله تعالى، اه مختصرا. وهذا صحيح لأن الأحاديث التي ذكر في الذراع لم تُضف لله.

وذكر الشيخ مرعي المقدسي في كتابه أقاويل الثقات قال: وأما الساعد والذراع فقال القرطبي: أسند البيهقي وغيره حديث ﴿ ساعد الله أشد من ساعدك الخ .... وذكر البيهقي حديث (خُلقت من نور الذراعين ﴾ قال مرعي: إن الذراع جاء مطلقا غير مضاف إلى الله، وقال إن

الساعد يطلق بمعنى القوة والتدبير قال: ويوضح ذلك قوله وموسى الله أحد من موساك يعني قطعه في مقدورا ته أسرع من قطعك اهـ.

وذكر بعض المؤلفين أن أبا يعلى الحنبلي ذكر الساعد في كتابه إبطال التأويلات لكن لم أجده في الأجزاء التي عندي فالله أعلم.

أما بالنسبة للذراع فقد اختار أبو يعلى أن الذراع صفة من صفات الله ج ١/ ٢٠٤ تحقيق الحمود. وهل الذراع بمعنى الساعد عند أبي يعلى، فيكون بذلك مثبتا للساعد؟ الله أعلم.

هذا ما تيسر جمعه، ولازالت المسألة تحتاج إلى بحث أكثر، ولا زال في النفس حاجة إلى تطلع أكثر لعل الله ييسر بحثا أوسع.

مسألة: وهي بعض الأحاديث والآيات التابعة لهذه المسألة وفيها خلاف هل هي من آيات الصفات أم لا؟والقاعدة في ذلك **(ما أُضيفَ إلى اللهِ ممَّا هو غيرُ بائنٍ عنه، فهو صفةٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكلُّ شيءٍ أُضيفَ إلى اللهِ بائنٌ عنه، فهو مخلوقٌ)**

١ - قال تعالى: {والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون} ، هذه الآية ليست من آيات الصفات والسبب لأن الأيدي ليست مضافة إلى اللّه سبحانه بخلاف آيات الصفات، على أننا نقول بإثبات اليد لله عز وجل.

٢ - حديث " الحجر الأسود يمين اللّه في الأرض " هذا الحديث تكلم عنه الدارمي في كتابه الرد على بشر المريسي، وقال: لقد علمنا يقيناً أن الحجر الأسود ليس بيد اللّه نفسه.

إن يمين اللّه معه على العرش غير بائن منه، وتأويله عند أهل العلم الذي يصافح الحجر الأسود ويستلمه كأنما يصافح اللّه. انتهى(الزناد للشيخ على الخضير ثبته الله وفرج عنه)

الرد على المنكرين والمأولين لصفة اليدين لله عز وجل

والمخالفون لأهل السنة والجماعة في هذه الصفة من المعتزلة وكثير من الأشعرية والماتريدية يقولون: إن اليد بمعنى القدرة، وأحياناً يفسرونها بمعنى النعمة، وقولهم هذا مخالف لمنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى؛ لأنه تأويل لم يدل عليه دليل، والسلف رحمهم الله تعالى أثبتوا هذه الصفة، ومنعوا من تأويلها.

لكن في صفة اليدين لله جاءت النصوص بدلالة قاطعة تمنع من التأويل، وإني والله حتى هذه اللحظة أعجب كيف تجرأ أولئك العلماء الفضلاء على أن يتأولوا قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة:64] ، وقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ؛ فهذا نص صريح واضح لا يمكن التأويل فيه، ومع هذا قالوا: يداه: نعمته، ما خلقت بيدي: بنعمتي وبقدرتي، وهذا لا يمكن؛ لأن هذا نص صريح في إثبات صفة اليدين لله سبحانه وتعالى.

ولهذا فإنني أقول كما قال من سبقني من أهل العلم: إن تأويلهم لهذه الآية لا وجه له، حتى من دلالة اللغة العربية؛ فقد تكون بعض التأويلات الأخرى -وإن كانت باطلة- لها وجه في اللغة العربية، لكن تأويلهم لليدين تأويل لا وجه له إطلاقاً في اللغة العربية، ولهذا في قول الله تبارك وتعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} جاءت العبارة وجاء التعبير قاطعاً في هذه المسألة؛ فقال أولاً: (خلقت) ، فأضاف الفعل إلى نفسه، وعبر بلفظ (الخلق) ، والخلق له دلالته الخاصة، ثم قال: (بيدي) ، وأضافها إلى نفسه، ثم جاء معبراً بلفظ التثنية، وكل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن تأويل هذه الآية باطل، وإذا تبين بطلان تأويل هذه الآية فإنه دال على أن تأويلاتهم الأخرى لا دليل عليها، حتى ولو كان لها أحياناً وجه بعيد من اللغة، إلا أنه يدل على أن منهجهم في التأويل منهج غير صحيح.

إثبات صفة النفس لله عز وجل

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وقوله تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام أنه قال: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة:116] .

وهذا في إثبات النفس لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:28] وورد ذلك أيضاً في أحاديث كثيرة جداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقوله صلى الله عليه وسلم: (سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته) ، وأيضاً ورد في الحديث القدسي الصحيح الآخر المشهور: (يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا) ، فهذه الآيات والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم دالة على إثبات هذه الصفة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، لكن ينبغي ألا يفهم منها -وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - أن لله نفساً منفصلة عن الله سبحانه وتعالى، كما يقال بالنسبة للمخلوق: إن له جسداً، وله روحاً تسمى نفساً،

فيقولون: خرجت نفسه، يعني: خرجت روحه، فقول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:28] ، وقوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة:116] لا يفهم منه أن لله نفساً منفصلة عنه، وهذا أيضاً هو الذي تدل عليه النصوص؛ فإن النفس هنا تدل على الصفة وعلى ذات الله سبحانه وتعالى التي لا تشبه ذوات المخلوقين؛ فقوله سبحانه وتعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:28] أي: يحذركم ذاته المتصفة بصفاته، وليس هناك صفة منفصلة اسمها النفس، كما قد يتوهم البعض.

والسلف رحمهم اللَّه اختلفوا في ما هو المراد من صفة النفس بعد ما أثبتوا النفس لله،
على قولين:

القول الأول:

أن النفس بمعنى الذات الإلهية بصفاتها، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في الفتاوى وقال (نَفْسُه هي ذاتُه المقدَّسَةُ) .

وقال أيضًا: (يُرادُ بنَفْس الشَّيءِ ذاتُه وعينُه، كما يُقال: رأيتُ زيدًا نفْسَه وعَينه، وقدْ قال تعالى: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ،) وقال تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ،)وقال تعالى: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ،) وفي الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه قال لأمِّ المؤمنينَ: ((لقدْ قلتُ بعدَكِ أَربعَ كلماتٍ لوْ وُزِنَّ بما قلتِ لوَزَنَتْهنَّ: (سُبحانَ اللهِ عددَ خَلقِه، سُبحانَ اللهِ زِنةَ عَرشِه، سُبحانَ الله رِضا نَفْسِه، سُبحانَ اللهِ مِدادَ كلماتِه)) ، وفي الحديثِ الصَّحيحِ الإلهيِّ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَقولُ اللهُ تعالى: أنا عندَ ظنِّ عَبدِي بي، وأنا معه حِينَ يَذكُرني، إنْ ذكَرني في نَفْسِه، ذَكرتُه في نفْسِي، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم)) ؛ فهذه المواضعُ المرادُ فيها بلفظِ النَّفْس عند جمهورِ العُلَماءِ: اللهُ نَفْسُه، التي هي ذاتُه المتَّصِفةُ بصِفاتِه، ليس المرادُ بها ذاتًا منفكَّةً عن الصِّفاتِ، ولا المرادُ بها صفةً للذاتِ، وطائفةٌ من النَّاسِ يَجعلونها مِن بابِ الصِّفاتِ، كما يظنُّ طائفةٌ أنَّها الذاتُ المجرَّدةُ عن الصِّفاتِ، وكِلا القولينِ خَطَأٌ) .

القول الثاني:

إن النفس صفة من صفات الله كغيرها من الصفات واختار هذا القول ابن خزيمة في كتاب التوحيد، وابن قدامة في كتابه هذا – لمعة الاعتقاد – واختاره أيضاً عبد الغني المقدسي في عقيدته، واختاره أيضاً أبو يعلى في كتابه إبطال التأويلات، واستدلوا على ذلك أنها جاءت مضافة إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كما في الآية التي ذكر المصنف {ولا أعلم ما في نفسك}، وقوله: {كتب ربكم على نفسه الرحمة}.

وهذا هو الصحيح في المسألة أن النفس صفة من صفات الله.

مسألة: مذهب المعطلة في صفة النفس لله تعالى:

هم لا يثبتون لله تعالى صفة النفس، كغيرها من الصفات، وجميع المعطلة من الجهمية والمعتزلة والكلاّبية والأشاعرة يفسرون النفس في الآيات السابقة بمعنى الذات، والفرق بين كلامهم وكلام ابن تيمية: أنهم يقولون أن النفس الذات المجردة.

وابن تيمية يقول أن النفس بمعنى الذات المتصفة بالصفات.

مسألة : النَّفَسُ والتَّنْفِيسُ

صِفةٌ فعليةٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ والنَّفَس مِن التَّنفيسِ؛ كالفَرَجِ والتفريجِ، ثابِتةٌ بالسُّنَّةِ الصَّحيحةِ.

الدَّليلُ:

1- حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه مرفوعًا: ((مَن نَفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ ...)) .

2- حديث سلمة بن نفيل السكوني مرفوعا: ((... وقال وهو مول ظهره إلى اليمن: إني أجد نفس الرحمن من هاهنا))

قال الأزهريُّ في كتابه تهذيب اللغة بعدَ أنْ ذَكَر حديثَ: ((أجِدُ نَفَسَ ربِّكم مِن قِبَلِ اليَمنِ)) ؛ قال: (أجِدُ تَنفيسَ ربِّكم عنكم مِن جِهةِ اليمنِ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ نصَرَهم بِهم، وأيَّدَهم برِجالهم، وكذلك قَولُه: ((الرِّيحُ مِن نَفَسِ الرَّحمنِ)) ، أي: مِن تنفيسِ اللهِ بها عن المكروبينَ، وتَفريجِه عن الملهُوفِينَ) .

وقال الفَيرُوزَابادي في كتابه القاموس المحيط: (في قَولِه: ... و((أَجِدُ نَفَسَ ربِّكم مِن قِبَلِ اليَمنِ))؛ اسمٌ وضِعَ موضعَ المصدرِ الحقيقيِّ، مِن نَفَّسَ تَنفيسًا ونَفَسًا، أي: فَرَّجَ تفريجًا) .

وقال أَبو يَعلَى الفرَّاءُ في كتابه إبطال التأويلات-بعدَ ذِكرِه حديثَ: ((الرِّيحُ مِن نَفَسِ الرَّحمنِ))-: (اعلمْ أنَّ شيخَنا أبا عبدِ اللهِ ذَكَر هذا الحديثَ في كِتابه، وامتَنعَ أنْ يكونَ على ظاهرِه، في أنَّ الرِّيحَ صِفةٌ ترجِعُ إلى الذَّاتِ، والأمْرُ على ما قالَه، ويكونُ معناه أنَّ الرِّيحَ ممَّا يُفَرِّجُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها عن المكروبِ والمغمومِ؛ فيكونُ معنى النَّفَسِ مَعنى التنفيسِ، وذلك معروفٌ في قولِهم: نَفَّسْتُ عن فلانٍ، أي: فَرَّجْتُ عنه، وكلَّمتُ زيدًا في التَّنفيسِ عن غريمِه، ويُقال: نفَّس اللهُ عن فلانٍ كُربةً، أي: فرَّج عنه، ورُوي في الخَبرِ: (مَن نفَّس عن مَكروبٍ كُربةً نَفَّس اللهُ عنه كُربةً يومَ القيامةِ) ، ...وإنَّما وجَبَ حمْلُ هذا الخبرِ على هذا، ولم يجِبْ تأويلُ غيرِه من الأخبارِ؛ لأنَّه قد رُوي في الخبرِ ما يدلُّ على ذلك؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا عصَفَت الرِّيحُ قال: ((اللهمَّ إنِّي أسألُك خَيْرَها، وخَيْرَ ما فيها، وخَيْرَ ما أُرسِلَت به، وأعوذُ بك مِن شَرِّها، وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَت به)) ، وهذا يقتضي أنَّ فيها شرًّا وأنَّها مرسَلةٌ، وهذه صِفاتُ المحدَثاتِ) .

وبنحوِ هذا الكلامِ قال ابنُ قُتَيبةَ .

وقال ابنُ تَيميَّةَ شارحًا حديث: ((إنِّي لأجدُ نَفَسَ الرَّحمنِ مِن قِبَلِ اليَمنِ)): (فقَولُه: «مِن اليَمَن» يُبيِّنُ مقصودَ الحديثِ؛ فإنَّه ليس لليَمَنِ اختصاصٌ بصِفاتِ اللهِ تعالى حتى يُظَنَّ ذلك، ولكن منها جاءَ الذين يُحبُّهم ويُحبُّونَه؛ الذين قال فيهم: (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وقد رُوي أنَّه لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ، سُئِل عن هؤلاءِ؟ فذكَر أنهم قومُ أبي موسى الأشعريِّ، وجاءتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ؛ مِثلُ قَولِه: ((أَتاكم أهلُ اليَمنِ؛ أرقُّ قُلوبًا، وأَلينُ أفئدةً؛ الإيمانُ يمانٍ، والحِكْمةُ يمانيَةٌ)) ، وهؤلاءِ هم الذين قاتلوا أهلَ الرِّدَّةِ، وفتَحوا الأمصارَ؛ فبِهم نَفَّس الرحمنُ عن المؤمنينَ الكُرُباتِ)

الكلام على صفة المجيء والإتيان

إثبات صفة المجيء والإتيان لله عز وجل

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى ذكر صفة أخرى فقال: [وقوله سبحانه وتعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر:22] وقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ} [البقرة:210]] .

وهاتان الآيتان دالتان على صفة المجيء والإتيان لله سبحانه وتعالى؛ وهما من الصفات الفعلية التي يتصف بها ربنا سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وأهل السنة والجماعة يثبتون

صفة المجيء، ويثبتون صفة الإتيان؛ لأن النصوص من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم دلت عليها، ولهذا قال الله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ} [البقرة:210] ، وقال في آية أخرى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا} [الأنعام:158] ، فقوله: (يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) دليل على بطلان من تأول ذلك؛ لأنه ميز بين إتيان الرب وإتيان الآيات، ولو كان إتيان الرب هو إتيان الآيات أو بعض عباد الله أو نحو ذلك كما يقول المتأولة لما ذكره هنا وميزه، وهذا واضح الدلالة.

والمخالفون لمنهج أهل السنة والجماعة يقولون: (وجاء ربك) أي: وجاء أمر ربك؛ (يأتي ربك) أي: يأتي أمر ربك، أو يأتي ملك من الملائكة، أو غير ذلك؛ وهذا كله من باب التأويل الباطل؛ فإن هذه النصوص قد دلت على أن الذي يأتي هو الله سبحانه وتعالى، وأن مجيئه وإتيانه كما يليق بجلاله وعظمته لا يلزم منه لوازم النقص التي نعلمها على المخلوقين؛ ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحديث الطويل المتعلق بيوم القيامة: (حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله أتاهم رب العالمين) ، وهذا نص صريح أن الذي أتاهم هو رب العالمين سبحانه وتعالى؛ أما تأويله بأنه أمر ربك أو نحو ذلك فهو مخالف لهذه النصوص الصريحة الدالة على أن الذي يتصف بها هو الله تبارك وتعالى.

جميع المعطلة ينكرون هذه الصفة ويفسرون المجيء والإتيان بعدة تفسيرات:

١ - الإتيان: أي إتيان أمره تعالى، فيقولون وجاء ربك قالوا فيه حذف والمعنى: جاء أمر ربك. وقوله: ﴿ إلا أن يأتيهم الله ﴾ أي أمر الله، قالوا بدليل قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك}.

٢ - أو يفسرون الإتيان والمجيء بإتيان ومجيء بعض المخلوقات، فمعنى وجاء ربك، أي: ملائكة ربك، أو عذاب ربك، وكلامهم هذا كله باطل.

فالآيات صريحة في إثبات المجيء والإتيان لله تعالى.

مسألة: هل المجيء والإتيان صفة واحدة أم لا؟

ظاهر صنيع المؤلف أنه جعلهما صفتين؛ لأن من عادته جعل آية لكل صفة وهنا جعلهما في آيتين مستقلتين.

وذكرالشيخ محمد خليل هراس في شرحه على النونية أنهما صفتان، وقال أيضاً في شرحه للواسطية أنهما صفتان ووافقه على ذلك علوي السقاف في كتابه صفات الله ص٣٨ أنهما صفتان، وأيضاً العلامة عبد العزيز الرشيد شارح الواسطية المسمى التنبيهات السنية ذكر أنهما صفتان قال: أفادت الآيات إثبات أفعاله الاختيارية فالإتيان والنزول والمجيء والاستواء كلها أنواع أفعاله.

وفي النفس شئ مما قالوا ويشكل على ذلك أن سياقها واحد وأسبابها واحدة ومتعلقها واحد.

والذي يظهر لي – والله أعلم – أنهما صفة واحدة وليست صفتين. والدليل على ذلك:

١ – أن من فرّق بينهما يستدل بآية: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل}، وبالمجيء بآية: {وجاء ربك} وسبب المجيء والإتيان واحد، وهو من أجل الفصل بين الخلائق يوم القيامة فيكون جاء في الآية هي نفس معنى أتى لأنه جاء وأتى لشيء واحد وهو الفصل بين الخلائق حينما تشقق السماء بالغمام، فسببهما واحد وزمانهما واحد.

٢ – الدليل الثاني: ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً وهو حديث قدسي " إذا تلقاني عبدي بشبر تلقيته بذراع، إلى أن قال: وإذا تلقاني بباع جئته " أتيته بأسرع. قال الإمام النووي رحمه الله : هكذا هو في أكثر النسخ والشاهد قوله (جئته أتيته).

٣ – المعنى اللغوي: فإن معنى أتى هي معنى جاء لغةً، والله أعلم.

٤ . قاعدة بعض السلف أنه إذا اختلف المتعلق كانت صفتين، مثل صفة الرحمن والرحيم فإنهم جعلوهما صفتين لأن متعلقهما مختلف فتعددت لذلك، ونحن نقول نفس الكلام تمشيا وقياسا على ذلك.(الزناد)

سبب تأويل المتكلمين للصفات الفعلية والرد عليهم

وبعض المتكلمين تأول مثل هذه الصفات وقال: إنه لا يجوز أن نثبتها لله سبحانه وتعالى؛ لأن الصفات الفعلية التي هي المجيء والإتيان والاستواء والنزول والغضب والرضا وغيرها يلزم منها حلول الحوادث في ذات الله تعالى؛ ومقصودهم بحلول الحوادث أن كل جسم حلت فيه الحوادث والتغيرات –سواء كانت هذه الحوادث سقماً أو مرضاً أو نقصاً أو نحو ذلك أو كانت أفعالاً مثل حركة وتلون وغير ذلك –أنه يكون حادثاً؛ فكل جسم حلت فيه هذه الأشياء فهو دليل على حدوثه! واستدلوا على حدوث العالم بهذه القاعدة، فقالوا: دليلنا على

أن العالم حادث، وأنه غير أزلي، وأن كلام الفلاسفة بأن العالم قديم باطل، هو أن هذا العالم فيه متغيرات: شمس وقمر وكوكب وأرض وغير ذلك، هذه المتغيرات تدل على أنه حادث.

وبعد أن قرروا هذه القاعدة، واحتجوا بهذا الدليل، وردوا به على الفلاسفة، وظنوا أنهم قصموا ظهور الفلاسفة القائلين بقدم العالم بهذا الدليل، انتكس عليهم هذا الدليل؛ لأنه دليل ضعيف فيما عندهم من عقيدة، فقيل لهم: إذا قلتم إن هذا الدليل صحيح، إذاً الله سبحانه وتعالى أيضاً متصف بهذه الصفات التي أنتم تسمونها حوادث؛ فالله لم يكن مستوياً على العرش فخلق العرش ثم استوى على العرش! والله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، والله يجيء يوم القيامة، إذاً: هذه كلها يلزم منها متغيرات، ويلزم منها الحركة، وهذه صفات الإنسان، فينتفي وجه الاعتراض.

وفعلاً هم لما قيل لهم بهذا الاعتراض، قالوا: إذاً ننفي عن الله الصفات الفعلية، وهذا في الحقيقة أمر عجيب جداً! والمشكلة أن هذه القضية نشأت منذ زمن طويل قبل الأشاعرة وقبل الماتريدية، أي أنها نشأت منذ عهد ابن كلاب الذي كان سابقاً قليلاً للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، فإن ابن كلاب لما جاء وجد الناس في عصره على طريقتين: الأولى: طريقة أهل السنة والجماعة الذين يثبتون جميع الصفات دون أن يفرقوا فيها بين صفات الذات وصفات الفعل الخبرية وغير الخبرية، بل يثبتون الجميع؛ لأن منهجهم واحد، ولا فرق بين الصفات.

الثانية: الجهمية المعتزلة الذين ينفون عن الله جميع الصفات، ولا يفرقون بين العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والعلم والوجه واليدين وغير ذلك؛ فينفون عن الله سبحانه وتعالى جميع الصفات.

ونظراً لأنه دخل في باب من أبواب علم الكلام، وهو دليل حدوث العالم واقتنع بذلك الدليل الباطل، نظراً لذلك فإن ابن كلاب أتى بمذهب جديد، جمع فيه بين مذهب السلف ومذهب المعتزلة، فأثبت لله الصفات، لكن نفى عن الله ما يتعلق بمشيئته وإرادته، وسيأتينا -إن شاء الله تعالى- توضيح له في إثبات صفة الكلام لله تبارك وتعالى؛ لكن المهم هنا أن أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى يثبتون لله المجيء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته، ويقولون: إنها صفات أفعال، فمجيئه إنما هو بمشيئته وإرادته؛ لأن الصفات لله سبحانه وتعالى على

ثلاثة أقسام: **القسم الأول:** صفات ذاتية يتصف الله بها أزلاً وأبداً، مثل صفة الحياة والعلم ونحوهما.

القسم الثاني: صفات فعلية ليست أزلية، وإنما هي متعلقة بإرادته ومشيئته، مثل استوائه على العرش، ومثل مجيئه يوم القيامة، ومثل نزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر.

القسم الثالث منها: ما هو ذاتي وفعلي، مثل صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، فالله متصف بصفة الكلام أزلاً، وهو سبحانه وتعالى أيضاً يتكلم إذا شاء متى شاء، فهو سبحانه وتعالى متصف بهذه الصفة منذ الأزل، وهو سبحانه وتعالى كلم موسى في ذلك الوقت، أي: بعد أن خلق موسى وكونه في ذلك المكان الذي ذكره الله سبحانه وتعالى بجانب الطور، وقبل ذلك لم يكلمه سبحانه وتعالى، هذه الصفات التي ذكرناها: صفة المجيء والإتيان وغيرها هي من صفات الفعل التي نثبتها لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ونقول: هي متعلقة بمشيئته وإرادته.

إثبات صفة الرضا لله عز وجل

قال المصنف رحمه الله: [وقوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة:119]] .

صفة الرضا أيضاً يثبتها أهل السنة والجماعة لله تبارك وتعالى، وقد دلت عليها آيات كثيرة جداً، كما قال عز وجل: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) في أكثر من آية، وأيضاً ورد في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها) ، وقوله: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً) .

وصفة الرضا يثبتها أهل السنة والجماعة لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته، وهي من صفات الأفعال، أي: أن الله سبحانه وتعالى يرضى عن عبده إذا شاء، وأخبر أنه يرضى عن عبده إذا فعل الطاعة.

مذهب المعطلة:

أما المعطلة بجميع أصنافهم فإنهم ينكرون صفة الرضى لله ويفسرونها بعدة تفسيرات، إما بمعنى الثواب، ومعنى رضي الله عنهم أي أثابهم، وأحياناً يفسرونها بمعنى الثناء، رضي الله عنهم أي أثنى عليهم، وهذا كله إلحاد في صفات الله.

ويرد عليهم: بأن الثواب والثناء من آثار الرضى، ومن نتائج وثمرات الرضى، وليس هو الرضى نفسه، ففرق بين الصفة وآثارها.

الرد على المنكرين والمأولين لصفة الرضا

هذه الصفة ومثلها صفة المحبة وغيرها يثبتها أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى دون أن يتأولوها، ومن تأولها بأن المقصود بالرضا إرادة الإنعام، أو بالمحبة إرادة الإنعام ونحو ذلك فهذا تأويل باطل؛ لأنه لم يدل عليه دليل، وأولئك تأولوا مثل هذه الصفة خوفاً من التشبيه؛ لأنك إذا قلت لأحدهم: لماذا لا تثبت لله صفة الرضا أو صفة المحبة؟ قال: لا أثبتها خوفاً من التشبيه! لأن الرضا أو المحبة هي صفة في المخلوق تدل على نوع من ميل القلب ونحو ذلك، وهذا الميل والانكسار إنما يليق بالمخلوق، والله سبحانه وتعالى منزه عنها! فنقول له: ونحن ننزه الله عن صفات المخلوقين، لكن ماذا تقول عن هذه الآية، قال: أقول: الرضا إرادة الثواب، والمحبة إرادة الإنعام، ونحو ذلك.

فنقول له: أنت فررت من شيء فوقعت في مثله تماماً؛ لأنك قلت: إرادة الإنعام، فأثبت لله صفة الإرادة، والإرادة هي أيضاً ميل القلب، فإذا قيل: فلان من البشر يريد هذا الشيء فالمعنى أن قلبه يميل إليه، وإذا قيل: يريد أن يصنع شيئاً، أي: أن نفسه تميل إليه، وهذه من صفات المخلوقين؛ فيلزمك فيما فررت إليه نظير ما لزمك فيما فررت منه، فأنت فررت من إثبات الرضا والمحبة فيلزمك في الإرادة ما لزمك في المحبة؛ فإن قلت: أنا أثبت الصفات السبع -مثلاً- ومنها صفة الإرادة، وقولي: إرادة الإنعام أثبتها لله كما يليق بجلاله وعظمته، ولا يلزم منها مشابهة المخلوقين، نقول: ونحن نقول لك أيضاً في صفة الرضا وصفة المحبة: نحن نثبتها لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ولا يلزم منها مشابهة المخلوقين.

وهكذا كل من تأول صفة من صفات الله تعالى فإنه يلزمه فيما فر إليه نظير ما لزمه فيما فر منه، ولا يمكن أن ينفك عنها أي متأول أبداً؛ حتى المعتزلة الذين نفوا عن الله سبحانه وتعالى جميع الصفات خوفاً من تعدد الذوات؛ حيث قالوا: ننفي عن الله جميع الصفات حتى نوحد الله؛ حتى لا نقع فيما قاله النصارى: الأب والابن وروح القدس إلى آخره.

فنقول للمعتزلة: أنتم تنفون هذا عن الله من باب التوحيد؟ فسيقولون: نعم، فنقول لهم: أنتم تقولون: الله موجود أو غير موجود؟ فإن قالوا: الله غير موجود، فقد انتهى الكلام معهم؛

لأنهم ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى، وإن قالوا: الله موجود، فسنقول لهم: والمخلوق موجود؛ فإذا كنتم تفرون من تشبيه الله بخلقه وتقولون إننا ننفي عن الله الصفات حتى لا نجعل مع الله غيره فأنتم ملزمون كذلك في صفة الوجود لله سبحانه وتعالى؛ فإنه تبارك وتعالى موجود، فإن قالوا: نحن نقول: الله موجود، لكن وجود الله ليس كوجود المخلوقين؛ فالمخلوق وجد من عدم، والمخلوق غير واجب، بل ممكن، والله سبحانه وتعالى وجوده يليق به، فهو وجود واجب له سبحانه وتعالى لا يقبل العدم، فنقول لهم: إذا قلتم: لله وجود لا يشبه وجود المخلوقين كذلك أيضاً بقية الأسماء والصفات، فلله أيضاً إرادة لا تشبه إرادة المخلوقين، وله علم لا يشبه علم المخلوقين، وله سمع لا يشبه سمع المخلوقين، وهكذا؛ وكل من اتخذ باباً من باب التأويل فلابد أن يتناقض قوله.

إثبات صفة المحبة لله عز وجل

ثم قال المصنف هنا: [وقوله تعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة:54]] .

وهذه الصفة أيضاً وردت في أكثر من آية من كتاب الله سبحانه وتعالى، ووردت أيضاً في أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما قال في خيبر: (لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله) ، وبقية القصة معروفة حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فقوله: (ويحبه الله ورسوله) دليل على إثبات صفة المحبة، وتأويل هذا لا يجوز.

إثبات صفة الغضب

ثم قال الشيخ رحمه الله تعالى: [وقوله تعالى: {غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [الفتح:6]] .

وهذا يدل على إثبات صفة الغضب لله تبارك وتعالى وأهل السنة والجماعة يثبتونها لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته؛ والأدلة عليها من كتاب الله كثيرة معروفة، وهكذا من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي) ، وفي بعض الروايات: (سبقت غضبي) وهذا في الصحيحين وغيرهما؛ فهذه النصوص دالة على إثبات هذه الصفة لله كما يليق بجلاله وعظمته.

وأهل السنة لا يفرقون بين الغضب وبين غيره، لكن بعض أهل الكلام قال: كيف تثبت لله صفة الغضب، فنحن لا نعرف إلا غضب المخلوق؛ فإن المخلوق إذا غضب يغلي يثور دمه، ويحمر وجهه، ويحتقن، ويبدأ يتفوه بكلمات تدل على غضبه، هذا هو غضب المخلوق! فكيف نثبت لله سبحانه وتعالى هذه الصفة ونحن لا نعقل ولا نفهم إلا صفة المخلوق؟!

والجواب عليه كالجواب عما سبق، فنقول له: نحن نثبت لله صفة الغضب كما يليق بجلاله وعظمته، ولا نقول أبداً: إن غضبه يشبه غضب أحد من المخلوقين، بل المخلوقون يتفاوتون في غضبهم؛ فغضب الواحد من الناس ليس كغضب مالك خازن النار، فنحن نثبت لله الصفة كما يليق بجلاله وعظمته، ولا يلزم منها أن يكون غضبه مشابهاً لغضب المخلوقين، لكن أنت أيها المتأول النافي! ماذا تقول عن الغضب لله؟! وبماذا تفسر الآية؟! قال: غضب الله إرادة الانتقام، فنقول له كما قلنا في صفة المحبة: أنت تثبت لله الإرادة هنا، وتقول: إرادة الانتقام، أي: إرادة الله الانتقام من العباد، فماذا تقول في الإرادة؟ فنحن لا نعلم من الإرادة إلا إرادة المخلوق فحينما يريد أن ينتقم يميل إلى الانتقام، ويتجه بنفسه إلى الانتقام، فهذا الميل القلبي هل تثبته لله سبحانه وتعالى كما هو موجود في المخلوقين؟ فسيجيب ويقول: لا، ولكنني أثبت لله إرادة تليق بجلاله وعظمته، ولا يلزم إذا كان المخلوق له هذه الصفة أن تكون مشابهة لصفة الله سبحانه وتعالى، ونقول له بكل ثقة: ونحن نقول في صفة الغضب ما تقوله أنت في الإرادة؛ فنحن نثبت لله صفة الغضب كما يليق بجلاله وعظمته، ولا يلزم منه أن يكون مثل غضب المخلوقين؛ فيلزمك فيما فررت إليه نظير ما لزمك فيما فررت منه.

إثبات صفة السخط لله عز وجل

ثم قال المصنف: [وقوله تعالى: {اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ} [محمد:28]] .

الشيخ استشهد بجزء من الآية: {اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ} [محمد:28] ، وهذه الصفة أيضاً نثبتها لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وقولُه تَعالَى:(لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) [المائدة: 80] . نقول فيها: إن الله سبحانه وتعالى سخط ويسخط على أهل المعاصي، وهذه المعاصي هي مما يسخط الله سبحانه وتعالى، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه قال في الدعاء المشهور: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك) ، وما ثبت في الصحيحين من حديثُ أبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه

مرفوعًا: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَقولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فيَقولُون: لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ...-إلى أنْ قال فيه:- فيَقولُ: ألَا أُعْطِيكُمْ أفضَلَ من ذلك؟ فيَقولُون: وأيُّ شَيْءٍ أفضلُ من ذلك؟! فيَقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضْوانِي؛ فلا أَسْخَطُ عَلَيكم بعدَه أبدًا)فهذا يدل على أن الله متصف بهذه الصفة كما يليق بجلاله وعظمته، ولا نتأولها.

معنى السَّخَطِ:

قال ابنُ دُرَيدٍ: (السَّخَطُ: خِلافُ الرِّضا، وتَسَخَّطَ الرَّجلُ تَسَخُّطًا: إذا تغَضَّبَ وتَكَرَّهَ الشَّيءَ، والشَّيءُ مَسخوطٌ، أي: مَكروهٌ) .

وقال العَسكريُّ: (الفَرقُ بيْن الغَضَبِ والسَّخَطِ: أنَّ الغضَبَ يكونُ من الصَّغيرِ على الكَبيرِ ومِنَ الكَبيرِ على الصَّغيرِ، والسَّخَطَ لا يكونُ إلَّا مِن الكَبيرِ على الصَّغيرِ؛ يُقالُ: سَخِطَ الأميرُ على الحاجِبِ، ولا يقالُ: سَخِطَ الحاجِبُ على الأميرِ، ويُستعمَلُ الغضَبُ فيهما. والسَّخَطُ إذا عَدَّيتَه بنَفْسِه فهو خِلافُ الرِّضا؛ يُقالُ: رَضِيَه وسَخِطَه، وإذا عَدَّيتَه بعلى فهو بمعنى الغَضَبِ) .

وقال الثعالبيُّ: (أوَّلُ مراتبِ الغَضَبِ السَّخَطُ، وهو خِلافُ الرِّضا) .

وقال الرَّاغِبُ: (السُّخْطُ والسَّخَطُ: الغَضَبُ الشَّديدُ المقتَضِي للعُقوبةِ) .

وقال البَغَويُّ: (سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ [المائدة: 80] ، غَضِبَ اللهُ عليهم) .

وقال الشِّنقيطيُّ: (اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ [محمد: 28] أي: أغضَبَه؛ مِنَ الكُفرِ به، وطاعةِ الكُفَّارِ الكارهينَ لِما نَزَّله.

والإسخاطُ: استِجلابُ السَّخَطِ، وهو الغَضَبُ هنا) .

وقال ابنُ أبي زيدٍ القيروانيُّ: (ممَّا أجمعت عليه الأئِمَّةُ مِن أُمورِ الدِّيانةِ، ومن السُّنَنِ التي خلافُها بِدعةٌ وضلالةٌ... أنَّه يرضى عن الطَّائعين ويحِبُّ التَّوَّابين، ويَسخَطُ على من كَفَر به ويغضَبُ فلا يقومُ شيءٌ لغَضَبِه... وكُلُّ ما قَدَّمْنا ذِكْرَه فهو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ وأئمَّةِ النَّاسِ في الفِقهِ والحديثِ على ما بَيَّنَّاه، وكُلُّه قولُ مالِكٍ؛ فمنه منصوصٌ مِن قَولِه، ومنه معلومٌ مِن مَذهَبِه)

إثبات صفة الكره لله عز وجل

قال المصنف رحمه الله: [وقوله تعالى: {كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ} [التوبة:46]] .

وهذه أيضاً صفة من صفات الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى يكره المعاصي، وكره الله انبعاث هؤلاء المنافقين وخروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد في سبيل الله؛ نظراً لما يترتب على خروجهم من الفساد والفتن، وقد وردت هذه الصفة في الصحيحين من حديثُ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه مرفوعًا: ((إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم: عقوقَ الأُمَّهات، ومَنعًا وهَات، ووَأْدَ البَنات، وكَرِهَ لكم: قِيل وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ)) .

وحديثُ أمنا عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها مرفوعًا: ((... وإنَّ الكافرَ إذا بُشِّرَ بعذابِ اللهِ وسَخَطِه، كَرِهَ لقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه)) (إن الله كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) وقوله: (كره لكم) يدل على إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

إثبات صفة النزول لله عز وجل

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى انتقل بعد ذلك إلى السنة فقال: **[ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم:** (**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا**) **]** .

قوله: (ومن السنة) ، هذا يدل على أن منهج المصنف رحمه الله تعالى هو المنهج الموافق للسلف رحمهم الله تعالى؛ فإنهم يحتجون بالسنة وبأخبار الآحاد في باب العقيدة، وقد سبقت الإشارة إلى هذا، فأهل السنة والجماعة يثبتون لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، فما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات يثبتونها، ومن ذلك صفة النزول التي دلت عليها الأحاديث الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والتي منها: حديثُ النُّزولِ المشهورِ: ((يَنْزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حِينَ يَبقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ...)) .

حديثُ: ((إذا مضَى ثُلُثُ اللّيلِ الأوَّلُ هبَطَ اللهُ تعالى إلى السَّماءِ الدُّنيا، فلمْ يزَلْ هناكَ حتى يَطلُعَ الفجرُ...)) .

حديثُ الإسراءِ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((... حتى جاءَ سِدرةَ المنتهى ودَنَا الجَبَّارُ ربُّ العِزَّةِ فَتَدَلَّى، حتى كان مِنه قابَ قوسينِ أو أَدْنَى...)) .

قال أبو حنيفةَ عندما سُئِلَ عن حديثِ نُزولِ الرَّبِّ تبارك وتعالى: (يَنزِلُ بلا كيفٍ) .

وقال محمَّدُ بنُ الحسنِ صاحبُ أبي حَنيفةَ في الأحاديثِ التي جاءتْ أنَّ اللهَ يَهبِطُ إلى السَّماءِ الدنيا ونَحوِ هذا مِن الأحاديثِ: (إنَّ هذه الأحاديثَ قد رواها الثِّقاتُ؛ فنحنُ نَرويها ونُؤمِنُ بها ولا نُفسِّرها) .

وقال الشَّافعي: (القَولُ في السُّنَّةِ التي أنا عليها، ورأيتُ أصحابَنا عليها أهلَ الحديثِ الذين رأيتُهم فأخذتُ عنهم؛ مِثلُ سُفيانَ ومالكٍ وغَيرِهما: الإقرارُ بشَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ... وأنَّ اللهَ تعالى يَنزِلُ إلى سماءِ الدُّنيا كيف شاء) .

وقال أيضًا: (للهِ تبارَك وتعالى أسماءٌ وصِفاتٌ جاءَ بها كِتابُه، وأخبَرَ بها نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَّتَه... وأنَّه يَهبِطُ كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا، بخَبَرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلِك...) .

وقال إسحاقُ بنُ منصورٍ الكَوسَج: قلتُ لأحمدَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((ينزِلُ رَبُّنا -تبارك وتعالى اسمُه- كُلَّ ليلةٍ حين يبقى ثُلُثُ اللَّيلِ الأخيرُ إلى سماءِ الدُّنيا)) أليس تقولُ بهذه الأحاديثِ؟ **قال الإمامُ أحمدُ**: (كُلُّ هذا صحيحٌ) .

وقال أبو سعيدٍ الدارميُّ بعدَ أنْ ذكَرَ ما يُثبِتُ النُّزولَ من أحاديثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (فهذه الأحاديثُ قد جاءتْ كلُّها وأكثرُ منها في نزولِ الربِّ تبارَك وتعالى في هذه المواطِن، وعلى تَصديقِها والإيمانِ بها أدْرَكْنا أهلَ الفِقهِ والبصرِ مِن مشايخِنا، لا يُنكرُها منهم أحدٌ، ولا يمتنعُ مِن روايتِها) .

وقال ابنُ جَريرٍ: (فصلٌ: القولُ فيما أُدرِكَ عِلمُه مِن صِفاتِ الصَّانعِ خبرًا لا استدلالًا: وذلك نحوُ إخبارِ اللهِ تعالى ذِكْرُه إيَّانَا أنَّه سميعٌ بصيرٌ، وأنَّ له يَدينِ بقَولِه: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ... وأنه يَهْبِطُ إلى السَّماءِ الدنيا؛ لخبرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) . وقال ابنُ خزيمةَ: (بابٌ: ذِكرُ أخبارٍ ثابتةِ السَّندِ صحيحةِ القَوامِ، رواها عُلَماء الحجازِ والعراقِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، في نُزولِ الربِّ جلَّ وعلا إلى السماءِ الدُّنيا كُلَّ ليلةٍ: نَشهَدُ شهادةَ مُقرٍّ بلسانِه، مُصدِّقٍ بقلبِه، مُستيقِنٍ بما في هذه الأخبارِ مِن ذِكر نُزولِ الربِّ، مِن غيرِ أنْ نصِفَ الكيفيَّةَ؛ لأنَّ نبيَّنا المصطفى لم يَصِفْ لنا كيفيَّةَ نزولِ خالقِنا إلى سماءِ الدنيا، وأعْلَمَنا أنَّه يَنْزِلُ، واللهُ جلَّ وعلا لم يتركْ ولا نبيُّه عليه السَّلامُ بيانَ ما بالمسلمينَ الحاجةُ إليه مِن أمْرِ دِينِهم؛ فنحنُ قائلونَ مُصدِّقونَ بما في هذه الأخبارِ مِن ذِكرِ النُّزولِ، غيرَ مُتكلِّفِينَ القولَ بصِفتِه أو بصِفةِ الكيفيَّةِ؛ إذ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَصِفْ لنا كيفيَّةَ النُّزولِ.

وفي هذِه الأخبارِ ما بانَ وثبَتَ وصحَّ أنَّ الله جلَّ وعلا فوقَ سماءِ الدُّنيا، الذي أَخبَرَنا نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه يَنْزِلُ إليه؛ إذ محالٌ في لُغةِ العرَبِ أن يَقولَ: نزَلَ مِن أسفلَ إلى أعْلَى، ومفهومٌ في الخِطابِ أنَّ النُّزولَ من أعْلَى إلى أسْفَلَ) .

وقال ابنُ وضاحٍ: (سألتُ يوسُفَ بنَ عَدِيٍّ عن النُّزولِ؟ فقال: نعم، أقِرُّ به ولا أحُدُّ فيه حدًّا، وسألتُ عنه ابنَ مَعِينٍ؟ فقال: نعم، أقِرُّ به، ولا أحُدُّ فيه حَدًّا) .

وقال ابنُ أبي زمنين: (ومن قَولِ أهلِ السُّنَّةِ: أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ينزِلُ إلى سماءِ السَّماءِ الدُّنيا، ويؤمِنون بذلك، من غيرِ أن يَحُدُّوا فيه حَدًّا) .

وقال أبو القاسمِ اللالكائيُّ: (سياقُ ما رُوِيَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نزولِ الربِّ تبارَكَ وتعالى، رواه عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِشرونَ نفْسًا) .

وقال أبو عُمَرَ الطلمنكي: (أجمَعوا يعني: أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ على أنَّ اللهَ يَنزِلُ كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا على ما أتت به الآثارُ، كيف شاء، لا يحدُّون في ذلك شيئًا) .

وقال أبو نصرٍ السجزي: (قد أقَرَّ الأشعريُّ بحديثِ النُّزولِ، ثم قال: النُّزولُ فِعلٌ له يُحدِثُه في السَّماءِ، وقال بعضُ أصحابِه: المرادُ به نُزولُ أمرِه، ونُزولُ الأمرِ عِندَهم لا يصِحُّ، وعند أهلِ الحَقِّ: الذاتُ بلا كيفيَّةٍ) .

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فالربُّ سُبحانَه إذا وصَفَه رسولُه بأنَّه يَنْزِلُ إلى سماءِ الدُّنيا كُلَّ ليلةٍ، وأنَّه يَدْنو عَشيَّةَ عَرَفةَ إلى الحُجَّاجِ، وأنَّه كلَّم موسى بالوادي الأيمنِ في البُقعةِ المباركةِ مِن الشَّجرة، وأنَّه استوى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ، فقال لها وللأرضِ: ائتيَا طَوْعًا أو كَرْهًا؛ لم يلزمْ من ذلك أن تكونَ هذه الأفعالُ مِن جِنسِ ما نُشاهِدُه من نزولِ هذه الأعيانِ المشهودةِ، حتى يُقال: ذلك يستلزمُ تَفريغَ مكانٍ وشَغْلَ آخَرَ) .

وقال أيضًا: (قدْ تأوَّل قومٌ من المنتسبينَ إلى السُّنَّة والحديثِ حديثَ النُّزولِ، وما كان نَحوَه من النُّصوصِ التي فيها فِعلُ الربِّ اللازمُ؛ كالإتيانِ والمجيءِ والهبوطِ، ونحوِ ذلك) ، وردَّ على ذلك مُثبتًا هذه الصِّفات، وقال -بعدَ أنْ ذكَر رِواياتِ ابنِ مَندَه لحديثِ النُّزولِ-: (فهذا تلخيصُ ما ذَكَره عبدُ الرَّحمنِ بنُ مَندَه مع أنَّه استوعَبَ طُرُقَ هذا الحديثِ وذَكَر ألفاظَه؛ مِثلُ قَولِه: ((يَنْزلُ ربُّنا كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا إذا مضَى ثُلُثُ اللَّيلِ الأوَّلُ، فيَقولُ: أنَا الملِكُ؛ مَن ذا الذي يَسألُني فأُعطيَه؟ مَن ذا الذي يَدعُوني فأستجيبَ له؟ مَن ذا الذي يَستغفِرُني فأغفرَ له؟ فلا يزالُ كذلك إلى الفَجرِ))، وفى لفظٍ: ((إذا بقِيَ مِنَ اللَّيلِ ثُلُثاه يَهْبِطُ الربُّ إلى السَّماءِ الدُّنيا))، وفي لفظٍ: ((حتَّى يَنشقَّ الفجرُ ثم يَرتفِعَ))، وفي روايةٍ: ((يَقولُ: لا أسأَلُ عن عِبادي غيري؛ مَن ذا الذي يسألُني فأعطيَه؟))، وفى روايةِ عَمْرِو بنِ عَبَسةَ: ((أنَّ الربَّ يَتَدَّلى في جوفِ اللَّيلِ إلى السَّماءِ الدُّنيا)) .

ونَقَل ابنُ تيميَّةَ كلامًا لأبي الحَسَنِ الكَرْجيِّ، ساق فيه مجموعةً مِن أحاديثِ الصِّفاتِ، ومنها صِفةُ التدَلِّي الواردةُ في حديثِ الإسراءِ والمِعْراجِ، ثمَّ قال في آخِرِ كَلامِه: (إلى غَيرِها من الأحاديثِ هالَتْنا أو لم تَهُلْنا، بلغَتْنا أو لم تبلُغْنا، اعتِقادُنا فيها وفي الآيِ الواردةِ في الصِّفاتِ:

أنَّا نَقْبَلُها ولا نُحَرِّفُها ولا نكَيِّفُها ولا نعَطِّلُها ولا نتأَوَّلُها، وعلى العُقولِ لا نَحمِلُها، وبصِفاتِ الخَلْقِ لا نُشَبِّهُها، ولا نُعمِلُ رأيَنا وفِكْرَنا فيها، ولا نزيدُ عليها ولا نَنقُصُ منها، بل نؤمِنُ بها ونَكِلُ عِلْمَها إلى عالِمِها كما فَعَل ذلك السَّلَفُ الصَّالحُ، وهم القُدوةُ لنا في كُلِّ عِلمٍ) .

وقال ابنُ حَجر: (أصْلُ التدلِّي: النُّزولُ إلى الشَّيءِ حتى يَقرُبَ منه) فالنُّزولُ والهُبُوطُ والتَّدَلِّي إلى السَّماءِ الدُّنيا صِفاتٌ فعليَّةٌ ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ)الموسوعة العقدية .

فالسلف رحمهم الله تعالى حدثوا بهذه الأحاديث، ورووها، وأثبتوا ما دلت عليه كما يليق بجلاله وعظمته، ولا تلزم منها لوازم باطلة، ولا يلزم منها أن يكون نزوله تبارك وتعالى مثل نزول المخلوقين؛ ولهذا ألف العلماء رحمهم الله تعالى كتباً مستقلة في إثبات النزول لله تبارك وتعالى، وهذه الكتب دالة على عناية السلف بهذه الصفة؛ نظراً لأنها ثبتت في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ونظراً لأن كثيراً من المتكلمين بل عامة المتكلمين تأولوا هذه الصفة بتأويلات باطلة، مثل قولهم: إن الذي ينزل هو أمره أو رحمته، ومثل قولهم: إن الذي ينزل ملك من الملائكة، فبين السلف رحمهم الله تعالى أن هذه الأحاديث إنما دلت على إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى دون أن تشبه صفات المخلوقين، ومن ثَمَّ فلا يجوز تأويلها.

الرد على شبهة أن السماوات ستكون فوق الله تعالى إذا نزل

بعض الناس قد يخطر بباله خواطر تتعلق بهذه الصفة، ومنها: كون جميع البلاد فيها ثلث الليل الآخر، ومنها: أن الله عظيم أكبر من المخلوقات، فكيف ينزل إلى سماء الدنيا؟ والجواب على ذلك: أن هذه الخواطر إنما نشأت من توهم التشبيه، أي: من توهم أن صفات الله مثل صفات المخلوقين، وهذه العلة هي التي بها نفى المنحرفون صفات الله؛ فإذا تأول أحد صفة الكلام أو صفة الوجه أو اليدين لله سبحانه وتعالى أو نحو ذلك، وفتشت عنه: لماذا تأولت؟ فإنك تجد أنه أولاً شبه ثم عطل؛ فإنه أولاً قرأ الآية، فلما قرأها لم يفهم منها إلا ما هو من صفات المخلوقين، فلما شبه صفة الله بصفات خلقه واستقر هذا في ذهنه فكر وقال: هذا لا يليق بالله، إذاً نتأول هذه الصفة وننفيها عن الله سبحانه وتعالى! وهو لو عظم الله حق تعظيمه ونزهه من التشبيه لأثبت الصفة منذ البداية دون أن يكيفها أو يشبهها بصفات المخلوقين، ولكان منذ البداية مثبتاً لها.

فنقول فيما يتعلق بصفة النزول: إن الوهم والخواطر التي تخطر في البال إنما نشأت من قياس الله بخلقه أو تشبيه الله بخلقه، فيظن الظان أن نزول الله سبحانه وتعالى كما هو في حق كوكب من الكواكب، فإنه إذا كان بعيداً ثم نزل ستصبح السماء فوقه، ويكون في جو الأرض ونحو ذلك، فنقول: هذا خطأ ناشئ من أن الإنسان ما عظم ربه حق تعظيمه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه، كما يقول الله تبارك وتعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر:67] .

إذاً: إذا كانت السماوات مطويات بيمينه وإذا كانت الأرض قبضته يوم القيامة، وإذا كانت السماوات السبع والأرضين السبع في يد الرحمن كخردلة في يد أحدكم، فكيف يأتي الإنسان ويفهم أن الله عز وجل إذا نزل فمعنى ذلك أن السماوات ستصبح فوقه أو يصبح العرش فوقه؟! إن نزول الله تبارك وتعالى هو نزول يليق بجلاله وعظمته، ولا يشبه نزول المخلوقين، ولا يلزم منه أن يكون العرش فوقه أو السماوات فوقه ما عدا سماء الدنيا؛ تعالى الله عن ذلك، بل الله سبحانه وتعالى ينزل كما يليق بجلاله وعظمته، ولا نعلم كيفية نزوله، ولهذا لو قيل: كيف ينزل؟ فنقول: كيف هو؟ فسيقول: أنا لا أعرف ذاته؛ فنقول: كذلك أيضاً نحن لا نكيف صفاته سبحانه وتعالى.

إذاً: فأي ظن من الباطل يظنه الظان فيما يتعلق بنزوله سبحانه وتعالى هو غير لازم، هذه قضية.

الرد على شبهة انتقال ثلث الليل الآخر من بلد إلى بلد باستمرار

القضية الثانية: اختلاف الليل والنهار، نحن نقطع يقيناً -ونحن في هذا البلد مثلاً- أنه حين يأتي ثلث الليل فإن الله ينزل، ونزوله يدل على قربنا، كما أن نزوله سبحانه وتعالى عشية عرفة يدل على قربه تبارك وتعالى من أهل عرفة، وهذا القرب هو كما يليق بجلاله وعظمته، لكن نثبته لله سبحانه وتعالى حقيقة ولا نتأوله، فنحن نقطع بنزوله في ثلث هذا الليل، وكذلك أيضاً في البلد الآخر الذي سيكون بعد ساعة وساعتين لديهم ثلث أيضاً ينزل كما يليق بجلاله وعظمته؛ والله سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه؛ لأنك أصلاً لو تأملت في القضية الزمنية بالنسبة لليل والنهار لوجدتها محددة ومتعلقة بالشمس والأرض، وما يتعلق بمجراتها، لكن ما فوق ذلك الله أعلم به، ومن ثَمَّ كون الإنسان يفهم هذا الفهم القاصر، والسماوات

والكون كله بالنسبة لله سبحانه وتعالى لا يساوي شيئاً ثم يأتي ليقيس، نقول: هذا فهم خاطئ بالنسبة لك؛ لأنه قاصر غير معظم لله تبارك وتعالى.

وأضرب لذلك مثالاً في هذه القضية؛ ليتبين أن الله سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه: نحن جميعاً نعلم أن الإنسان منا متصف بصفة السمع، والله سبحانه وتعالى متصف بصفة السمع كما يليق بجلاله وعظمته، لكن تعالوا إلى صفتنا نحن؛ ماذا نستطيع أن نسمع حينما تتعدد الأصوات؟! وكم نستطيع أن نسمع؟! والواحد منا لو تكلم واحد أمامه لسمعه، وإذا تكلم اثنان في وقت واحد بكلامين مختلفين فإنه يسمعهما ولكن لا يستطيع أن يميزهما، وقد يستطيع لكن بصعوبة، لكن افترض أن أمامه عشرة أشخاص كل منهم يتكلم بكلام في قضية مختلفة عن الآخر وفي وقت واحد، فإن هذا الإنسان لا يستطيع أن يميز هذا الكلام، وإذا كان سمعه جيداً قد يميز واحداً منهم؛ لرفعة صوته أو لقربه منه فقط، لكن البقية لا يمكن أن يميز كلامهم، وافترض أن أمامه ألف شخص كلهم يتكلمون بكلام واحد، ويخاطبونه بموضوعات مختلفة؛ فإن هذا من المستحيلات أن يستطيع الإنسان بحسب ما أقدره الله عليه أن يميز كلامهم، لكن هل هذا يعجز الله سبحانه وتعالى؟

الجواب لا؛ وليس ألف شخص فقط، وإنما يجتمع في يوم عرفة في عرفات أكثر من مليون شخص، وفي غير عرفات أيضاً يجلس من غير الحجاج مئات الملايين من الناس، وكلهم صائمون، وبالنسبة للحجاج كلهم واقفون بعرفات، وكلهم قد رفعوا أكف الضراعة يدعون ربهم تبارك وتعالى بمختلف بأنواع الدعاء، وعلى اختلاف اللغات، ومع ذلك هل يغيب عنه شيء؟ وهل يغيب عن سمعه شيء؟! الجواب: لا يغيب عن سمعه شيء.

إذاً: لو جاء إنسان يريد أن يدخل عقله في القضية ويقول: كيف يسمع ربنا تبارك وتعالى؟! وكيف يمكن أن يسمع هذه الأشياء كلها بمختلف اللغات من ملايين الأشخاص؟! فنقول: نعم يستطيع، ولا يعجزه شيء.

وهنا موطن العجز بالنسبة للمخلوق؛ فالله سبحانه وتعالى متصف بصفة السمع، وصفة السمع تليق به، ولا تشبه صفات المخلوقين.

وكذلك أيضاً لو جاء قائل يقول: كيف ينزل والوقت في الكرة الأرضية مستمر؟ فنقول: نعم، وليس نزول الله سبحانه وتعالى كنزول المخلوقين، ولا يلزم منه هذا اللازم، ولهذا ورد في

الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الله سبحانه وتعالى يحاسب العباد يوم القيامة) ، أي: يحاسب جميع العباد! ولا يعلم عددهم إلا الله، ومع هذا يحاسبهم في ساعة، ويحاضر كل واحد منهم وحده محاضرة خاصة، ويقرره تبارك وتعالى بذنوبه، فكيف يتم هذا؟! بالنسبة لنا نحن البشر لا نستطيع أن نتصور هذا، لكن نؤمن به، ونصدق به؛ لأنه من صفات العليم الخبير سبحانه وتعالى.

إذاً: كل ما يخطر في البال من هذه الأمور لا يمكن أن يكون في الله عز وجل، فأهل السنة والجماعة يثبتون أن الله ينزل، ونزوله حقيقي يليق بجلاله وعظمته، ويعلمون ويوقنون وهم في ثلث الليل الآخر أن الله قريب منهم، ومن ثمَّ تتحرك قلوبهم، وتدمع أعينهم، ويحس الواحد منهم في هذا الوقت بقرب عظيم من ربه سبحانه وتعالى؛ لأنه يوقن بأن الله تبارك وتعالى قد قرب منه، وأنه نزل تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وعظمته لا يشبه نزول المخلوقين.

ـ ومِنَ السُّنَّةِ قَوْلُ النّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – «يَنزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلّ ليلةٍ إلى سماءِ الدّنيا»وقولُه «يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»، وقولُه «يَضحَكُ اللهُ إلى رجُلَين يَقْتلُ أحدُهما الآخَرَ يَدخُلانِ الجنّة».

– فهذا وما أشْبَهَهُ مِمّا صَحَّ سَنَدُهُ، وعُدِّلَت رُوَّاتُه، نُؤْمِنُ بِهِ، ولا نَرُدُّهُ، ولا نَجْحَدُهُ، ولا نَتَأَوَّلُهُ بِتَأْوِيلٍ يُخالِفُ ظاهِرَه، ولا نُشَبِّهُهُ بصفاتِ المخلوقين، ولا بِسِماتِ المُحْدِثِينَ، ونعلَمْ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى لا شبيهَ لَهُ، ولا نظيرَ { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الشورى:11]، وكلُّ ما تُخِيِّلَ في الذِّهْنِ أوْ خَطَرَ بالبَالِ, فإنَّ اللهَ تعالى بخلافِه.

– ومِنْ ذَلكَ قولُه تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه:5].

هذه كلها من الصفات الفعلية؛ لأنه أضاف المعاني مثل الغضب, الرضا, الكره, السخط, هذه معاني أضافها إلى نفسه، والإضافة هذه تقتضي إضافة صفة إلى موصوف, المؤولة يتأولون مثل هذه النصوص فيقولون في مثل الرضا يقولون هو إرادة الإنعام، والغضب يقولون إرادة الانتقام. طيب، إذا سألتهم قلت لما أوّلتم الغضب مثلا بإرادة الانتقام؟ قالوا: لأن حقيقة الغضب هو ثوران أو غليان دم القلب، هذا حقيقة الغضب؛ غليان دم القلب، وهذا يجب تنزيه الله جل وعلا عنه. نقول: لاشك يجب تنزيه الله جل وعلا عن مثل هذا، ولكن

هل هذا هو الغضب؟ وتلاحظ أنك في فهمك لنصوص الصفات، أو في فهمك لشبه المؤولة، لابد أن تغوص إلى أصل كلامهم وشبهتهم حتى تستطيع الرد؛ لأنه أحيانا يمكن أن يزخرف القول، لكن إذا رجعت إلى أصل الكلام وجدت أنه باطل، فمثل هذا الأشاعرة والماتريدية والكلابية قبلهم ومن نحى نحوهم يقولون: الغضب هو إرادة الانتقام، لماذا؟ قالوا لأن حقيقة الغضب هو غليان دم القلب. فنقول: الصواب أن الغضب صفة ينشأ عنها في ابن آدم غليان دم القلب؛ لأن ابن آدم أولا يغضب، ثم بعد غضبه ينتج عنه غليان دم القلب، ويظهر ذلك باحمرار الوجه والانتفاخ إلى آخره. نقول: هذا أمر ينشأ عن الغضب، وليس هو الغضب نفسَه. فإذن هم يؤولون لأنهم بنوا على مقدمات باطلة، وأصل هذا التأويل من نفي الصفات هذه؛ من رضا وغضب ونحو ذلك، أصله من جراء القول بنفي الصفات الاختيارية، وأن الله جل وعلا لا يتصف بصفة في وقت دون وقت، فإما أن يتصف بها مطلقا أو إما أن لا يتصف بها مطلقا. فلهذا يؤولونه، لما يؤولونه إلى الإرادة؟ ذلك أن الإرادة من الصفات العقلية السبع التي يثبتونها، فيؤولون الصفات غير السبع بإحدى الصفات السبع التي يثبتونها، فهم يثبتون -الأشاعرة والماتريدية ونحوهم- سبع صفات، فهم يؤولون هذه الآيات بإحدى الصفات السبع، أما المعتزلة والجهمية فتارة يجعلون الاسم أو الصفة يراد بها مخلوقا منفصلا؛ يعني - رضي الله عنه - الرضا بمعنى المرضي عنه الرحيم، وهو الغفور الرحيم؛ الغفور هو ما حصل لمن... يعني المغفور له، ليس هو صفة الله لكن هو صفة للعبد، فالمخلوق هو الذي يُقال الغفور الرحيم ونحو ذلك، وهو عمل الجهمية والمعتزلة، وتجدون هذا في بعض التفاسير، أما الماتريدية والأشاعرة والكلابية فهم يفسرونها بإحدى الصفات السبع، تارة يفسرونها بالإرادة في بعض الصفات، وتارة يفسرونها بالقدرة ونحو ذلك؛ مثل التوفيق والخذلان يفسرونه بالقدرة لأنهم يثبتون القدرة، فيفسرون توفيقه سبحانه لعبده وخذلانه سبحانه لعبده بالقدرة.

المقصود من هذا أننا نثبت هذه الصفات سواء كانت صفات ذاتية أو صفات فعلية اختيارية أو غير اختيارية نثبتها جميعا لله جل وعلا دون تفريق كما جاء في نصوص الكتاب والسنة. وهذا أصل من الأصول، ونقول إن هذا الاتصاف لله جل وعلا بهذه الصفات على أساس

قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الشورى:11] فهنا قال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) والكاف هنا:

من أهل العلم من يقول هي صلة يعني زائدة, ومعنى كونها زائدة يعني للتأكيد، فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) في تقدير قولك ليس مثله شيء, ليس مثله شيء، لأن العرب تزيد حرفا أو كلمة وتريد بالزيادة تكرير الجملة؛ يعني وتأكيد الجملة, فقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على هذا القول؛ وهو أن الكاف هنا صلة يكون المعنى ليس مثله شيء, ليس مثله شيء، فهو تأكيد للجملة بتكرارها، وهذا من مثل قوله { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:1]، { لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [القيامة:1] هل هو ترك للقسم أو إثبات للقسم؟ من أهل العلم وهو القول الظاهر أنه قسم { لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [القيامة:1] يعني أقسم، لكن (لا) هنا صلة لتأكيد القسم، فيكون المعنى بوجود (لا) معناه: أقسم بيوم القيامة، أقسم بيوم القيامة. وهذا من أسرار اللسان العربي الشريف.

القول الآخر: أن الكاف هنا بمعنى المثل، هي حرف لكنها اسم، بمعنى مثل فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) يعني (ليس مثلَ مثلِه شيء) هذا يقتضي المبالغة في نفي المثيل، وورود الكاف بمعنى مثل، معروف في اللغة من مثل قوله تعالى في سورة البقرة { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [البقرة:74] ومن مثل قول الشاعر:

لو كان في قلبي كقدر قلامة ... حبا لغيرك ما أتتك رسائلي

يعني لو كان في قلبي مثل قدر القلامة لغيرك كذا وكذا.

فإذن هنا الكاف إما أن تكون بمعنى هذا أو هذا، فقوله جل وعلا هنا (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) هذا فيه أبلغ النفي لوجود المثيل لله جل وعلا، ثم لما نفى أثبت، وهذا على القاعدة المعروفة: أن النفي يكون مجملا، والإثبات يكون مفصلا. فنفى مجملا فقال (ليس مثلَ مثله شيء) ثم فَصَّل فقال (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ). لما خص السمع والبصر هنا؟ وصف الله جل وعلا هنا نفسه بالسمع والبصر؛ قال بعض أهل العلم: لأن السمع والبصر من أكثر الصفات اشتراكا بين ذوات الأرواح. فالسمع يوجد في الذباب, يوجد في النمل، كذلك البصر يوجد في البعوض ويوجد في الإنسان ويوجد في الهرّ؛ يعني جميع المخلوقات -تَدَرَّجْ بها- فيها سمع وبصر. فينبهك على أنه هل سمع البعوض وبصره هل هو مثل سمع ابن آدم وبصره؟ لا,

يشترك ابن آدم مع البعوض في بعض معنى السمع والبصر؛ لأن السمع ما تدرك به المسموعات، والبصر ما تدرك به المرئيات، فالبعوض له سمع وبصر يناسب ذاته, ابن آدم له سمع وبصر يناسب ذاته ولا يقارن به سمع وبصر البعوض. فنبه الله جل وعلا بهاتين الصفتين السمع والبصر لأجل اشتراكها في كثير من ذوات الأرواح؛ من أنه كما أنها لا تتماثل ذوات الأرواح في الاتصاف بهاتين الصفتين، فكذلك جل وعلا له سمع وبصر (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)، مع قطع المماثلة وقطع طمع إدراك الكيفية لصفات الله جل وعلا، فله جل وعلا سمع وبصر يناسب ذاته العظيمة الجليلة جل وعلا وتقدس وتعاظم.

وهذه الجمل السابقة التي ذكرها المصنف رحمه الله فيها إثبات لصفة العلو لله جل وعلا، فذكر استواء الله جل وعلا على العرش، ثم ذكر صفة العلو، واستدل لها بقوله { ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاء } [الملك:16]، وبحديث حُصين المعروف، وبوصف النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه في الكتب المتقدمة ،وسيأتي لاحقاً على صفة العلو لله تعالى .

إثبات صفة الاستواء لله عزوجل

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] .الضمير في قوله: (ومن ذلك) عائد إلى ما سبق قبل قليل، وخاصة إلى قوله: (وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه)؛ لأن صفة الاستواء لله التي دل عليها قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] وآيات أخرى قد يخطر ببال الإنسان أن استواء الله على العرش كاستواء المخلوق؛ أو أن الله محتاج إلى العرش كاحتياج الخلق أو كاحتياج الملك أو نحو ذلك.

فقال هنا: (ومن ذلك) أي: ومن ذلك الذي نثبته لله ولا يكون شبيهًا بصفات المخلوقين، صفة الاستواء التي دل عليها قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] .

وصفة الاستواء لله وردت في سبعة مواضع من القرآن الكريم: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) في سورة (الأعراف) وفي سورة (طه) وفي سورة (الحديد) وفي غيرها من المواضع التي ذكر الله فيها استواءه على العرش، وأهل السنة والجماعة يثبتون لله صفة الاستواء كما يليق بجلاله وعظمته، وهي دالة على علوه ، ولهذا فسر السلف رحمهم الله تعالى الاستواء بقولهم: إن معنى استوى:

علا وارتفع واستقر وصعد، وهذه الصفة التي هي صفة الاستواء دالة على هذه المعاني؛ فإن الله عالٍ على خلقه، فهي دالة على صفة العلو لله كما سيأتي بعد قليل.

كذلك أيضًا صفة الاستواء دالة على أن الله متصف بالصفات الفعلية، أي أنه مستوٍ على العرش كما يليق بجلاله وعظمته، وأن استواءه من صفات فعله، ولهذا فإن استواءه كان بعد خلق السماوات وبعد خلق العرش، ولهذا عبر عنها بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]، وكلمة (ثم) تدل على التأخير؛ فإن الله ليس مستويًا على العرش في الأزل؛ وإنما استوى على العرش بعد خلق العرش، وبعد خلق السماوات والأرض، ولهذا قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩]، وهذا الإثبات لهذه الصفة هو إثبات من غير تكييف، ومن غير تمثيل، ومن غير تحريف ومن غير تعطيل، وإنما هو إثبات لصفة الاستواء كما يليق بجلال الله وعظمته.

الرد على المنكرين والمأولين لصفة الاستواء

والمخالفون لأهل السنة والجماعة حرفوا وأولوا فقالوا: صفة الاستواء يلزم منها مشابهة الله للمخلوقين، فيلزم منها أن يكون الله شبيهًا بالمخلوق إذا جلس على كرسي أو نحو ذلك! وأما قول الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، فقالوا: (استوى) بمعنى استولى!

ولكن هل ورد في اللغة العربية استوى بمعنى: استولى؟

الجواب :ورد في اللغة العربية استوى بمعنى: صعد، واستوى بمعنى: اشتد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص:١٤]، أي: اكتمل شبابه، لكن ليس في اللغة العربية استوى بمعنى: استولى.

فلما ضاقت بالمتكلمين المضايق سمعوا –ويقول بعض العلماء: إنهم اخترعوا– بيتًا من الشعر، وهو: قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق وقالوا: إن بشرًا هذا ملك العراق، فمعنى قوله: (قد استوى بشر على العراق) أنه ملك العراق، فيأتي الاستواء بمعنى الملك.

وهذا التأويل الذي تأولوه تأويل عجيب! فإذا كان لفظ الاستواء استواء الله على العرش ورد في القرآن العظيم في سبعة مواضع، فلماذا لم يأت موضع واحد يبين فيه المراد، فيأتي استوى

بمعنى استولى؟ ثم نقول ثانية: إن تأويلكم استوى بمعنى استولى هو تأويل بعيد ومخالف لما تقتضيه اللغة العربية؛ لأنه لم يرد في اللغة العربية هذا بهذا اللفظ.

أما بيت الشعر الذي استشهدتم به فمن قاله؟! وأين يوجد؟! وإلى أي عربي ينسب؟! لو فتشت عن هذا لقالوا: قيل، ويقال، ونقل هذا البيت أول واحد، وتناقله من بعده! ونقول: حتى ولو قاله أحد العرب أو أحد الشعراء فإنه لا حجة بقول شاعر في مقابل أدلة كثيرة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ.

ثم نقول ثالثة: إن قولكم: استوى بمعنى استولى، لا يصح من سياق الآية؛ لأنه لا يقال: استولى إلا إذا كان هناك مغالب لهذا الإنسان، فقوله: (استوى بشر على العراق)، يعني: استولى على العراق، ومعنى هذا أنه كان قبله حاكم آخر، فغلبه واستوى على العراق واستولى عليه.

وقولكم: إن قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]، يعني: استولى على العرش، فهل العرش كان قبل ذلك مملوكًا لغير الله ثم إن الله ملكه؟! وهل يمكن أن يقول هذا أحد؟! طبعًا لا يمكن أن يقول هذا أحد، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤] لو قيل: إن المعنى: ثم استولى، لأدى ذلك إلى أن يكون هناك مغالب لله فغلبه الله عزوجل وتقدس واستولى على هذا العرش؛ وسواء قيل: العرش مخلوق معين، أو قيل: العرش هو الملك، كما يدعي هؤلاء.

وهذه الأمور وغيرها قد فصلها العلماء، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى)؛ حيث نقض هذا التأويل من أكثر من عشرة أوجه، وبهذه الأوجه وغيرها يتبين أن تأويل هؤلاء استوى بمعنى استولى، إنما هو تأويل باطل وزيادة زادوها، ولهذا شبهها بعض العلماء بزيادة بني إسرائيل من اليهود حين قال الله لهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨]، أي: راكعين، وأن يقولوا: حطة، أي: حط عنا خطايانا، فعكس هؤلاء اليهود الأمر الإلهي، فدخلوا على أستاههم من خلفهم وهم يقولون: حنطة في شعير! فاليهود زادوا النون في حطة، والمتكلمون زادوا اللام في استوى، فقالوا: استولى، وهذا يدل على أن المنبعين متقاربان، نسأل الله السلامة والعافية! وكل هذا الذي قالوه تحريف للكتاب وتأويل له، وبعد عما كان عليه السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

معنى العرش

والعرش المذكور في الآية هو في اللغة العربية سرير الملك، وفي الاصطلاح هو: عرش الله ، وهو مخلوق عظيم جدًا خلقه الله ، وهو أعلى المخلوقات، وهو سقفها، وتحمله الملائكة، كما قال الله : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧]، وكما قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] .

فهو أعظم من السماوات وما فيها من مجرات، وهو أعلى المخلوقات وهو سقفها، والله أخبرنا أنه استوى على هذا العرش استواء يليق بجلاله وعظمته لا يلزم منه أي لازم باطل، فلا يلزم أن الله محتاج إلى هذا العرش ولا أنه إذا أبعد هذا العرش يسقط من عليه، تعالى الله عما يتوهمه المتوهمون علوًا كبيرًا بل هو استواء يليق بجلاله وعظمته.

أخصّ من العلو الاستواء على العرش، والعرش في اللغة هو سرير الملك، وهو مشتق من الارتفاع، فسُمِّي العرش عرشا لارتفاعه ولعلوه { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } [الأنعام:141]، { وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [النحل:68], ونحو ذلك، هذا كله فيه معنى الارتفاع والعلو، فالله جل وعلا استوى على عرشه وهو سرير ملكه جل وعلا استواءً يليق بجلاله وعظمته، والاستواء معناه في اللغة: العلو؛ استوى بمعنى علا، قال جل وعلا { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [المؤمنون:28] معنى قوله (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) يعني عَلَوْتُمْ على الفلك.

قال ابن الأعرابي -أحد أئمة اللغة المعروفون-: كنا عند أحد الأعراب فأطلَّ علينا مِن على بيته وقال: استووا إليَّ, يعني ارتفعوا إليَّ، واصعدوا إليَّ. فهذا هو المعروف في لغة العرب؛ لأن استوى بمعنى علا على الشيء، لكن قد يُضمَّن هذا العلو معنىً آخر بحسب الحرف الذي يُعدَّى إليه الفعل، كما قال جل وعلا { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ } [فصلت:11] (اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) ترى أنَّه من السلف ومن أهل العلم من فسرها بمعنى قصد وعمد. وهذا مما يسمى التفسير باللازم؛ فإنه مع العلو هناك قصد وعمد، وذلك مستفاد من قوله (إِلَى السَّمَاءِ) فلما عدّى الفعل بـ(إِلَى) قال (اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) علمنا أنه مُضمَّن معنى القصد

والعمد، والتضمين فيه إثبات لأصل المعنى مع زيادة ما دل عليه الحرف الذي عُدِّيَ الفعل به.

والاستواء على العرش مما تميز به أهل السنة، فالمبتدعة يُنكرون استواء الله جل وعلا على عرشه:

فطائفة منهم يجعلون الاستواء على العرش عبارة عن الاستيلاء عليه، وهذا فيه تنقّص لله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا قال { إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف:54] فبيّن أن الاستواء على العرش كان بعد أن لم يكن, فإذا فسر الاستواء بالاستيلاء دلّ هذا على أن الاستيلاء من الله جل وعلا على العرش لم يكن ثم كان، وهذا فيه تنقّص لله جل وعلا إذ فيه سلب قهره وجبروته على خلقه أجمعين، فهذا يُبَيِّن ويُقرّر أن الاستواء ليس إلا بمعنى العلو.

بعضهم فسّر "الاستواء على العرش" بأنّه يعني "العرش" بأنه العلم، واستوى على العرش يعني حاز العلم وكَمُل له العلم، وهذا أيضا باطل.

ومنهم من فسَّر "العرش" بالكرسي، والكرسي يقولون هو العرش.

وهذه أقوال كلها ليس هذا مجال تفصيل الرد على أصحابها، لكنها جميعا مخالفة لما تقتضيه الأدلة، ولما هو ظاهر الأدلة، ولما دل عليه القرآن والسنة.

والاستواء على العرش يختلف عن العلو بأنه أخصّ منه، فالله جل وعلا من صفاته الذاتية العلو، وأما الاستواء فإنه صفة فعلية باعتبار أنه جل وعلا لم يكن مستويا على العرش ثم استوى، وصفة ذاتية باعتبار أن الله جل وعلا لم يزل مستويا على عرشه منذ استوى عليه؛ يعني أنه لا يستوي في حال دون حال، بل هو جل وعلا مستوٍ على عرشه لا ينفكُّ عن هذا الوصف

مذاهب الناس في الاستواء على العرش:

أما مذهب أهل السنة والجماعة فقد مضى، أما المعطلة فكلهم ما عدا الكلاّبية ومتقدمي الأشاعرة ينفون هذه الصفة، وهم الجهمية والمعتزلة ومتأخري الأشاعرة والماتريدية، فهم ينفون صفة الاستواء على العرش لله تعالى، ويقولون: استوى بمعنى استولى، ويفسرون العرش بالملك، أي استولى على الملك.

مذهب الكلاّبية ومتقدمي الأشاعرة كأبي الحسن الأشعري والباقلاني وبعض ممن تأثر بهم كالبيهقي، فهؤلاء يثبتون أن الله استوى على العرش ولكن يفسرونه بتفسير دقيق قد يخفى على الناظر، فيظن أنهم موافقون لأهل السنة وتفسيرهم كالتالي:

يقولون: أن الله استوى على العرش وهي صفة من صفات الله، وهي من الصفات الفعلية لله ومعنى أنها صفات فعلية أي أن الله فعل فعلاً على العرش سماه استواءً.

والناظر في هذا الكلام يقول: هذا مذهب السلف، لكنهم يقصدون أنه فِعْل أي مفعول أي أن هذا الفعل الذي فعله الله على العرش مخلوق بائن عن ذاته، وهنا يتضح أنهم يؤولون هذه الصفة لأنهم لا يجعلونها من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئة الله، وإنما يجعلونها من باب المفعول، ومثل صفة الاستواء تماماً وعلى منهج هؤلاء صفة النزول، فإنهم يقولون أن النزول صفة من صفات الله الفعلية بمعنى أن الله فَعَل فعلاً في السماء، أي خلق شيئاً في السماء وسماه نزولاً.

وهذا هو كلام البيهقي وابن فورك وهو مذهب الكلاّبية في صفات الله الاختيارية، التي تتعلق بالمشيئة.

مسألة: هل يقال: إن الله استوى على العرش بمماسه له أو بدون مماسه:

الجواب: مثل هذه العبارات يسكت عنها السلف فلا يتكلمون عنها نفياً ولا إثباتاً لعدم ورود ذلك.

والقاعدة: أن صفات الله توقيفية فلا يتحدث بنفي أو إثبات إلا بدليل وذهب بعض العلماء إلى النفي، فيقولون: إن الله استوى على العرش بلا مماسه، وهذا قول ضعيف. وقد يفعله بعض السلف الصالح في باب الردود.

مسألة: هل إذا نزل الله إلى السماء الدنيا يخلو منه العرش أو لا؟

هذه المسألة مثل التي قبلها، فيقال: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقال إن الله على عرشه ويسكت عن قضية خلو العرش، وذهب بعض أهل الحديث وهم قليل، ومنهم ابن منده، وقال: إن الله إذا نزل إلى السماء الدنيا خلا منه العرش، وهذه من المآخذ على ابن منده، والقاعدة أن نقف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا.

صفة العلو

قال المصنف:وقوله تعالى {أأمنتم من في السماء} وقول النبي صلى الله عليه وسلم ((ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك)) وقال للجارية ((أين الله)) قالت في السماء قال ((أعتقها فإنها مؤمنة)) رواه مالك بن أنس ومسلم وغيرهما من الأئمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين ((كم إلها تعبد)) قال سبعة ستة في الأرض وواحدا في السماء قال ((من لرغبتك ورهبتك)) قال الذي في السماء قال ((فاترك الستة واعبد الذي في السماء وأنا أعلمك دعوتين)) فأسلم وعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ((اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي))

وفيما نقل من علامات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الكتب المتقدمة أنهم يسجدون بالأرض ويزعمون أن إلههم في السماء.

وروى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن ما بين سماء مسيرة كذا وكذا)) وذكر الخبر إلى قوله ((وفوق ذلك العرش والله سبحانه فوق ذلك)) فهذا وما أشبهه مما أجمع السلف رحمهم الله على نقله وقبوله ولم يتعرضوا لرده ولا تأويله ولا تشبيهه ولا تمثيله

سئل الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقيل يا أبا عبد الله {الرحمن على العرش استوى} كيف استوى فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم أمر بالرجل فأخرج.

وفى ذلك مسائل

الأولى :يلاحظ أن المصنف رحمه اللَّه أطال في مسألة العلو واستدل بأدلة كثيرة، فاستدل بآية ثم استدل بأربعة أحاديث، واستدل بنقل أيضاً، في حين أن الصفات التي قبل هذه الصفة لم يطل فيها النَفَس ولم يحشد لها أدلة كثيرة، والسبب واللَّه أعلم أن قضية العلو من أكثر القضايا التي دارت حولها المعارك الكلامية بين أهل السنة والأشاعرة والمصنف عاش في عصر استطال فيه الأشاعرة ومن ثم أكثر من الأدلة لإثبات هذه الصفة العظيمة.

وصفة العلو لله جل وعلا ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع وبدلالة الفطرة على ذلك؛ فإن علو الله جل وعلا مركوز في الفطر، وقد جاء من الأدلة في كتاب الله وفي سنة نبيه – صلى الله

عليه وسلم – ما يزيد على ألف دليل يدلّ على أن الله جل وعلا عالٍ على خلقه، والعلو **ثلاثة أقسام**:

علو الذّات والفوقية

وعلو القَهْر ومنه صفة القهر

وعلو القَدْر وعلو الشأن ،ومنه صفة العظمة والإجلال

وأهل السنة والجماعة يثبتون علو الله جل وعلا بأقسامه الثلاثة؛ فهو جل وعلا عالٍ على خلقه بذاته، كما أنه جل وعلا عالٍ على خلقه بقدره، كما أنه جل وعلا عالٍ على خلقه بقهره وبجبروته.

وأما المبتدعة فإنهم يؤولون العلو بعلو القهر والقدر، وعلوه في السماء وعلى السماء بعلو المكانة وليس المكان ،وينفون علو الذات بعقولهم وتمثيلهم الله بخلقه في أذهانهم .

وأهلُ السُّنَّة والجماعةِ يَعتقدونَ أنَّ اللهَ فوقَ جميعِ مخلوقاتِه، مُستوٍ على عَرشِه، في سَمائِه، عالٍ على خَلْقِه، بائنٌ منهم، يَعلمُ أَعمالَهم، ويَسمعُ أقوالَهم، ويَرى حَركاتِهم وسَكناتِهم، لا تَخفَى عليه خافيةٌ.

قال الزَّجَّاجُ: (المتعالي هو المتفاعِلُ من العُلُوِّ، واللهُ تعالى عالٍ ومُتَعالٍ وعَلِيٌّ) .

الدَّليلُ مِن القرأن الكريم على علو الله وأنه في السماء مستو على عرشه :

الأدلَّةُ مِن الكِتابِ كثيرةٌ جدًّا، ومِن ذلك:

1- قولُه تعالى: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة: 255] .

2- قَولُه: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى [الأعلى: 1] .

3- قَولُه: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ [الرعد: 9] .

4- قَولُه: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام: 18] .

5- قَولُه: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل: 50] .

6- قَولُه: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ [الملك: 16] .

7- قَولُه: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف: 54] .وكرر ذلك أكثر من مرة .

قال ابنُ جَريرٍ: (العَلِيُّ: الفَعيلُ، مِن قَولِك: علا يَعْلو عُلُوًّا: إذا ارتَفَع، فهو عالٍ وعَلِيٌّ، والعَلِيُّ: ذو العُلُوِّ والارتفاعِ على خَلْقِه بقُدرتِه) .

وقال أيضًا: (وهو ذو عُلُوٍّ وارتفاعٍ على كُلِّ شَيءٍ، والأشياءُ كُلُّها دونَه؛ لأنَّهم في سُلْطانِه، جاريةٌ عليهم قُدرتُه، ماضيةٌ فيهم مشيئتُه) .

وقال البَغَويُّ: (هو العَلِيُّ الرَّفيعُ فوقَ خَلْقِه، والمتعالي عن الأشياءِ والأندادِ، وقيل: العَلِيُّ بالمِلْكِ والسَّلْطَنةِ) .

وقال السَّعْديُّ: (وَهُوَ الْعَلِيُّ بذاتِه فوقَ عَرْشِه، العَلِيُّ بقَهْرِه لجميعِ المخلوقاتِ، العَليُّ بقَدْرِه؛ لكمالِ صِفاتِه) .

الدَّليلُ من السُّنَّةِ الصحيحة على علو الله وأنه في السماء مستو على عرشه :

الأدِلَّةُ من السُّنَّة أيضًا كثيرةٌ جدًّا؛ منها:

1- حديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه في الصحيحين مرفوعًا: ((ألَا تَأْمُنونِي وَأَنا أَمينُ مَن في السَّماءِ؟!)) .

2- حديثُ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه في صحيح البخارى مرفوعًا: ((يَنْزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخرِ، يَقولُ: من يَدعوني فأَستجيبَ له؟ من يَسْأَلُني فأُعْطِيَه؟ من يَستغفِرُني فأَغْفِرَ لهُ؟)) .

3- حديثُ عُروجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى السَّماءِ وفَرْضِ الصَّلاةِ هناك، وهو حديثٌ طويلٌ مشهورٌ في الصحيحين ،وقد مر معنا .

4- حديثُ الجَاريةِ في صحيح مسلم التي سأَلَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أَينَ اللهُ؟)) قالتْ: في السَّماءِ. قال: ((مَن أَنا؟)) قالتْ: أَنتَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤمنةٌ)) .

قول النبي عليه الصلاة والسلام للجارية أين الله؟ قالت: في السماء ، وكذلك قوله تعالى { ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } [الملك:16] (في) هنا الصحيح أنها بمعنى (على) { ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } [الملك:16] يعني من على السماء، فهذا فيه إثبات العلو ومجيء (في) بمعنى (على) ثابت معروف في لغة العرب، وجاء استعمال ذلك في القرآن؛ أرأيت قول الله جل وعلا { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } [طه:71] ومعلوم أن التصليب يكون على الجذوع لا أن تُجعل الجذوع ضلفا للمصلبين؛ يعني أنهم يصلبون عليها، وقوله تعالى { ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } [الملك:16] يعني مَنْ على السماء؛ وذلك أن السماء تُفَسَّر تارة بالعلو، فإن

السماء اسم لما علا, فالعلو يُطلق عليه السماء، فكل ما علا يُطلق عليه السماء، والعلو المطلق يطلق عليه السماء، وسميت السماوات بهذا الاسم لعلوها، وكذلك سمي المطر سماءً لأجل علوه، قال الشاعر:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ ... رأيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

ويعني بالسماء المطر وهذا لأنه يأتي من جهة العلو، فالسماء بمعنى العلو.

قال بعض أهل العلم: المراد هنا بالسماء ليس هو العلو ولكن جنس السماوات السبع. فيكون المعنى من على السماوات، وذلك أن الله جل وعلا مُتصف بأنه مستوٍ على عرشه العظيم.

شرح حديث الجارية

ثم قال ابن قدامة: [وقال للجارية: (أين الله؟ قالت: في السماء، قال: أعتقها فإنها مؤمنة) رواه مالك بن أنس ومسلم وغيرهما من الأئمة] .

هذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، ورواه الإمام مالك، ورواه غيرهما؛ وقد استقصى طرقه أحد الإخوة الفضلاء، فألف رسالة أو جزءًا حديثيًا بعنوان: (أين الله)، تكلم فيه على من رواه، والكتاب جيد ومطبوع وموجود، وقد استقصى روايات كثيرة.

وهذا الحديث الصريح دل على أمرين مهمين جدًا يخالفان منهج المتكلمين: أحدهما: أنه يجوز السؤال عن الله بأين، وأن هذا السؤال لا يلزم منه لازم باطل، كالتجسيم أو المكان أو غير ذلك؛ لأن الرسول ﷺ وهو سيد الخلق سأل بأين، وقال للجارية: (أين الله؟) .

الثاني: أن الجارية أشارت بيدها أو برأسها، وقالت: (في السماء)، فأقرها رسول الله ﷺ، وقال: (أعتقها فإنها مؤمنة) .

إذًا: هذا يدل دلالة صريحة قطعية على أن الله تعالى في العلو، وأنه في السماء، وأنه يسأل عنه بأين، وأنه لا يلزم من ذلك لازم باطل.

والعجيب أن المتكلمين تأولوا تأويلات غريبة جدًا! فبعضهم ضعف رواية: (أين)، وقال: الرواية الصحيحة: (من الله)، فنقول: أين وردت كلمة (من)؟! فإن الأئمة الجهابذة يروون بالأسانيد الصحيحة: (أين)، وهذا كأنه يرد هذه الرواية، فهو يرد الحديث خوفًا من أن يدل على شيء لا يعتقده ولا يقول به.

وبعضهم أجاب بجواب أعجب من هذا! ألا وهو أنه قال: حينما قال الرسول: (أعتقها فإنها مؤمنة) ما قصد إقرارها بأن الله في السماء، وإنما أراد أن يبين هل هي تعبد الأصنام أم تعبد الله؟ فسألها: (أين الله؟ فقالت: في السماء)، فدل على أنها لا تعبد هبل ولا العزى؛ لأنها لو كانت تعبد واحدًا منهم لقالت: هبل أو العزى في مكة أو في الطائف أو غيره، فلما قالت: (في السماء) دل ذلك على أنها تعبد الله، ولا تعبد الأصنام! وهذا تأويل ضعيف جدًا، اضطر إليه هؤلاء بسبب الاعتقاد الباطل الذي اعتقدوه؛ فإنهم قالوا: إن القول بأن الله في السماء يلزم منه أن الله في مكان، وأن المخلوقات تحوطه، ونحو ذلك من اللوازم الباطلة التي توهموها.

قال أبو عُثمانَ الصَّابوني: (إمامُنا الشَّافعيُّ احتَجَّ في مسألةِ إعتاقِ الرَّقَبةِ المؤمنةِ في الكَفَّارةِ، وأنَّ غَيرَ المؤمِنةِ لا يَصِحُّ التكفيرُ بها بخَبَرِ معاويةَ بنِ الحَكَمِ، وأنَّه أراد أن يُعتِقَ الجاريةَ السَّوداءَ لكَفَّارةٍ، وسأل رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن إعتاقِه إيَّاها، فامتحنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لها: ((من أنا؟)) فأشارت إليه وإلى السَّماءِ، يعني: أنَّك رَسولُ اللهِ الذي في السَّماءِ، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أعتِقْها؛ فإنَّها مُؤمِنةٌ)).

فحكم رسولُ اللهِ بإسلامِها وإيمانِها لَمَّا أقَرَّت بأنَّ رَبَّها في السَّماءِ، وعَرَفَت رَبَّها بصفةِ العُلُوِّ والفوقيَّةِ. وإنَّما احتَجَّ الشَّافعيُّ رحمة الله عليه على المخالفينَ في قَولِهم بجوازِ إعتاقِ الرَّقَبةِ الكافِرةِ في الكَفَّارةِ بهذا الخَبَرِ؛ لاعتقادِه أنَّ اللهَ سُبحانَه فوقَ خَلْقِه، وفوق سَبعِ سماواتِه على عَرْشِه، كما مُعتَقَدِ المسلمين من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ سَلَفِهم وخَلَفِهم؛ إذ كان رحمه الله لا يروي خبرًا صحيحًا ثمَّ لا يقولُ به). -ثم ذَكَر أثرَينِ في ذلك؛ منهما: قَولُ الشَّافعيِّ مُنكِرًا على رجلٍ سأله عن حديثٍ حدَّث به الشَّافعيُّ هل يقولُ به؟-: (... أروي حديثًا عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ لا أقولُ به!) .

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (أمَّا قَولُه في هذا الحديثِ للجاريةِ: (أين اللهُ؟) فعلى ذلك جماعةُ أهلِ السُّنَّةِ، وهم أهلُ الحَديثِ ورُواتُه المتفَقِّهون فيه، وسائِرُ نقَلَتِه كُلُّهم يقولُ ما قال اللهُ تعالى في كتابِه:(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه: 5] ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ في السَّماءِ، وعِلمُه في كُلِّ مكانٍ، وهو ظاهِرُ القُرآنِ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) [الملك: 16] ، وبقَولِه عزَّ وجَلَّ: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

يَرْفَعُهُ) [فاطر: 10] ، وقَولِه: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) [المعارج: 4] ، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ... ولم يَزَلِ المسلمون إذا دهَمَهم أمرٌ يُقلِقُهم فزِعوا إلى رَبِّهم، فرَفَعوا أيديَهم ووُجوهَهم نحوَ السَّماءِ يَدْعونَه، ومخالِفونا ينسُبونا في ذلك إلى التشبيهِ، واللهُ المستعانُ، ومَن قال بما نطق به القُرآنُ فلا عَيبَ عليه عند ذوي الألبابِ!) .

وقال أيضًا: (معاني هذا الحَديثِ واضِحةٌ يُستغنى عن الكلامِ فيها، وأمَّا قَولُه: أين اللهُ؟ فقالت: في السَّماءِ، فعلى هذا أهلُ الحَقِّ؛ لقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) [الملك: 16] ، ولِقَولِه: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) [فاطر: 10] ، ولِقَولِه: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)[المعارج: 4] ، ومِثلُ هذا في القُرآنِ كثيرٌ قد أتينا عليه في بابِ ابنِ شهابٍ في حديثِ النُّزولِ، وفيه ردٌّ على المعتَزِلةِ، وبيانٌ لتأويلِ قَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[طه: 5] ، ولم يَزَلِ المسلِمونَ في كُلِّ زمانٍ إذا دَهَمهم أمرٌ وكَرَبَهم غَمٌّ يَرفَعونَ وجوهَهم وأيديَهم إلى السَّماءِ؛ رَغبةً إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ في الكَفِّ عنهم) .

عن الضَّحَّاكِ في قَولِه تعالى: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) [المجادلة: 7] قال: (هو على العَرشِ، وعِلْمُه معهم) .

وقال مالِكٌ: (اللهُ في السَّماءِ، وعِلمُه في كُلِّ مكانٍ، لا يخلو من عِلْمِه مكانٌ) .

وقال يوسُفُ بن موسى القَطَّانِ: (قيل لأبي عبدِ اللهِ أحمدَ بنِ حَنبَلٍ: واللهُ تعالى فوق السَّماءِ السَّابعةِ على عَرْشِه، بائنٌ مِن خَلْقِه، وقُدرتُه وعِلْمُه بكُلِّ مكانٍ؟ قال: نعم، على عَرْشِه، لا يخلو شيءٌ مِن عِلْمِه) .

وقال محمَّدُ بنُ إبراهيمَ القيسي: (قلتُ لأحمدَ بنِ حَنبَلٍ: يُحكى عن ابنِ المبارَكِ أنَّه قيل له: كيف نَعرِفُ ربَّنا عزَّ وجَلَّ؟ قال: في السَّماءِ السَّابعةِ على عَرْشِه. فقال أحمدُ: هكذا هو عِندَنا) .

وقال المُزَنيُّ صاحِبُ الشَّافعيِّ في وَصفِ اللهِ تعالى: (عالٍ على عَرْشِه في مَجْدِه بذاتِه، وهو دانٍ بعِلْمِه من خَلقِه، أحاط عِلمُه بالأمورِ، وأنفَذَ في خَلْقِه سابِقَ المقدورِ، وهو الجوادُ الغَفورُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) [غافر: 19]) .

وقال ابنُ خُزَيمةَ بَعدَ أن ذَكَر مجموعةً كبيرةً من النُّصوصِ الدَّالَّةِ على عُلُوِّ اللهِ تعالى: (فتلك الأخبارُ كلُّها دالَّةٌ على أنَّ الخالِقَ البارئَ فوقَ سَبعِ سماواتٍ، لا على ما زعَمَتِ المعَطِّلةُ: أنَّ مَعبودَهم هو معهم في منازِلِهم) .

وقال ابنُ أبي زمنينَ المالكي بعد أن ذكر حديثَ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه ((يَنزِلُ اللهُ إلى سماءِ الدُّنيا بنِصفِ اللَّيلِ الآخِرِ، أو ثُلُثِ الآخِرِ...)) : (وهذا الحديثُ بَيَّن أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ على عَرْشِه في السَّماءِ دونَ الأرضِ، وهو أيضًا بَيِّنٌ في كتابِ اللهِ، وفي غيرِ ما حديثٍ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) .

وقال أبو نَصرٍ السجزيُّ: (وعند أهلِ الحَقِّ أنَّ اللهَ سُبحانَه مُبايِنٌ لخَلْقِه بذاتِه فَوقَ العَرشِ بلا كيفيَّةٍ) .

وقال ابنُ تيميَّةَ: (هذا كِتابُ اللهِ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، وسُنَّةُ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أوَّلِها إلى آخِرِها، ثمَّ عامَّةُ كلامِ الصَّحابةِ والتابعينَ، ثمَّ كلامُ سائرِ الأئمَّةِ: مملوءٌ بما هو إمَّا نَصٌّ وإما ظاهِرٌ في أنَّ الله سُبحانَه فوقَ كُلِّ شَيءٍ، وعليٌّ على كُلِّ شَيءٍ، وأنَّه فوقَ العَرْشِ، وأنَّه فوقَ السَّماءِ) .

وقال أيضًا: (مَن أكثَرَ النَّظَرَ في آثارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عَلِمَ بالاضطرارِ أنَّه قد ألقى إلى الأُمَّةِ أنَّ رَبَّكم الذي تَعبُدونَه: فوقَ كُلِّ شَيءٍ، وعلى كُلِّ شَيءٍ، فوقَ العَرشِ، فوقَ السَّمَواتِ، وعَلِمَ أنَّ عامَّةَ السَّلَفِ كان هذا عِندَهم مِثلَ ما عِندَهم أنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وعلى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، وأنَّه لا يُنقَلُ عن واحِدٍ لَفظٌ يدُلُّ لا نَصًّا ولا ظاهِرًا على خِلافِ ذلك، ولا قال أحَدٌ منهم يومًا مِنَ الدَّهرِ: إنَّ رَبَّنا ليس فوقَ العَرْشِ، أو إنَّه ليس على العَرشِ، أو إنَّ استِواءَه على العَرشِ كاستوائِه على البَحرِ، إلى غيرِ ذلك من تُرَّهاتِ الجَهميَّةِ، ولا مَثَّل استواءَه باستواءِ المخلوقينَ، ولا أثبَتَ له صفةً تَستلزِمُ حُدوثًا أو نَقصًا) .

وقال الذَّهبي: (الدَّليلُ على أنَّ اللهَ تعالى فوقَ العَرشِ، فوق المخلوقاتِ، مُبايِنٌ لها، ليس بداخِلٍ في شيءٍ منها، على أنَّ عِلْمَه في كلِّ مكانٍ: الكِتابُ والسُّنَّةُ، وإجماعُ الصَّحابةِ والتَّابعين والأئمَّةِ المهْدِيِّين ...) .

وللصَّحابةِ والتَّابعينَ ومَن سارَ على نَهجِهم آثارٌ كثيرةٌ جِدًّا في إثباتِ عُلُوِّ اللهِ وفَوقِيَّتِه ،جمَعَها ابنُ قُدامَةَ في كِتابِه: ((إثبات صِفةِ العُلُوِّ))، وَالذهبيُّ في كتاب: ((العُلُو))، وذكَر كثيرًا منها

أسامةُ القَصَّاصُ في كِتابه: ((إثبات عُلُوِّ اللهِ على خَلْقِه والرَّد على المخالفين))؛ فراجِعْه إن شِئتَ؛ فإنَّه عظيمُ الفائدةِ، ولموسى الدُّوَيشِ كِتابُ ((عُلُوُّ اللهِ على خَلْقِه)) نافعٌ جدًّا. (الموسوعة العقدية)

ومسألة علو الله عزوجل من المسائل العظيمة التي يجري فيها الامتحان بين أهل السنة والجماعة وبين المبتدعة الضُّلاَّل، فمن أنكر العلو فهذا من أهل الضلال ومن أهل الزيغ؛ بل قد حكم طائفة من أهل العلم بكفره لأنه ينفي ما دل القرآن عليه ودلت نصوص السنة عليه بأكثر من دليل، فمسألة العلو هي من أظهر مسائل الصفات، فمن أنكر العلو فهو على شفير هلكة، ومبتدع بدعة مغلظة، وهذا إن لم يصل به الأمر إلى الكفر بالله جل وعلا.

المسألة الثانية: مذهب السلف في مسألة العلو:

مذهبهم -كما سبق من أقوالهم -إثبات العلو لله على ما يليق بجلاله سواء أكان علو الذات أو علو القدر أو علو القهر، فهذه ثلاث علوات ثابتة لله تعالى، ويثبتون لله جهة العلو، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر، بل دل على إثبات العلو القرآن والسنة والإجماع والعقل والفطرة، بل حتى البهائم تثبت لله العلو، فإنها ترفع وجهها وبصرها إلى السماء، وقد نقل الصابوني في كتاب عقيدة أهل الحديث إجماع السلف على إثبات صفة العلولله وأن منكر العلو كافر.

وهذه القضية هي من القضايا الكبار في العقيدة الإسلامية، ومن القضايا الكبار التي خاض فيها المتكلمون قديمًا وحديثًا، وإن الإنسان ليصيبه الحزن حينما يرى كثيرًا من المنتسبين للعلم ممن لم يدرس ويتفهم عقيدة السلف الصالح لا يقر بهذه الحقيقة الكبرى، فلقد خاض المتكلمون منذ القرن الأول وإلى عصرنا الحاضر في إثبات أن الله في جهة العلو في السماء، وأنه فوق المخلوقات، ولقد دل على ذلك في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ أكثر من ألف دليل، وهذا يدل على أهمية مدارسة منهج السلف الصالح وتربية الأمة وتنشئتهم عليه، ولكن عمي عن هذه الحقيقة ألوف مؤلفة ممن ينتسب إلى الإسلام؛ فقد نشأ منذ القرون الأولى وإلى عصرنا الحاضر فئام ممن نهج منهج المتكلمين أو تأثر بهم، وإذا سألت أحدهم: هل تؤمن أن الله في السماء؟ أو سألته بسؤال رسول الله ﷺ الذي في صحيح مسلم حين سأل الجارية وقال لها: (أين الله؟ قالت: في السماء)، أو إذا سألته: هل تقر بأن الله في العلو فوق خلقه بائن منهم؟ فإنه يقول لك: لا يجوز أن تقول هذا؛ إنك إن قلت هذا فأنت تشبه

الله بخلقه، وأنت تجسم الله، وأنت تقول: إن الله متحيز، وكأنه في مكان معين! وإذا قلت له: فماذا تقول؟ يقول: اختلفوا على قولين: فبعضهم يقول: الله في كل مكان، وهذا قول لبعض المتكلمين، وبعضهم له قول آخر فلسفي عجيب يقول فيه: لا داخل العالم ولا خارجه! وأهل السنة والجماعة، وعلى رأسهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ، وصحابته من بعده والسائرون على منهاجهم، يقولون: إن الله بائن من خلقه في السماء فوق العالم على العرش استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته.

إن هذه القضية الكبرى تكاد تكون من المعلوم بالدين بالضرورة؛ لأن من قرأ كتاب الله من أوله إلى آخره ومن اطلع على سنة رسول الله ﷺ يجد أنه لا تكاد تخلو صفحة من القرآن العظيم إلا وفيها الدلالة على أن الله في السماء، وأنه في العلو.

وهذه القضية قضية كبرى، وقضية مهمة جدًا؛ يميز فيها بين من ينهج منهج السلف الصالح وبين من ينهج نهج من خالفهم من المتكلمين؛ والأدلة صريحة واضحة في ذلك كما سبق،

دليل الفطرة على العلو

ولم يقتصر الدليل على إثبات علو الله عزوجل وأنه في السماء مستو على عرشه ،لم يقتصر على الكتاب والسنة وفهم الصحابة والسلف الصالح فقط ؛ بل دل على ذلك الفطرة؛ فإن الله فطر عباده جميعًا -حتى ذلك الذي يقول: إن الله في كل مكان- على أن الله في العلو.

ولهذا كان من مواقف السلف رحمه الله تعالى العملية شيء من هذا.

فأحد أئمة السلف دخل على أحد الأشاعرة وهو يلقي درسه على المنبر، ويقرر فيه عقيدته الأشعرية؛ وكان مما قرره: إنكار أن الله في العلو، فكان هذا الشيخ يتكلم ويلقي درسه أمام الناس، ويقول: إن الله كان ولا عرش ولا سماوات، وهو الآن على ما كان عليه! ويقرر نفي العلو عن الله ؛ فقال له هذا الشيخ -وهو الهمذاني - أمام الناس: يا إمام! دعنا من أقوالك، ودعنا من هذه الأدلة، وأخبرنا عن هذه الحاجة التي يجدها كل واحد منا: ما أراد ربه قط إلا ورفع بصره إلى السماء؟ قال: فنزل الإمام الجويني من المنبر وهو يقول: حيرني الهمذاني حيرني الهمذاني حيرني الهمذاني، وجلس بين أصحابه يبكي بكاءً شديدًا، ومعلوم أنه في آخر أمره رجع، وأبطل تأويل الاستواء بالاستيلاء، وبين أنه يجب إثبات هذه الصفات على تفصيل في مذهبه رحمه الله تعالى.

لكن المهم جدًا هو: كيف أن الفطرة التي فطر الله العباد عليها دالة يقينًا على أن الله في العلو.

ولهذا يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية موقفًا آخر يقول: جاءني أحد مشايخ هؤلاء ممن ينفي علو الله في حاجة -وغالب من حاوره شيخ الإسلام في وقته من الأشعرية- وتعمدت أن أنشغل عنه قليلًا، يقول: فكلمني في هذه الحاجة فتشاغلت عنه، يقول: فلما انتظر قليلًا وسئم إذا بي ألمحه وهو يرفع بصره إلى السماء ويذكر ربه ويقول: يا ألله! يقول: فنظرت إليه وقلت له: ماذا صنعت؟ يقول: فاعتذر مني! وكان سببًا في توبته ورجوعه عما كان عليه؛ لأنه كان يقرر أن الله ليس في مكان؛ لا داخل العالم ولا خارجه إلى آخره، لكن في لحظة غفلة منه وجد نفسه فطريًا يرفع بصره إلى السماء متوسلًا مستغيثًا بالله تعالى، فدليل الفطرة دل على هذا.

دلالة العقل على علو الله عزوجل وأنه في السماء مستو على عرشه سبحانه.

وكذلك أيضًا دليل العقل دل على العلو، وسأبين لكم دليل العقل، لكن بعد أن نقف وقفات مع الأدلة التي أوردها الشيخ هنا، فأول دليل ذكره هو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، وهو من أدلة علو الله تعالى واستوائه على عرشه.

الدليل الثاني قال: (وقوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦])، وقوله: (في السماء) لا يقول عاقل: إن (في) هنا ظرفية، وأن الله داخل في السماء؛ لأن القول بأن الله داخل في السماء يلزم منه أن السماء فوقه، وأنها أكبر منه، وأنها محيطة به، وهذا لا يقول به إنسان.

إذًا: قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦]، السماء هنا قد يقصد بها العلو، وليس مجرد السماء التي نشاهدها وهي السماء الدنيا أو ما فوقها، فقوله: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] أي: أأمنتم من في العلو؟ والقول بأن السماء هي مطلق العلو مستخدم كثيرًا، فتقول: طار الطائر في السماء، وحلقت الطائرة في السماء، وأنت إذا قلت ذلك هل تقصد أنها دخلت داخل السماء أم تقصد أنها في العلو؟ تقصد أنها ارتفعت في العلو، وهذا واضح.

ويجوز أن نقول: (في) بمعنى (على)، فقوله: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] أي: من على السماء، وهل تكون (في) في اللغة العربية واردة بمعنى (على)؟ نقول: نعم، يقول الله تعالى عن فرعون لما أراد أن يصلب السحرة المؤمنين: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١]؛ وهو لن يضعهم داخل جذوع النخل، وإنما سيركز هذه النخل ويصلبهم عليها؛ وهذا واضح والحمد لله.

ثم يقول المصنف: [وقول النبي ﷺ: (ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك)] .

هذا الحديث رواه أبو داود والإمام أحمد وغيرهما، لكنه متكلم فيه؛ فبعض العلماء قالوا: إن فيه راويًا يقال له: زياد الأنصاري، قالوا: وهذا الراوي متكلم فيه؛ ومن ثم فنحن حينما نتحدث عن مثل هذا الحديث نقول: هذا الحديث ضعيف، وليس هو الدليل لوحده؛ حتى لا يأتي قائل ويقول: إنكم تحتجون بالأحاديث الضعيفة.

شبهة أن أهل السنة يستدلون بالأحاديث الضعيفة في العقائد

وهنا وقفة لابد من بيانها، ألا وهي: أن مثل هذا الموقف الذي مر معنا الآن -وهو أن ابن قدامة استشهد بحديث تكلم عنه العلماء، وقالوا ضعيف -قد يدخل منه بعض المخالفين لأهل السنة ويقول: إن كثيرًا من أصحاب كتب السنة التي تروى بالأسانيد يذكرون فيها أحاديث صحيحة، ويذكرون أحيانًا أحاديث ضعيفة، فكيف تذكر هذه الأحاديث في باب العقائد؟ وكيف يتساهل في هذا؟ والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هؤلاء العلماء لم يثبتوا هذه الصفة أو تلك من حديث ضعيف، وإنما يثبتونها من الأحاديث الصحيحة أولًا، فما أوردوه من حديث ضعيف إن تقوى فبها ونعمت، وإن لم يتقو فإن الصفة المقصودة ثابتة؛ لأن الدليل الصحيح دل عليها، وهنا ليس إثبات العلو لله مأخوذًا من هذا الحديث الذي معنا، بل هو ثابت بأحاديث أخرى كثيرة وعديدة جدًا؛ بل وهو ثابت بالأدلة من القرآن قبل ذلك.

الوجه الثاني: أن العلماء وإن أوردوا تلك الأحاديث وهي ضعيفة فإنهم يوردونها بالأسانيد، وإيرادها بالأسانيد يجعل العهدة على القارئ والمطلع، فلو جاء وقال بعد إيراده: هذا حديث صحيح وأثبته، فنقول له: كيف تصححه وهو ضعيف؟ لكن إذا أورده بالإسناد فحينئذٍ من أسند فقد أعذر، فإذا كنت لا تستطيع الحكم على السند فاسأل عنه العلماء: هل هذا

الحديث إسناده صحيح أو غير صحيح؟ وابحث عن ذلك؛ لكن ما دام المؤلف أورده وسكت عنه فقد جعل العهدة على القارئ وعلى المطلع، ولهذا تجد أن بعض العلماء -كـ البخاري ومسلم - قال: أنا لا أورد في هذا الكتاب إلا ما هو صحيح.

وفعلًا ما أوردا إلا ما هو صحيح، لكن غيرهما كـ أبي داود أو الترمذي أو ابن ماجة أو الإمام أحمد لم يقل أحد منهم: أنا لا أورد إلا ما هو صحيح.

وإنما يورد أحدهم الأحاديث، وأحيانًا يتكلم عليها، ويعلق عليها، وأحيانًا يسكت عنها، والعهدة على من يقرأ ذلك.

وكذلك أيضًا كتب السنة، كالسنة لـ ابن أبي عاصم أو السنة للالكائي أو غيرهما، فهذه الكتب وإن وردت فيها روايات ضعيفة إلا أنهم أوردوها بالأسانيد، فالعهدة على القارئ.

الوجه الثالث: أن إيرادها وإن كانت من طرق ضعيفة فيه فائدة كبرى، هذه الفائدة هي: أن هذه الرواية قد تتقوى بغيرها، وقد تقوي غيرها، فأحيانًا تكون هذه الرواية ضعيفة، لكن في كتاب آخر من كتب السنة أو من كتب الحديث تجد نفس هذا الحديث ورد من طريق آخر، فإذا جمعنا ذلك الطريق إلى هذا الطريق تبين منه أنه حديث ثابت؛ وقد يكون هذا الحديث روي من طريق فيه رجل ضعيف، ويتبين في الرواية الأخرى أنه جاء من طريق آخر عن غير هذا الراوي الضعيف، فيتقوى، وكثير من الأحاديث إذا جُمعت طرقها وتصفحها العالم النحرير في مصطلح الحديث يتبين له أنها ترتفع وتتقوى، وتصل إلى درجة الحسن أو تصل إلى درجة الصحيح،مع التنبيه على أن الضعيف لا يتقوى بالضعيف بل يزيد ضعفاً،ولكن الضعيف يتقوى بالحسن والشواهد وغير ذلك ،مما سنذكره إن شاء الله تعالى في دورة مباحث في علوم الحديث .

وقوله: (ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك)، هذا الحديث كما أشرنا قبل قليل وإن كان ضعيفًا إلا أنه يوافق الأحاديث الدالة على أن الله في السماء.

وقوله: (الذي في السماء) أي: في العلو.

وقوله: (تقدس اسمك) أي: تنزه اسمك يا إلهنا!

إثبات مشركي العرب لعلو الله

ثم قال المصنف: [وقال النبي ﷺ لـ حصين –وهو والد عمران بن حصين –: (كم إلهًا تعبد؟ قال: سبعة: ستة في الأرض وواحدًا في السماء؛ قال: من لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء) .

أي: أنه كان يعبد ستة أصنام في الأرض، وواحدًا في السماء، أي: الله تعالى، فالرسول ﷺ قال له: (من لرغبتك ورهبتك؟)، أي: من هو الذي تعلم أنه يقدر على تحقيق الخير الذي تريده وكشف الضر الذي تخشاه وتريد زواله؟ قال: (الذي في السماء) أي: الله عزوجل.

فالنبي ﷺ قال: (فاترك الستة، واعبد الذي في السماء؛ وأنا أعلمك دعوتين، فأسلم، وعلمه النبي ﷺ أن يقول: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي) .

هذا الحديث حديث صحيح رواه الترمذي وغيره، ووجه الدلالة منه قوله: (وواحدًا في السماء)، وهذا يدل على أنه يقصد أن الله تعالى في العلو، ولهذا قال: (من لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء) .

وهذا دال على أن حصينًا كان يؤمن بأن الله تعالى في السماء حتى قبل إسلامه، ولقد كانوا في الجاهلية يؤمنون بأن الله عزوجل في السماء، وهذا معروف ومشهور عند الجاهليين، فهذا الحديث دل على إثبات العلو لله تعالى.

وفيما أسلفنا في تفسير الآية السابقة: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] ذكرنا أنه لا يقول قائل أبدًا: إن معناها أن السماء تحيط به، أو أنه داخلها، وإنما معناها أنه في العلو، أو على السماء، وكلا المعنيين صحيح.

إثبات العلو لله في الكتب القديمة

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وفيما نقل من علامات النبي ﷺ وأصحابه في الكتب المتقدمة: أنهم يسجدون بالأرض، ويزعمون أن إلههم في السماء] .

هذا الكلام مروي عن عدي بن عميرة بن فروة الكندي، وقد رواه عنه بإسناده ابن قدامة في كتابه (العلو)، والذهبي، وقال الذهبي عن هذا الكلام: إنه غريب، أي: أنه لم يرو بإسناد صحيح يعول عليه، وإنما هو نقل من كتب الأقدمين، فقوله في وصف النبي ﷺ وأصحابه: (إنهم يسجدون بالأرض ويزعمون أن إلههم في السماء) نقول: مثل هذا اللفظ إذا كان واردًا

في الكتب السابقة فمن المؤكد أن فيه تحريفًا؛ لأن قوله: (يسجدون بالأرض) هذا صحيح، والرسول ﷺ قال عن الخصائص التي اختصت بها أمته: (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، وهذا من خصائص هذه الأمة.

لكن التحريف -والله أعلم- هو في قوله: (ويزعمون أن إلههم في السماء)؛ لأنه لو كانت العبارة ويقولون أو ويقررون أو ويعتقدون أو نحو ذلك لقلنا: إن هذه العبارة ربما تكون صحيحة المعنى.

أما إسنادها فقد تبين أنه ليس مما يعتمد، وأن الذهبي قال فيه: إنه غريب.

لكن يكون المعنى صحيحًا؛ وأما قوله: (ويزعمون) فالزعم فيه نوع من الانتحال، والله في السماء حقيقة وليس ادعاءً.

دليل آخر على العلو

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وروى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قال: (إن ما بين السماء إلى السماء مسيرة كذا وكذا -وذكر الخبر إلى قوله- وفوق ذلك العرش، والله سبحانه فوق ذلك)] .

هذا الحديث أيضًا رواه الترمذي وحسنه، وبعض العلماء تكلم في إسناده، ورواه أيضًا أبو داود وابن ماجة وغيرهم.

وهذا الحديث أيضًا دال على إثبات صفة العلو لله ، ففيه: (أن ما بين السماء إلى السماء مسيرة كذا)، أي: خمسمائة عام؛ ولكن الشاهد قوله: (وفوق ذلك العرش، والله سبحانه فوق ذلك)، وهذا نص صريح على أن العرش فوق السماوات، وأن الله فوق العرش، وهذا دليل على إثبات صفة العلو لله.

فهذه بعض الأدلة على إثبات صفة العلو لله ، وبقيت الإشارة إلى أن الأدلة في هذا كثيرة؛ **فأحاديث النزول دالة على العلو**، فقوله ﷺ: (ينزل ربنا) يدل على أن الله في السماء، **وهكذا أحاديث العروج والصعود إليه**، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، أي: إلى الله.

والنبي ﷺ -كما في الصحيحين وغيرهما- عرج به إلى الله حتى بلغ سدرة المنتهى، وكلمه ربه من غير واسطة.

وهذه الأدلة تزيد على ألف دليل، وكلها دالة على أن الله في العلو، ونحن نثبت ذلك ونقول: إن الله في علو فوق السماوات على العرش استوى، وأنه فوق خلقه بائن منهم، ومع ذلك لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

المسألة الثالثة: مذهب أهل الكلام في العلو:

١ . مذهب الكلاّبية والأشاعرة الأولى ومثلهم الكرّامية: أنهم يثبتون العلو لله بأنواعه الثلاثة، علو القدر وعلو القهر وعلو الذات.

٢ . مذهب الجهمية والمعتزلة والماتريدية ومتأخري الأشاعرة: فهؤلاء يثبتون لله علو القدر والقهر فهو عالي في قدره وقهره وصفاته وينفون علو الذات وعلو المكان، ويقول الجهمية أنه في كل مكان، وأما الماتريدية والأشاعرة فيقولون لا خارج العالم ولا داخله ولا متصل ولا منفصل ولا فوق ولا تحت.

المسالة الرابعة: بماذا يفسر أهل البدع الآيات المثبتة للعلو؟

الجواب: أنهم يفسرونه بعلو القدر والقهر والملك، ويقولون في قوله تعالى: {أأمنتم من في السماء} يقولون: أأمنتم من ملكه السماء، ويرد عليهم أن ملك اللّٰه في السماء والأرض، وكذا في حديث: أين اللّٰه، قالت: في السماء، أي: ملكه في السماء.

وقد ختم المصنف الحديث عن صفة العلو، وذكر إجماع السلف على إثبات العلو.

مسائل في صفة العلو:

١ . هل يثبت لله الجهة أنه في جهة العلو؟

الجواب: نعم بإجماع السلف.

٢ . هل يُسأل عن اللّٰه بالأين، أي: يقال أين اللّٰه؟

الجواب: نعم، بإجماع السلف لحديث: " أين اللّٰه؟ قالت: في السماء ".

مسألة: يرد في الآيات والأحاديث عبارة (في السماء) مثل قوله تعالى: {أأمنتم من في السماء} وكما في الحديث الصحيح عند مسلم : قال: " أين اللّٰه؟ قالت: في السماء "، فما معنى في السماء؟

الجواب: أن تحديد تفسير كلمة في يتوقف على ما المقصود بكلمة السماء، فإن قُصد بكلمة (السماء) بمعنى العلو فإن (في) على بابها ويكون في السماء أي في العلو.

وإن قُصد بالسماء أي السموات السبع المعهودة، فمعنى في، أي: على، ويكون المعنى اللَّه على السموات فوق عرشه، وكلا المعنيين صحيح.وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

شبهات في مسألة العلو والرد عليها

الرد على شبهة أن الله في كل مكان

تقدم أن المخالفين لمنهج السلف في مسألة العلو يقولون بأحد قولين حينما يسئلون عن علو الله ، فبعضهم يقول: الله في كل مكان، وبعضهم يقول: إن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه! والحقيقة أن هذين القولين باطلان، أما من يقول: إن الله في كل مكان فنقول له: هل تثبت لله ذاتًا متصفة بالصفة أم لا؟ فإن أثبت لله ذاتًا موجودة متصفة بالصفات، فنقول: أين الله؟ فإن قال: في كل مكان، فنقول: هذا هو قول الحلولية؛ بل إن النصارى قالوا بالحلول في المسيح فقط، وإن الصوفية المشبهين للنصارى المنحرفين قالوا بالحلول في بعض الأشخاص أو في بعض الأماكن عدا من قال منهم بوحدة الوجود، وأنتم تزعمون أن الله في كل مكان، فهل معنى ذلك أن الله في السماء وفي الأرض وفي الجبال وفي البحار؟ بل وفيما ينزه الله عنه من أماكن القذر والوسخ ونحو ذلك؟! أم أنكم لا تثبتون لله ذاتًا، وكأنكم تقولون: إنه لا يوجد إله، وإنما هو شيء مثل الهواء أو مثل الريح لا حقيقة له؟! وإن أثبتم لله ذاتًا، وهذه الذات متصفة بصفاتها، وأن الله تعالى عليم خبير، فعال لما يريد، على كل شيء قدير، يأخذ الكفار أخذ عزيز مقتدر، خلق السماوات والأرض، فهذه الذات هل يقول قائل: إنها في كل مكان؟! لا شك أن هذا القول ينبت منه الحلول الباطل؛ بل الحلول الذي هو أخبث وأقبح من أقوال النصارى وأقوال بعض الصوفية، وحقيقته في النهاية الانتهاء إلى إنكار وجود الله؛ لأن معنى ذلك أنه ليس له ذات متميزة.

وإن قالوا: إن الله ليست له ذات حقيقة متصفة، كفروا.

إذًا: القول بأن الله في كل مكان يقتضي أن الله حال في كل مكان متحد بخلقه، وهذا مما ينزه الله عنه أتم التنزيه؛ بل نقول: لما خلق الله الخلق، هل خلقهم داخل ذاته أو خارج ذاته؟ إن قلتم خلقهم داخل ذاته فمؤدى ذلك أن يكون الله قد حل فيه القاذورات والمخلوقات ونحو ذلك والعياذ بالله! وإن قلتم خلقهم خارج ذاته، فهذا هو الحق، فإن الله خلقهم خارج ذاته، كما قال السلف رحمهم الله تعالى: إن الله بائن من خلقه، وإذا كان قد خلقهم خارج ذاته

فلابد أن يكون عاليًا عليهم، وهذه لا محيد عنها، ولا يمكن أن يجيبوا بأي جواب يخرج عن هذا.

وبهذا استدل الأئمة رحمهم الله تعالى، وبينوا به بطلان مذاهب الحلول؛ لأن مقتضى الحلول عدم تنزيه الله ، أما مذهب السلف رحمهم الله تعالى فهو أن الله مستو على العرش بائن من خلقه.

الرد على شبهة القول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه

أما الجواب الثاني الذي يجيب به بعضهم: أن الله لا داخل العالم ولا خارجه، فهذا الجواب يكثر عند من يشتغل منهم بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وهذا الجواب أيضًا لا يعقل؛ لأن القول بأنه لا داخل العالم ولا خارجه مستحيل؛ فالقول بأنه ليس داخل العالم يقتضي أنه خارج العالم، والقول بأنه ليس خارج العالم يقتضي بأنه داخل العالم، وأما القول بأنه لا خارج ولا داخل فهذا غير معقول، فإما أن يكون الله خارج العالم أو داخله، ولا يمكن أن يتصور الذهن غير هذا أبدًا، فلا يمكن أن يكون الشيء لا داخل هذا الشيء ولا خارجه، بل إما أن يكون داخله وإما أن يكون خارجه؛ ولهذا فإن بطلان هذا القول لا شك فيه؛ لأنه قول يتضمن أمرًا مستحيلًا.

وبهذا يتبين بطلان دعواهم تلك، وأن ما قاله السلف رحمهم الله تعالى مما هو مستدل عليه بالأدلة الكثيرة هو المنهج الحق.

الرد على شبهة استلزام إحاطة السماء بالأرض أنه الجهات كلها علو لكروية الأرض

مسألة أن الأرض كروية أم مسطحة مسألة لا ينى عليها كثير فائدة علم ولا عمل ولكن اتخذها بعض النفاة والمأولة دليلاً على نفى علو الله وأنه في كل مكان وليس على السماء مستو على عرشه!!!. ، من هذا الباب فصل فيها العلماء رحمهم الله قديماً وحديثاً والصحيح أن كرويتها لا تنافى أنها مسطحة وحكى غير واحد من أهل العلم الإجماع على كروية الأرض، ومن ذلك:

ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أبي الحسين ابن المنادي رحمه الله، حيث قال " وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار

والتصانيف الكبار في فنون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد: لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة......

قال: وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة. قال: ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب " انتهى من "مجموع الفتاوى" (195/25) باختصار.

وسئل رحمه الله: عن رجلين تنازعا في "كيفية السماء والأرض " هل هما " جسمان كريان "؟ فقال أحدهما كريان؛ وأنكر الآخر هذه المقالة وقال: ليس لها أصل وردها فما الصواب؟

فأجاب: " السموات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام: مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي أحد الأعيان الكبار من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمائة مصنف، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية، وإن كان قد أقيم على ذلك أيضا دلائل حسابية، ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك، إلا فرقة يسيرة من أهل الجدل لما ناظروا المنجمين قالوا على سبيل التجويز: يجوز أن تكون مربعة أو مسدسة أو غير ذلك، ولم ينفوا أن تكون مستديرة، لكن جوزوا ضد ذلك، وما علمت من قال إنها غير مستديرة – وجزم بذلك – إلا من لا يؤبه له من الجهال ... " انتهى من "مجموع الفتاوى" (586/6) .

وقال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: " مطلب بيان كروية الأرض:

قال أبو محمد وهذا حين نأخذ إن شاء الله تعالى في ذكر بعض ما اعترضوا به، وذلك أنهم قالوا: إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: أن أحداً من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها ... " وساق جملة من الأدلة على ذلك "الفصل في الملل والأهواء والنحل"

ومن الأدلة على كروية الأرض:

قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) سورة الزمر،وأهل العلم ذكروا أنه لو مات رجل بالمشرق عند غروب الشمس، ومات آخر بالمغرب عند غروب الشمس، وبينهما مسافة، فإن من مات بالمغرب عند غروب الشمس يرث من مات بالمشرق عند غروب الشمس إذا كان من ورثته، فدل هذا على أن الأرض كروية، لأنها لو كانت الأرض سطحية لزم أن يكون غروب الشمس عنها من جميع الجهات في آن واحد، وإذا تقرر ذلك فإنه لا يمكن لأحد إنكاره، ولا يشكل على هذا قوله تعالى: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) لأن الأرض كبيرة الحجم، وظهور كرويتها لا يكون في المسافات القريبة، فهي بحسب النظر مسطحة سطحاً لا تجد فيها شيئاً يوجب القلق على السكون عليها، ولا ينافي ذلك أن تكون كروية، لأن جسمها كبير جداً، ولكن مع هذا ذكروا أنها ليست كروية متساوية الأطراف، بل إنها منبعجة نحو الشمال والجنوب، فهم يقولون: إنها بيضاوية، أي على شكل البيضة في انبعاجها شمالاً وجنوباً

وبهذا تعلم أن كون الأرض كروية، لا ينافي كونها كالبيضة، وإنما القول الباطل هو الزعم بأنها مسطحة كما كانت تعتقد الكنيسة، ولهذا كانت تلعن وتحرق من يقول بكرويتها من العلماء، على كل حال ليس هناك إلا فوق أو تحت، والله هو فوق وليس تحت.

قد يقول قائل: إذًا لو خرقنا في الأرض وانتهينا إلى الطرف المقابل فإننا ننتهي إلى جهة.

نقول: نعم، لو خرقت وانتهيت إلى الطرف المقابل فإنك ستخرج إلى الجهة المقابلة وتتجه إليها.

قد يقول قائل: إذًا معنى ذلك أنني إذا اتجهت إلى أي جهة فإنني اتجه إلى الله.

فنقول له: هنا فرق، فما دام أنه ليس هناك إلا جهة فوق أو تحت فأنت في أي مكان على الأرض إما أن تطلب الله فوق، أو أن تطلبه تحت (وهو الذي يؤدي إلى مركز الأرض)، وليس هناك جهة أخرى، والمعلوم أن الله فوق السماوات، وأنه محيط بكل شيء عليم خبير.

إذًا: مقتضى هذا أن نؤمن -في أي مكان كنا على الأرض- بأن الله فوقنا.

إحاطة السماء بالأرض لا تستلزم أن يكون الله في كل جهة

ولابد من قطع الشبهات العقلية التي يثيرها المبتدعة ليفتنوا بها الشباب ويثيرونها من وقت لآخر ولو فصلنا فيها بعض التفصيل فهو في محله ومناطه ،وفى هذا المقام نشير إلى مسألتين:

الأولى منهما: قد يقول قائل: أنا حينما أتجه جهة الأمام فأنا أتجه إلى جهة السماء، ولو اتجهت إلى الأرض مخترقًا الأرض فأنا أيضًا أتجه إلى جهة السماء.

فنقول له: أنت حينما تطلب أمرًا تأتيه من أقرب الطرق إليه، فالإنسان مفطور على ذلك، فهذا الذي يتجه إلى هذه الجهة يطلب ربه في السماء مثل ذلك الذي أراد أن يحج من المدينة -مثلًا- فقال: أذهب إلى دمشق ثم أذهب إلى مكة! فنقول له: حينما تذهب إلى دمشق ثم تتجه إلى مكة ستصل إلى مكة، لكن ستوصف بالجنون أو ضعف العقل؛ لأن الذاهب إلى مكة يجب أن يذهب إليها من أقرب الطرق إليها، ولما كان الله العليم الخبير، وهو سبحانه معبودنا وإلهنا نحبه ونتوجه إليه، فإننا نبحث عن أقرب الطرق إليه، وبحثنا عن أقرب الطرق إليه إنما يكون بأن نتجه إلى السماء في جهة العلو، فمن طلبه متفلسفًا بطرق معينة فهو شبيه بمن يريد أن يذهب من المدينة إلى مكة عن طريق المغرب أو عن طريق أفغانستان أو غير ذلك.

إذًا: ونحن على الأرض نطلب ربنا في السماء، ولا يأتي إنسان ويطلب ربه في جهة أخرى زاعمًا أنه يمكن أن يصل إلى هذا الأمر بطريقة معينة، وإنما يطلبه من أقرب الطرق إليه.

إحاطة السماء بالأرض لا تقتضي إحاطة الله بمخلوقاته

الثانية: أن القول بأن السماء محيطة بالأرض لا يقتضي أن يكون الله بذاته محيطًا بمخلوقاته كما ادعى أهل الضلال الذين يكيفون ذات الله.

وإنما نقول: إن هذه الأرض ما هي إلا ذرة صغيرة في الكون تحيط بها ملايين المجرات، وتحيط بها السماوات وفوق السماوات عرش الرحمن ، والله فوق العرش وهو أعظم منها، ولايقدر قدره إلا الله ، وقد أخبرنا أنه يقبض السماوات بيمينه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، فإذا كانت هذه السماوات وهذه المجرات وما يتبعها مطويات بيمينه، فلا يتصور أحد أن الأرض تحيط بها

السماء من كل جانب، وأن الله له ذات، وهذه الذات بشكل كيت وكيت وهي تحيط بالمخلوقات.

وإنما الواجب أن يعلم المرء أن الله على العرش استوى، وهذه الأرض وما حولها كلها حقيرة بالنسبة له.

ومن ثمَّ فلا يلزم ذلك اللازم الباطل، ولهذا شبه بعض علماء السلف رحمهم الله تعالى تشبيهًا في هذه المسألة يوضحها فقال: لو أن نسرًا طار في السماء، وأمسك برجله شعيرة، فهذه الحبة بالنسبة للنسر تحته، فهل يقتضي هذا أن يكون هذا النسر على هذا النحو محيطًا بالحبة؟ لا يلزم، ولله المثل الأعلى.

وقد أخبرنا الله أن السماوات والأرضين كلها مقبوضة بيد الرحمن ، وعلى هذا فهي لا تساوي شيئًا، كما ورد في الحديث: (ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم) .

إذًا: الفهم الخاطئ في هذا الأمر نشأ من قصور العقل، ونشأ من التشبيه؛ حيث ظن الإنسان أن الله مثلما نقول: فلك أو جبل أو نحو ذلك، ثم قاس الله بها، فإذا كانت السماوات بملايين المجرات في يد الرحمن كخردلة في يد أحدهم، فكيف يتصور أحد ذلك التصور الساذج؟! بل نقول: سبحانك يا إلهنا ما أعظمك! وما عبدناك حق عبادتك، ونؤمن بالله وبأسمائه وصفاته، ولا يخطر ببالنا أي شيء من هذا الأمر.

فالإيمان الصحيح بالله وأسمائه وصفاته وعظمته يجعل الإنسان يعبد ربًا عظيمًا رحيمًا قديرًا خبيرًا أحاط بكل شيء علمًا، يعبد ربًا على العرش استوى استواءً يليق بجلالته وعظمته، يعبد ربًا لا تساوي هذه المخلوقات بالنسبة له شيئًا، وإذا آمن بذلك أيقن يقينًا تامًا أنه لا يمكن أن يكون الله إلا في جهة العلو، وأن أي اعتقاد عدا ذلك من حلول كامل أو حلول محدد بشخص أو مكان، أو القول بإن الله لا داخل العالم ولا خارجه أو نحو ذلك، ما هو إلا دوران حول أنواع من الشرك بالله، نسأل الله السلامة والعافية.

شرح أثر مالك بن أنس: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول)

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى أيضًا: [سئل الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، فقيل: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم أمر بالرجل فأخرج] الإمام مالك ولد سنة (٩٣ هـ)، وتوفي سنة (١٧٩ هـ)، والإمام مالك رحمه الله تعالى عاصر بعض البدع التي وجدت في عهده، فدخل عليه في أحد الأيام رجل وهو في المسجد في الحلقة، فقال: يا أبا عبد الله! ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، كيف استوى؟ إذًا: عندنا أمران: الأمر **الأول**: أن السائل يعلم بأنه ورد في القرآن إثبات الاستواء، وأنه دل عليه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] .

الثاني: أن السؤال إنما هو على الكيفية؛ لأنه قال: كيف استوى؟ ونحن نقول هذا الكلام لأن جواب الإمام مالك فسره المخالفون لأهل السنة والجماعة تفسيرًا خاطئًا، فالإمام مالك قال: (الاستواء غير مجهول) وفي بعض الروايات أنه قال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول)، وهنا قال: (والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة) .

فالإمام مالك قال: (الاستواء غير مجهول) يعني أن معنى الاستواء كما نفقهه، ونحن خوطبنا باللغة العربية، فهذا الاستواء معلوم لنا غير مجهول، لكن ما هو الشيء الذي نجهله ولا نعقله؟

الجواب

هو الكيف، لأننا لا نعلم كيف الله فكذلك لا نعلم كيف صفاته سبحانه وتعالى .

وبعض الذين ينكرون استواء الله ويتأولونه بالاستيلاء يجيبون عن هذا ويقولون: إن قول الإمام مالك: (الاستواء معلوم) يعني أنه مذكور في القرآن، فنقول لهم: لو كان قصد الإمام مالك أن الاستواء مذكور في القرآن لاكتفى بكلام السائل؛ لأن السائل أولًا قال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ ولكان قوله: (الاستواء معلوم) كلامًا لا قيمة له، ولكن السائل سيقول: أنا ما سألتك إلا وأنا أعلم أن الاستواء مذكور في القرآن، لكن أراد الإمام مالك إثبات وبيان قضية منهج السلف رحمهم الله تعالى، ألا وهي أن الاستواء معلوم، أي: نحن نعلم معنى الاستواء بما خوطبنا به في اللغة العربية؛ فإنه بمعنى: علا،

وارتفع، واستقر، وصعد، هذه هي الألفاظ الواردة عن السلف رحمهم الله تعالى، وعلى هذا فإن الاستواء معلوم، وأما كونه مذكورًا في القرآن فهذا أمر بدهي، ولا يمكن أن يغفل عنه الإمام مالك، والسائل نفسه ذكر أن سؤاله إنما هو عن الكيفية، والكيفية غير معقولة.
وهذا هو منهج السلف رحمهم الله تعالى؛ فإنهم يثبتون الصفات لله تعالى إثباتًا حقيقيًا، ويثبتون ما دلت عليه من معانٍ، ويقولون: إن الكيفية لا يعلمها إلا الله عزوجل.
وقوله: (والإيمان به واجب)، أي: أن إثبات الاستواء على منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى واجب، ولا يجوز تأويله.
وقوله: (والسؤال عنه بدعة)، أي أن السؤال عن كيفية الاستواء بدعة، وليس المقصود به السؤال عن إثبات الاستواء؛ لأنه ورد عن النبي ﷺ حديث قال فيه: (إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا)، فهل معنى ذلك ألا نتكلم عن الإيمان بالقدر، ولا نتكلم عن فضل الصحابة؟ الجواب: لا، وإنما المقصود أنه إذا ذكر القدر وخاض فيه الخائضون بالباطل فلا نتكلم، وإنما نكل الأمر إلى الله تعالى، لكن إثبات الإيمان بالقدر أصل من الأصول؛ بل هو ركن من أركان الإيمان، قال فيه النبي ﷺ (وتؤمن بالقدر خيره وشره) .
إذًا: قوله هنا: (أمسكوا) أي: عن الخوض فيه بالباطل، وهكذا ذكر الصحابة، هل معنى ذلك أننا لا نذكر الصحابة بشيء أبدًا؟ الجواب: لا، وإنما المقصود أنه إذا ذكر الصحابة وتكلم فيما وقع بينهم كما هو ديدن كثير من أهل البدع، فيجب علينا أن نمسك، وألا نخوض في ذلك، وأن نكل ما جرى بينهم إلى الله تعالى، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.
وقوله: (**ثم أمر بالرجل فأخرج**)، أي: أن الإمام مالكًا أمر بهذا الرجل فأخرج تأديبًا له وتعليمًا لأصحابه؛ لأن أهل البدع يجب ألا يمكنوا من نشر بدعهم، وهذا هو منهج السلف الصالح، فبعض الناس يظن أن فتح الحوار يدل على منهج علمي واقعي، وأنه ينبغي أن يفتح الإنسان الحوار لكل من هب ودب، فمن كان من هؤلاء من أهل البدع فإنه حينما يكون هناك قدرة للمتمسكين بمنهج أهل السنة والجماعة فيجب عليهم ألا يتهاونوا، فعمر رضى الله عنه وأرضاه ما ترك صبيغ بن عسل يتكلم بالمتشابهات، وإنما أتى له بعراجين النخل وضربه حتى قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب عني الذي أجد.

لكن إذا وجدت البدعة وابتلي بها المسلمون، ولم يكن للمسلمين من أهل السنة والجماعة قدرة على منع الخوض فيها، فحينئذ تشرع مناقشتهم لا أن نفتح نحن الحوار ونقول: تعالوا لنشر بدعكم؛ وذلك لأن البدعة قد يصوغها صاحبها ولا يستطيع الجواب عنها، فتثير في النفس شكًا وريبة، فكيف إذا كان هذا يقع عند المتعلمين؟ فكيف بالعوام؟ وكيف بالنساء؟ وكيف بغيرهم؟ فمثلًا: لو أن إحدى البدع تقام في التلفزيون، ويشاهدها الأطفال والنساء وغيرهم، ونقول لصاحبها: نفتح معك الحوار، وهذا يصلح وهذا يرد، فهذا لا شك أنه سيؤدي إلى بلاء وفتنة للناس وضعاف الإيمان .

فمنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى هو بيان الحق وبيان العقيدة بأدلتها؛ حتى تؤمن النفس ويصفو إيمانها، ولا يخوضون في ذلك إلا عند الضرورات وعند الحاجة، وحينما يكون هناك خطر لا يمكن رده إلا بالنقض والبسط، كما فعل أئمة السلف رحمهم الله تعالى في القرن الثالث والرابع وما بعدهما.

صفة النزول

قال المصنف: ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم ((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا) ذكر المصنف لذلك دليلاً من السنة: " ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا"الحديث.

مسألة: مذهب أهل السنة والجماعة في صفة النزول:

أنهم يثبتونه لله في كل ليلة إلى السماء الدنيا، وهذه الصفة من الصفات المتعلقة بالمشيئة.

مسألة: مذهب المعطلة في هذه الصفة:

١ – مذهب الجهمية والمعتزلة ومتأخري الأشاعرة والماتريدية: كل هؤلاء ينكرون صفة النزول، ويفسرون النزول إما بنزول أمره، وإما بنزول ملائكته أو رحمته.

٢ – مذهب الكلاّبية: وهؤلاء يثبتون النزول لله، ويقولون: إن النزول صفة من صفات اللَّه، لكن حينما يفسرون هذه الصفة، يفسرونها بتفسير يدل على أنه مخلوق، فيقولون: معنى ينزل اللَّه، أي أنه فعل يفعله اللَّه في السماء الدنيا سماه نزولاً، ومعنى كونه فعلا، أي شيء مفعول مخلوق.

فكلامهم تماماً مثل كلام الجهمية، إلا أنه مخفف العبارة أو مغلّف بغلاف يخدع الناظرين، فإذا قالوا إنه من صفات اللَّه الفعلية ظن الظان أنهم يثبتون الصفة كالسلف، لكن إذا قالوا فعل يفعله اللَّه في السماء، انفضح أمرهم، لأنهم يجعلونه مخلوقاً، أو شيئا مفعولاً، وعلى هذا المذهب البيهقي في الأسماء والصفات، وكذا أبو الحسن الأشعري والباقلاني، وكذلك ابن كلاب إمامهم.

مسائل في صفة النزول لله تعالى:

١ – هل يقال: إن اللَّه ينزل إلى السماء الدنيا بدون حركة ولا انتقال؟

الجواب أن نفي الحركة والانتقال أو إثباتهما يحتاج لدليل لذا يُسكت عن ذلك ويقال كما قال اللَّه ينزل ونقف حيث وقف السلف فهم عن علم وقفوا ولا ننفي أو نثبت الحركة أو الانتقال إلا أن بعض السلف ذكر النزول بحركة وانتقال **في باب الردود** لما ردوا على الكلاّبية.

٢ – أورد المعطلة شبهات حول صفة النزول وقالوا إن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل فيلزم أن الله دائم نازلا لأنه لا يخلو مكان من ليل؟

والجواب: أن يقال: إن الله ليس كمثله شيء، فكما أن الله يسمع الأصوات ولا يشغله صوت عن صوت ولا يقال إذا كان يسمع هذا الصوت فإنه ينشغل عن الصوت الآخر ولا يقال إنه لكثرة الأصوات فيلزم أن الله دائم يسمع فقط.

مثال آخر: الحساب يوم القيامة فإن لله يحاسب الخلق في ساعة واحدة ولا يشغله محاسبة عن محاسبة، كما أنه يرزق الخلق في ساعة واحدة، ويميت ويحيي ولا يشغله عمل عن عمل لأن الله ليس كمثله شيء وإنما هذا المخلوق الضعيف الذي إذا تكلم أو انشغل في عمل انصرف عن الأشياء الأخرى أو إذا نزل في مكان لم ينزل في غيره في ساعته

ومن أراد مزيد الرد ففي كتاب ابن تيمية واسمه شرح أحاديث النزول ص٦٨، ١٠٦، ورسالة ابن رجب في فضل علم السلف ص٦، وشرح الهراس لكتاب التوحيد لابن خزيمة لما ذكر صفة النزول لله تعالى،وقد مر معنا تفصيل هذه المسألة

صفة العَجَب لله سبحانه وتعالى

قال المصنف: وقوله ((**يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة**))

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفة على ما يليق بجلاله، واستدل المصنف بحديث إثبات صفة العجب لله سبحانه، وهو قوله – صلى الله عليه وسلم –: " يعجب ربنا من الشاب ليست له صبوة "

مذهب أهل الكلام في صفة العجب، فكلهم من غير استثناء ينفون هذه الصفة لله تعالى، ويفسرونها بالإثابة والعطاء والتوفيق، فكل طوائف المعطلة ينفونها من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية.

وجاء عن بعض السلف عدم إثبات هذه الصفة لله مثل شريح رحمه الله فإنه اعتقد أن الله لا يعجب لأن العجب يكون من جهل السبب والله منزه عن الجهل (الفتاوى ٢٠/ ٣٣) ولكن لكل جواد كبوة.

ومعنى الحديث: أن الله يعجب من هذا الشاب أنه مع نشاطه وقوة رغباته وشهواته المتعددة لا تكون له صبوة، أي: لا يكون له ذنب، ولا يرتكب كبيرة، ولا يرتكب معصية؛ فيعجب ربنا من هذا، وهذه الصفة لله هي كما يليق بجلاله وعظمته؛ لكن هذا الحديث في حد ذاته تكلم فيه العلماء، فهو حديث رواه الإمام أحمد في المسند والطبراني وغيره، لكنه ضعيف وإن قواه بعض العلماء كـ السخاوي في كتابه (المقاصد الحسنة)، لكن يغني عنه دليلان أحدهما في كتاب الله، والثاني في صحيح البخاري؛ فأما الذي في كتاب الله تعالى فقول الله تعالى : (بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ)؛ على قراءة ضم التاء، وهذه القراءة سبعية؛ قرأ بها حمزة وخلف والكسائي، ومن ثمَّ فإنها قراءة صحيحة أنه يجوز القراءة بها.

وكذلك ورد في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال في قصة الصحابي هو وزوجه وضيفهم حين استضافوه وليس معهم من الطعام ما يكفي، فأطفئوا السراج، وأوهموه أنهم يأكلون، وجعل الضيف يأكل حتى شبع، فلما أصبح الصباح قال النبي ﷺ لهذا الصحابي: (لقد عجب ربك– وفي رواية: ضحك ربك – من صنيعكما البارحة بضيفكما)، فقوله: (عجب) نأخذ منه ومن الآية إثبات هذه الصفة لله عز وجل التي هي صفة العجب.

والعجب والتعجب أحيانًا ينشأ من الجهل، مثل أن يطلع الإنسان على صنعة أو قوة معينة لفارس أو شخص فيعجب من ذلك، وأحيانًا يكون العجب لأمر آخر، وهو كون هذا الشيء جاء على صفة غير معروفة وغير متوقعة وإن كان الإنسان لا يجهلها، ولكن بالنسبة لله نثبت له هذه الصفة كما يليق بجلاله وعظمته، ولا تقاس بصفة المخلوقين، وليس عجبه كعجب المخلوقين؛ فعجب المخلوقين قد ينشأ أحيانًا من جهل وأحيانًا من قلة فهم لهذه القضية، لكن عجب ربنا هو صفة تليق بجلاله وعظمته، ولا يترتب عليها جهل، ولا يترتب عليها عدم إدراك ومعرفة لهذا المتعجب منه، بل هي صفة تليق بجلاله وعظمته كما في الحديث الذي تقدم، وفيه أن صحابيين أطعما ضيفهما وتركا نفسيهما، والله عليم بهما مطلع عليهما، ومع ذلك يقول الرسول ﷺ: (عجب ربك من صنيعكما البارحة)، وفي رواية: (ضحك ربك من صنيعكما البارحة)، فعجبه ليس ناشئًا عن جهل، وإنما هو عجب يليق بجلاله وعظمته، وهذه الصفة نثبتها لله كغيرها من الصفات، ولا يلزم منها مشابهة المخلوقين.

صفة الضحك لله تعالى

قال المصنف: وقوله ((يضحك الله إلى رجلين قتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة))

فسر هذا الحديث بأن أحدهما مسلم والآخر كافر، فيقتل الكافر المسلم، ثم إن الكافر يتوب إلى الله تعالى، ويدخل في الإيمان والإسلام، ويحسن عمله فيدخلان الجنة؛ يقول الرسول ﷺ: (يضحك الله إلى رجلين قتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة) .

وصفة الضحك نثبتها لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته، وليس ضحكه كضحك المخلوقين، فلا نشبه ولا نتأول ولا نكيف، وإنما نثبت له هذه الصفة؛ لأن الذي أخبرنا بها وأثبتها لله هو أعلم الناس بربنا عز وجل، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذه الصفة يقال فيها مثلما يقال في صفة السمع أو في صفة القدرة أو في صفة العلم أو غير ذلك: نثبتها لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

وجوب الإيمان بما صح من الأسماء والصفات من غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [**فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعدلت رواته**] .

وهذا أيضًا مهم جدًا؛ فإن قوله: (مما صح سنده وعدلت رواته) يعني أننا لا نثبت هذه الصفات من هذه الأحاديث إلا إذا كانت هذه الأحاديث ثابتة بطرق صحيحة رواتها عدول ثقات، ليس فيها انقطاع، وليس فيها شذوذ ولا علل؛ وإنما هي رواية صحيحة ثابتة.

ثم قال: [نؤمن به، ولا نجحده، ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره] .

أي: لا نرده كما رده بعض الذين يردون أخبار الآحاد ويقولون: لا نقبلها في باب العقيدة، وكذلك أيضًا لا نجحده لأنه ثبت بطرق صحيحة.

وكذلك أيضًا قال: (لا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره)، فهو رد على من يرد السنة، كما أنه رد على من يقبل السنة لكنه يتأول؛ لأن بعض أهل الكلام وبعض المؤولة يقبل السند، ويقول: لا نرد هذا الحديث بل نثبته؛ لأنه وارد عن رسول الله ﷺ، لكنه يتأول هذا الحديث إذا ورد في صفة من صفات الله ؛ فهو لا يرده ردًا مجملًا أو ردًا كاملًا، وإنما يرده ردًا معينًا، بمعنى: أنه يتأوله ذلك التأويل الذي يؤدي إلى نقض ما دل عليه من معنى وما قصده رسول الله ﷺ حينما أخبرنا بهذا الحديث وأمثاله.

ثم قال بعد أن رد على أهل التأويل: [**ولا نشبهه بصفات المخلوقين**] .

وهذا هو منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى؛ فإنهم يثبتون الصفة ولا يشبهون الله بصفات المخلوقين، فلا يقولون: إن صفة الله تعالى كصفة كذا أو كذا من المخلوقات.

ثم قال: [ولا بسمات المحدثين] .

أي: علامات المحدثين؛ والمحدثون هم المخلوقون، سواء كانوا بشرًا أو ملائكة أو نجومًا أو حجارة أو غير ذلك، فأهل السنة والجماعة لا يشبهون الله سبحانه تعالى بشيء من ذلك.

ثم قال: [ونعلم أن الله لا شبيه له ولا نظير] .

فلا شبيه له ، ولا نظير له، ولا مثيل ولا مثل، ولهذا استشهد بقوله: [﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

فنفى عن الله المثل، وأثبت لله الصفات مستشهدًا باسميه تعالى: السميع البصير، وهما دالان على صفة السمع وصفة البصر لله تعالى، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى، وقد سبق بيان ذلك.

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى قال: **[وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه]** .

وهذا لنفي التكييف، أي: أن البشر لا يستطيعون أن يكيفوا ذاته ولا صفاته، ولهذا فكل ما توهمه الإنسان في صفة من صفات الله فإن الله بخلاف ذلك؛ لأن الله تعالى لا يعلم ذاته إلا هو، ولا يعلم صفاته إلا هو ؛ فأهل السنة والجماعة لا يكيفونها، ومهما بلغت خيالات الإنسان ليثبت لله قريبًا من صفة من صفاته فإن الإنسان لا يستطيع ذلك؛ لأن الله أعظم وأجل مما خطر بالبال، بل هو سبحانه على خلاف ما خطر ببالك؛ وهذا منهج أهل السنة والجماعة.

مذهب المعطلة في صفة الضحك:

كل المعطلة ينفون هذه الصفة ويفسرونها بالقبول، ثم بعد ذلك علق المصنف رحمه اللّه بالإجمال في ذكرمذهب السلف.

مسألة:هناك من أهل السنة من أول صفة الضحك لله كابن عبد البر رحمه اللّه، فإنه لم يثبت هذه الصفة لله وإنما أولها، وتأويله لهذه الصفة لا يخرجه عن مسمى أهل السنة والجماعة؛ لأن القاعدة: أن من كان موافقاً لأهل السنة في المنهج وفي الأصول ويرى إثبات

الصفات لله، ويثبت ما أثبته الله لنفسه لكنه قد يزلّ في صفة أو صفتين، فيؤولها ولكن لكل جواد كبوة، لكن يبقى من أهل السنة والجماعة لأنه موفق لهم في التأصيل فعذر بالتأويل.

ويلاحظ في كلام المصنف أمور، تعتبر قواعد في باب الأسماء والصفات، فذكر ما يأتي:

١ . الإيمان بالأسماء والصفات.

٢ . أنكر الرد المنافي للقبول والانقياد، وأنكر الجحد، ومنه التكذيب المنافي للإقرار والتصديق، ونفى التأويل وقيد نفي التأويل، بالتأويل المخالف لظاهر النص والسياق، ونفى التشبيه المنافي للتوحيد، ثم استدل المصنف على القواعد التي أصّلها بقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

ثم بعد ذلك عاد المصنف بإثبات جملة من صفات الله تعالى، إلا أن هذه الصفات التي سوف نتحدث عنها مهمة جداً، وتمس واقع المصنف وهي من أهم الصفات التي كثر فيها الكلام والمعارك مع أهل الكلام خصوصاً الأشاعرة، ولذلك يلاحظ في الصفات التي سوف يذكرها أنه يطيل في الاستدلال، ويكثر من الآيات والأحاديث التي تثبتها مما يدل على أن المصنف يواجه صراع فكري مع مبتدعة زمانه من أهل الكلام، خصوصاً الأشاعرة في ذلك.

صفة الكلام

قوله: (ومن صفات اللَّه تعالى، أنه متكلم بكلام قديم، يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة، ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال اللَّه تعالى: {وكلم اللَّه موسى تكليماً} وقال سبحانه: {يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي بكلامي} ، وقال سبحانه: {منهم من كلم اللَّه} وقال سبحانه: {وما كان لبشر أن يكلمه اللَّه إلا وحياً أو من وراء حجاب} وقال سبحانه: {فلما أتاها نودي يا موسى. إني أنا ربك} وقال سبحانه: {إنني أنا اللَّه لا إله إلا أنا فاعبدني} ، وغير جائز أن يقول هذا أحد غير اللَّه.

وقال عبد اللَّه بن مسعود – رضي اللَّه عنه –: إذا تكلم اللَّه بالوحي، سمع صوته أهل السماء، روي ذلك عن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم –.

وروى عبد اللَّه بن أنيس عن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " يحشر اللَّه الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلاً بهما فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ، كما يسمعه من قرُب: أنا الملك، أنا الديان ".رواه الأئمة، واستشهد به البخاري.

وفي بعض الآثار: أن موسى عليه السلام ليلة رأى النار، فهالته ففزع منها، فناداه ربه: يا موسى، فأجاب سريعاً استئناساً بالصوت.

فقال: لبيك، لبيك، اسمع صوتك، ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك، وأمامك، وعن يمينك، وعن شمالك، فعلم أن هذه الصفة لا تنبغي إلا لله تعالى، قال: كذلك أنت يا إلهي، أفكلامك أسمع، أم كلام رسولك؟ قال: بل كلامي يا موسى).

ومِنْ كلامِ الله سبْحانه القرآنُ العظيمُ، وهو كتابُ الله المبينُ، وحَبْلُه المتينُ، وصراطُهُ المستقيمُ، وتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِ سَيِّدِ المرسَلِينَ بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مُنَزَّلٌ غيْرُ مخلوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ وإِليْهِ يَعُودُ.

وهُوَ سُوَرٌ مُحْكَمَاتٌ، وآياتٌ بَيّنَاتٌ، وحُرُوفٌ وكَلِماتٌ، مَنْ قَرَأَهُ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عشْرُ حسَناتٍ. لَهُ أَوَّلٌ وآخِرٌ، وأجْزاءٌ وأَبْعاضٌ، مَتْلُوٌ بالألسِنَةِ محْفوظٌ في الصُّدورِ، مَسْمُوع بالآذانِ، مَكْتوبٌ في المصاحِفِ، فِيهِ مُحْكَمٌ ومُتَشابِهٌ، ونَاسِخٌ ومنْسُوخٌ، وخاصٌّ

وعامٌّ، وأمْرٌ ونَهْيٌ { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت:42]، وقَوْله تعالى { قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء:88].

وهَذَا هُوَ الكتابُ العربيُّ الّذي قال فِيهِ الذين كَفَرُوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ } [سبأ:31]، وقال بعضُهم { إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ } [المدثر:25]، فَقال الله سُبْحانه { سَأُصْلِيهِ سَقَرَ } [المدثر:26]، وقَالَ بَعْضُهم هو شِعْرٌ. فقال الله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } [يس:69]، فَلَمَّا نَفَى اللهُ عنْهُ أنَّهُ شِعْرٌ وأثبتَهُ قُرْآنا لم يُبقِ شُبْهةً لِذِي لُبٍّ في أنَّ القرآنَ هو هذا الكتابُ العرَبِيُّ الَّذي هُوَ حُرُوفٌ، وكلِماتٌ، وآياتٌ؛ لأنَّ ما ليْس كذلِك لا يقُولُ أحَدٌ إنَّه شعْرٌ.

وقالَ عزّ وجلّ { وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [البقرة:23]، ولا يجوزُ أنْ يَتحَدَّاهُمْ بِالإتْيانِ بِمِثْلِ ما لا يُدْرَى ما هُوَ ولا يُعْقَلْ.

وقالَ تَعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي } [يونس:15]، فأَثْبَتَ أَنَّ القُرْآنَ هُوَ الآياتُ الَّتِي تُتْلَى عَلَيْهِمْ.

وقال تعالى { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت:49]، وقال تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(78)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } [الواقعة:77– 79]، بَعْدَ أنْ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ.

وقال تعالى { كهيعص } [مريم:1], { حم(1)عسق } [الشورى:1–2]، وافْتَتَحَ تِسْعًا وعِشْرينَ سُورةً بالحروفِ المقطَّعَةِ.

وقال النبي– صلى الله عليه وسلم –«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَرَأَهُ وَلَحَنَ فِيهِ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَسَنَةٌ»حديثٌ صحيحٌ.

وقال عليْه الصّلاةُ والسّلامُ«اِقْرَأُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلاَ يَتَأَجَّلُونَهُ».

وقَالَ أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ رضيَ اللهُ عنْهُما: إِعْرابُ القُرآنِ أَحَبُّ إلِيْنَا مِنْ حِفْظِ بعْضِ حُرُوفِهِ.

وقالَ عليٌّ – رضي الله عنه –: مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهُ.
واتَّفَقَ المسلمون على عَدِّ سُوَرِ القرآنِ وآياتِهِ وكلِماتِهِ وحُروفِهِ.
ولا خِلافَ بيْن المسلمين في أنَّ مَنْ جَحَدَ مِنَ القُرآنِ سُورَةً أو آيَةً أو كلِمَةً أو حرْفًا مُتَّفَقًا عليْه أنَّه كافِرٌ، وفي هذا حُجَّةٌ قاطِعَةٌ على أنَّهُ حُروفٌ.

صفة الكلام ثابتة لله جل وعلا بالعقل وبالسمع، ولهذا الذين يثبتون الصفات السبع أو الثمان يجعلون صفة الكلام من تلك الصفات التي يثبتونها؛ لأنه دلّ عليها العقل، كما أنه دل عليها النقل.

أما دليل العقل على هذه الصفة فهو أنه جل وعلا ذكر الآلهة التي أُدّعيت وجعل عدم كلامها دليلا على عجزها وأنها لا تصلح آلهة قال جل وعلا { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } [طه:89]، وكذلك في قوله جل وعلا { فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ } [الأنبياء:63] وذلك أن الفارق بين الحيّ ومن ليست فيه حياة هو الكلام، فإذا كان متكلما كان هذا أكمل؛ بل كان هذا من صفات الكمال، فالكلام من صفات الكمال، وعدم الكلام من صفات النقص، ولهذا كان هذا يصلح دليلا عقليا.

كما أن السمع أثبت صفة الكلام في نصوص الكتاب والسنة، كما سمعتم من إيراد المؤلف وظاهرة في الدلالة على صفة الكلام، قال جل وعلا { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء :164]، وقال جل وعلا { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } [الأعراف:143]، وقد سأل بعض أهل البدع أحد أئمة اللغة عن قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء :164]، سأله أن يقرأه بنصب لفظ الجلالة؛ يعني وكلّم اللهَ موسى تكليما؛ يعني أن يجعل المتكلم هو موسى وأن يجعل الله جل وعلا هو المكلَّم، رغبة منه أن ينفي الصفة؛ صفة الكلام لله جل وعلا، وذلك الرجل هو أحد رؤوس المعتزلة أظنه عمرو بن عبيد, يقول: فقال هذا الإمام هَبْنِي قرأتُها كذلك فما تصنع بقول الله جل وعلا { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } [الأعراف:143].

وصفة الكلام ثابتة لله جل وعلا، والمعتزلة يجعلون كلام الله مخلوقا منفصلا فيقولون موسى سمع كلام الشجرة، والجهمية يجعلونه مخلوقا منفصلا مطلقا، وأما الأشاعرة والماتريدية فهم

يثبتون صفة الكلام؛ لأنها من الصفات السبع عند الأشاعرة ومن الصفات الثمان عند الماتريدية، ولكن يقولون هو متكلم بكلام نفسي قديم.

وأهل السنة والجماعة يتميزون عن أولئك جميعا بقولهم إنه جل وعلا يتكلم بكلام يُسمع بحرف وصوت إذ الذي يُسمع هو ما كان بحروف وما كان بصوت، وكذلك أن كلام الله جل وعلا صفة له جل وعلا، قديمة النوع، حادثة الآحاد؛ فهو جل وعلا يتكلم إذا شاء، كيف شاء، وليس كلامه صفة نفسية، بل هو يتكلم بصوت يسمعه من بَعُد، كما يسمعه من قرب يوم القيامة، وصوته ينفذ في ملائكته في السماء، وصوته سمعه موسى عليه السلام، ولهذا اعترف بعض حُذّاق الأشاعرة والمتكلمين وهو الآمدي في بعض كتبه بأن سماع موسى لكلام الله جل وعلا من الشجرة بأنه دليل لا يقبل التأويل، قال ''لأننا إذا قلنا إن كلام الله جل وعلا قديم فهل سمع موسى الكلام القديم؟ وإذا كان كلام الله جل وعلا قديما فقوله جل وعلا { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } [المجادلة:1] يكون الله جل وعلا يخبر عن نفسه أنه سمع كلام المجادلة قبل أن توجد المجادلة، وقبل أن يوجد ذلك الكلام؟ يقول: إنّه لا مفرَّ إما من إثبات صفة الكلام المسموع؛ حادث الآحاد، وإما أن يعتقد في الله الاعتقادات الباطلة. يعني من الإخبار بخلاف الواقع كما عليه مذاهب الفلاسفة, المقصود أنه اعترف بأنه لا مَحِيد من إثبات صفة الكلام فأهل السنة والجماعة يتميّزون بأنهم يثبتون صفة الكلام، وأن كلامه جل وعلا بصوت يُسمع، وأنه بحرف إذْ إنما يفهم العباد الحروف، وأنه ليس معنىً نفسيا قائما به جل وعلا يُلقى في رُوع جبريل فيأخذه جبريل ويعبر عنه، ولهذا يقول أولئك المبتدعة إن كلام الله جل وعلا معنىً واحد قائم بالنفس؛ إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنا، أو عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا، أو عبر عنه بالعبرانية كان توراة، فيجعلون كلام الله جل وعلا شيئا واحدا، ويجعلونه هو عين الأمر، وهو عين النهي، وهو عين الخبر، وهو عين بقية أنواع الكلام وهذا، والعياذ بالله فيه تنقص لله جل وعلا، والاعتقاد الحق ظاهر لما دلّ عليه الكتاب والسنة من مثل قوله تعالى { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى } [النساء:164] ثم أكّد بالمصدر الذي ينفي احتمال معنىً آخر غير التكليم فقال(تَكْلِيمًا)؛ يعني إذا كان (كلَّمَ) لها معنى آخر غير الكلام الذي يسمع فإنه رفع ذلك التوهم بقوله (تكليما)، ولهذا خُصَّ موسى عليه والسلام بهذه الخاصية؛ وهو أنه مُكَلَّم، وأنه كليم الرحمان يعني من كلَّمه الله جل وعلا بلا واسطة.

والكلام على أن القرآن كلام الله أخصّ من الكلام على صفة الكلام، فإن كلام الله جل وعلا وأنّه قديم عند بعض الطوائف، هذا أعم من أن يُقال إن القرآن النّازل هذا هو كلام الله جل وعلا، ولهذا فإننا نقول إن أهل السنة والجماعة اعتنوا بإثبات صفة الكلام لله جل وعلا في كلامهم على أنَّ القرآن كلام الله جل وعلا، إذْ إذا ثبت هذا الأخصّ الذي نُوزع فيه، فإنَّ إثبات صفة الكلام وأن كلامه جل وعلا بحروف وأصوات وأنه كلمات وحروف وجمل، فإنَّ هذا يَثْبُتُ بظهور، فإذا أثبت الأخص أثبت الأعم في هذا الباب من باب الأوضح والأظهر، فكلام الله جل وعلا الذي ألقاه إلى جبريل فسمعه جبريل منه، وأمره بتبليغه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –، وسَمَّى ذلك الكلام قرآنا، فنزل به جبريل على النبي – صلى الله عليه وسلم –، هذا هو القرآن، فالقرآن كلام الله؛ والقرآن بعض كلام الله جل وعلا؛ فكلام الله جل وعلا منه ما هو قرآن ومنه ما هو ليس بقرآن، فالله جل وعلا من كلامه الكلمات الكونية التي قال الله جل وعلا فيها { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف:109] ومعنى الكلمات هنا الكلمات الكونية.

والقرآن كلام الله جل وعلا الذي ألقاه إلى جبريل فبلَّغه جبريل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – كما سمعه، فإذن القرآن كلماته وآياته وحروفه وسوره هو مسموع لجبريل، من تَكَلُّمِ الله جل وعلا به بحرف وصوت، فهو حروف كما قال جل وعلا { ألم }, { حم عسق } [الشورى:1-2] إلى آخر الآيات التي فيها الأحرف المقطعة، وهذا يدل على أن جبريل سمعه على هذا النحو سمعه حروفا, وإذا كان سمعه حروفا فثبت أن الله جل وعلا تكلّم بحروف، إذْ جبريل عليه السلام يُقال إما أن يكون سمع كلاما عامّا ففصله بحروف، وهذا فيه نفي لصفة الكلام على النحو الذي أسلفنا إثباته، وإما أن يُقال إن جبريل عليه السلام سمعه هكذا على هذا النحو بالحروف، فيثبت ما يراد إثباته من أن الله جل وعلا يتكلم بكلام هو جمل وكلمات وحروف ويُسمع منه بصوت.

فمن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم، ولفظة (قديم) يرى بعض العلماء أنه لم يرد وصف الله بالقدم؛ لأن القديم في اللغة العربية هو المتقدم على غيره، والله ليس له غير حتى يقال: إنه متقدم عليه، ومن ثمَّ قالوا: إن الأولى وصفه تعالى بالأزلي، والأصح منه أيضًا الاسم

الشرعي (الأول الذي ليس قبله شيء) لكن ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في سنن أبي داود أنه قال: (من قال حين يدخل المسجد: أعوذ بالله العظيم وسلطانه القديم)، وهذا يدل على أن القديم قد يستعمل أحيانًا مرادفًا للأزلي.

وقوله: (إنه متكلم بكلام قديم)، أي: أزلي، وأهل السنة والجماعة يثبتون لله صفة الكلام على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لكنهم يقولون: إن كلامه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد؛ لأن الكلام من صفات الأفعال، أي أنه سبحانه يتكلم إذا شاء متى شاء، وهو سبحانه يتصف بصفة الكلام أزلًا، وهو سبحانه يتكلم بإرادته ومشيئته؛ ولهذا قال العلماء: هو قديم النوع حادث الآحاد، فقولهم: (قديم النوع) أي أن الله متصف بهذه الصفة في الأزل، وقولهم: (حادث الآحاد) أي أن الله يتكلم إذا شاء متى شاء.

بيان مذهب المعتزلة والأشاعرة في الكلام

وهذه الصفة أثبتها السلف رحمهم الله تعالى، وأثبتها الأشاعرة؛ لأنهم يثبتون سبع صفات ومنها صفة الكلام، لكن إثبات السلف رحمهم الله تعالى لها هو إثبات حقيقي، أما إثبات أولئك لها فهو مخالف لما دلت عليه النصوص.

وحتى نبين مذهب السلف في كلام الله فإننا نذكر قول المعتزلة وقول الأشاعرة؛ لأن هذه القضية هي التي بني عليها القول بخلق القرآن، **فعند المعتزلة** أن كلام الله تعالى هو شيء منفصل عنه، فهو مخلوق، فهم يقولون: إن الله لا تقوم به صفة الكلام، ولهذا قالوا: إن هذا الكلام وهذا القرآن من جنس مخلوقاته؛ فكما أنه خلق السماوات والسماوات منفصلة عنه، كذلك أيضًا تكلم بالقرآن والقرآن مخلوق منفصل عنه، ومن ثمَّ قالوا: القرآن مخلوق؛ لأنهم لا يثبتون لله صفة الكلام التي تقوم به سبحانه؛ هذا مذهب المعتزلة.

والأشاعرة في مقابل ذلك قالوا: نثبت لله صفة الكلام، لكن الكلام هو الكلام النفسي القائم بذاته، ولا ينفصل عنه.

إذًا: هما قولان متضادان، **فالمعتزلة يقولون**: لا تقوم به صفة الكلام، وكلامه من جنس مخلوقاته، فهو مخلوق منفصل عنه، **والأشاعرة يقولون**: الله تقوم به صفة الكلام، وكلامه لا ينفصل عنه، أي أن الله يتصف بصفة الكلام أزلًا، وأن كلامه قائم بذاته، وأن الكلام هو ما قام بالنفس فقط، ومن ثمَّ قالوا: إنه بغير حرف وبغير صوت، وعلى هذا فالكلام عندهم هو

الكلام الذي في داخل النفس، كما يقال: خواطر النفس، لكن ليس هناك كلام بحرف وصوت مسموع، فجعلوا هذا الوصف لله.

الرد على الأشاعرة في كلام الله

والحقيقة أن الكلام مع الأشاعرة المعاصرة ليس في الصفات وتأويلها كما كان الأشاعرة الأول ،ولكن الأشاعرة المعاصرة زادوا على تأويل الصفات بالتقرب إلى الأموات وأصحاب القبور والأولياء بأنواع القرب التي لا تكون إلا لله تعالى ، من دعاء الموتى والطلب منهم والذبح لهم والنذر لهم والطواف حول قبورهم والاستغاثة بهم والتوسل بهم وأخذهم وسائط إلى الله تعالى كما هو حال كفار قريش ،فيجب دعوة الأشاعرة والصوفية القبورية إلى توحيد الألوهية وصرف العبادات لله تعالى وحده لأن هذا هو أصل الإيمان هو التوحيد الذى لا عذر لمعرض فيه ،أما إثبات صفة الكلام لله تعالى فهى ثابتة بالعقل والنقل ،فلو قيل للأشعرية: إذا قلتم إن الكلام يقوم بالله لا ينفصل عنه، فهذا المصحف ماذا تقولون عنه؟ قالوا: هذا المصحف ليس كلام الله! وإنما هو عبارة عن كلام الله أو حكاية عن كلام الله، أي أنه نوع من الإلهام عبر عنه جبريل بهذا المصحف، بل بعضهم قال: عبر عنه محمد! ونحن نطعن في المستشرقين وغيرهم من المبشرين الذين يقولون: إن القرآن من محمد، بينما بعض هؤلاء المتكلمين من الأشاعرة يقول: القرآن كلام محمد عبر به عن كلام الله.

قيل لهم: هل هناك فرق بينكم وبين المعتزلة، فالمعتزلة يقولون هو مخلوق، وأنتم أيضًا تقولون إنه من كلام محمد؟ قالوا: نعم، القرآن العربي في جانب منه مخلوق، وهو كونه بهذه اللغة العربية، أو بالنسبة للتوراة باللغة العبرانية، أو الإنجيل باللغة السريانية، فهذه كلها مخلوقة لأنها ليست هي كلام الله، وإنما كلام الله هو القائم بذاته الذي لا ينفصل عنه، فقيل لهم: إذًا: ليس بينكم وبين المعتزلة فرق.

وأهل السنة والجماعة -وهم الوسط- وفقهم الله لسيرهم على المنهاج الحق بأن قالوا القول الحق في هذه المسألة؛ فقالوا: القرآن هو كلام الله تعالى تكلم به، والله يتكلم إذا شاء متى شاء، ومن كلامه القرآن، فيثبتون الكلام القائم بذاته، ويثبتون لله ما ورد الدليل على أنه كلام الله مثل القرآن؛ ولهذا فإن أهل السنة والجماعة يقولون: إن الله متصف بصفة الكلام أزلًا، وإنه كلم موسى في ذلك الوقت الذي وجد فيه موسى لما كان بجانب الطور.

والأشاعرة قيل لهم: ماذا تقولون في كلام الله لموسى؟ قالوا: كلمه بكلامه الأزلي القائم بذاته، قيل لهم: فلماذا موسى؟ قالوا: سمع كلام الله الأزلي القائم بذاته! وهذا الذي قالوه لا يعقل أبدًا، وهم إنما قالوا هذا لأنهم لا يثبتون أن الله يتكلم إذا شاء متى شاء، وعندهم أن كلام الله لا ينفصل عنه أبدًا، وإنما هو الكلام الأزلي.

ومن قول أهل السنة أن الله يتكلم، وكلامه تسمعه الملائكة ويبلغونه، ويكتب أحيانًا في الصحف، ويكتب في اللوح المحفوظ، وهذا القرآن هو كلام الله، وهو مكتوب في المصاحف؛ ولهذا فإن الكلام إنما هو لمن تكلم به مبتدئًا، فالقارئ للقرآن يتلو القرآن بصوت، لكن المقروء كلام الله تعالى، ولو جاء واحد -مثلًا- وقرأ علينا معلقة امرئ القيس، فهل نقول: هذا هو الذي قال معلقة امرئ القيس أو نقول: المعلقة للشاعر امرئ القيس، وهذا نقلها إلينا أو قرأها علينا أو نحو ذلك؟ فالكلام هو لمن قاله مبتدئًا، والله تكلم بالقرآن، وهذا القرآن نقله جبريل وتلقاه محمد ﷺ، وتلقاه الصحابة وكتبوه، فهو كلام الله.

إذًا: القضية هنا هي إثبات صفة الكلام لله، وأن الله متصف بصفة الكلام أزلًا، وأنه يتكلم إذا شاء متى شاء، فكلم آدم في وقت خلق آدم، وكلم موسى في وقت وجوده، وكلم محمدًا في وقت وجود محمد ليلة المعراج، ويكلم أهل الجنة يوم القيامة حينما يدخلون الجنة، فالآن لو فرضنا أن ثلاثة أشخاص: الأول منهم أخرس لا يتكلم، والثاني: يهذي ليلًا ونهارًا لا يكل، والثالث: عنده قدرة على الكلام لكن يتكلم إذا شاء متى شاء، فأي الثلاثة أكمل؟ فالأول الأخرس وقد نتفق على أنه متصف بصفة نقص؛ لأنه لا يتكلم، لكن إذا جاءنا واحد وقال: هذا المهذار الذي يتكلم ليلا نهارًا أحسن من ذلك الذي يتكلم مرة ويسكت، فنقول: لا، فإنه لا شك أن الأكمل هو الذي يتكلم إذا شاء، هذا بالنسبة للمخلوق، ولله المثل الأعلى.

وقد دلت النصوص المتكاثرة على أن الله متصف بصفة الكلام، وأنه يتكلم إذا شاء متى شاء، وأن من كماله أنه كلم موسى في هذا الوقت الذي كان فيه موسى بجانب الطور، كلامًا سمعه موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، أما القول بأنه لا يتكلم فهذه صفة نقص، والقول بأنه لا يتكلم بمشيئته وإرادته هذه أيضًا صفة نقص، والله منزه عن

النقائص، ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم النوع حادث الآحاد، يسمعه منه من شاء من خلقه، فإذا أراد الله كلم عباده فيسمعهم كلامه.

بيان أن كلام الله يسمع

ثم مثل المصنف بقوله: [سمعه موسى منه من غير واسطة] .

وهذا دل عليه نص القرآن العظيم، في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] وجاءت الآية بصفة التأكيد، وبعض أهل البدع أراد أن يجد قارئًا يقرأ بنصب لفظ الجلالة، أي: (وكلم اللهَ موسى)؛ حتى يثبت أن موسى هو فاعل الكلام، يريد بهذا أن ينفي عن الله صفة الكلام، فقال له إمام من أئمة القراء من أهل السنة: هب أننا قرأنا بنصب لفظ الجلالة، فماذا سنصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ فبهت المبتدع، لأنه ليس هناك خيار إلا أن يحذف الآية، أو يقول: فيها تقديم وتأخير، أما أن يأتي بضمة بدل فتحة أو نحو ذلك ويحل بها المشكلة، فهذه الآية لا تحتمل ذلك.

ثم قال: [وسمعه جبريل ، ومن أذن لهم من ملائكته ورسله] .

وهذا أيضًا ثبت في الأحاديث الصحيحة، ومنها ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ وفيه: (ولكن ربنا إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم يسبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم)، فهذا يدل على أن جبريل والملائكة يسمعون كلام الله.

إذًا: هو سبحانه يتكلم بكلام مسموع، وأيضًا رسل الله سمعوا كلامه، كما في قصة موسى، وكما في قصة محمد ﷺ، فإن الله كلمه كفاحًا ليلة المعراج، كما في الصحيحين وغيرهما.

إثبات تكليم الله للمؤمنين في الآخرة

ثم قال: [وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه] .

وهذا أيضًا ورد فيه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ، منها: (يقول الله تعالى لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك وسعديك) إلى آخر الحديث، فهذا نص على أن الله يخاطب أهل الجنة، ويكلمهم ويكلمونه، وهذه أحاديث صحيحة صريحة دالة دلالة قاطعة على ما ذكرناه.

ثم قال: [ويأذن لهم فيزورونه] .

ورد في حديث عن النبي ﷺ أنه قال: (إن أهل الجنة إذا دخلوا فيها نزلوا بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم)، رواه الترمذي وابن ماجة، لكنه حديث ضعيف، إنما الثابت: أن إن الله يكلم أهل الجنة ويكلمونه، وهذا ورد في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ.

أدلة إثبات صفة الكلام لله جل وعلا من القرآن

ثم ذكر المصنف الأدلة على ذلك فقال: [قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]] .

وقوله: (تكليمًا) مصدر مؤكد أن هذا التكليم حقيقي.

ثم قال: [وقال سبحانه: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف:١٤٤]] .

هذا يدل على أن الله كلمه بكلام مفهوم سمعه: أني اصطفيتك واخترتك على الناس برسالاتي وبكلامي.

وهذا يدل على أمرين: الأمر الأول: أن الله كلمه بذلك وقال له: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ [الأعراف:١٤٤] .

الأمر الثاني: أن الله اصطفاه برسالته، واصطفاه بكلامه، ولهذا سمي موسى كليم الله.

وقد ذكرنا أن العلم عند الله في سبب تسمية موسى كليم الله، مع أن الله كلم محمدًا، وكلم آدم، لكن الله كلم موسى على الأرض، وهو على طبيعته البشرية، بخلاف تكليم الله لآدم فإنه كان وهو في السماء، وتكليم الله لمحمد كان عند أن عرج بروحه وجسده إلى السماء، أما تكليمه لموسى فكان وهو على الأرض، ولعل هذه خصوصية لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

ثم قال: [وقال سبحانه: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣] .

يعني: الرسل، فهذه الآية هي عن رسل الله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وهذا واضح.

ثم قال: [وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]] .

قوله: (إِلَّا وَحْيًا) المقصود به في هذه الآية كلام الله مباشرة؛ لأنه قال: ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى:٥١]، ثم قال بعد ذلك ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٥١]، فهذه التقسيمات الثلاثة تدل على أن قوله: «إِلَّا وَحْيًا» هو تكليم الله لعبده مباشرة.

ثم قال: [وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:١١-١٢] .

قوله: «فَلَمَّا أَتَاهَا»، أي النار (نُودِيَ)، والنداء لا يمكن أن يكون إلا بصوت، والذي ناداه وكلمه هو الله ، وهذه الآية نص صريح في إثبات كلام الله لموسى، وأن كلامه له بصوت سمعه موسى.

ثم قال: [وقال سبحانه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤] وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله.

أي: من تكليم الله لموسى أنه قال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه:١٢]، وأيضًا من تكليم الله له أنه قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤] .

وبعض الذين تأولوا صفة الكلام لله يقول: إن الذي كلم موسى ملك، أو إن الشجرة هي التي سمع منها الكلام، وهذا التأويل باطل، ودليل بطلانه أنه لا يمكن أن تقول الشجرة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤]، أو يقول الملك: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤]، ولو كان كلام الملك أو الشجر لقال: إنه هو الله فاعبده، أو إن ربك الله فاعبده، لكن أن يقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤] فهذا نص صريح على أن هذا كلام الله جل وعلا، وقد ذكر هذا الدليل ابن قدامة نفسه في قوله: (وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله) .

وصفة الكلام فيها مسائل

المسألة الأولى:هذه الصفة من الصفات التي دار حولها العراك والجدال بين أهل السنة والمبتدعة، ولذلك المصنف أطال فيها الكلام، وأطال فيها الأدلة عن القرآن والسنة.

المسألة الثانية: مذهب أهل السنة والجماعة في صفة الكلام:

أهل السنة والجماعة يثبتون الكلام لله تعالى، وهو من صفات الله وهي صفة قديمة النوع حادثة الآحاد ولذا قال المصنف (متكلم بكلام قديم) أي قديم باعتبار النوع، متعلق بالمشيئة باعتبار الآحاد، متى شاء تكلم ومتى شاء لم يتكلم، وأن الله يتكلم بكلام مسموع، ولذا قال المصنف يسمعه منهم من شاء من خلقه سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله.

المسألة الثالثة: مذهب أهل الكلام:

١ – **مذهب الكرامية**: وهم يثبتون الكلام لله، وأنه كلام مسموع كأهل السنة ويقولون إن كلام الله يتعلق بالمشيئة وهو ليس أزلي ويعبرون عنه إنه حادث النوع والآحاد وهذه عبارتهم ومعنى هذه العبارة أنه يتعلق بالمشيئة من حيث النوع والآحاد

٢ – **مذهب الكلابية**: وهم يثبتون الكلام لله وأنه صفة من صفات الله لكنه كلام نفسي أي في نفس الله ليس له صوت ولا يسمع منه، وقالوا: إنما يسمع من كلام الله النفسي هو حكاية عن كلام الله ويقولون أن الكلام قديم النوع والآحاد.

٣ – **مذهب الأشاعرة**: وهو نفس كلام الكلابية تماماً سواء بسواء إلا أنهم يقولون الذي يُسمع من كلام الله هو عبارة عن كلام الله.

الأشاعرة لا ينفون صفة الكلام، بل يثبتون لله صفة الكلام، وإنما وقعوا في الخطأ من جهة فهمهم للكلام حين خصصوه بالكلام النفسي، أما المعتزلة فهم الذين نفوا صفة الكلام عن الله ، ونفيهم لهذه الصفات –ومنها صفة الكلام– إنما كان بسبب شبه عقلية، وإلا فالنقل يرد عليهم من أوله إلى آخره، ومن شبههم العقلية: الخوف من تشبيه الله بخلقه، والخوف من تعدد القدماء؛ لأنه إذا قيل إن الله متصف بصفة الكلام وغيرها من الصفات ظنوا أنه يستلزم التشبيه.

٤ - **مذهب المعطلة من الجهمية والمعتزلة:** وهو نفي الكلام عن الله، فلا يتكلم، وليس الكلام صفة له، وما يُنسب إلى الله من كلام إذا جاء في القرآن أو السنة فمعناه أن الله خالق الكلام، قالوا مثل ما يقال إن الله يخلق الرزق فكذلك يخلق الكلام، واستدل المصنف بست آيات لإثبات الكلام واستدل بحديثين وببعض الآثار.

قوله: **(ومن كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف وكلمات.**

من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، له أول وآخر، وأجزاء وأبعاض، متلو بالألسنة، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد} وقوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً} وهو هذا الكتاب العربي الذي قال فيه الذين كفروا {لن نؤمن بهذا القرآن} وقال بعضهم: {إن هذا إلا قول البشر} فقال الله سبحانه وتعالى: {سأصليه سقر} وقال بعضهم: هو شعر، فقال الله تعالى: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} فلما نفى الله عنه أنه شعر، وأثبته قرآناً، لم يبق شبهة لذي لب في أن القرآن هو هذا الكتاب العربي الذي هو كلمات، وحروف وآيات، لأن ما ليس كذلك لا يقول أحد: إنه شعر، وقال عز وجل: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله} ولا يجوز أن يتحداهم بالإتيان بمثل ما لا يدري ما هو، ولا يعقل، وقال تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي}، فأثبت أن القرآن هو الآيات التي تتلى عليهم. وقال تعالى: {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم} ، وقال تعالى: {إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون}. بعد أن أقسم على ذلك، وقال تعالى: {كهيعص}. {حم عسق} وافتتح تسعاً وعشرين سورة بالحروف المقطعة.

وقال النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم –: " من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف منه عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه، فله بكل حرف حسنة "، حديث صحيح وقال عليه الصلاة والسلام: " اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمون حروفه إقامة السهم لا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه "

وقال أبو بكر وعمر – رضي اللَّه عنهما –: " إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه ".

وقال علي – رضي اللَّه عنه –: " من كفر بحرف فقد كفر به كله، واتفق المسلمون على عد سور القرآن، وآياته وكلماته، وحروفه. ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة، أو آية، أو كلمة، أو حرفاً متفقاً عليه، أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف).

المصنف رحمه الله تكلم في هذا المقطع عن مسألة وهي القرآن هل هو من كلام اللَّه أو ليس من كلامه؟

وهذا امتداد لصفة الكلام لله عز وجل إلا أن المصنف أفرد القرآن بفصل مستقل مع أنه من كلام اللَّه، والسبب في ذلك لأن المعطلة في زمانه ينكرون أن القرآن كلام اللَّه، بل إن هذا مُطْبق عليه عند جميع المعطلة، ومن ثم أكثر فيه المصنف من ذكر الأدلة من الآيات والأحاديث. وقد صنف الموفق رحمه الله رسالة ماتعة نافعة في القرأن سماها (رسالة في القرآن وكلام الله) وهى فتوى رد فيها على الفرق الضالة قولهم في القرآن .

المسألة الثانية:

١ – مذهب أهل السنة في القرآن:

أهل السنة بالإجماع يقولون: إن القرآن كلام اللَّه منزّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

٢ – مذهب المعطلة من الجهمية والمعتزلة والماتريدية والأشاعرة:

يقولون: إن القرآن كلام اللَّه لكنه مخلوق.

٣ – مذهب الواقفية: وهم الذين يقولون أن القرآن كلام اللَّه، ثم يقفون ولا يقولون مخلوق أو غير مخلوق، ويوقفون على ذلك.

٤ – **اللفظية**: وهم الذين يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو لفظي بالقرآن مخلوق، وهؤلاء قسم من الجهمية ويقصدون بقولهم ألفاظنا مخلوقة يقصدون باللفظ الملفوظ أي القرآن ويقصدون باللفظ كلمات اللافظ أو المتكلم وهذه الطائفة نشأت في عصر المتوكل، لما انهزم الجهمية وانكسروا بعدما كانوا أعزة في عصر المأمون والواثق والمعتصم، فلما جاء المتوكل وبدأ يحارب الجهمية فبدأوا يتسترون بهذا القول، فبدل أن يقول القرآن مخلوق كما كانوا يصرحون في وقت عزتهم استبدلوها بعبارة لا تثير الناس وهي عبارة ملبسة وتحتمل حقاً وباطلاً، فقالوا ألفاظنا مخلوقة ويريدون بذلك القرآن وهؤلاء اكتشفهم الإمام أحمد ومن معه ولذلك كفروهم، وقالوا إنهم جهمية.

مسألة: جاء عن بعض السلف أنه يقول: أفعال العباد مخلوقة واللفظ جزء من أفعال العباد ويقصد باللفظ التلفظ أي أن أصواتنا وكلامنا نحن مخلوقة، وأما الملفوظ الذي هو القرآن فليس بمخلوق، ومن السلف من قال: أفعال العباد مخلوقة، لما سئل عن مسألة اللفظ، وهذا كلام قاله الإمام البخاري والإمام ابن قتيبة وابن تيمية فيما بعد، وألّف فيه ابن قتيبة رسالة بعنوان اختلاف اللفظ، وانتصر لهذا القول، وحصلت للبخاري بسبب هذه العبارات مشكلة ووقع في صراع مع بعض أهل السنة في قصة معروفة وجاء ابن تيمية وصوب قول البخاري، وانتصر له، وقال: إن لفظي بالقرآن مخلوق إن أراد التلفظ فهو مخلوق وإن أراد الملفوظ وهو القرآن فهذا هو قول الجهمية ،وقد فصلنا ذلك في شرح السنة ولله الحمد.

المسألة:كلمة **منزل غير مخلوق،** هذه العبارة كثير ما يقولها السلف ودائماً يجعلونها بعد قولهم القرآن كلام الله يقولون منزل غير مخلوق، وقولها واجب لأن تركها يثير شبه ممن لم يذكرها لاحتمال أن هذا المتكلم يرى أن القرآن مخلوق لذا فيجب إضافتها.

وكذا عبارة: **منه بدأ**، يجب إضافتها، ومعنى منه: من هنا ابتدائية أي أن الكلام صدر من الله وتكلم الله به، وأما أهل البدع فإنهم يقولون من اللوح المحفوظ بدأ أو يقولون من جبريل بدأ أو من محمد بدأ، فيرون أن العبارات مخلوقة جاء بها جبريل أو الرسول، أو خلقت في اللوح المحفوظ وأخذها جبريل، وأما كلمة: **وإليه يعود** فإظافتها من باب الاستحباب، وكلمة إليه: الضمير يعود إلى القرآن والسلف يفسرون العود إلى الله بتفسيرين:

١ – أن القرآن صدر من الله كما تقول منه وإليه فيكون وإليه يعود تأكيداً لكلمة منه بدأ.

٢ – إليه يعود، أي: يرفع فإنه جاء في الآثار أن القرآن في آخر الأيام يرفع من الصدور إلى الله.

ثم تكلم المصنف عن اعتقاد أهل السنة في القرآن، وكلها تأكيدات يقصد بها الرد على أهل البدع، فمنها قوله: إن القرآن له أول وآخر وأجزاء وأبعاض وأنه متلو بالألسنة محفوظ بالصدور مسموع بالآذان، إلخ كلامه رحمه الله.

ثم استعرض الأدلة فبدأ بالأدلة من القرآن لإثبات أن القرآن كلام الله ثم الأدلة من السنة، وختم حديثه ببيان حكم من أنكر القرآن فقال نقلاً عن علي بن أبي طالب من كفر بحرف منه فقد كفر به كله، وقال: ولا خلاف بين المسلمين في أن **من جحد** من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفاً متفق عليه أنه كافر.

قوله في هذا الحديث: (**إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء**)، هذا يدل على إثبات كلام الله، وإثبات أن كلام الله مسموع، وهذا يرد على من قال بالكلام النفسي، أو إن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، بل الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم، وكلامه مسموع، وأن أهل السماء يسمعون صوته وكلامه، وكذلك أيضًا لما كلم موسى وكلم محمدًا وكلم آدم سمعوا ذلك.ثم قال: (روي ذلك عن النبي ﷺ .كأن المصنف هنا أشار إلى المرفوع وإلى الموقوف.

نداء الله لأهل المحشر بصوت يسمعونه

ثم قال: [وروى عبد الله بن أنيس عن النبي ﷺ أنه قال: (يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلًا بهمًا)] .

عبد الله بن أنيس الجهني المدني المتوفى سنة أربع وخمسين هجرية رحمه الله تعالى، أحد الصحابة المعروفين المشهورين.

قوله: (يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة)، أي: ليس عليهم كساء ولا لباس ولا غطاء، (حفاة) أي: غير منتعلين، (غرلًا) أي: غير مختونين، (بهمًا) أي: طليقي الأيدي لا يحملون معهم أي شيء؛ وهذا لبيان أن الناس يبعثون من قبورهم ويحشرون إلى ربهم وهم على هذه الحالة، كما في حديث أمنا عائشة رضى الله عنها وأرضاها حين قالت للرسول صلى الله

عليه وسلم : يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فبين لها النبي ﷺ أن الأمر أكبر وأعظم وأشد من أن يهتموا بهذا الأمر؛ لأن الأمر خطير جدًا.

[(فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان)، رواه الأئمة، واستشهد به البخاري] .

الشاهد من هذا: قوله: (**فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب**)، والنداء كما نعلم جميعًا لا يمكن أن يكون إلا بصوت، وهذا فيه إثبات أن الله تعالى يتكلم، وأنه سبحانه إذا نادى الخلائق يوم القيامة يناديهم بصوت يسمعونه جميعًا، وهذا الحديث ذكره البخاري أيضًا تعليقًا ورواه الإمام أحمد وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، وهو المشهور، وهو الوارد في قصة رحلة جابر بن عبد الله رضى الله عنه وأرضاه حين التقى بـ عبد الله بن أنيس في مصر حين رحل إليه شهرًا كاملًا؛ ولهذا ذكره البخاري في كتاب العلم في الباب الذي عقده في مسألة الرحلة في طلب الحديث، لكنه رحمه الله تعالى ذكره معلقًا.

وهذا الحديث رواه البيهقي، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وهو حديث صحيح، ومن ثَمَّ فإن الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى لما تعرض لمسألة إثبات صفة الكلام لله وأنه بصوت، نقل كلام بعض الأشاعرة وتأويلهم للأحاديث الواردة في ذلك، وتضعيفهم لهذه الرواية، وقولهم: إن كلامه تعالى ليس بصوت، فبعد أن نقل كلامهم علق عليه بقوله: والحديث إذا ورد بالطرق الصحيحة فإنه يؤخذ به.

وكأنه يقول: ما دام إثبات الصوت لله تعالى ثبت في الأحاديث الصحيحة فلا داعي للمماحكة؛ لأنه ورد بأسانيد صحيحة، وكأن ابن حجر رحمه الله تعالى إنما يرد على أولئك الذين ضعفوا هذه الرواية بناءً على مذهبهم في إثبات الكلام النفسي لله، وأن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا صوت، فبناء عليه بحثوا عن الحديث فوجدوا أن البخاري رواه معلقًا، فضعفوا هذه الرواية لهذا السبب، فـ ابن حجر المحدث غلب عليه رحمه الله تعالى هنا جانب الحديث، فرد على أولئك وقال لهم: لا تتعرضوا لتضعيفه من أجل ذلك المعنى الكلامي الذي تريدونه، بل إذا ثبت أمر في الأحاديث الصحيحة فيجب أن تقولوا به، ثم بعد ذلك ابحثوا له عن التأويل، لكن لا تضعفوه وتردوا الحديث؛ لأجل أنه خالف ما عندكم.

ومنطق ابن حجر هذا عظيم جدًا، مع أنه رحمه الله تعالى من المائلين إلى مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، إلا أنه هنا وقف وقفة الإمام المحدث، وهذا هو الصحيح، ولهذا فإن هذه الرواية صحيحة، ولا كلام فيها، وحتى لو فرض أن البخاري رحمه الله تعالى علق مثل هذه الرواية فإنه لا يطعن فيها؛ لأنها رويت عند غيره بأسانيد صحيحة، بل إن إثبات أن كلام الله بصوت وارد بأدلة كثيرة جدًا، ولا يمكن أن يقول قائل: إن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا صوت، ومن قال ذلك فإنه قال ما لا يعقل.

نداء الله لموسى عند تكليمه بصوت يسمعه

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى قال: **[وفي بعض الآثار أن موسى عليه السلام ليلة رأى النار فهالته، ففزع منها، فناداه ربه: يا موسى! فأجاب سريعًا استئناسًا بالصوت.**

فقال: لبيك لبيك ولبيك، أسمع صوتك، ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك، وأمامك، وعن يمينك، وعن شمالك.

فعلم أن هذه الصفة لا تنبغي إلا لله تعالى، قال: كذلك أنت يا إلهي، أفكلامك أسمع أم كلام رسولك؟ قال: بل كلامي يا موسى] .

هذا الأثر إسرائيلي ضعيف لا يؤخذ به، رواه وهب بن منبه ووهب بن منبه معروف بالروايات الإسرائيلية، لهذا فإن هذا المقطع من قصة موسى أورده السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) في تفسير سورة (طه) الآية العاشرة، حيث ذكر أثرًا طويلًا جدًا بلغ صفحات، وذكر منه هذا، وقال السيوطي: أخرجه أحمد في (الزهد) وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه.

فإذًا: هذا الأثر رواه وهب بن منبه، فهو أثر إسرائيلي، وعلى هذا فلا يعتد به، لهذا فالأولى بمثل هذا الأثر أن يطرح ولا يؤخذ به، والقضية التي أشار إليها ابن قدامة رحمه الله تعالى قد وردت لها أدلة أخرى في الأحاديث الصحيحة، فمثل هذه الآثار الإسرائيلية لا يؤخذ بها، بل إنني أرى أن متنها فيه نكارة؛ لأنه قال: فأين أنت، قال: (أنا فوقك، وأمامك، وعن يمينك، وعن شمالك) إلى آخره، وهذا الكلام كلام غير صحيح وغير دقيق لهذا، فما سبق أن ذكرناه كافٍ في بيان ضعف هذه الرواية، وأنها رواية إسرائيلية.

بيان أن القرآن الكريم من كلام الله

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى انتقل من الحديث عن إثبات كلام الله إلى قضية أخرى متعلقة بكلام الله تعالى، ألا وهي القرآن العظيم الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ، فقال: **[فصل: ومن كلام الله سبحانه القرآن العظيم]** .

تكلم الله بالتوراة وبالإنجيل وبالزبور، وكلم أنبياءه، ومن كلامه أيضًا القرآن العظيم.

ثم قال عن القرآن: [وهو كتاب الله المبين] .

ولا شك أنه كتاب الله الذي أبان الله به المحجة، فهو مبين مفصل محكم، كما أخبرنا الله في آيات كثيرة بأنه هدىً ونور وفرقان، ولا يكون هدىً ونورًا وفرقانًا وضياءً إلا إذا كان بين الدلالة واضحًا؛ يقرؤه الجميع فيتعظون به، ويفهمونه على مختلف مستوياتهم؛ فلا يمكن أن يقول قائل: أنا أقرأ القرآن من أوله إلى آخره ولا أفهم منه شيئًا؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] .

فالقرآن فيه أحكام وفيه مسائل وفيه قضايا لا يعلمها إلا الراسخون في العلم، لكن فيه مواعظ يفهمها الجميع، حتى المرأة وحتى الصغير وحتى العامي، وهذا من نعم الله على عباده.

ثم قال: **[وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين]** .

ولا شك أن من اعتصم بالقرآن واستمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى، واستمسك بهذا الدين القويم؛ فهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وهذا واضح المعنى.

وقوله: (وتنزيل رب العالمين) هذا كما ورد في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:١]، وغيرها من الآيات.

نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على النبي ﷺ

ثم قال المصنف: **[نزل به الروح الأمين]** .

الروح: هو جبريل عليه السلام، والأمين: وصف لجبريل؛ لأنه كان أمين وحي الله تعالى، ولا شك أنه أمين؛ فإن الله تعالى استأمنه على الوحي الذي أوحاه إلى رسله عليهم الصلاة والسلام.

قال: **[نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين]** .

وهو محمد بن عبد الله ﷺ، كما ورد في الآيات الكريمات، أنزله الله على قلب محمد ﷺ، وإنما ذكر القلب هنا؛ لأن القلب هو الذي يعي؛ ولأن النبي ﷺ كان يأتيه الوحي فيأخذه غشيان عظيم يشبه الغيبوبة، فيفصم عنه، فإذا به صلى الله عليه وسلم قد وعى كل ما أوحى إليه به جبريل عليه السلام

والوحي كان ينزل على النبي ﷺ على صور متعددة، لكن هذا هو الأكثر والأغلب، ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم إذا نزل بالنبي ﷺ الوحي يسترونه، فيضعون عليه أحيانًا لفافًا، وأحيانًا يضعون عليه رداءً؛ لأن الوحي يشتد عليه، ولهذا لما نزل قول الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٩٥]، نزلت هذه الآية وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، قال: (وكانت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، فكادت فخذي أن ترض)، وهذا من شدة ثقل الوحي.

وأحيانًا كان الوحي ينزل على الرسول ﷺ وهو على ناقة فتبرك الناقة، وأحيانًا تضع رقبتها على الأرض وتحكها في التراب حكًا لشدة ثقل الوحي، والله سماه ثقيلًا فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، فكان ثقيلًا حتى في تنزله.

وأول مرة نزل الوحي على النبي ﷺ غطه الملك غطة شديدة؛ حتى ظنه صلى الله عليه وسلم الموت.

فكان الوحي ينزل على قلب محمد ﷺ، لكن بعد أن ينتهي الوحي ويفصم عنه يكون ﷺ قد وعى جميع ما قال.

ثم قال المصنف رحمه الله: [على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين] .

وهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم وسيد الأولين والآخرين.

وقوله: (بلسان عربي مبين) هذا واضح جدًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] .

فالله تعالى جعل هذا القرآن العظيم بلسان محمد وقومه الذي هو العربية.

بيان أن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود

ثم قال: **[منزل غير مخلوق]** .

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن منزل؛ لأه كلام الله، وأنه غير مخلوق، لا كما يقول المعتزلة كما بينا سابقًا.

ثم قال: **[منه بدأ وإليه يعود]** .

أي: أن هذا القرآن بدأ من الله تعالى؛ لأن الله هو الذي تكلم به، والكلام ينسب إلى من بدأ به متكلمًا.

وقوله: **(وإليه يعود)**، أي: إلى الله تعالى يعود ويرجع هذا القرآن في آخر الزمان، كما ورد في ذلك عدد من الأحاديث والآثار الصحيحة عن النبي ﷺ وعن عدد من الصحابة، منهم عبد الله بن مسعود وأبو هريرة، وهذا أيضًا مما لا يقال بالرأي، فيكون له حكم الرفع.

فقد ورد في ذلك ما يدل على أن هذا المصحف أو هذا القرآن يرفع في آخر الزمان من صدور الرجال، ويرفع من الكتب، ويرفع من المصاحف، فيعود إلى الله تعالى، وقد ورد في ذلك حديث صحيح رواه الحاكم وصححه، ورواه ابن ماجة في سننه، وهو أيضًا حديث صحيح، عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب)، ومعنى (يدرس): ينقرض، يعني: ينقرض الإسلام شيئًا فشيئًا، والوشي هو النقوش التي على الثوب، فإذا كان الثوب ملونًا وعليه نقوش وزهور فإنها مع قدم الزمن تبدأ تنمحي، فشبه رسول الله ﷺ اندراس الإسلام باندراس هذه النقوش التي على الثوب.

قال ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب؛ حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله تعالى في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه حرف)، ومعنى (يسرى): أنه يأتي يوم على كتاب الله تعالى فيمحى ويزال من صدور الرجال ومن الأوراق، حتى لا يبقى منه آية، ويرفع إلى السماء، وهذا هو الشاهد هنا: أنه إليه يعود.

يقول في بقية الحديث: (وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها)، هكذا رواه ابن ماجة، وفي رواية الحاكم: قال: صلة بن زفر لـ حذيفة: (ما تغني عنهم لا إله إلا الله؛ وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه، ثم ردها عليه ثلاثًا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة، تنجيهم من النار، ثلاثًا)، قال: الحاكم صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات،

إذًا: الشاهد هنا: أنه يسرى على هذا الكتاب ولا يبقى منه آية في الأرض، وهذا معناه عودته إلى الله سبحانه.

ترتيب سور وآيات القرآن الكريم

ثم قال: **[وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف وكلمات]** .

القرآن كما هو معلوم سور، وأما تقسيم السور وترتيب الآيات فهو توقيفي لم يكن عن اجتهاد الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم، وإنما كان بأمر الرسول ﷺ، إنما اختلف العلماء في مسألة ترتيب السور في المصحف، هل هو ترتيب اجتهادي من عند الصحابة أم أن الأمر موقوف على رسول الله ﷺ؟ والذي يترجح –والعلم عند الله تعالى– أن ترتيبها أيضًا ليس عن اجتهاد من الصحابة، وإنما هو عن أمر الرسول ﷺ، وأن الرسول ﷺ أمر الصحابة أن يقرءوا القرآن على العرضة الأخيرة التي عرضها عليه جبريل، فإن جبريل في رمضان الأخير الذي انتقل الرسول ﷺ بعده إلى الرفيق الأعلى دارس النبي ﷺ بالقرآن مرتين، فلابد أن يكون الرسول ﷺ قد بلغ أولئك الصحابة تلك العرضة الأخيرة، ومنها ترتيب سور القرآن،كما سيأتى ذلك معنا مفصلاً في دورة مباحث في علوم القرأن باذن الله تعالى .

وقوله: (**وهو سور محكمات**)، لا شك أن القرآن كله محكم كما بينا.

وقوله: (**وآيات بينات**) أي: واضحة الدلالات.

وقوله: (**وحروف وكلمات**) لا شك أيضًا أن القرآن حروف وكلمات، ومن قال: إن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت فإنه مخطئ، بل كلام الله حروف، والقرآن حروف، وسيأتينا الأدلة الكثيرة التي تدل على أن هذا القرآن العظيم حروف، وأما أولئك الذين قالوا: إن الله يتكلم بغير حرف ولا صوت، أنكروا الأدلة الظاهرة، فما أوصلهم إلى مثل هذا إلا اعتقادهم الفاسد أن كلام الله إنما هو الكلام النفسي القائم بذاته.

أجر قراءة القرآن

ثم قال: **[من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات]** .

لم يذكر المصنف أن هذا حديث مرفوع أو مروي، وقد ورد حديث عن النبي ﷺ رواه الطبراني وفيه: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (أعربوا القرآن؛ فإن من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، وكفارة عشر سيئات، ورفع عشر درجات)، وهذا الحديث ضعيف، لكن ورد عن النبي ﷺ في مضاعفة الحسنات حديث صحيح رواه الترمذي، وفيه أيضًا: عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول(آلم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)، وهذا الحديث الصحيح يغني عن حديث: (من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات) .

وقوله: **(أعربه)** المقصود به أنه تلاه تلاوة صحيحة لم يلحن فيها.

القرآن الكريم له أول وآخر وأجزاء وأبعاض

قال ابن قدامة رحمه الله : **[له أول وآخر]** أي: أن القرآن له أول وله آخر، ونقول: إنه مفتتح بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ومختتم بقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦] .

ثم قال: **[وأجزاء وأبعاض]** .نقول: القرآن ثلاثون جزءًا، كما نقول: معك جزء من القرآن، ويقول القائل: معي بعض القرآن، أو معي سور منه، أو معي سورة كذا، وهذا كله واضح، فهذا القرآن العظيم تكلم الله به بمشيئته وإرادته ،وفي قوله (أجزاء وأبعاض) رد على من يزعم أن كلام الله تعالى واحد؛ لأن الأشعرية يقولون: كلام الله واحد لا يتبعض ولا يتجزأ، وإن القرآن والتوراة والإنجيل واحد، لكن لما عبر عنه بالعربية صار قرآنًا، وبالعبرية صار توراة، وبالسريانية صار إنجيلًا، وهذا خطأ؛ لأن القول بأن كلام الله واحد لا يتبعض غير صحيح، ولهذا قال لهم العلماء: إذا قلتم إن كلام الله واحد، فموسى لما سمع كلام الله هل سمع كلام الله كله أو بعضه؟ فإن قلتم: بعضه، نقضتم قولكم، وإن قلتم: كله، كان قولكم باطلًا؛ لأنه لا يعقل أن يكون موسى سمع كلام الله كله؛ لأن كلام الله تعالى لا يتناهى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ

اللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، ولا مفهوم للعدد هنا، فلو جاء سبعة وسبعة وسبعة ما نفدت كلمات الله.إذًا: الصحيح: أن موسى سمع ما كلمه الله به

القرآن كلام الله كيفما تصرف

قال المصنف رحمه الله : **[متلو بالألسنة، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان]** .

فالمتلو بالألسنة هو كلام الله، لكن الألسنة التي تلت والصوت الذي تلي به ينسب للمخلوق.فالكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري، ولهذا قال: (محفوظ في الصدور)، فإذا قيل: فلان حافظ لكتاب الله تعالى، فهذا المحفوظ هو كلام الله القرآن، لكن صدره وما في صدره من قلب وما في رأسه من دماغ وغير ذلك هذا كله مخلوق، لكن كلام الله تعالى غير مخلوق.فإذا كتب هذا المصحف على الأوراق فهذا المكتوب هو كلام الله.

إذًا: هو أينما تصرف وكيفما تصرف فهو كلام الله، أما صوت القارئ، وأما صدر الحافظ، وأما أذن السامع، وأما المداد والحبر، وأما الورق المكتوب به فهذه كلها مخلوقة.

من القرآن محكم ومتشابه وعام وخاص وناسخ ومنسوخ

ثم قال: **[فيه محكم ومتشابه]** .

سبق أن ذكرنا المحكم والمتشابه، وذكرنا أن القرآن فيه ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] .

وسبق أن بينا أن القرآن كله محكم الإحكام العام، وكله متشابه، أي: يشبه بعضه بعضًا، وفيه آيات محكمات ومتشابهات، وقلنا: إن التشابه أمر نسبي، بمعنى: أنه قد يشتبه على بعض الناس، لكن قد لا يشتبه على الآخرين، وقد سبق أن وضحنا هذه القضية.

ثم قال: **[وناسخ ومنسوخ]** .

قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] .

والمنسوخ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما نسخت تلاوته وأحكامه.

القسم الثاني: ما نسخت تلاوته وبقي حكمه.

القسم الثالث: ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته.

وتحصيل هذا في كتب علوم القرآن.

ثم قال: **[وخاص وعام]** .

أي: أن فيه آيات خاصة بالنبي، وفيه آيات خاصة بالقضية الفلانية، وفيه آيات تأتي للعموم، وهذا واضح جدًا.

ثم قال: **[وأمر ونهي]** .أي: أوامر ونواهٍ، وهذا أيضًا مشاهد.

حفظ الله للقرآن وإعجازه وبلاغته

ثم أخذ المصنف يستدل لذلك بالآيات فقال: [﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]] .أي: لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، بل هو تنزيل من حكيم حميد ، والآية واضحة.[وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]] أي: مظاهرًا ومساعدًا، فلا يمكن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، بل ولا يمكن أن يأتوا بسورة منه ولا بآية، ولهذا صنع وجود الخلاف بين النبي ﷺ وقريش وهم أفصح العرب تحديًا، وقد حلفوا كل الحلف على معاندته إلا أنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، فبقي هذا القرآن معجزة، وهذا أيضًا واضح جدًا.

معرفة العرب أن القرآن كلام الله، وطعنهم فيه

ثم قال رحمه الله تعالى: [وهو هذا الكتاب العربي الذي قال فيه الذين كفروا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [سبأ:٣١]] .وهذا للاستدلال على أن هذا القرآن هو كلام الله، وأن هذا المتلو بالأحرف العربية والكلام العربي هو كلام الله، فهذا يدل على أنه كلام الله، وأن الله تكلم به بحرف وصوت.ثم قال: [وقال بعضهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، فقال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]] .وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، معروف أن هذا قاله المشركون، وورد في بعض الروايات أن الذي قال هذا هو الوليد بن المغيرة.وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥] أي: ما هو إلا قول محمد، وليس كلام الله ، فكذبهم الله ورد عليهم بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]، وهذا لبيان أن دعواه أنه قول البشر كذب، بل هو كلام الله ، فكيف يأتي قائل ويقول: هذا كلام محمد، أو يقول:

إنه مخلوق؟! بل هو كلام الله منزل غير مخلوق، وهذا نص صريح على أن الله تكلم به، وأنه كلام الله تعالى، ولهذا رد الله على ذلك المشرك الباغي الذي قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، فمن قال: إنه قول محمد فهو شبيه بـ الوليد بن المغيرة الذي قال: إن هو إلا قول البشر، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم قال المصنف رحمه الله : **[وقال بعضهم هو شعر، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس:٦٩]]** .أي: ما علمنا الرسول ﷺ الشعر، وما ينبغي للرسول أن يكون شاعرًا، وإنما هذا الذي بلغكم إياه هو كلام الله وذكر مبين.فسموه شعرًا لأن الشعر أحرف وكلمات، لكن الله رد عليهم فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩] .إذًا: هذا القرآن هو كلام الله وليس كلام شاعر، وهذا يدل على أن العرب كانوا يفهمون من القرآن أنه كلمات شبيهة بكلام العرب وأحرف وكلمات شبيهة بكلام الشعراء، ولهذا قالوا: هو شعر، فرد الله عليهم ببيان أنه ليس بقول شاعر، وأن الرسول لا ينبغي له أن يكون شاعرًا، وإنما هو كلام الله تعالى.ويفهم من هذا أن القرآن كلام الله، وأنه كلمات، وأنه حروف، وأن العرب فهموا منه هذا، ولهذا لم يعترضوا على هذا وإنما اعترضوا على أن يكون كلام الله.أما أولئك المتكلمون فإنهم يقرون أنه من الله، لكن ينكرون أن يكون كلام الله، ولا شك أن كلامهم غير صحيح.

ثم قال ابن قدامة رحمه الله: **[فلما نفى الله عنه أنه شعر وأثبته قرآنًا لم يبق شبهة لذي لب في أن القرآن هو هذا الكتاب العربي الذي هو كلمات وحروف وآيات؛ لأن ما ليس كذلك لا يقول أحد إنه شعر]** .

وهذا كلام واضح الدلالة من ابن قدامة رحمه الله تعالى؛ فهو تعليق جيد بين القضية التي شرحناها قبل قليل، فالعرب على فطرتهم كانوا أفقه -وإن كانوا كفارًا- في مثل هذه المسائل من أولئك المتمسلمين الذين خاضوا في هذه المسائل بلا علم.

تحدي الله تعالى للعرب ببلاغة القرآن الكريم

ثم قال رحمه الله تعالى: [وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٣]] .

أي: إن كنتم في شك من ذلك فائتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وابتدعوا نبوة وديانه جديدة، ثم ادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، لكنهم لا يستطيعون.

ولهذا قال المصنف رحمه الله : **[ولا يجوز أن يتحداهم بالإتيان بمثل ما لا يدرى ما هو ولا يعقل]** .وهذا صحيح، إذ لا يمكن أن يتحداهم إلا بشيء هم يفهمونه، ولهذا افتتح الله السور بالحروف المقطعة، تحديًا للعرب، فلما يقول: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:١-٢]، كأنه يقول: يا أيها العرب! هذا القرآن هو من الحروف التي أنتم تتكلمون بها، وكلامكم كله يرجع إلى هذه الحروف، وهذا القرآن أيضًا هو متلو بهذه الحروف، ومع ذلك هو كتاب الله لا ريب فيه نزله الله على عبده، وهنا في هذه الآية يقول: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، أي: من مثل هذا القرآن العربي، وطبعًا هم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله.

الشاهد هنا: أنه لو لم يكن هذا القرآن المتلو هو كلام الله بكلماته وحروفه لما صح في التحدي أن يقال لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، وهذا بين واضح جدًا.

ثم قال: [وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥]] .

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [يونس:١٥]، أي: أن هذا قرآن يتلى عليهم، فإذا تلي عليهم قالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥] .

إذًا: هذا القرآن المتلو ليس كلامًا لمحمد؛ وإلا لما قالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥]، ولما قال النبي ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥]؛ لأن هذا وحي من الله ، ولو كان كلامًا من عنده لقال: لا أريد أن أقول إلا هذا! لكن قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥]، أي: وإنما هو وحي أوحاه ربي إلي، هكذا يقول الرسول ﷺ.ولهذا قال المصنف: **[فأثبت أن القرآن هو الآيات التي تتلى عليهم.وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾** [العنكبوت:٤٩]] .

أي: أن القرآن آيات بينات في صدور المؤمنين حفظة كتاب الله ، وهذا يدل على أن هذا المحفوظ في الصدور هو كلام الله

كتابة القرآن الكريم في اللوح المحفوظ

ثم قال: [وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩]، بعد أن أقسم على ذلك] .

وبداية الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٨]، أي محفوظ، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٩] .

فما هو هذا الكتاب المكنون الذي (لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)؟ اختلف العلماء فيه على قولين: قيل: إنه القرآن، أي: المصحف، وقيل: إنه المكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا هو الراجح، ولهذا قال: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] .

فهذا خبر في أن هذا القرآن في ذلك اللوح المحفوظ، وأن ذلك اللوح المحفوظ لا يقربه إلا المطهرون، وهم الملائكة، لكن على القول الأول أنه المصحف فقد يمسه غير المطهر، بل قد يمسه المشرك، فهذا يرجح أن المقصود بالآية أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

إذًا لما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ ومسطرًا بحروفه وكلماته فهو كلام الله.

الحروف المقطعة في القرآن الكريم

ثم قال: [وقال تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:١]، ﴿حم * عسق﴾ [الشورى:١-٢]، وافتتح تسعًا وعشرين سورة بالحروف المقطعة] .

أراد المصنف رحمه الله تعالى بهذا الكلام أمرين: أحدهما: أن ﴿كهيعص﴾ [مريم:١]، حروف، وهي من كلام الله، وداخلة في القرآن.وكذلك أيضًا: ﴿حم * عسق﴾ [الشورى:١-٢]، وكذلك ﴿ن﴾ [القلم:١]، ﴿الم﴾ [البقرة:١] إلى آخره.

وقوله: (**وافتتح الله تسعًا وعشرين سورة بالحروف المقطعة**)، أي: أن كل هذه السور افتتحت بهذه الحروف المقطعة، وذكر الله القرآن بعد كل حروف مقطعة من هذه السور، إلا في موضع واحد، فمثلًا: قال تعالى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]، وقال: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١]، وقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١]، وقال: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، وقال: ﴿حم﴾ [الأحقاف:١]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ [الأحقاف:٢]، وهكذا كل السور بعد الحروف المقطعة

ذكر فيها القرآن العظيم، وهذا دليل على أن هذه الحروف هي كلام الله، وعلى أن المقصود -والعلم عند الله تعالى- من هذه الحروف: بيان إعجاز القرآن العظيم، وكأن الله يقول للمشركين: هذه هي الحروف، ومع ذلك هذا القرآن العظيم من عند الله تعالى وأنتم لا تستطيعون أن تأتوا بمثله، وهذا يدل على أن هذا القرآن حروف وكلمات، وأنه كلام الله تعالى.وأما الموضع الذي افتتحت فيه السورة بالحروف المقطعة ولم يذكر بعده القرآن فهي سورة مريم: ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:١-٣] .فما ذكره بعضهم من أنه لم تذكر الحروف مقطعة إلا ويذكر فيها كلام الله يستثنى منه هذه السورة، وما قصده ابن قدامة رحمه الله تعالى واضح جدًا.

فضل قراءة القرآن وحكم من أنكر شيئًا منه(خسارة من يتعجل أجر تلاوته في الدنيا)

قال المصنف رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن موضوع القرآن: [وقال النبي ﷺ: (من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة)، حديث صحيح] .قول ابن قدامة رحمه الله تعالى عن هذا الحديث: (حديث صحيح) هذا قول مرجوح، ولعل المصنف رحمه الله تعالى اختلط عليه هذا الحديث بالحديث الآخر الصحيح الذي يقول فيه النبي ﷺ: (من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)، وهذا الحديث رواه الترمذي، وهو حديث صحيح.أما الحديث الذي أورده المصنف هنا وفيه: (من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة)، ثم قال فيه: (حديث صحيح) فهذا الحديث رواه الطبراني وغيره، وفي سنده رجال ضعفاء، ومن ثمَّ فإن الحديث ضعيف.

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وقال صلى الله عليه وسلم : (اقرءوا القرآن، قبل أن يأتي قوم يقيمون حروفه إقامة السهم، لا يجاوز تراقيهم، يتعجلون أجرهم ولا يتأجلونه)] .

هذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره، وهو حديث صحيح الإسناد، وهذا الحديث رواه سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه.

وقوله: (إقامة السهم) يعني: أنها إقامة قوية صحيحة دقيقة، يعني: أنهم يقرءونه ويتلونه تلاوة طيبة جيدة مجودة، ولهذا قال: (يقيمون حروفه إقامة السهم)، لكن قال صلى الله عليه وسلم

(**لا يجاوز تراقيهم**)، والترقوة: هي الحلق، يعني: لا يجاوز حلوقهم، ولماذا لا يجاوز حلوقهم؟ لأنهم لا يتلونه لله تعالى، وإنما يتلونه ليقال: فلان قارئ فلان مقرئ فلان مجود فلان ما أحسن قراءته ما أطول تلاوته! كما هو مشاهد في الأزمنة المتأخرة؛ حيث صار التنافس على القراءة وعلى تجويدها وعلى ما يتعلق بها، بل صار هذا التنافس كبيرًا، ومن ثَمَّ وقع بعض هؤلاء القراء في أنهم يتعجلون أجرهم في الدنيا، بأن يريد الواحد منهم أن يقال عنه في الدنيا: إنه قارئ مجود.

وقوله: (**ولا يتأجلونه**)، أي: لا يقرءون القرآن يقصدون به وجه الله تعالى، ويطلبون فيه الأجر من الله تعالى يوم القيامة، وهذا مثل بعض الناس الذي يفعل بعض الأمور يريد أجره عاجلًا، فمثلًا: بعض الناس يصبح تاجرًا أو غنيًا، فيتصدق بالصدقات يريد أن يحمى ماله فقط، وليس له هدف من الصدقة إلا أن تحمي ماله، أو أن تشفي مريضه، ولا يريد بذلك الأجر والثواب عند الله ، فهذا يعجل له ثوابه في الدنيا، لكن لا يجد ثواب صدقته يوم القيامة.وكذلك أيضًا هذا الصنف من القراء يقرأ أحدهم القرآن يريد الشهرة في الدنيا، ولا يريد الأجر والثواب عند الله ، فهذا قد يعجل له ثوابه في الدنيا، فينال بذلك شهرة وسمعة وثناءً ومنزلة إلى آخره، لكنه يوم القيامة لا يجد أجر ذلك وثوابه عند الله تعالى.

فضل إعراب القرآن وتلاوته

قال المصنف رحمه الله : [**وقال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما: (إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه)**] .أي: أن كون الإنسان يعرب القرآن ويتلوه تلاوة صحيحة أحب من أن يحفظه على خطأ في الإعراب، وكون الإنسان يحفظ قليلًا من القرآن حفظًا متقنًا وهو ماهر به أفضل من أن يحفظ هذا القدر أو أكثر منه وهو غير متقن له، وما روي عن أبي بكر وعمر رواه ابن الأنباري في كتابه المشهور (الوقف والابتداء)

حكم من كفر بحرف من القرآن الكريم

ثم قال المصنف: [**وقال علي رضى الله عنه: (من كفر بحرف فقد كفر به كله)**] .

هذا الكلام لـ علي بن أبي طالب مروي عنه بسند صحيح، رواه عنه ابن أبي شيبة في المصنف، وأيضًا رواه عنه ابن جرير في مقدمة تفسيره، وهو أثر موقوف صحيح إلى علي بن أبي طالب ، وما دل عليه قول علي رضى الله عنه وأرضاه صحيح.

ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى بعد ذلك: **[واتفق المسلمون على عد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفًا متفقًا عليه أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف]** .

فقول علي رضى الله عنه وأرضاه: (من كفر بحرف فقد كفر به كله) قد أجمع العلماء على أن من كفر بحرف من القرآن متفق عليه -أي: اتفق عليه العلماء- ثم أنكره فهو كافر، وهذا يشبه من أنكر القرآن كله أو سورة من سوره أو جزءًا من أجزائه، وهذه قضية واضحة جدًا شبيهة بقولنا: من كفر برسول ورد ذكره في القرآن فقد كفر بجميع الرسل، فلو أن إنسانًا آمن بالرسل جميعًا وصدق بهم واتبع محمدًا ﷺ ثم إنه قال: أنا لا أؤمن برسالة نبي الله صالح أو نبي الله هود أو غيرهما من الأنبياء فإنه يكون كافرًا، بل هو كافر بجميع الرسل؛ لأن السبب الذي من أجله آمن ببقية الرسل موجود في صالح أو في هود، فإذا كفر بواحد فكأنه كفر بالبقية، وكذلك هنا من كفر بحرف من كتاب الله تعالى مجمع عليه فقد كفر بالقرآن كله؛ لأن السبب الذي من أجله أيقن بأن بقية حروف في القرآن كلام الله موجود في هذا الحرف الذي أنكره، فإذا أنكر هذا الحرف فكأنه أنكر القرآن كله، وهذا بإجماع المسلمين، ولم يخالف في ذلك أحد.

وقوله: (**واتفق المسلمون على عد سور القرآن**)، يقولون: في القرآن مائة وأربع عشرة سورة، ويعددون آيات القرآن الكريم 6236 آية ، بل ويعددون حروفه ،ويبلغ عدد حروف القرآن الكريم 323015 حرفاً، ، ويعددون كلماته، وعدد كلمات القرآن الكريم يبلغ 77439 كلمة، على اختلاف يأتي تفصيله في دورة علوم القرآن باذن الله تعالى ، وهذا كله دليل على أن القرآن حروف وكلمات، وهذه القضية أراد المصنف أن يبين بها أن مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله، وأنه حروف وكلمات، وهذا بخلاف ما ذكره المبتدعة من الأشعرية والماتريدية وغيرهم ممن سار على طريقتهم في قولهم: إن القرآن كلام الله، لكن ليس بحروف، فأما أهل السنة والجماعة فيثبتون أنه حروف، وقد سبقت الأدلة على ذلك.

وقوله: (ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفًا متفقًا عليه أنه كافر)، وهذا لا شك فيه، وهو مقرر في كتب العلماء رحمهم الله تعالى.

وقوله: (وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف) أي: أن المصنف في هذا الكلام الأخير وفيما قبله مما ذكرناه في الدرس السابق أراد أن يقرر هذه القضية في مذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالى وفي القرآن خاصة، ويبين أن كلام الله تعالى حروف، وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى قد أنهى الكلام في مسألة بعض أسماء الله وصفاته، وما يتعلق منها بقضيتين كبيرتين: إحداهما: قضية العلو لله تعالى.

والثانية: قضية إثبات كلام الله تعالى، ومنه الكلام في القرآن.

رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

قال المصنف:**والمؤمنون يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم ويزورونه ويكلمهم ويكلمونه قال الله تعالى {وجوه يوئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} وقال تعالى {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}**

فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى وإلا لم يكن بينهما فرق.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته)) متفق عليه.

وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير.

تكلم المصنف هنا عن الرؤية يوم القيامة وأفرد لها فصلاً مستقلاً، فقال: " والمؤمنون يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم.

والرؤية فيها مسائل:

١ – أن المصنف تكلم عن الرؤية يوم القيامة، لكن قبل يوم القيامة هل هناك رؤية؟ وهل يُرى الله في الدنيا؟

المسألة فيها مذهبان فيما أعلم:

الأول: مذهب الصوفية: وهؤلاء يرون أن الله يُرى في الدنيا يقظة وأن الأولياء يرون الله في الدنيا فيكلمهم ويكلمونه ،وهذا ضلال وانحراف عن الحق .

الثاني: مذهب السلف وهو أن الله لا يُرى في الدنيا بإجماع السلف، واستدلوا بقوله تعالى: {لن تراني ولكن انظر إلى الجبل}

لكن اختلف السلف في النَّبِيّ خاصة هل رأى ربه في الدنيا أم لم يره، والخلاف وقع بين الصحابة رضى الله عنهم ،وهو خلاف لفظى كما سبق وحررناه في شرح السنة

القول الأول: أنه لم يره ببصره ولا بعين رأسه.واستدلوا لهذا – وهو قول الجمهور – بحديث أمنا عائشة: من قال إن الرسول رأى الله فقد أعظم على الله الفرية.واستدلوا بحديث أبي ذر لما سأله: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّ أراه.

والقول الثاني: أنه رآه.واستدلوا بقول الله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى} وقوله: {ثم دنى فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى} ، وحديث: " رأيت ربي بأحسن صورة".

والصحيح القول الأول.

ثم هل رآه رؤية قلب ومنام في الدنيا أم لا؟

والصحيح أنه رآه في المنام، وهو اختيار ابن تيمية، وهو مضمون قوله عليه السلام: " رأيت ربي في أحسن صورة "، وهذا المشهور بحديث اختصام الملأ الأعلى. وهذا الحديث ألف فيه ابن رجب رسالة.

٢ – هل يرى في الآخرة يوم القيامة؟

هذه المسألة فيها مذاهب:

أ – مذهب أهل السنة والجماعة: وهو أن الله يُرى في الآخرة في موضعين، في عرصات القيامة، يراه المؤمنون بأبصارهم، ذكر ذلك ابن تيمية في الواسطية، وقال: يرونه سبحانه في عرصات القيامة، ويُرى أيضاً في الجنة وهو الذي أشار إليه المصنف بقوله: ويزورهم ويزورونه ويكلمهم ويكلمونه، إلا أن المؤمنين يتفاوتون في الرؤية على حسب درجاتهم، فمنهم من يراه كل يوم ومنهم من يراه كل جمعه، ومنهم من يره فوق ذلك، والرؤية أعظم نعيم الجنة.

والمقصود بقوله: (بأبصارهم) أنهم يرونه رؤية حقيقية، وليست رؤية قلب، ولا رؤية فؤاد، ولا رؤية تعقل وتفكر، وإنما هي رؤية عيانية بصرية، فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة، ويرون ربهم أيضًا في الجنة، نسأل الله العظيم الكريم من فضله.

قول المصنف هنا: (ويزورونه)، هذه منها شيئ ، فالحديث الوارد في لفظ الزيارة، حديث ضعيف لا يثبت،وقد اختلف فيها أهل العلم، هل تثبت الزيارة أو لا تثبت، واختلافهم مبني على اختلاف في نصوص الأحاديث التي ذكرت في الزيارة إن ثبتت، ثم لو ثبتت عند بعض أهل العلم فعلام تحمل، هل هي بمعنى الرؤية أو أمر زائد عن مجرد الرؤية؟! الظاهر والله أعلم أن أكثر الروايات التي وردت بالزيارة لا يقطع بصحتها.وكثير من أهل العلم أشار إلى الزيارة، لكن هل هي على ما ورد في بعض النصوص الضعيفة، أو على ما ورد في نصوص أخرى صحيحة بمعنى الزيادة، وهل الزيارة بمعنى الرؤية أو هي أمر زائد على الرؤية؟! كل ذلك يحتاج

إلى مزيد بحث، وقد أورد كثير من أهل العلم هذه المسألة كما قلت، لكن أغلب الروايات والأحاديث التي أوردوها فيها ضعف.

وقوله: (ويكلمهم ويكلمونه)، في هذا إثبات لكلام الله تعالى، وأنه تكليم بمشيئته وإرادته، وهذا رد على الذين يقولون: إن صفة الكلام أزلية، وأن الله لا يتكلم إذا شاء، فكون المؤمنين يرون ربهم في الجنة ويكلمهم ويكلمونه في ذلك الوقت يدل على أن تكليم الله لهم إنما هو خاص في ذلك الوقت، أي: يوم القيامة، فتكليمه لهم وهم في الجنة يدل على أن صفة الكلام لله هي بإرادته ومشيئته، وليست قائمة بنفسه أزلية، كما يدعيه الأشاعرة وغيرهم، وهذا واضح، وقد سبق بيانه .

وأهل السنة والجماعة يثبتون هذه الرؤية ويقررونها، وقد ذكروا هذه العقيدة وأدلتها في جميع كتب أهل السنة والجماعة، ولم يؤلف أحد في العقيدة قديمًا وحديثًا إلا وذكر قضية الرؤيا، وأن المؤمنين يرون ربهم ، وقد دل على ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والأحاديث الواردة في الرؤية متواترة، وقد أفرد لها بعض العلماء مؤلفات، فممن أفرد لها الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى؛ فإن له كتابًا اسمه (الرؤية)، وهذا الكتاب مطبوع، وأيضًا ممن أفرد لها كتابًا الآجري؛ فإنه كتب كتابًا اسمه: (التصديق بالنظر إلى الله في الآخرة)، وهذا الكتاب أيضًا مطبوع، وغيرهم ذكروا الرؤية ضمن كتب عقائد أهل السنة والجماعة.

واختلف أهل السنة والجماعة بالنسبة لرؤية الكفار لربهم يوم القيامة، وقد ظهر الخلاف في هذه المسألة تقريباً في القرن الثالث **على ثلاثة أقوال**:

القول الأول: أن الكفار لا يرون اللَّه بحال من الأحوال سواء كان كافراً أصلياً أم مرتداً، أو كان ممن يظهر الإيمان ويُسر الكفر وهم المنافقون أو غيرهم، فلا يرى أحدٌ من هؤلاء اللَّه عز وجل يوم القيامة، وهذا هو الذي اختاره المصنف، ولذا قال: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [المطففون ١٥]

فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى وإلا لم يكن بينهما فرق اهـ وعليه أكثر العلماء.

القول الثاني: أن الكافر الأصلي لا يراه أما المنافق وهو من يظهر الإيمان ويبطن الكفر، فإنه يراه في عرصات القيامة، ثم يحتجب اللَّه عنهم، واختار هذا ابن خزيمة في كتاب التوحيد.

القول الثالث: أن الكفار يرونه لكنها رؤية عذاب كاللص حينما يراه السلطان، واستدلوا على ذلك بأحاديث اللقاء والكلام؛ لأن الله يكلم الكافر، وعندهم أن الكلام واللقاء يستلزم الرؤية. والأول أقوى.

مسألة: هل المنافقون والكفار من أهل الأوثان وأهل الكتاب يرون ربهم في موقف القيامة كما يراه المؤمنون أم لا؟

الجواب: **أولًا**: يقال: هذه المسألة ليست من مسائل الأصول، وأصلها هو مسألة رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

ثانيًا: أي المسألتين أقوى مقامًا عند أهل السنة: رؤية النبي ﷺ لربه جل وعلا أو رؤية الكفار؟

قيل: رؤية النبي ﷺ لربه أقوى؛ لأن الصحابة فمن بعدهم لهم فيها قول معروف، وهو أن النبي ﷺ لم ير ربه، وهذا مما دل عليه ظاهر القرآن والسنة الصحيحة، وأما رؤية الكفار لربهم فإن شيخ الإسلام قال: «إن الصحابة لم يحفظ عنهم قول معروف فيها، وإنما تكلم فيها الناس بعد الصحابة».

وعلى كل حال فلأهل السنة فيها أقوال:

الأول: أن الكفار يرون ربهم، وإن كانت ليست رؤية نعمة وامتنان.

الثاني: أن المنافقين يرون ربهم دون بقية الكفار.

الثالث: أنه يراه المنافقون وغُبرات من أهل الكتاب، كما جاء في بعض الروايات في الصحيح.

الرابع: أن الكفار جميعًا لا يرون ربهم، وهذا هو ظاهر مذهب الأئمة، وهو الذي عليه الجمهور من أصحاب أحمد، وهو ظاهر القرآن في قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، والذي يميل إليه شيخ الإسلام ابن تيمية -وإن كانت هذه المسألة من المسائل التي خالف فيها ابن القيم ابن تيمية وخالفه ابن القيم فذهب إلى أن الكفار يرون ربهم، ويجعل هذا عامًا في سائر الكفار، ويستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، واستدل ابن القيم على ذلك بقوله: إن اللقاء عند العرب -كما ذكره ثعلب - يفيد الرؤية.

وهذا الاستدلال مما فات ابن القيم، فإن ثعلبًا لما أورد هذا الكلام أراد به اللقاء المذكور في قول الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، واللقاء المذكور في هذه الآية ليس هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، فإن اللقاء في الآية الأولى قُرن بذكر التحية والسلام، وأما اللقاء هنا فهو مطلق، والذي حكى ثعلب الإجماع عليه من هو المقرون بالتحية والسلام، وثعلب عندما ذكر كلام أهل اللغة عند قوله تعالى: (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ)، قال: إن العرب إذا ذكرت اللقاء مع التحية فإنه يفيد البصر والرؤية، وأما اللقاء المطلق فإنه لا يفيد ذلك، وهذا أمر معروف بالعقل والحس أن اللقاء المطلق لا يستلزم أو يتضمن النظر أو الإبصار، فما استدل به ابن القيم ورآه دليلًا قويًا فيه نظر؛ ولذا قال الجمهور من محققي أهل السنة كأمثال شيخ الإسلام -وهو ظاهر مذهب الشافعي وأحمد -: إن الكفار لا يرون ربهم.

وهذا هو الصواب والأظهر في هذه المسألة، وإن كانت بعض روايات الحديث في السنة النبوية قد تشعر بأن الكفار يرون ربهم، ولكنها واردة في مسألة أخرى.

وأما رؤيته سبحانه وتعالى لغير النبي ﷺ ليلة المعراج -على الخلاف السابق- فهذا مما أجمع عليه عامة المسلمين بأنها لن تقع لأحد في الدنيا، ولم يدع شيء من ذلك إلا أهل الخرافة الذين يدعون أنه يُرى قبل الموت، وقد قال النبي ﷺ: (واعلموا أن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت).

مسألة: مذاهب الناس في الرؤية:

الذين خالفوا في باب الرؤية هم المعتزلة، وسار على منهاج المعتزلة الرافضة؛ فإنهم ينكرون الرؤية تمامًا، وكذلك الزيدية، وكذلك الإباضية ونحوهم من طوائف الخوارج؛ فإنهم أيضًا ينكرون الرؤية.

أما بالنسبة لغلاة الجهمية والفلاسفة وغيرهم فإنهم ينكرون ما هو أكبر من الرؤية، وأما بقية طوائف أهل السنة المنتسبين إلى السنة فإنهم يثبتون الرؤية في الجملة، فيثبتها أهل السنة، ويثبتها الأشاعرة، ويثبتها الماتريدية، ويردون على المعتزلة في ذلك.

والأشاعرة والماتريدية وإن ألفوا كتبًا في إثبات الرؤية وردوا بها على المعتزلة إلا أن نفيهم لعلو الله أوقعهم في ورطة فيما يتعلق بإثبات الرؤية؛ لأن المعتزلة قالوا لهؤلاء الأشاعرة: لا يمكن أن

تصح الرؤية إلا بإثبات العلو أما إذا نفيتم علو الله، وأثبتم الرؤية، وكانت الرؤية بلا مقابلة، فمعنى ذلك: أنكم تثبتون رؤية علمية، وهذه لا نخالفكم فيها، وبلا شك أن ما ذهب إليه الأشاعرة والماتريدية في هذه القضية مخالف لمنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فإثباتهم للرؤية وإنكارهم للعلو فيه تناقض، فهم إما أن يثبتوا أن المؤمنين يرون ربهم، ويرفعون أبصارهم في الجنة فيرونه ويكلمهم ويكلمونه، وبذلك يثبتون الرؤية ويثبتون العلو، أو يسلكوا مسلك المعتزلة الذين نفوا الأمرين جميعًا؛ حيث نفوا العلو لله ، وعلى إثره نفوا رؤية الله ، وحملوه على الرؤية العلمية أو نحوها.

أما أهل السنة والجماعة فهم الذين وفقهم الله بسلوك المنهج الحق.

أ . مذهب الأشاعرة: وهم يثبتون الرؤية ويقولون أن اللَّه يُرى يوم القيامة، لكن يقولون يُرى لا عن مواجهة لأنهم لا يثبتون العلو، وأيضاً يقولون لا عن معاينة، ويجعلون رؤيته رؤية علمية، بمعنى العلم واليقين والكشف، وهذا في الحقيقة نفي للرؤية، وإنما يتسترون بقولهم إن اللَّه يُرى، فإذا قيل كيف يُرى؟ هل يرونهم بأبصارهم؟ قالوا: لا، وإنما يرونه بقلوبهم.

ب . والماتريدية، وهم مثل مذهب الأشاعرة كما سبق.

جـ – مذهب المعتزلة والجهمية والخوارج والرافضة، وهؤلاء ينفون الرؤية ويقولون إن اللَّه لا يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة.

الأدلة على إثبات رؤية الله من القرآن

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى الأدلة على إثبات الرؤية من كتاب الله تعالى فقال: [قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] .

قوله: (نَاضِرَةٌ) من النضرة والنور والضياء، وقوله: «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) أي: تنظر إلى ربها ، وهذه الرؤية هي الرؤية العيانية البصرية التي يثبتها أهل السنة والجماعة.

وما تأوله المتأولة بقولهم: إن المقصود أنها إلى ثواب ربها ناظرة، أي: منتظرة، فهذا تأويل ضعيف جدًا؛ لأن لفظ (نظر) إذا عدي بـ (إلى) كما في هذه الآية: فإنه لا يكون إلا في باب النظر البصري العيني، وإذا عدي بـ (في) فيكون بمعنى التفكر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأرض﴾ [الأعراف:١٨٥]، لكن قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام:٩٩]، المقصود بالنظر هنا البصر، أي: انظروا إلى ذلك الثمر، ومن

ثمَّ فإن الآية نص صريح في إثبات الرؤية، وقد قال بتفسيرها جماهير السلف رحمهم الله تعالى؛ فإنهم فسروها على أن المقصود بها: الرؤية، أما تأويلها بغير ذلك فهو تأويل باطل وضعيف.

ثم قال المصنف: [وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضا، وإلا لم يكن بينهما فرق] .

هذا الاستدلال والاستنباط من هذه الآية استنبطه عدد من علماء أهل السنة، ومنهم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى؛ فإنه احتج بهذه الآية على إثبات الرؤية؛ لأن الله تعالى يقول في سورة المطففين عن المشركين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فذكر الله من ضمن عذابهم أنهم يحجبون عن ربهم ، وهذا الحجاب لو كان شاملًا للكفار وللمؤمنين لما صار بالنسبة للكفار عذابًا وسخطًا من الله ، ولقال قائل: وما الفرق أيضًا؛ فالمؤمنون محجوبون عن ربهم والكفار محجوبون عن ربهم؟ فلماذا هذا التهديد والوعيد؟! إذًا: استنتجوا من هذا التهديد وهذا الوعيد أن هؤلاء الكفار معاقبون بالحجاب، وأنهم لا يرون ربهم ، وعلى ضوء ذلك فإن مقابلهم من المؤمنين الصادقين لا يحجبون عن ربهم ، وإنما يرونه وينظرون إليه، وهذا دليل صحيح وقوي، وهذا استنتاج دقيق وصحيح.

الأدلة على إثبات رؤية الله من السنة

ثم قال المصنف: [وقال النبي ﷺ: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته) حديث صحيح متفق عليه] .

وردت الأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ وعن عشرات من الصحابة كلهم يروون أحاديث الرؤية، فهي أحاديث متواترة، والنبي ﷺ نوع الأدلة على ذلك، منها قوله ﷺ: (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، فسأله بعض الصحابة: يا رسول الله! كيف نرى ربنا ونحن جميع وهو واحد؟! فقال لهم رسول الله ﷺ: هذا القمر إذا لم يكن بينكم وبينه سحاب هل تضامون في رؤيته؟) .

فالجميع يرون القمر، ولا يجدون مشقة في رؤيته وإن كانوا جميعًا، بل يراه الألوف المؤلفة، بل آلاف الملايين لو اجتمعوا لرأوا القمر، ومن ثمَّ فإن النبي ﷺ أثبت في هذه الأحاديث أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عيانًا كالقمر، وقد ورد أن المؤمنين لا يجدون ألذ ولا أنعم ولا

أطيب من رؤية الله ؛ فالجنة وما فيها من النعيم الذي لم يخطر على بال أحد أبدًا؛ فيها أنهار من ماء، ومن خمر، ومن لبن، ومن عسل، وفيها القصور، وفيها شجرة طوبى يسير الراكب تحت ظلها مسافة كذا وكذا، وفيها نعيم مقيم، وفيها الحور العين كأنهن الياقوت والمرجان، وفيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها الخلود وعدم الحزن، ومنها الرضا، فكل هذا النعيم في الجنة يكون النظر إلى وجه الله الكريم ألذ منه وأطيب، نسأل الله الكريم من فضله، وأسأل الله ألا يحرمنا جميعًا من النظر إلى وجهه الكريم؛ فإن النعيم المقيم هو النظر إلى وجه الله الكريم.

إنها نعمة كبرى وعظيمة جدًا أن يشتاق الإنسان إلى ربه ، لكن من هو الذي يتلذذ بذلك النظر، إنهم المؤمنون، كما قال ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)، والذي يحب لقاء الله هو الذي عمَّر آخرته وعمل بما أمره الله به، واجتنب ما نهى الله عنه، وآثر الباقية على هذه الدنيا الفانية، ونظر إلى حقارتها وإلى تنافس منافسيها وإلى نكدها وضيق عيشها، وكونها إذا أفرحت أحزنت وإذا أحزنت أفرحت، وعلم أنها لا تدوم على حال فلم يلتفت إليها، وإنما التفت إلى ما عند الله ، فإذا جاء يوم القيامة يأتي آمنًا مطمئنًا، وإذا كان من أهل الجنة ينعم ذلك النعيم العظيم برؤية الله ، إنها والله حقيقة لا شك فيها.

ووالله إن رؤية المؤمنين لربهم عيانًا بأبصارهم يوم القيامة حق لا شك فيه، كما قال ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣]، إنه لحق مثلما أننا نؤمن بأننا موجودون أحياء، فكيف لا يعمل الإنسان لذلك؟! والرسول ﷺ في أحاديث كثيرة كان يربي أصحابه ويعلمهم، وينقلهم إلى الآخرة، ومن ضمن ذلك هذا الخبر الصادق الذي لا شك فيه: (إنكم سترون ربكم عزوجل، ولهذا فإن النبي ﷺ شبه رؤية الله برؤية القمر؛ لأمور: أولها: سهولة الرؤية إذا أراد الله تعالى .

ثانيها: أن كثرة الناس وكثرة أهل الجنة لا تمنع من رؤية الله

ثالثها: أن الرؤية بصرية حقيقية، ولهذا قال ﷺ: (كما ترون القمر ليلة البدر القمر ليس دونه سحاب)، حتى يؤكد هذه الرؤية العينية البصرية.

الرد على منكري الرؤية في استدلالهم بآية (لا تدركه الأبصار)

ليس المقصود أن المؤمنين حين يرون ربهم أنهم يكيفونه، بل هو لا تحيط به الأبصار، ولهذا قال: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، والمتأولة احتجوا بهذه الآية على أن الله تعالى لا يرى، وإذا كان المتأولة هم أهل اللغة فإن الرؤية غير الإدراك؛ فأصحاب موسى لما لحقهم فرعون كانوا يرونه، فلما خشوا أن يلحق بهم فرعون قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، فلو كان الإدراك بمعنى الرؤية لكان قولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] خطأ؛ لأنهم يرونهم، ففرعون وقومه يرونهم، ومع ذلك قال موسى عليه السلام (كلا)، أي: لا ندرك، ولو كان المعنى (كلا لا نُرى) لكان الكلام أيضًا غير صحيح؛ لأنهم رأوهم ولم يدركوهم بإذن الله تعالى، وذلك لما أذن الله تعالى لموسى بأن يضرب بعصاه البحر.

إذًا: أحيانًا أنت ترى الشيء ولا تدركه، بل القمر، أو الشمس، أو الكوكب، أو الجبل العظيم نراه، لكن لا ندركه.

إذًا: قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣] آية عظيمة دالة على الرؤية، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فإنه قال في أحد مقاماته: ما احتج النفاة بدليل إلا ودل على ضد قولهم، فهذه الآية: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣] احتج بها المعتزلة وهي دليل على ضد قولهم؛ لأن قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣] نفي، والله تعالى لا يوصف إلا بما يتضمن مدحًا، فلو كان المعنى أنه لا يُرى أبدًا لم يكن ذلك مدحًا، لكن لما قال: (لا تُدْرِكُهُ) دل على أن نفي الإدراك مع ثبوت الرؤية هو أعظم المدح لله عزوجل، فدلت الآية على هذا.

الرد على منكري الرؤية في استدلالهم بآية (لن تراني)

ومثله الآية الأخرى لما قال موسى لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فهذه الآية أيضًا احتج بها المعتزلة، وقالوا: إن قوله: (لن تراني)، يدل أنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، وهذه الآية حجة عليهم من عشرة أوجه ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكرها شارح الطحاوية ابن أبي العز رحمه الله تعالى.

وأشير إلى وجهين فقط، وارجعوا إلى بقية الأوجه هناك: **الوجه الأول**: أن الله تجلى للجبل، كما قال: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فالله تعالى تجلى للجبل فاندك، فهذا دليل على أن الله تعالى يُرى.

الوجه الثاني: أنه لا يليق بكليم الله موسى أن يطلب من الله ما لا يليق، فموسى لا يمكن أن يطلب أمرًا غير ممكن، وإنما طلب أمرًا ممكنًا، ولكن الله أخبره أنه في الدنيا لا يستطيع أن يقوى عليه.

وفعلًا فإن الله لا يرى في الدنيا، وعلى هذا يكاد يكون إجماع العلماء، أي: أن الله تعالى لا يرى حقيقة في الدنيا، وقد ثبت في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)، والراجح أن رسول الله ﷺ أيضًا لم ير ربه بأم عينيه، وإنما رآه بفؤاده.وفعلًا فإن الله تعالى لا يرى في الدنيا، وعلى هذا يكاد يكون إجماع العلماء، أي: أن الله تعالى لا يرى حقيقة في الدنيا، وقد ثبت في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)، والراجح أن رسول الله ﷺ أيضًا لم ير ربه بأم عينيه، وإنما رآه بفؤاده.

ولعل الحكمة في ذلك أن الناس في الدنيا لا يستطيعون أن يقووا على رؤية الله تعالى، لكن إذا كانوا عند الله عزوجل في الآخرة وفي الجنة، فإن الله تعالى يعطيهم من القوة ما يثبتون ويقوون به على رؤية الله سبحانه،، وهذا هو الصحيح الذي دلت عليه الأدلة الكثيرة.

رؤية الله لا تستلزم التشبيه

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وهذا تشبيه للرؤية، لا للمرئي؛ فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير] .

هذا استدراك من ابن قدامة، هذا حتى لا يظن ظان أن قول النبي ﷺ: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر)، تشبيه لله بالقمر، والنبي ﷺ إنما أراد تشبيه مطلق الرؤية، أي: كما أنكم ترون القمر فإنكم أيضًا ترون الله، ولم يقصد تشبيه المرئي بالمرئي، وإنما قصد بيان الرؤية، وأنها حقيقية، أما المرئي –وهو القمر– فإنه لا يشبه الله؛ فإن الله لا شبيه له ولا نظير من مخلوقاته ، وهذه قضية واضحة جدً

فصل في القضاء والقدر

قال المصنف: ومن صفات الله تعالى أنه الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره ولا محيد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور أراد ما العالم فاعلوه ولو عصمهم لما خالفوه ولو شاء أن يطيعوه جميعا لأطاعوه،

خلق الخلق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته قال الله تعالى {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} وقال الله تعالى {إنا كل شيء خلقناه بقدر} وقال تعالى {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} وقال تعالى {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} وقال تعالى {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا}

وروى ابن عمر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما الإيمان قال (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره) فقال جبريل صدقت رواه مسلم وقال النبي صلى الله عليه وسلم (آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره)

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي علمه الحسن بن علي يدعو به في قنوت الوتر (وقني شر ما قضيت)

ولا نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أوامره واجتناب نواهيه بل يجب أن نؤمن ونعلم أن لله علينا الحجة بإنزال الكتب وبعثة الرسل قال الله تعالى {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}

ونعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك وأنه لم يجبر أحدا على معصية ولا اضطره إلى ترك طاعة قال الله تعالى {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} وقال تعالى {فاتقوا الله ما استطعتم} وقال تعالى {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم} فدل على أن للعبد فعلا وكسبا يجزى على حسنه بالثواب وعلى سيئه بالعقاب وهو واقع بقضاء الله وقدره.

الشرح :الركن السادس من أركان الإيمان هو الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

والقضاء والقدر لفظان يكثر ورودهما فهل بينهما فرق؟

(من أهل العلم من قال إنه لا فرق بين القضاء والقدر؛ فالقضاء هو القدر، والقدر هو القضاء.

(وفرَّق طائفة من أهل العلم بين القضاء والقدر؛ بأنّ القدر هو ما يسبق وقوع المقدَّر، فإذا وقع المقدَّر وانقضى سُمِّي قضاءً، فما قبل وقوع المقدر مشاهدا معلوما به يسمى قدرا، وإذا وقع ومضى سُمِّي قضاءً مع كونه يسمى قدَرا باعتبار ما قضي، وهذا التفريق حسن وظاهر، وذلك لأن مادة القضاء تختلف عن مادة القدر في اللغة، وقوله عليه الصلاة والسلام «وقني شر ما قضيت» هذا باعتبار أن ما قدر الله جل وعلا هو قضاء؛ يعني أنه كائن لا محالة، فيسأل الله جل وعلا أن يدفع عنه شر ما قدّر وما قضى.

وكثير من أهل العلم ومنهم ابن القيم رحمه الله يقولون لا فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء هو القدر والقدر هو القضاء فيتواردان.

الإيمان بالقدر على مرتبتين؛ يعني كيف يكون إيمان أهل السنة والجماعة بالقدر؟ على مرتبتين:

(**المرتبة الأولى** ما يسبق حصول المقدر؛ ما يسبقه في الزمان؛ يعني ما كان في الماضي.

(**المرتبة الثانية** هي ما يكون حال وقوع المقدر.

أمّا المرتبة الأولى: فتضم مرتبتين أيضا: الأولى هي العلم، والثانية هي الكتابة. وهذه سابقة، والله جل وعلا علم ما الخلق عاملون إلى يوم القيامة، وكتب جل وعلا -وهذه المرتبة الثانية- مقادير الخلائق إلى قيام الساعة قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء.

فإذًا السابق من مراتب القدر أننا نؤمن بأن الله جل وعلا علم ما الخلق عاملون من خير وشر ومن أحوالهم وسكناتهم، وعلمه بهذا لم يزل أوَّلْ؛ لأنه جل وعلا عالم بهذا، ولم يتضرع إليه جل وعلا عدم العلم بهذا.

الثاني أنه جل وعلا كتب هذا في اللوح المحفوظ؛ يعني ما الخلق عاملون، وما هم سائرون فيه ومن سيُهدى منهم، ومن سيضل، وكفر الكافر، ومعصية العاصي، وطاعة المطيع، وكل الحركات والسكنات هي مكتوبة في اللوح المحفوظ.

قال جل وعلا { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحج:70] فذكر في آية الحج هذه مرتبتين التي هي المرحلة الأولى والمرتبة الأولى السابقة وهما العلم والكتابة، فنوقن بأن الله جل وعلا لم يحدث له علم بشيء، وليس الأمر أُنف؛ بل الله جل وعلا عالم بكل شيء قبل أن يكون أي شيء، وبعد ذلك كتب الله جل وعلا في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق إلى قيام الساعة، فلا يتعدون ما كتب لهم.

المرتبة الثانية: ما يواكِب المقدور، فأهل السنة والجماعة يجعلون الرتبة الثالثة من مراتب القدر وهي المرحلة الثانية, -المرحلة الأولى علم وكتابة- المرحلة الثانية ما يوافق المقدّر، وهي:

أولا: أن الله جل وعلا مشيئته نافذة في عباده؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يحدث في ملكه وملكوته شيء إلا وقد أذن الله جل وعلا به كونا، فطاعة المطيع أذن الله بها كونا، ومعصية العاصي أذن الله بها كونا، وكفر الكافر أذن الله جل وعلا بها كونا، والمصائب التي تصيب العباد أذن الله بها كونا { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ } [الإنسان:30]، فما يشاء العبد داخل في مشيئة الله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن كما قال جل وعلا { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [الإنسان:30]، فجعل مشيئة العبد تبعا لمشيئة الله جل وعلا، وأن العبد إذا شاء شيئا لا يكون استقلالا؛ بل إذا شاء الله جل وعلا أن يكون كان.

الثانية في هذه المرحلة: وهي الرابعة من مراتب القدر، أنّ الله جل وعلا لا يكون في ملكه شيئا إلا وهو خالقه، فالله جل وعلا خالق كل شيء كما قال جل وعلا { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [الزمر:62]، فالله جل وعلا خلق كل شيء، من ذلك طاعة المطيع ومعصية العاصي, من ذلك أفعال العباد, من ذلك المصائب, كل ما يحدث في ملكوت الله جل وعلا خالق له.

هاتان المرتبتان أو المرحلة الثانية هذه تواقع المقدور، يعني إذا حصل المقدر وشاء الله وقوعه بما هو مكتوب في اللوح المحفوظ وسبق به علم الله جل وعلا، لا يكون إلا بمشيئة الله جل وعلا، وإذا كان فالله جل وعلا هو الذي خلقه.

هذا الأمر بمراتبه الأربعة هو ما يعتقده أهل السنة والجماعة، فعندهم القدر هو: علم الله جل وعلا الأزلي بالأشياء قبل وقوعها، وكتابته لها في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم مشيئته جل وعلا لها، وخلقه جل وعلا للأشياء جميعا.

هذا تعريف القدر عند أهل السنة والجماعة، فشمل هذا التعريف الأربع مراتب العلم، والكتابة, المشيئة العامة, الخلق لكل شيء، فالله جل وعلا خالق كل شيء.

خالف بعض أهل البدع فقالوا: إن الله جل وعلا لا يخلق فعل العبد؛ بل العبد يخلق فعل نفسه، وهذا هو قول القدرية يعني نفاة القدر، والجواب أن الله جل وعلا قال { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات:96] فخلق الله جل وعلا العباد وأعمالهم، فعمل العبد من الطاعات والمعاصي مخلوق لله جل وعلا، لكنه واقع لمشيئته، وهو الذي خلقه، وإذا كان معصية فإنما أذن بها كونا، ولم يرض بها شرعا ودينا؛ أرادها كونا، ولم يردها شرعا، فهو جل وعلا لا يكون في ملكه إلا ما يريد، ولا يكون في ملكه شيء إلا وهو خالقه، وهو الذي أنشأه فصوره وبرأه وخلقه، ويجامع هذا في معصية العاصي وكفر الكافر وأنه لا يرضى بتعدي الشرع، وهذا فيه مسائل:

المسألة الأولى: لماذا ذكر المصنف مسألة القضاء والقدر وأتبعها بمبحث الصفات؟

الجواب: نص عليه المصنف فقال: ومن صفات اللّه تعالى أنه فعال لما يريد، ثم ذكر أن من صفات اللّه الإرادة والمشيئة، ومن ثم فإن المصنف لم يخرج عن باب الصفات، فهو يقضي ويقدّر وله المشيئة والإرادة.

والأصل في هذا الفصل أنه لذكر صفة أنه تعالى فعّال لما يريد، وذكر صفتي المشيئة والإرادة لله تعالى ثم بعد ذلك ذكر بعض مسائل القضاء والقدر؛ لأنهما لهما علاقة بصفة المشيئة والإرادة وأنه فعّال لما يريد، ثم ذكر عشر مسائل من المسائل التابعة للقضاء والقدر وهي:

١ - مسألة ارتباط القضاء والقدر بالمشيئة والإرادة، قال المصنف: (لا يكون شيء إلا بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته) وهي إحدى مراتب القضاء والقدر.

٢ – مسألة عموم القضاء والقدر من قوله: (وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره).

٣ – مسألة نفوذه ولزومه (ولا محيد عن القدر المقدور).

٤ – مسألة اللوح المحفوظ وعلاقته بالقدر (ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور) وهذه مرتبة من مراتب القدر.

٥ — مسألة تعلق الإرادة بأفعال العباد (أراد ما العالم فاعلوه).

٦ – مسألة الخذلان وعدم العصمة من قوله (ولو عصمهم لما خالفوه).

٧ – – مسألة تعلق المشيئة بأفعال العباد ﴿ ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه ﴾.

٨ – مسألة خلق أفعال العباد (خلق الخلق وأفعالهم).

٩ – ومن مسائل القدر مسألة الضلال والهداية من قوله (يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته).

١٠ — مسألة تقدير الأرزاق والآجال ﴿ وقدّر أرزاقهم وآجالهم ﴾.

هذه عشر مسائل من مسائل القدر عادة يبحثها العلماء في باب القضاء والقدر فأشار إليها المصنف إشارات سريعة وبيّن فيها مذهب السلف في ذلك واعتقادهم في كل مسألة من المسائل العشر.

ثم في آخر فصل القضاء والقدر بحث أربع مسائل تابعة للقدر وهي:

١ – مسألة الاحتجاج بالقدر في المعصية وعدم الطاعة، ولذا قال: ﴿ ولا يجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أوامره واجتناب نواهيه ﴾.

٢ – مسألة الاستطاعة في الأوامر والنواهي فعلاً أو تركاً فقال (ونعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك).

٣ – مسألة الجبر والاختيار من قوله: ﴿ وإنه لم يجبر أحداً على معصية ولا اضطرّه إلى ترك طاعة ﴾.

٤ . – مسألة الكسب وعلاقته بالقدر من قوله ﴿ أن للعبد فعلاً وكسباً يجزى على حسنه بالثواب وعلى سيئه بالعقاب وهو واقع بقضاء الله وقدره ﴾.

فالمجموع أربعة عشرة مسألة متعلقة بالقدر.

المسألة الثانية: المصنف قال في بداية الفصل (القضاء والقدر) وهنا عطف القدر على القضاء والواو تقتضي المغايرة فهل بينهما فرق أم هما بمعنى واحد؟

الجواب: أن القضاء والقدر كمسألة الإسلام والإيمان، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فإذا افترقا فذكر القدر لوحده أو القضاء لوحده يدخل معنى هذا في معنى هذا، وأما إذا اجتمعا فإنه يختص كل منهما بمعنى، فيكون معنى القدر يأتي بمعنى التقدير أي ما قدره الله في الأزل، وعلمه وكتبه، ويكون معنى القضاء أي الخلق وهو ما يقضيه في خلقه من إيجاد وعدم، فيشمل مرتبة الخلق، وعلى هذا المعنى فالقدر يسبق القضاء فإن الله يقدر الشيء علما ومشيئة وكتابة ثم يقضيه وجوداً.

تقرير أصول مذهب أهل السنة في باب القدر

اشتهر في كلام جملة من متأخري أهل السنة أن مراتب القدر أربعة:

المرتبة الأولى: علم الرب سبحانه وتعالى بأفعال العباد.

المرتبة الثانية: كتابته لها.

المرتبة الثالثة: إرادته ومشيئته سبحانه.

المرتبة الرابعة: خلقه لأفعال العباد.

وهذا ترتيب صحيح، ولكن إذا أردنا الكمال في تقرير مسألة القدر فإن الأولى أن يقال: إن هذه المسألة محصلة بأصول سبعة عند السلف، وممن نص على هذه الأصول الإمام ابن تيمية رحمه الله، وهي كما يلي:

الأصل الأول: الإيمان بعموم علمه سبحانه وتعالى بكل شيء في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء؛ فعلم ما كان وما سيكون، وقد دخل في عموم علمه: علمه تعالى بأفعال العباد قبل كونها، فيعلم ما هم فاعلون، وما تصير إليه أمورهم وأحوالهم، وهذا أصل شرعي عقلي فطري من أنكره فإنه زنديق كافر، وهو مما لم ينكره أحد من المسلمين، حتى أن القدرية المعتزلة أقروا بهذا الأصل إجمالًا.

فإن قيل: إن غلاة القدرية أنكروا هذا الأصل.

قيل: إن المراد بالغلاة هم من ينكر علم الرب بما يكون من أفعال العباد، ويقولون: إنه لا يعلمها إلا عند وقوعها، وهؤلاء ليسوا مسلمين، بل زنادقة منافقون، وإن زعموا الانتساب

للإسلام، وكفرهم أعظم من كفر اليهود والنصارى؛ لأن في قولهم هذا إبطال لمقام الربوبية والألوهية؛ لأن الإله المعبود لابد أن يكون هو الرب المتفرد بالملكوت والتدبير والعلم والإرادة.
فإن قيل: هذا القول ما منشؤه؟

قيل: هذا قول قوم من غلاة الفلاسفة الملاحدة نقل إلى من يزعم الانتساب إلى الإسلام، وأما حكم القائلين به فهو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «منافقون نفاقًا علميًا في انتسابهم للإسلام، وإلا فهم قوم زنادقة» وقد أجمع السلف على تكفيرهم بأعيانهم، ولا يلزم أن تقام عليهم الحجة؛ لأن الحجة قائمة عليهم ضرورة، فإن هذه المسألة لا يمكن أن يحصل فيها اشتباه لكونها مستقرة بالفطرة والعقل والشرع.

الأصل الثاني: أن الله عزوجل كتب في الذكر (اللوح المحفوظ) كل شيء، وقد دخل في عموم كتابته عزوجل كتابته لأفعال العباد، وفي حديث عبد الله بن عمرو في الصحيح: (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة).

مسألة: هل الكتابة لأفعال العباد أصل عرفناه بالعقل والشرع أم بالشرع فحسب؟

الجواب: بالشرع، وإن كان العقل بعد خبر الله بها لا ينفي شيئًا من ذلك؛ فإن العقل لا يعارض النقل.

وهذا الأصل أقر به سواد المسلمين، ولم ينكره إلا قوم من غلاة القدرية، وهو دون الأصل الأول في المقام.

الأصل الثالث: الإيمان بعموم إرادة الله تعالى ومشيئته النافذة، فلا يقع شيء في ملكوت السماوات والأرض إلا وقد أراد الله وقوعه بمشيئته، وقد دخل في عموم إرادته ومشيئته إرادته لأفعال العباد طاعة أو معصية، خيرًا أو شرًا، عبادة أو عادة.

الأصل الرابع: الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وقد دخل في عموم خلقه تعالى خلقه لأفعال العباد؛ لأن الشيء إما أن يكون خالقًا وإما أن يكون مخلوقًا، ولا شك أن الخالق هو الله وحده وما سواه مخلوق.

وهذا من طرق جدل المعتزلة والقدرية المنكرين لخلق أفعال العباد، أن يقال لهم: ما من شيء موجود إلا وهو أحد أمرين: إما أن يكون خالقًا، وإما أن يكون مخلوقًا، فإذا كان لا يوصف

بأنه خالق إلا الله تعالى لزم أن يكون كل ما سواه مخلوق، والعباد ليسوا خالقين، وإنما هم أهل فعل كما وصفهم الله بأنهم فاعلون مصلون مزكون صائمون إلى أمثال ذلك من الأفعال.

وقد أنكرت القدرية من المعتزلة وغيرهم الأصل الثالث والرابع، وهذه هي البدعة التي اشتهرت عند طائفة من أهل القبلة، وهي: القول بأن أفعال العباد لم يردها الله، ولم يشأها، ولم يخلقها.

الأصل الخامس: الإيمان بأن للعباد مشيئة وإرادة في أفعالهم لكنها تابعة لمشيئة الله وإرادته، والإيمان بأن هذه الإرادة والمشيئة على الحقيقة وليست على المجاز كما يقول بعض الأشاعرة، فإن الله أثبت إرادة العباد في مثل قوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فذكر أن إرادتهم متنوعة ومتعددة، وذكر أن أصحاب الآخرة بإرادتهم، وأصحاب الدنيا بإرادتهم، وهذا المقام - أعني: **مشيئة العباد**- ينكره الجبرية القائلون: إن العباد مجبورون على أفعالهم، وكذا ما يقوله أهل الكسب من الأشاعرة.

وأما قول السلف فيها فهو قول وسط بين طائفتين:

الطائفة الأولى: القدرية تقول: إن للعباد مشيئة مستقلة عن مشيئة الله وإرادته.

الطائفة الثانية: الجبرية تقول: إن العباد لا مشيئة لهم ولا إرادة.

وأهل السنة يقولون على قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨ - ٢٩]: إن للعباد مشيئة وإرادة ولكنها تابعة لمشيئة الله عزوجل وإرادته.

الأصل السادس: الإيمان بعموم حكمته عزوجل وأن سائر أفعاله لحكمة، فعذاب المعذبين وثواب المصلين الطائعين المؤمنين، وما يقع في الكون من الحوادث وإن ظهر لبعض الناس أنها شر فإن الشر لا يضاف إليه سبحانه، ولهذا قال النبي ﷺ: (والشر ليس إليك)؛ فكل ما يقع في هذا العالم من الحوادث فإنها لحكمة يعلمها الله عزوجل، ولا يكون في ملكه وملكوته سبحانه شرًا محضًا لا خير فيه بوجه من الوجوه، أو لا يستلزم خيرًا؛ فإن سائر ما يقع إما أن يكون خيرًا محضًا، وإما أن يكون متضمنًا أو مستلزمًا للخير.

مثال ذلك: قتال الكفار للمسلمين، فأصل فعل الكفار شر، لكنه استلزم خيرًا وهو مجاهدة المسلمين لهم، وإقامة ذكر الله، وإعلاء كلمته، إلى أمثال ذلك.

وهنا يقال: إن كل ما يقع في هذا العالم فإما أن يكون خيرًا محضًا كبعثة النبي ﷺ، وإما أن يكون متضمنًا للخير كالولد، ولهذا جعلهم الله نعمة وجعلهم فتنة، وإما أن يكون مستلزمًا للخير وإن كان في مبدئه أو في ظاهره شيء من الشر، ولهذا لما طعن على أمنا عائشة رضى الله عنها، ورماها المنافقون بالزنا، وكان في ظاهره ومبدئه شر وتعدٍ نزهها الله في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور:١١]؛ لأن به حصل شيء من المنافع لهم، منها: امتياز المؤمنين عن غيرهم، ومنها: تبرئة أم المؤمنين وتفضيلها وتقديمها.

وهذا ظاهر، وهذا هو معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (والشر ليس إليك)، وهذه الكلمة تكلف بعض الشراح حتى أهل السنة المتأخرين في شرحها، وهي من **البينات والهدى الذي لا إشكال فيه**؛ لو تدبرها طالب العلم ، فالله عزوجل منزه عن الشر، ولا يضاف إليه الشر بحال من الأحوال، وكل ما يقع في هذا العالم مما ظاهره الشر ففيه مصلحة وخير من وجه آخر.

الأصل السابع: الإيمان بأن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ولا حجة لأحد من الخلق على الله، بل لله الحجة البالغة على خلقه.

وهذا المقام هو ما يسمى بمقام الجمع بين الشرع -أمر الله ونهيه- وبين القدر، وأن القدر ليس حجة على إسقاط الأمر والنهي، وهذه المسألة -أعني: مسألة الاحتجاج بالقدر على المعصية- يأتي الكلام فيها مفصلاً إن شاء الله.

هذه هي الأصول السبعة الجامعة لمسألة أفعال العباد ومقامها في قدر الله وقضائه، وهي أصول أجمع عليها السلف، ومنها يظهر لنا أن السلف خالفوا بها غلاة القدرية في الأصل الأول والثاني، وخالفوا مجمل القدرية من المعتزلة وغيرهم في الأصل الثالث والرابع، وخالفوا الجبرية والقدرية وبعض الأشاعرة في الأصل الخامس، وخالفوا الجبرية الذين ينفون الحكمة في أفعال الله في الأصل السادس، وخالفوا المنحرفة من الصوفية الذين لم يحققوا الجمع بين الشرع والقدر في الأصل السابع، فهذه الأصول هي امتياز أهل السنة عن سائر طوائف أهل البدع في مسألة أفعال العباد ومقامها في قدر الرب تعالى.

ب – مذهب المعتزلة وهم قسمان:

١ – غلاة المعتزلة: ويسمون القدرية، فهؤلاء ينكرون علم الله للأشياء ومشيئته لها وكتابته لها، لأنهم إذا أنكروا علمه لها فمعلوم أنهم سوف ينكرون ما بعد العلم من المشيئة والكتابة والخلق لها.

٢ – المعتزلة غير الغلاة: وهم الذين يثبتون علم الله للأشياء، ويثبتون لله الكتابة، لكن بالنسبة للمشيئة والخلق، يقولون هناك أشياء شاءها الله وخلقها، وهي كل شيء ما عدا أفعال العباد، فهذه علمها الله وكتبها ولكن لم يشأها ولم يخلقها.

3 – مذهب الجبرية: وهم الجهمية والاشاعرة والرافضة وهؤلاء يقولون أن العباد مجبورون على أفعالهم، لم يخلقوها، بل الله أجبرهم عليها، ولذا سموا جبرية.

استدل المصنف على ذلك بأدلة منها قوله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} ، وقوله: {وخلق كل شيء فقدره تقديراً} وقوله: {ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} ، وقوله: {من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}.

ثم استدل من السنة بحديث جبريل: " وأن تؤمن بالقدر خيره وشره "

فإذاً نفاة القدر قسمان:

قدرية غلاة: وهؤلاء هم نفاة العلم، وهؤلاء فرقة انقرضت، وهي التي قال فيها أئمة السلف ''ناظروا القدرية بالعلم، فهم إن أقروا به خُصموا وإن أنكروه كفروا''.

الطائفة الثانية: القدرية الذين ينفون خلق الله جل وعلا لأفعال العباد، وينفون القدر ويقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه.

ويقابلهم الجبرية، والجبرية قسمان:

جبرية غلاة: وهم الذين يقولون إن المرء ليس له اختيار بتاتا، بل هو كالريشة في مهب الريح، وهذا اعتقاد الجهمية، وطوائف من الصوفية الغلاة موجودون اليوم.

والطائفة الثانية الجبرية غير الغلاة: وهؤلاء هم الأشاعرة، فإن الأشاعرة يقولون بالجبر لكنه جبر مؤدب؛ يعني جبر في الباطن دون الظاهر، يقولون: ظاهر المكلف أنه مختار، ولكنه في الباطن مجبر، فالأشاعرة طائفة من الجبرية, والمعتزلة طائفة من القدرية، والجبرية الغلاة والقدرية الغلاة قد مرّ بك تفصيل الكلام على اعتقادهم، وبهذا يتبين لك خلاصة ما يتعلق القدر،

وأن الله جل وعلا مقدر للأشياء قبل وقوعها، ومعنى ذلك أنه علم ذلك، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وأن قضاءه نافذ في عباده لا يخرجون عما قدّر ولا عما قضى، وأن ذلك لا يعني إجبار العبد؛ بل هو يفعل باختياره ويجازى على أفعاله.

4 – هل نحن مأمورون بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره؟

فيه تفصيل:

أما القضاء والقدر الذي هو فعل الله، فهذا نرضاه كله وهو خير كله وهو عدل كله لأنه فعل الله وأما المقضي وهو فعل العباد ففيه تفصيل:

فيه ما يُحب من أفعال العباد وهو طاعتهم وفيه ما يبغض كمعاصيهم، فمثلاً القتل من حيث أن الله كتبه وشاءه فإنا نرضى ونسلم، أما بالنسبة للقاتل وهو فعله، فهذا نسخطه ولا نرضاه، إن كان عدواناً ونحبه ونرضاه إن قتل الكفار.

٥ – قوله: " وبالقدر خيره وشره " هل القدر فيه شر؟

نقول أما باعتبار فعل الله ليس فيه شر كما في الحديث الصحيح: " والشر ليس إليك " وأما بالنسبة للمقضي ففيه شر، فالشيطان شر وأفعاله شر، قال تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس}.

٦ – هل يُنسب الشر إلى الله مفرداً؟

الملاحظ في الكتاب والسنة أن الشر يُنسب إلى السبب كقوله: {من شر ما خلق} ، أو يُحذف فاعل الشر كقوله: {وأنّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً} وكما في حديث: " والشر ليس إليك".

مسألة: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

قال المصنف: ولا نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا، فليس القدر حجة للعاصي، أن يعصي ثم يقول: هذا شيء قدره الله.أو يمتنع من الطاعة، ويقول: لو شاء الله لجعلني أفعلها، فالحجة لله وكل ميسر لما خُلق له، بل هي سنة الجاهلية.

قالوا: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} وقوله: {ولو شاء الله ما أشركنا}

أما الاحتجاج بالقدر في المصائب فلا مانع مثل لو فعل الإنسان الأسباب، أسباب السلامة لّما سافر لكن وقع له حادث له أن يقول ﴿ قدر اللَّه وما شاء فعل ﴾ وهذا قدر كتبه اللَّه عليّ فيما لو احتج عليه محتج.

ب – وكذا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعايب إذا تاب منها كما لو احتج عليه محتج، في ذنوب فعلها سابقاً لكن تاب منها، فله أن يقول: قدرها اللَّه علي لكن بشرط أن يقول ذلك بعد أن تاب منها، لحديث قصة المحاجة بين آدم وموسى عليهما الصلاة السلام.

وليس معنى إثبات القدر أننا نقول أننا مجبرون على أعمالنا، وأن يكون قضاء الله جل وعلا وقدره حجة لنا في ترك ما فرض علينا، فإذا ترك العبد فرضا من فرائضه قال قُدِّر علي، أو ترك واجبا من الواجبات قال قُضي عليَّ، وإذا فعل معصية قال هذا مُقدّر عليّ.

وأهل السنة والجماعة يقولون: لا يُحتجّ بالقدر على المعايب، ولكن يحتجّ بالقدر في المصائب. فإذا وقعت مصيبة على العبد فإنه يقول هذا قضاء الله وقدره فلا تلمني على شيء قضاه الله وقدّره، ولكن إذا كان منه تفريط في أمر واجب فإنه لا يحتجّ بالقدر على المعصية، وإنما كما عند أهل السنة: يُحتج بالقدر في المصائب لا في المعائب. وهذا مأخوذ من قصة محاجّة آدم عليه السلام مع موسى عليه السلام.

وهنا ذكر الإمام ابن قدامة رحمه الله تعالى لفظ الكسب أيضا، **وهذا الموضع مما أنتقد عليه أيضا، وذلك أن لفظ الكسب مما استعمله الأشاعرة** وجاء في القرآن { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:286]؛ ولكنه إذا كان في باب الاعتقاد فينبغي إذا استعملت الألفاظ التي يستدل بها أهل البدع ينبغي أن يكون استعمالها موضَّحا بالمعنى الصحيح، فلا تستخدم الألفاظ التي تحتمل معنىً ليس بصحيح كما عليه أهل البدع، فقوله عز وجل { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:286] يعني عمِلت، فالكسب في القرآن هو العمل، أما الأشاعرة ومن شابههم من المبتدعة فاستعملوا الكسب بمعنى أن العبد يكون محلاًّ لفعل الله جل وعلا، فيقول هو كسب الفعل لأنه محله، ولا يجعلونه فاعلا حقيقة، ولكن العبد فاعل لفعله حقيقة، والله جل وعلا هو الذي خلق فعله، فيُضاف الفعل إلى الله جل وعلا خلقا وتقديرا، ويضاف الفعل إلى العبد أيضا فعلا منه واختيارا وعملا، فهو فاعل لفعله

حقيقة، والله جل وعلا هو الذي خلق العبد وخلق أفعاله،**ونزيد مسألة القدر لأهميتها شرحاً ووضوحاً وتفصيلاً بعد هذا الإجمال فنقول وبالله التوفيق :**

الإيمان بأسماء الله وصفاته مرتبط بالإيمان بالقضاء والقدر، ولهذا قال رحمه الله تعالى: [ومن صفات الله تعالى: أنه الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته] فمن صفات كماله سبحانه أنه عليم أحاط علمه بكل شيء، **فعلم** ما كان وما لم يكن، وما سيكون، وما هو كائن، **علم الله** عزوجل كل شيء مما سبق، ومما سيأتي، وهذا هو علمه المحيط بكل شيء، وهذه أولى مراتب القدر الأربع التي ربما يعرض لبعضها المصنف.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة، فإن الله تعالى كتب ما هو كائن إلى قيام الساعة، ولهذا ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (لما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رب! وما اكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، وفي الحديث الآخر الصحيح أيضًا: (قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)، رواه مسلم.

فهذه أدلة دالة على أن الله كتب، وفي القرآن العظيم أيضًا أدلة على أن الله كتب ذلك، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، والأدلة على إثبات الكتابة كثيرة جدًا.

المرتبة الثالثة من مراتب القدر هي: مرتبة المشيئة والإرادة، أي أن مشيئة الله الكونية القدرية شاملة ومحيطة بكل شيء، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو الذي شاء وأراد كل ما هو موجود، وكل ما سيأتي فالله أراده وشاءه كونًا، وهذه أيضًا أدلتها كثيرة جدًا، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]، وقوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩] .

أقسام الإرادة

وقول المصنف رحمه الله تعالى: **(ومن صفاته أنه الفعال لما يريد)**، أي أنه تعالى كما وصف نفسه في القرآن فعال لما يريد، فهو سبحانه يفعل ما يشاء ويختار، وليس لأحد من الخلق اختيار ولا مشيئة إلا ما كان منها داخلًا تحت مشيئة الله تعالى.

وهذه المشيئة الكونية هي المشيئة العامة الشاملة، وهنا أحب أن أنبه إلى قول المصنف: (**أنه الفعال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته**)، هنا الإرادة والمشيئة كلاهما بمعنىً، أي: أن المقصود بهما الإرادة الكونية؛ لأن المشيئة لم ترد في كتاب الله تعالى إلا كونية.

أما الإرادة فإنها وردت في كتاب الله تعالى وفي السنة على قسمين:

القسم الأول: الإرادة القدرية التي هي مرادفة للمشيئة، وهذه هي الإرادة الكونية الشاملة، وهي المقصودة هنا من كلام المصنف.

القسم الثاني من الإرادة: الإرادة الشرعية، وهذا الإرادة الشرعية مختصة بما يحبه الله تعالى ويرضاه من أمور الشرع، ولهذا فإن الله تعالى يريد منا الصلاة، والتوحيد، والعمل الصالح، ولا يريد منا ترك الصلاة، ولا الشرك، ولا العمل الفاسد المخالف لأمره سبحانه.

فنقول: هذا يريده الله، أي: يريده شرعًا، وهذا لا يريده الله، أي: لا يريده شرعًا لأنه من المعاصي، ودليل هذا من كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فهذه الإرادة في هذه الآية المقصود بها الإرادة الشرعية، ولا مدخل لها هنا في باب القضاء والقدر، وإنما لها علاقة من طريق سنعرض له فيما بعد إن شاء الله تعالى.

أما القسم الثاني من الإرادة -وهي التي قصدها المصنف هنا- الإرادة المرادفة للمشيئة، وهي الإرادة الشاملة لكل شيء، فكل شيء يقع في هذا الوجود: وجود الكفار، والمنافقين، والمؤمنين، ووجود العصاة، ووجود الطاعات وغير ذلك، كله بإرادة الله الكونية، وبمشيئته الكونية، وسيوضح المصنف ذلك بعد قليل إن شاء الله تعالى.

وقوله: (**أنه الفعال لما يريد**)، قال سبحانه عن نفسه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فهوسبحانه الذي خلق السماوات والأرض، وأوجدنا، وكلفنا، وأنزل علينا، **فهل لنا إرادة في ذلك؟**

الجواب: لا، وهل لأحد من الخلق إرادة في هذه الأمور كلها؟ الجواب: لا، وإنما الإرادة الكاملة لله تعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا يدل على تفرده بالربوبية، فتفرده بالخلق والإرادة والتدبير مقتضٍ لربوبيته سبحانه، وأنه وحده الرب الخالق المنعم المتفضل.

ولهذا قال المصنف هنا: (لا يكون شيء إلا بإرادته)، أي: إرادته الكونية.

وقوله: (ولا يخرج شيء عن مشيئته)، هذا كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، فالإنسان له مشيئة، لكنه لا يستطيع أن يخرج عن مشيئة الله القدرية الكونية؛ ولهذا قال: ولا يخرج شيء عن مشيئته.

وقوله رحمه الله تعالى هنا: (شيء) هذا لبيان العموم؛ حتى يدخل في ذلك المكلفون من البشر، وغير المكلفين من الحيوانات، أو من الجمادات أو غير ذلك، فلا يخرج شيء عن مشيئته، ولهذا لما خلق الله السماوات والأرض قال لهما: ﴿اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فلا يخرج عن ربوبيته وتقديره أحد؛ حتى الكفار، ولهذا تجد أن الكفار وغير الكفار على حد سواء في خضوعهم لهذه المشيئة القدرية، فهؤلاء جميعًا يوجدون ويخلقون ويعيشون، وتختلف أشكالهم، وألوان أبدانهم، وطولهم، وقصرهم، ورزقهم، وتنفسهم، ومعيشتهم، وسكنهم، ووفاتهم، كل هذه الأمور لا يملكون منها شيئًا، فمن هو الذي يتصرف فيهم كما يشاء، ولا يخرج أحد منهم عن مشيئته وإرادته؟ إنه الله.

وجوب الإيمان بالقضاء والقدر والكفر بتأثير الكواكب والبشر

ثم قال: [وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره] .

فتقديره الكوني لا يخرج عنه أحد، فكل ما جرى، وكل ما هو جارٍ الآن، وكل ما سيجري فهو بتقدير الله سبحانه، ومن ثمَّ فإن الإيمان بالقضاء والقدر هو أساس الإيمان، وأساسه إيمان العبد بربه سبحانه.

ومن هنا قال المصنف: **[ولا يصدر إلا عن تدبيره]** .

فهو المدبر لكل شيء يجري، أما ما يزعمه بعضهم من أن بعض الملائكة أو بعض الخلق: من ولي، أو رسول، أو نجم أو غير ذلك، له تدبير، فكل ذلك باطل، بل التدبير لله تعالى؛ لأن بعض المشركين -ومن هنا دخل الشرك في عبادة النجوم وعبادة الكواكب، وعبادة الأولياء وغير ذلك- ظنوا أن بعض هؤلاء يملك من الأمر شيئًا، فتجد بعض الناس في حال فقره أو مرضه قد يظن أن من المخلوقات من يملك شيئًا! ولهذا يتعلق بعضهم بساحر، وبعضهم بكاهن، وبعضهم بولي، وبعضهم بصاحب قبر، وكثير منهم يتعلق بالنجم، والذي نجمه نجم الثور، أو نجمه نجم العقرب يتعلق بذلك، وينظر ماذا يقول المنجمون! ومن أين جاء نجم الثور

ونجم العقرب وغير ذلك؟ جاء من مذهب الفلاسفة الذين يقولون: إن الله ليس متصفًا بصفات، وإن الله لا يعلم الخلق، وإن الله ليست له إرادة ولا تدبير، ومن ثمَّ فإن الله تعالى بعيد عن الخلق، وليس له من أمرهم شيء، لا يعلم ماذا يصنعون! فقيل لهم: لمن التدبير؟ قالوا: التدبير للعقول، والأفلاك، والنجوم.

فتعلقت نفوسهم بتلك النجوم، وقلدهم كثير من المسلمين، وتعلقت نفوسهم بهذه الأبراج، بينما هذا هو الشرك بالله العظيم، وهو شرك نشأ في دار العبودية والربوبية، أما المسلمون فإنهم يوقنون أن الله هو المدبر، كما قال تعالى عن نفسه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]! فهو كل يوم في شأن، يغفر ذنبًا يقبل توبة يشفي مريضًا يعين ضعيفًا يقوي قويًا يزيل ملكًا يصنع ملكًا، فهو سبحانه في كل يوم يفعل ما يشاء؛ فهو مدبر عليم محيط، هذا هو الإيمان بالقضاء والقدر، أما التعلق بغير الله تعالى فمنشؤه الاعتقاد في هذه المخلوقات من نجم أو ولي أو غيره، أن لها علمًا يحيط، أو أن لها تدبيرًا، وكل ذلك كفر بالله بالعظيم،**وحقيقة الإيمان والعبودية أن لا يلتفت قلبك لغير الله**

ومن هنا كان إيمان المؤمن بالقضاء والقدر يعصمه من أمور كثيرة، ربما نعرض لها إن شاء الله تعالى، وعلى رأسها عصمته في باب توحيد الربوبية الذي هو أساس وعمدة توحيد الألوهية.

وثانيًا: عصمته في مسيرته في الحياة؛ لئلا يقع في نفسه تعارض بين القضاء والقدر، وبين الأمر والشرع، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى: **[ولا محيد عن القدر المقدور]** .

أي: أن الجميع لا محيد لهم عما خط له في القدر المقدور، كما قال النبي ﷺ في وصيته لـ ابن عباس: (واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف) .

ولهذا قال الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضى الله عنه وأرضاه لابنه في مرض الموت: (واعلم يا بني! أنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك) .

فمتى يكون المؤمن شاكرًا صابرًا؟ يكون شاكرًا صابرًا إذا رضي بالقضاء والقدر؛ فإن أصابته سراء شكر؛ لأنه علم أن هذا من الله، وبشكره يغفر الله له، ويرفع له درجته، وإذا أصابته

الضراء علم أنه قضاء وقدر، فصبر؛ فيؤجر على ذلك، وليس ذلك إلا للمؤمن، هكذا أخبر الرسول ﷺ.

يجب على كل مسلم ومسلمة أن يؤمن بقضاء الله وقدره، فإنه لا يتم إيمان العبد إلا بذلك، كما أنه يجب أن يؤمن العبد أن الله لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، ولا يظلم أحدًا، ولذا فلا يجوز الاعتراض على القدر، أو الاحتجاج به على فعل المعاصي.

الإيمان بالقضاء والقدر (لا يكون شيء إلا بعلم الله ومشيئته)

يقول ابن قدامة رحمه الله تعالى **[فصل: ومن صفات الله تعالى: أنه الفعال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد عن القدر المقدور]** .

هذا هو لب القدر وأساسه؛ لأن الله هو خالق هذا العالم، خلقه بإرادته، ولم يوجد هذا العالم رغمًا عنه كما يقول الفلاسفة: إنه آلة موجدة، تعالى الله عما يقولون، بل خلق هذا العالم وأوجده سبحانه بإرادته ومشيئته؛ لأنه هو الأول الذي ليس قبله شيء.

لا يخرج شيء عن مشيئة الله تعالى

وجود الخير والشر، والطاعات والمعاصي، والمؤمنين والكفار، هو بإرادة الله تعالى، وهو خلق ذلك وقدره لحكم عظيمة.

ولهذا يقول هنا: (لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته)، فكل ما يقع ويجري فهو بإرادة الله ومشيئته الكونية، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى:٨]، وقال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] .

قال: (وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره) .

فلا يخرج في هذا العالم شيء إلا وقد قدره الله عزوجل، فوجود السماوات، ووجود الكواكب، ووجود هذه الأرض ببحارها بجبالها بحيواناتها بحشراتها بوحوشها برياحها بأشجارها بعبادها

بإناثها بذكورها إلى آخره، كل ذلك بتقدير الله تعالى، ولا يخرج شيء عن تقديره الكوني السابق، ولا يصدر أحد إلا عن تدبيره سبحانه.

ولهذا فإن الإنسان يفعل ويتحرك؛ لأن الله تعالى أعطاه إرادة، وأعطاه حرية، وأعطاه قدرة، لكنه لا يخرج في مجموع ذلك عن تدبير الله عزوجل وإرادته وقدرته.

ولهذا قال: (**ولا محيد عن القدر المقدور**)، وهذا صحيح؛ فكل إنسان لا يستطيع أن يحيد عما قدره الله وكتبه عليه، وهذا يعلمه كل إنسان من حياته، فكم من أمور أراد الإنسان أن يمنعها فما استطاع؛ لأن الله كتبها عليه وقدرها، وهذا الأمر يتساوى فيه المؤمنون والكفار.

كتابة الله عزوجل كل شيء في اللوح المحفوظ

قال المصنف رحمه الله: **[ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور]** .

أي: أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ؛ فإنه سبحانه لما خلق القلم أمره أن يكتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، وهذه هي المرتبة الثالثة من مراتب القدر، التي هي مرتبة الكتابة، فإن الله كتب ما هو كائن في اللوح المحفوظ.

فكل ما نصنعه، وكل ما نعمله فهو مكتوب عند الله ، بل كل ما يجري من حركات الجمادات وغيرها مكتوب في اللوح المحفوظ، حتى الشجرة إذا سقطت منها ورقة بسبب الريح أو بسبب جفافها أو غير ذلك، فإن سقوطها في كتاب مبين، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، أي: أن أي حبة، وأي رطب، وأي يابس، وأي ورقة تسقط، فكل ذلك في كتاب مبين، فكيف بفعل العباد، وأقوالهم، وحركاتهم، ومجيئهم، وذهابهم إلى غير ذلك؟! كل ذلك مكتوب مسطر.

خلق الله لكل شيء ومنها أفعال العباد قال المصنف: **[خلق الخلق وأفعالهم]** .

أي أن الله خالق كل شيء، كما قال تعالى في أكثر من آية: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالله خالق لجميع هذه المخلوقات، ولا شريك له في خلقه، ويدخل في ذلك أفعال العباد، فالله خالق العباد وأفعال العباد.

وبذلك يرد على المعتزلة الذين يستثنون من خلقه أفعال العباد، فيقولون: العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، والله لا يخلق أفعال العباد، ومن ثمَّ ضل المعتزلة في باب القدر حين أنكروا

مرتبة الخلق بالنسبة لأفعال العباد، وأنكروا مرتبة الإرادة، وجعلوا للعبد إرادة مستقلة، حتى قالوا: إذا اختلفت إرادة الله وإرادة العبد فالتي تقع هي إرادة العبد! فقول المصنف: (خلق الخلق وأفعالهم)، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة هو خالق أفعال العباد، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، فيدخل في ذلك أفعال العباد.

الأرزاق والآجال مقدرة من عند الله تعالى. قال المصنف: **[وقدر أرزاقهم وآجالهم]** .

فالله كتب رزق كل عبد، كما في حديث ابن مسعود الصحيح: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد) .

قوله: (بكتب رزقه)، أي أنه لا يأخذ الإنسان في هذه الدنيا إلا ما كتب له من الرزق، (وأجله) فإذا جاء أجله لا يتقدم ولا يتأخر، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، فلكل إنسان أجل محدد، حتى الذي قتل ظلمًا وعدوانًا قد انتهى أجله، خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: إن المقتول لو لم يقتل لعاش.،وأهل السنة يقولون كل ميت يموت بأجله وإن تعددت الأسباب ،فالمقتول قد انتهى أجله، لكن الأسباب مختلفة، فهذا أجله ينتهي على فراشه، وذاك أجله ينتهي بالمرض، وهذا أجله ينتهي بالكبر، وهذا أجله ينتهي بالسقوط من علو، وهذا أجله ينتهي بأن يعتدي عليه معتدٍ فيقتله، لكن الكل أجلهم محدد لا يتأخر أبدًا.

تنزيه الله عن الظلم، وإثبات أن كل فعله لحكمة

قال المصنف: [يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، قال الله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] .

وهذا لبيان قضية مهمة جدًا متعلقة بالقدر ألا وهي: أن الله لا يظلم العباد؛ لأن الوهم قد يخطر أحيانًا عند الإنسان، فيقول: إذا أثبتنا هذه المراتب الأربع لله، وكان ما يفعله العباد مكتوبًا، فلماذا يعذب هؤلاء وينعم هؤلاء؟ ولماذا فرق بينهم؟ فنقول هنا: إن الله يهدي من يشاء برحمته، فهو الذي يمن على عباده ويتفضل عليهم، فمن هداه الله ووفقه للهداية فهذه

منة من الله، وقد يمن الله بما هو أخص من ذلك، مثلما منَّ الله على الرسل بإرسالهم، قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤]، فهو الذي اختار هؤلاء الرسل، فإذا منَّ الله على رسول فلا يجوز لإنسان أن يعترض، ويقول: لماذا اخترت محمد بن عبد الله ﷺ أن يكون رسولًا، ولم تختر فلانًا أو فلانًا، كما قال بعض المشركين! إذًا: اصطفاء الله لرسله منة، وهداية الله لعباده منة، ومن ثمَّ فإن الذي هداه الله يجب عليه أن يعترف بهذه المنة، وأن يشكر ربه عزوجل عليها شكرًا عظيمًا، ولهذا فنحن نحمد الله أن جعلنا مسلمين، فليس بيننا وبين الله نسب، فهاهي أمم الأرض تموج؛ فيها الملاحدة، وفيها اليهود، وفيها النصارى، وفيها عباد الأوثان وغيرهم، ويبلغون الملايين، وتفوق أعدادهم أعداد المسلمين.

إذًا: مَن منَّ الله عليه بالهداية فذلك برحمته.

قوله: (**ويضل من يشاء بحكمته**)، هذا هو الشاهد، وهو أنه يضل من يشاء، لكن له حكمة في ذلك، فهو لا يظلم العبد، فقد أقام عليه الحجة، وأعطاه الإرادة والقدرة، وأنزل إليه الكتب، وأرسل إليه الرسل، حتى وضحت لديه المحجة، ووضح لديه الطريق.

ولهذا فإن مما يجب أن يقطع به أن الله لا يظلم أحدًا؛ لأنه ليس بحاجة إلى الخلق، فالله يضل من يشاء بحكمته؛ فله الحكمة البالغة؛ لأنه هو الذي اختار أن يوجد أهل الضلال وأهل الإيمان، ولو شاء لجمعهم على الهدى، لكنه اختار أن يكونوا منقسمين هكذا لحكمة يريدها ، فما هي هذه الحكمة؟ هذه الحكمة قد تكون سرًا من أسراره؛ فإن الله سبحانه له الإرادة المطلقة، كما قال عن نفسه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ونحن قد نتلمس شيئًا من حكم الله تعالى في ذلك، والله خلق الخلق وأوجدهم على هذه الحالة لتظهر آثار العبودية، وآثار الطاعة، ولهذا تجد أن الله لا يمكن أن يخلق شرًا محضًا لا خير فيه، وإنما يخلق الله الشر النسبي؛ حيث يكون شرًا لبعضهم، لكنه خير لبعضهم الآخر.

فمثلًا: إبليس شر، فقد يقال: لماذا خلق الله إبليس؟ فنقول: خلقه لحكمة أرادها، ونقول أيضًا: خلقه ليبتلي به عباده، فكيف يميز المطيع من العاصي، وكيف يكون الإنسان لربه مطيعًا، وكيف يكون أنين المذنبين، واستغفار المستغفرين، وعبادة العابدين، وتوبة التائبين لو لم يكن هناك ابتلاء وامتحان بإغواء إبليس؟! ولو نظرنا أيضًا إلى بعض مخلوقات الله لوجدنا

أن لله فيها حكمة، فمثلًا: لو جاء واحد وقال: لماذا خلق الله الأفعى أو العقرب، وليس فيها خير أبدًا؛ بل إن ضررها كبير؟ فنقول: بل خلقها لحكم لا نعلمها، وإن كنا قد نلمس فيها شيئًا من الحكم، فقد يكون فيها أدوية وشفاء، وقد تكون سببًا للدغ إنسان فيكون شهيدًا، كما قال النبي ﷺ: (واللديغ شهيد) .

إذًا: لا يوجد شيء خلقه الله إلا وله فيه حكمة، أحد الوعاظ دخل على أحد خلفاء بني العباس، فلما دخل عنده وجلس أمامه تسلط ذباب على الخليفة، وصار هذا الذباب يقع على أنف الخليفة، ثم يخرج فيرجع مرة ثانية، ويخرج ويرجع، ويخرج ويرجع، حتى ضاق منه.

فقال هذا الخليفة لهذا الواعظ: لماذا خلق الله الذباب؟ فاستحضر الواعظ إجابة لطيفة قال له فيها: خلقه الله ليذل به أنوف الجبابرة! فأعطاه حكمة حاضرة لديه الآن أنه إن تكبر فهذا من أصغر المخلوقات يذله، والله يقول في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ﴾ [الحج:٧٣] .

إذًا: بنص القرآن أن الحكمة في خلق الذباب أن الله جعله بلاءً، يبتلي به عباده المؤمنين، وهكذا في بقية ما خلقه الله.

مسألة تكليف ما لا يطاق

قال المصنف رحمه الله : [قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ﴾ [غافر:١٧]] .

لما كلف الله الإنسان وأمره بالأوامر لم يكلفه ما لا يطيق، وإنما كلف الله الإنسان ما يستطيعه؛ ولذا جاءت التكاليف الشرعية على أحسن نظام، ولذا تجب الصلاة بأركانها، لكن إن لم يستطع القيام فليصل قاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب.

ومن لا يستطيع الحج لا يجب عليه الحج، والذي لا يستطيع الصيام يفطر ثم يقضي، أو إذا لم يستطع مطلقًا يطعم، وهكذا جاءت هذه الشريعة، فتكليفات الله وتشريعاته كلها على قدر وسع الإنسان، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧]، أي: كسبته هي، ومذهب أهل السنة والجماعة أن أفعال العباد تنسب إلى

العباد أنفسهم، وإذا قلنا: إن الله هو خالق العباد وأفعال العباد فلا ننسب أفعال العباد إلى الله، وإنما نقول: إن الله خالق كل شيء ومن ذلك أفعال العباد، لكن الله قدر الأسباب والمسببات، فمثلًا: الشمس خلقها الله، وإذا تحركت الشمس وجرت فالذي خلق حركتها هو الله، فإذا تحركت الشمس لا نقول: إن الله هو الذي تحرك.

وهكذا أيضًا: الذي خلق العبد هو الله، والذي خلق فعل العبد هو الله، لكن إذا فعل العبد طاعة أو معصية فينسب الفعل إلى العبد، وهذا هو المعنى الدقيق الذي غفل عنه المعتزلة وغيرهم؛ لأن الجبرية ظنوا أن كل ما يفعله العبد ينسب إلى الله، وهذا باطل.

والمعتزلة ظنوا أن العبد مستقل بفعله، فهو الذي يخلق فعله، وهذا باطل.

وأهل السنة والجماعة قالوا: نحن نفرق بين قدرة تقوم بالله، وبين ما هو من مخلوقات الله ومفعولاته المنفصلة عنه، فأفعال العباد من مخلوقات الله المنفصلة عنه، فتنسب إلى أصحابها، والكل خلق لله.

قال المصنف رحمه الله [فدل على أن للعبد فعلًا وكسبًا يجزى على حسنه بالثواب، وعلى سيئه بالعقاب، وهو واقع بقضاء الله وقدره] .

وهذا هو المنهج الصحيح في فهم قضية الإيمان بالقضاء والقدر.

وبهذا يتبين لك مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في مسألة القدر، وهي مسألة مهمة، ولكن لنتذكر قول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ''القدر سر الله فلا تكشفوا'' يعني أن القدر من الأسرار التي إذا أتى العبد وخاض فيها فإنه لن يصل فيها إلى مبتغاه، إلا إذا سار على ما دلت عليه النصوص، وقد جاءت في بعض الأحاديث «وإذا ذُكر القدر فأمسكوا» لأن العبد إذا خاض في هذا على غير بصيرة فإنه يقع في الضلال، وسبب ضلال الخلق أنهم دخلوا في تعليل أفعال الله، ودخلوا في البحث في مسائل القدر دون معرفة لما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تائيته القدرية التي ردّ بها على اليهودي الذي شكّك في قدر الله جل وعلا وفي أفعال الله، قال من ضمن ما قال فيها:

وأصلُ ضلالِ الخلْقِ مِنْ كُلِّ فِرقَةٍ ... هو الخوضُ في فعْلِ الإلهِ بعلَّةٍ

فإنَّهُمُ لم يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ ... فصاروا على نَوْعٍ مِنَ الجاهليَّةِ

وهذا ظاهر، في أن العبد المؤمن يتأمل في قصة موسى، وأن موسى أنكر على الخضر بعض الأفعال؛ لأنه لا يعلم الحكمة من ورائها؛ قتل غلاما ما يعلم الحكمة من ورائه فاحتج، وخرق سفينة ما يعلم الحكمة من ورائها فاحتج؛ لأجل نقص علمه في تلك المسائل عن علم الخضر، فكيف بعلم الله جل وعلا مع الخلق، لم يبق لنا في هذا الباب إلا التسليم المحض والعمل الجاد.

أسأل الله أن يهدينا وإياكم إلى سبيله القويم، وأن يفقهنا في دينه، وأن يرزقنا العلم والعمل والسداد والهدى والرشاد .

فصل عن الإيمان

قال المصنف

والإيمان قول باللسان وعمل بالأركان وعقد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان قال الله تعالى {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} فجعل عبادة الله تعالى وإخلاص القلب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كله من الدين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) فجعل القول والعمل من الإيمان وقال تعالى {فزادتهم إيمانا} وقال {ليزدادوا إيمانا}

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من الإيمان) فجعله متفاضلا.

فهذه الجمل فيها ذكر مبحث الإيمان ومعتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان، ومن أوائل المسائل الواقعة في هذه الأمة مما اختلف فيه أهل الفرق عما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان مسألة الإيمان؛وقد أفردنا هذه المسألة بعدة كتب ورسائل خاصة بها منها مقدمة التوحيد ،وشروح رسائل السنة للحميدى ، والمزنى الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل، والبربهارى، وبن زمنين المالكى ،وشرح كتاب الإيمان الأوسط لشيخ الإسلام ،وكتاب مسألة الإيمان ،وحقيقة الإيمان ومنزلة الأعمال ،والجامع في الرد على المرجئة ،وقلما درس أو محاضرة أو موعظة إلا ونتكلم فيها عن التوحيد والإيمان ومنزلة الأعمال وحكم تاركها ،لعموم البلوى في زماننا هذا بأهل الضلال والإنحراف من المرجئة والخوارج والأشاعرة والصوفية القبورية ،نسأل الله أن يهديهم ويطهر الأرض من بدعهم وضلالهم،وسنختصر الكلام هنا ومن أراد التفصيل فليرجع إلي الكتب السابقة .

ومعتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان أنهم يقولون: إن الإيمان هو ما جمع خمسة أمور؛ يعني معتقدهم في الإيمان ما جمع خمسة أمور:

(الأول: اعتقاد القلب.

(الثاني: قول اللسان.

(الثالث: العمل؛ عملٌ بالأركان.

(الرابع: أن الإيمان يزيد بطاعة الرحمان.

(الخامس: أن الإيمان ينقص بمعصية الرحمان وبطاعة الشيطان.

فهذه خمسة أمور تميز بكل واحد منها أهل السنة والجماعة عمّن خالفهم في هذا الأصل، وأدلّة ذلك ظاهرة بينة، فهو قول وعمل.

فالإيمان قول وعمل؛ قول القلب وعمل القلب، وقول الجوارح وعمل الجوارح:

وقول القلب: هو نيته وإخلاصه.

وعمل القلب: هو ما يقوم به من الاعتقاد.

وقول الجوارح: هو قول اللسان.

وعمل الجوارح: هو جنس الأعمال التي تعمل بها الجوارح من طاعة الله جل وعلا.

فهو قول وعمل، فمن قال من السلف إن الإيمان قول وعمل فيعني به هذه الأمور الخمسة؛ لأن قولَه: قول وعمل. يشمل ذلك.

أما زيادته و نقصانه فقد دلت عليها الأدلة الكثيرة، فإذن صار عندنا مسمى للإيمان غير ما تدل عليه اللغة في الإيمان، وذلك أنّ الإيمان:

في اللغة: أصله التصديق الجازم، وقال بعض أهل العلم: إنّ أصله من الأمن؛ لأن من صدَّق جازما فإنه يأمن غائلة التكذيب.

وفي الاصطلاح: عند أهل السنة والجماعة هو ما فسّروه بالأمور الخمسة.

وفي القرآن أتى الإيمان بالمعنى اللغوي وبالمعنى الشرعي، وقد فرّق بين مجيء هذا وهذا في القرآن بعض أهل العلم بقوله ''إن غالب ما جاء فيه الإيمان بالمعنى اللغوي فإنه يُعَدَّى باللام، وما جاء فيه بالمعنى الشرعي فإنه يُعدَّى فيه بالباء''.

فمن الأول: يعني الإيمان اللغوي الذي عُدي باللام قوله جل وعلا { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } [يوسف:17]، فلما قال (بِمُؤْمِنٍ لَنَا) تعدّى الإيمان باللام علمنا أن المعنى هنا الإيمان اللغوي، تقول آمنت لك، يعنى صدّقتك تصديقا جازما، وكما قال جل وعلا { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ } [العنكبوت:26] يعنى صدّق به تصديقا جازما.

أما القسم الثاني: وهو الإيمان الشرعي فإنه يعدّى بالباء { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ } [البقرة:285], { فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ } [البقرة:138] فهذا إيمان شرعي خاص.

وزيادة الإيمان ونقصانه أصل عند أهل السنة والجماعة يخالفون به الخوارج ومن يكفرون بالذنوب.

وينبغي أن يُعلم هنا أن أهل السنة يقولون: لا نكفر بذنب. ويقصدون بذلك لا يكفرون بعمل المعاصي، أما مباني الإسلام العظام التي هي الصلاة والزكاة والصيام والحج ففي تكفير تاركها والعاصي بتركها خلاف مشهور عندهم، فقولهم ''إنّ أهل السنة والجماعة يقولون لا نكفر بذنب ما لم يستحله بإجماع.'' يعني المعصية، أما المباني العظام فإن التكفير عندهم الخلاف فيه مشهور؛ منهم من يكفر بترك مباني الإسلام العظام أو أحد تلك المباني، ومنهم من لا يكفر.

كذلك ينبغي أن يُعلم أن قولنا "العمل داخل في مسمَّى الإيمان وركن فيه لا يقوم الإيمان إلا به." نعني به جنس العمل، وليس أفراد العمل، لأن المؤمن قد يترك أعمالا كثيرة صالحة مفروضة عليه ويبقى مؤمنا، لكنه لا يُسمّى مؤمنا ولا يصحّ منه إيمان إذا ترك كل العمل، يعني إذا أتى بالشهادتين وقال أقول ذلك واعتقده بقلبي، وأترك كل الأعمال بعد ذلك أكون مؤمنا، فالجواب أن هذا ليس بمؤمن؛ لأنّه تركٌ مسقطٌ لأصل الإيمان؛ يعني ترك جنس العمل مسقط لأصل الإيمان؛ فلا يوجد مؤمن عند أهل السنة والجماعة يصحّ إيمانه إلا ولا بد أن يكون معه مع الشهادتين جنس العمل الصالح، يعني جنس الامتثال للأوامر والاجتناب للنواهي.

كذلك الإيمان مرتبة من مراتب الدين، والإسلام مرتبة من مراتب الدين، والإسلام فُسِّر بالأعمال الظاهرة، كما جاء في المسند أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال «الإيمان في القلب والإسلام علانية» يعني أن الإيمان ترجع إليه العقائد –أعمال القلوب–، وأمّا الإسلام فهو ما ظهر من أعمال الجوارح، فليُعلم أنّه لا يصح إسلام عبد إلا ببعض إيمان يصحّح إسلامه، كما أنَّه لا يصح إيمانه إلا ببعض إسلام يصحح إيمانه، فلا يُتصور مسلم ليس بمؤمن البتة، ولا مؤمن ليس بمسلم البتة.

وقول أهل السنة "إنّ كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنا" لا يعنون به أن المسلم لا يكون معه شيء من الإيمان أصلا، بل لابد أن يكون معه مطلق الإيمان الذي به يصح إسلامه، كما أن المؤمن لابد أن يكون معه مطلق الإسلام الذي به يصح إيمانه، ونعني بمطلق

الإسلام جنس العمل، فبهذا يتفق ما ذكروه في تعريف الإيمان وما أصَّلوه من أن كل مؤمن مسلم دون العكس.

والإيمان متفاضل؛ كلما عمل العبد طاعة زاد الإيمان، وإذا عمل معصية نقص الإيمان؛ فبقدر إيمانه؛ فبقدر متابعته وبقدر إحداثه للطاعات يزيد إيمانه، سواء كانت طاعات القلوب من الاعتقادات، أو طاعات الجوارح من الأعمال الصالحات، فإن بذلك زيادة في الإيمان، فإذا عمل معصية نقص الإيمان.

كذلك الناس في أصل الإيمان ليسوا سواء؛ بل مختلفون، فإيمان أبي بكر ليس كإيمان سائر الصحابة، ولهذا قال شعبة أبو بكر بن عياش القارئ المعروف: "ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، وإنما بشيء وقر في قلبه." وهذا مستقاً من بعض الأحاديث أو من بعض الآثار، يعني أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – كان معه من أصل الإيمان ما ليس عند غيره، فيُغلِّطُ أهل السنة من قال: إن أهل الإيمان في أصله سواء، وإنما يتفاضلون بعد ذلك بالأعمال. بل هم مختلفون في أصله.

وفهم معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان يمنع من الدخول في الضلالات؛ من التكفير بالمعصية، أومن التكفير بما ليس بمكفر، فمن فهم معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان، حصّن لسانه وعقله من الدخول في الغلو في التكفير، وإتّباع الفرق الضالة التي سارعت في باب التكفير، فخاضت فيه بغير علم، فكفّروا المسلمين، وأدخلوا في الإسلام والإيمان من ليس بمسلم ولا مؤمن.

وحتى يسلم المسلم من الإرجاء ويعرف أنه ليس من المرجئة

عليه أن يعتقد أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ،يزيد وينقص ، وهو أصل وشعب ،ولا يزول بالكلية إلا بزوال أصله ،وأن الأعمال ركن فيه وتدخل في مراتبه الثلاثة ،وأن تارك أعمال الجوارح بالكلية مع القدرة والتمكن وعدم العجز كافر، معرض عن العمل متول عن الطاعة ،وأن الكفر يكون بالقول المكفر ،والعمل المكفر ، والاعتقاد المكفر ،والترك المكفر ، وأن الكفرالأكبر لا يتقيد بالإعتقاد ولا الجحود والاستحلال ،من اعتقد ذلك فقد سلم وبرئ من الإرجاء ،وقد فصلنا ذلك في تسعة عشر كتاباً في الرد على المرجئة وبدعة الإرجاء ،منها الجامع في الرد على المرجئة في خمسة ألاف صفحة ،وغير ذلك مما كتبه أهل السنة .

وحتى يسلم المسلم من الغلو في التكفير ويعرف أنه ليس من الخوارج ولا فيه صفة من صفاتهم .

عليه أن يعتقد أن :-

-الأصل في الناس الإسلام ،وقد فصلنا ذلك في، الإعلام بأن الأصل في الناس الإسلام.

-وكل من ثبت له الإسلام بيقين لا يزول بالشك أو الظن أو الإحتمال والتأويل ،وقد فصلنا ذلك في الرد على الخوارج وأهل الغلو والتوقف والتبين .

-وأن الأصل في المسلم السلامة وحسن القصد ،وقد فصلنا ذلك في ،الوجاء من شبهات الخوارج والإرجاء .

-وأنه لا تلازم بين الفعل والفاعل (التفريق بين الإسم والحكم والعقوبة) وأن العقوبة والمؤاخذة لا تكون إلا بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع لأن الأحكام لا تثبت إلا بعد العلم بها والقدرة علي العمل ،وقد فصلنا ذلك في العذر بالجهل أسماء وأحكام ،واسم مرتكب الشرك الأكبر في الوحيين وعند الصحابة رضى الله عنهم ،والغلو أسبابه وصوره وعلاجه.

-الحكم على الفعل أنه كفر ،لا يستلزم منه أن نكفر الفاعل إلا بعد البيان،فليس كل كافر محارب ،وليس كل كافر معذب ،وقد فصلنا ذلك في التنبيهات ،والجامع في الرد على الخوارج وأهل الغلوفى التكفير

-التكفير بلوازم الأقوال ومآلاتها قبل عرضها على القائل والتزامها من أكبر صفات الخوارج وأهل الغلو قديماً وحديثاً ،فتجدهم يكفرون المسلمين ، والدعاة والعلماء ،بل والمجاهدين ،بل كل من يخالفهم من الحركات والفصائل الإسلامية العاملة للإسلام ونهضة الأمة فيكفرونهم بلوازم كلامهم من غير أن يعرضوه عليهم ومن غير أن يلتزموه ،بل يفرون من هذه اللوازم الباطلة وينكرونها ، ينكرون الديمقراطية بمفهومها المخالف للإسلام ،وينكرون العلمانية وفصل الدين عن الحياة ، ينكرون سب الصحابة وأمهات المؤمنين ولا يرضون به،

وما قامت الحركات والفصائل الإسلامية الدعوية منها والجهادية بعد سقوط الخلافة قبل مائة سنة إلا للدعوة إلى التوحيد والحاكمية والتشريع وإقامة دين الله ونشره في الأرض وعودة الخلافة ،كل بطريقته وفهمه وما يراه في واقعه حسب اجتهاده ،فاتفقوا في الأصول

والتأصيل ، وإن اختلفوا في مناطات الاجتهاد والتنزيل ، ولا يلتزمون كل هذه اللوازم الباطلة،فكيف تكفرهم بكل هذه اللوازم التي لا يلتزمون بها ولا يقرونها وعند عرضها عليهم ينكرونها ويفرون منها !! فالتكفير باللازم والمآل لا يكون إلا بعد عرضها على القائل والتزامها ،فكيف تكفر مسلم أو داعية أو مجاهد بلازم قوله عندك من غير أن يلتزمه هو أو يقر به؟ ومن قبل أن تعرضه عليه ،ومعلوم أن من خصائص أهل السنة أنهم لا يكفرون باللازم .وقد فصلنا ذلك في شرح خصائص أهل السنة ،ومعالم الانطلاقة الكبرى ،وضوابط تكفير المعين.

-أن التكفير لا يلزم غير صاحبه ،فأنت ملزم باجتهادك وغيرك غير ملزم به إطلاقاً إذ رآه راجحاً لا مرجوحاً ،فالظهور العينى والثبوت الفردى ليس فيه إلزام للغير مالم يكن ثبوتاً قطعياً عاماً جماعياً ،فلا تلزم غيرك بقولك واجتهادك في مسائل الخلاف والنوازل وتجعلها قواطع أصلية تكفر وتبدع من خالفك فيها من المسلمين ،وإن كانوا علماء ومجاهدين وطلاب علم،وقد فصلنا ذلك في شرح قاعدة من لم يكفر الكافر وتكفير العاذر،والإسلام قواعد وأصول ،والدولة الإسلامية .

-من أظهر صفات الخوارج وأهل الغلو جرأتهم على العلماء والدعاة والمشايخ فلا يرعون لأهل العلم حرمة ،ولا يعطون لذى الشيبة المسلم حقه ،فلا يحترمون العلماء ولا يوقرون أهل العلم ،وعندهم جرأة عجيبة على المعارضة ومخالفة أهل الحل والعقد من العلماء والأمراء ،وتسفيه أرائهم وتبديعهم وتكفيرهم لمجرد أن خالفوهم في إجتهاد أو نازلة أو مسألة خلافية فتجد الفظاظة والغلظة مع الشيوخ والعلماء الذين تعلموا منهم أداب طالب العلم أمس تجدهم اليوم قرناء لهم يجادلونهم بغير علم ويعارضون الحق بالظن والشبهات ،ولسان حالهم – هم رجال ونحن رجال – ولا أعلم سبباً لهذه الجرأة وسوء الأدب مع العلماء والأمراء والقادة -والله أعلم – إلا من سوء الظن بالناس والعلماء واحسان الظن بأنفسهم ، واستقلالهم بالفهم عن شيوخهم والاعتداد برأيهم ،وتسويل الشيطان لهم سوء أعمالهم وفعالهم ،فأضلهم عن سواء السبيل ،وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ،وأنهم ينصرون الدين وأنهم على الحق المبين !! وهذه الصفة صفة يهودية ،فاليهود قوم بهت كما قالوا عن عبد الله بن سلام حين خالفهم وأسلم ،وحقيقة عندما تأملت هذه الصفة الذميمة عند الخوارج وأهل الغلو قديماً ،ووقوع بعض الشباب وطلاب العلم فيها بين مقل ومستكثر، ورأيت كيف اعترضوا على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو رسول الله ويعلمون أنه مؤيد من السماء وينزل عليه جبريل بالوحى وكلام رب العالمين ،كيف اتهموه بعدم العدل في القسمة ،ثم كيف اعترضوا على أمير المؤمنين الخليفة الراشد المبشر بالجنة ذو النورين عثمان شهيد البررة وقتيل الفجرة كيف اتهموه بالخيانة وعدم الأمانة ودخلوا عليه داره وأهانوه وضربوه وقتلوه وهو شيخ كبير شاب في الإسلام ،وهو الأمير والخليفة ،لم يحترموا مكانته ولا شيبته ،ومع ذلك يظنون أنهم على الحق وينصرون الحق ودين الله ويجاهدون المشركين والكفار عثمان من الكفار !!

وتأمل كيف قتلوا أمير المؤمنين والخليفة الراشد والإمام العادل على بن أبي طالب بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته ومن السابقين للاسلام وأركانه العظام !!

وإن تعجب فتعجب لقتلهم حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته الزبير بن العوام رضى الله عنه وكيف جائتهم الجرأة لقتله وقطع رأسه والفرح بذلك !!

عندما أتأمل هذه المواقف لخوارج الأمس وأري بعض صفاتهم في خوارج اليوم أو ممن اتصف ببعض صفات الخوارج وأهل الغلو فى التكفير من بعض طلبة العلم أو المجاهدين أو من الشباب الذى يغلب عليه الحمية بجهل، والغيرة على الدين بهوى، وحماس غير منضبط ،أشفق عليهم ،فهم لم يجدوا المحضن التربوى الصحيح في بداية طلبهم للعلم ،ولم يوفقوا لصاحب سنة في أول طريق الاستقامة على دين الله يأخذ بأيديهم برفق ورحمة ويصبر عليهم،بل رأينا العكس ،رأينا بعض أهل العلم ينفروهم ويحذرون منهم دون تثبت مداهنة للطواغيت والحكومات والأنظمة ،رغبة ورهبة ،مع انتشار لوثة الإرجاء وتأليه الحكام وولاة الأمر،والسكوت على المنكرات والبدع والكفريات ،ولم يسعهم الصمت والسكوت عن قول الحق ، بل تكلموا بالباطل ،فياليتهم سكتوا عن إنكار المنكر وقول الحق ،كان عذرهم عند الله في عدم قولهم الحق ، لكن ليس لهم عذر في قول الباطل والسكوت عنه ،في حين أنهم لم يسكتوا عن أخطاء المسلمين ولا الدعاة والمجاهدين ،مما جعل بعض هؤلاء الشباب يغار لدينه ويغلوا فيه شيئاً فشيئاً حتى صار عنده عقيدة ومنهج وهو لايدري ،فرأينا هؤلاء يعترضون على القادة والأمراء في أرض الجهاد وينشقون عنهم ،ويخرجون عليهم بالسلاح ،بل وقاتلوا قادتهم وسفكوا دماء أمرائهم وإخوانهم ،وخانوا وغدروا بشيوخهم حتى قتلتهم طائرات التحالف الصليبى والأنظمة الكافرة المرتدة في فجائع مؤلمة وأحداث موجعة.

هؤلاء الشباب فيهم خير كثير ،وحب لله ولرسوله ،ونصرة للتوحيد والسنة ، وبعضهم ماخرج وهاجر ونفر إلى الساحات إلا من أجل هذا ،فالحكم عليهم جميعاً أنهم غلاة وخوارج ،ظلم وعدم إنصاف لهم ، فليس كل أهل الدعوة والتوحيد والجهاد خوارج أو غلاة ،بل رأينا والله فيهم ومن بينهم أهل الصدق والإخلاص والتجرد في قبول الحق ،رأينا فيهم ومنهم طلبة العلم النجباء ،والدعاة والعلماء على منهج أهل السنة والجماعة ،والأسماء كثيرة وكتبهم شاهدة لهم عرفها من قرأ لهم وسمع منهم ولم يسمع عنهم ، فهؤلاء الشباب يحتاجون من يرفق بهم ويصبر عليهم ويعلمهم ويشرح لهم ويزيل عنهم الشبهات ويرفع عنهم الإلتباس في المفاهيم والأفكار الخاطئة ،كما فعل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مع الحرورية والمحكمة من الخوارج وأهل الغلو، فناظرهم وصبر على حماقتهم وجهلهم وسوء أخلاقهم وفظاظتهم وغلظتهم ،فنفعهم الله به ورجع ألاف منهم إلى الحق ،بالعلم والحكمة والصبروالإحسان والإحتساب نصل إلى قلوب الناس وننصر دين الله وندعوا إلى الحق ونرحم الخلق ،هكذا هم أهل السنة والجماعة.

ومع هذه الكتب الكثيرة والشروحات المتكررة لكتب التوحيد والسنة التى فصلنا فيها مذهب أهل السنة والجماعة وخصائص الفرقة الناجية والطائفة المنصورة ،ورددنا على الفرق المخالفة لهم في باب الإيمان والكفر ،التي تربوا على ثلاثين كتاباً منهجياً متخصصاً ،إلا أن بعض الطلبة لم يضبط بعد مذهب أهل السنة والجماعة في باب التكفير فتجده عند النوازل والفتن يكفر باللازم والتأويل والمآل والشبهة والظن والإحتمال ،مع أنه في التنظير منضبط أما في الحوادث والأعيان تجده يجنح إلى الغلو دون أن يدرى أنه وقع في الغلو واتصف بصفات الخوارج نسأل الله السلامة والعافية وحسن الفهم عن الله ورسوله

ثم ذكر المصنف مسائل الإيمان وما يتعلق بها:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان:

لغة: هو بمعنى التصديق والإقرار، قال تعالى: {وما أنت بمؤمن لنا} أي بمصدق

ووقع خلاف في تعريف الإيمان شرعاً على النحو التالي:

١ – مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وهذا بإجماع السلف.

قال البخاري في كتابه خلق أفعال العباد: أدركت ألفاً من العلماء كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل.

٢ – مذهب الجهمية: ويسمون غلاة المرجئة، والإيمان عندهم المعرفة والعلم فقط، ولا يدخلون غيره في مسمى الإيمان، فمن عرف الله وعلم بالله فهو مؤمن كامل الإيمان، وذكر مذهبهم هذا ابن بطة في كتابه " الإبانة الكبرى".

وذكره أيضاً ابن تيمية في كتابه " الإيمان "، وذكره أبو يعلى في كتابه "الإيمان"، وذكره أبو عبيد في كتابه " الإيمان "، وذكره أبو الحسن الأشعري في كتابه "مقالات الإسلاميين"، لما ذكر اعتقادات المرجئة ويلزم من كلامهم أن إبليس مؤمن لأنه يعرف الله، ويلزم منه أن فرعون وقريشاً وأبا طالب من أهل الإيمان؛ لأن عندهم العلم والمعرفة بالله تعالى، ولذلك سموا غلاة المرجئة.

٣ – – مذهب الكرامية: عندهم الإيمان قول اللسان فقط فلا يُدخلون التصديق وإنما هو المعرفة مع القول، فمن عرف الله وقال بلسانه كلمة التوحيد فهو مؤمن، وهم يقولون أن المنافق مؤمن وهذا نص كلامهم لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، وفي الآخرة كفار مخلدون، وفي الدنيا مؤمنون، وهم يأتون في المرتبة الثانية في الغلو بعد الجهمية.

٤ . مذهب الأشاعرة: وهم في باب الإيمان مرجئة، وقولهم قريب من قول الجهمية، وإن كانوا أحسن منهم باعتبار، إلا أنهم أضافوا مع المعرفة التصديق، فقالوا " الإيمان هو المعرفة والتصديق".

٥ – مذهب الماتريدية: وهم طائفة من المرجئة، ومذهبهم أن الإيمان هو المعرفة بالإضافة إلى الإقرار والتصديق ولكن لا يُدخلون العمل في مسمى الإيمان، وهم في هذا كالاشاعرة.

٦ . مذهب مرجئة الفقهاء: ومذهبهم في الإيمان أن القول والتصديق مع بعض أعمال القلوب كالمحبة والتعظيم وعدم الاستخفاف فالإيمان قول واعتقاد وبعض أعمال القلوب ذكر ذلك عنهم الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين لما تكلم عن المرجئة المحضة وقاله ابن تيمية في كتابه الإيمان.

٧ . مذهب المرجئة المعاصرة (ويدخل معهم في ذلك العصرانيين في الجملة): فهؤلاء عندهم الإيمان هو المعرفة وأيضاً التصديق والإقرار ولا يدخلون العمل في مسمى الإيمان وهذه فرقة فيهم وأكثرهم يُدخلون العمل في مسمى الإيمان، لكن الأعمال ليست شرطاً إنما هي شرط للكمال، ولا يكفرون بالأعمال، وإنما الكفر عندهم الاستحلال والتكذيب، وإذا صدر من إنسان كفراً أو أعمالاً دلت النصوص على أنه كفر لم يكفروا بها حتى يظهر بلسانه الاستحلال أو التكذيب.

٨ – مذهب الخوارج والمعتزلة: عندهم أن الإيمان قول وعمل واعتقاد كمذهب السلف إلا أن معنى العمل عندهم كل الطاعات، أي كل الطاعات إيمان وكلها شرط في الإيمان ويكفر إذا تركها، والسلف عندهم الأعمال منها ما هو شرط يكفر بتركه ومنها ما هو واجب يفسق بتركه ومنها ما هو مندوب.

٩ . أما الخوارج المعاصرة اليوم فهم من يكفر الناس (أي المجتمعات المسلمة) بدون تفصيل، أو من يكفر بالعموم باعتبار الأفراد والأعيان ولا يستثني أحدا منهم، وبعضهم لا يكفر بالعموم لكن عنده توقف وتبين فيمن ظاهره الإسلام اليوم حتى يتضح إسلامه.

١٠ . أما مذهب الحكام والعلمانيين اليوم في الإيمان فهو الصلاة والحج والصيام فقط أما الحكم والتشريع والسياسة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة وقضايا المرأة والتعليم والاجتماع والتغيير والمواجهة فليست من الإيمان بل هي تطرف وإرهاب وتدخل فيما لا يعني.

أما غلاة العلمانية كالشيوعيين والحداثيين فهم لا يعترفون أصلا بالدين قاتلهم الله جميعا ولعنهم لعنا كبيرا.

هذا مذاهب الناس في الإيمان.

قال المصنف: **(والإيمان قول باللسان)** فجعل القول باللسان، مثل الشهادتين، وهذه أعلى إيمان اللسان، ومثل التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثال ذلك.

قال: **(وعمل بالأركان)** فجعل العمل يدخل في مسمى الإيمان.

قوله: **(وعقد بالجنان)** ويقصد بالعقد أي الاعتقادات وهي ما في القلب من عقيدة، ويسمي بعض السلف عقد الجنان بقول الجنان، ومحلة في القلب محل التصورات والعلم والفكر، وهو التصديق بكل ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام والعلم به ومعرفته لكن معرفة مصحوبة بصدق واطمئنان.

قال (يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان) وهذه مسألة زيادة الإيمان ونقصانه والناس في هذا مذاهب:

١ - **مذهب السلف:** وهو أن الإيمان يزيد وينقص.

٢ - **قول المرجئة قاطبة:** سواء منهم الجهمية والكرامية أو الأشاعرة أو مرجئة الفقهاء، فكلهم يقولون الإيمان لا يزيد ولا ينقص بل هو شيء واحد؛ لأن الإيمان عندهم التصديق وهو لا يزيد ولا ينقص، وكذا المعرفة والعلم ما عدا بعض المرجئة المعاصرة فإن الإيمان يزيد وينقص عندهم كمذهب السلف.

٣ - **مذهب الخوارج والمعتزلة:** عندهم الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه إن نقص فهو كفر، ولا يمكن أن تقع فيه الزيادة، إلا أن المعتزلة عندهم تفصيل في مسألة الزيادة، فهو باعتبار الإيمان لا يزيد ولا ينقص، أما باعتبار المكلف والتكليف يزيد، فالغني الذي عنده مال التكليف عليه أكثر فيجب عليه الزكاة، فهو أكثر إيماناً من الفقير الذي لا تجب عليه الزكاة، فمن هذه الحيثية إيمان هذا أزيد من إيمان ذاك.

وعند هؤلاء الطوائف ما عدا أهل السنة أن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، ولا يتفاضل الناس في الإيما ن، فإيمان أبي بكر كإيمان أي شخص من المؤمنين، وإيمان الصحابة كإيمان التابعين.

مسألة: الإيمان له أول فهل له نهاية – سقف ينتهي إليه –؟.

الجواب: له أول وليس له نهاية، ذكر ذلك الإمام ابن بطة في كتابه الإبانة الصغرى، في فصل " الإيمان ".

مسألة: في مرجئة الفقهاء وفي الأشاعرة وفي الماتريدية:مر علينا أنهم لا يدخلون العمل في مسمى الإيمان، ولا يسمون الأعمال إيماناً، فماذا يسمونها.

الجواب: يسمونها ثمرات الإيمان، أو شعائر الإيمان، أو نتائج الإيمان، أو دلائل الإيمان، لكن مهما كان الحال لا يسمونها إيماناً.

ولذا يُنتبه فيكون الإنسان على حذر حينما يقرأ بعض كتب العقيدة أو فضائل الأعمال، فإذا أرادوا أن يذكروا الفضائل قالوا: شعائر الإيمان، أما السلف يقولون كتاب الإيمان فيذكرون الأعمال،وقد فصلنا ذلك في شرح السنة للبربهارى والإيمان الأوسط لشيخ الإسلام.

ثم ذكر المصنف عدة أدلة على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص، فذكر ثلاثة أدلة من القرآن ودليلين من السنة.

ثم ذكر في آخر الفصل مسألة تفاضل الإيمان وهو عند السلف يتفاضل ويقع التفاضل على شيئين: أ – الإيمان يتفاضل. ب – المؤمنون يتفاضلون فيه.

فالإيمان بعضه أفضل من بعض، فالشهادة إيمان وهي أفضل من الصلاة وهكذا، والمؤمنون يتفاضلون، فالأنبياء أفضل، وأبو بكر مثلاً أفضل أمة محمد وهكذا، والصحابة أفضل من التابعين، وهكذا.

ولذا قال المصنف –لما ذكر الإيمان– ﴿ فجعله متفاضلاً ﴾.

فصل: الإيمان بالمغيبات

قال المصنف: **ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وصح به النقل عنه فيما شاهدناه أو غاب عنا نعلم أنه حق وصدق وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه مثل حديث الإسراء والمعراج وكان يقظة لا مناما فإن قريشا أنكرته وأكبرته ولم تنكر المنامات.**

ومن ذلك أن ملك الموت لما جاء إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه لطمه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فرد عليه عينه)

ومن ذلك أشراط الساعة مثل خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج وخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها وأشباه ذلك مما صح به النقل.

وعذاب القبر ونعيمه حق وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منه وأمر به في كل صلاة.

وفتنة القبر حق وسؤال منكر ونكير حق والبعث بعد الموت حق وذلك حين ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور {فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون} ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ويحاسبهم الله تبارك وتعالى وتنصب الموازين وتنشر الدواوين وتتطاير صحف الأعمال إلى الأيمان والشمائل {فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا} والميزان له كفتان ولسان توزن به الأعمال {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون} ولنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حوض في القيامة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأباريقه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا والصراط حق يجوزه الأبرار ويزل عنه الفجار.

ويشفع نبينا صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر فيخرجون بشفاعته بعدما احترقوا وصاروا فحما وحمما فيدخلون الجنة بشفاعته ولسائر الأنبياء

والمؤمنين والملائكة شفاعات قال تعالى {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} ولا تنفع الكافر شفاعة الشافعين.

والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان فالجنة مأوى أوليائه والنار عقاب لأعدائه وأهل الجنة فيها مخلدون {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون}.

ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال ((يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت)

هذه الجمل مشتملة على أصل عند أهل السنة والجماعة، وهو أنهم يسلمون بما جاء من النصوص في أمور الغيب، ولا يدخلون في ذلك متأولين بآرائهم وأفهامهم، وإنما يسلمون الجميع مما جاء من الأمور الغيبية، ويصدّقون دون دخول في تأويل أو تحريف، وذلك لأنّ الأحاديث بل والآيات التي فيها ذكر الأمور الغيبية مما خاض فيه المبتدعة من العقلانيين المعتزلة ومن نحى نحوهم، فأنكروا كثيرا من تلك الأحاديث التي فيها بعض أخبار الغيب، مثل ما جاء في حديث الإسراء من بعض الأوصاف، ومثل ما جاء من أن موسى عليه السلام فقأ عين ملك الموت، من مثل ما أخبر به النبي – صلى الله عليه وسلم – به مما يكون في الساعة، فينكرون حقائق ذلك ويؤولونه ويحرفونه.

وأهل السنة عندهم أمور الغيب بابها واحد؛ وهو أن يُسلَّم لكل نص دون دخول في حقيقة المعنى، لأن الأمر الغيبي إنما يسلمون فيه بظاهر المعنى الذي دل عليه النص، أما ما عليه حقيقة تلك الأحوال فإنهم يكلُون علمها إلى بارئها؛ لأنها أمور غيبية، فكل ما أخبر به النبي – صلى الله عليه وسلم – مما لم نرَه، سواء مما سيكون قرب قيام الساعة، أو سيكون بين موت كل عبد إلى قيام الساعة –يعني في الحياة البرزخية–، أو ما يكون في عرصات القيامة ويوم القيامة، كل ذلك يجعلونه بابا واحدا فيسلمون به ويثبتونه كما جاء، ولا يدخلون فيه متأولين ولا محرفين، وهذا بناء على أن الواجب على العباد أن يؤمنوا بظواهر الألفاظ، وأن يؤمنوا بظاهر الأدلة، ولا يدخلون في ذلك، مخرجين الأدلة عما دلّ عليه ظاهرها، لأن الأصل في الكلام الحقيقة، وهو ذكر عدة أمثلة، وسيأتي ذكر عدة أمثلة أخر مما سنوضحه إنشاء الله تعالى، لكن ليُعلم الأصل أنّ كل من دخل في أحاديث الغيب؛ الأحاديث التي فيها أمور غيبية، أو بعض الآيات، ودخل متأولا بعقله، محرفا عن ظاهره، فهو من أهل الأهواء والبدع،

وقد ظهر في هذا الزمان طائفة ممن يحكّمون عقولهم على النصوص، ويستنكرون مثل هذه الأحاديث التي فيها ذكر الغيب، ويحرفون ويؤولون، فأحاديث المسيح الدجال أنكروها وقالوا هذه لا تعقلها العقول السليمة، وحديث فقأ موسى لعين لملك الموت أولوه وقالوا هذا لا تعقله العقول السليمة، وهكذا فيما يكون في عرصات القيامة، و ما يكون في القبر، حتى جعل بعضهم عذاب القبر إنما هو صوري، ونعيم القبر إنما هو صوري، وليس له حقيقة, قالوا لأن ذلك غير معقول، على ما جاء تفصيله في بعض الأحاديث مثل ضغطة القبر، ومن مثل إقعاد الميت ونحو ذلك، مما سيأتي بيانُه ،فعذاب القبر ونعيمه حق، وفتنة القبر حق, ونعني بفتنة القبر سؤال الملكين الميت عن ربه وعن دينه وعن نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –، فأما المؤمن فيجيب فيقول ربي الله، يعني معبودي الله، إن الرب هاهنا بمعنى المعبود، لأن الابتلاء وقع في العبادة لم يقع في توحيد الربوبية، ويقول محمد جاءنا بالبينات والهدى، ويقول ديني الإسلام، { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [إبراهيم:27]، قوله هنا (فِي الْآخِرَةِ) يعني عند الممات، يعني حين سؤال الملكين، فعذاب القبر ونعيمه حق، وما يجري في القبر من النعيم والعذاب حق، يثبته أهل السنة والجماعة، ونفاه من نفاه من أهل البدع والضلالات، قال جل وعلا في سورة غافر { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر:46]، فجعل **العذاب بالنار على قسمين:**

يعرض أولئك على النار غدوا وعشيا.

ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب.

وهذا نفهم منه أنه يعني بالغدو والعشي عذاب القبر، ولهذا استدل أهل السنة والجماعة على عذاب القبر بالقرآن وبالسنة، وبما يدل عليه العقل أيضا، فعذاب القبر حق، وما يحصل فيه من نعيم وبسط وسعة في قبر المؤمن، وضيق وحسرة ونار في قبر الكافر، هذا كله حق، ولا نعلم كيفية حصول ذلك.

كذلك ضغطة القبر حقّ لا يسلم منها أحد، لا المسلم ولا غير المسلم؛ فالكافر يضغط حتى تختلف أضلاعه عذابا، وأما المؤمن فيضغطه القبر، قال أهل العلم: ضمة القبر للمسلم كضمة الحبيب للحبيب يصله منها بعض الأذى، ولكنها ضمة حبيب لحبيبه. يعني أن ضمة القبر

حق، ولكنها للمؤمن ضمة حب، وللكافر ضمة بغض وعذاب، وهذا كله يضعه جل وعلا ويخلقه جل وعلا في الأرض، فتضم هذا وتضم هذا، وفرق بين تلك الضمّة وتلك الضمّة.
الناس يحشرون يوم القيامة، فالناس إذا ماتوا وكانوا في قبورهم يَبلى كل شيء من ابن آدم إلا عَجْبَ الذنب، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما أنّ أبا هريرة قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «كل شيء يبلى من ابن آدم إلا عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة» فتبقى هذه البذور لآخر العظام عظام العمود الفقري, عجب الذنب، يبقى في الأرض كبذرة ينبت منها جسم صاحبها إذا أراد الله جل وعلا بعث الورى، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، وماتت الخلائق جميعا إلا من شاء الله، بعث الله جل وعلا سحابا يحمل مطرا كمني الرجال، فتُمطر الأرض منه أربعين صباحا، فتنبت منه أجسام الورى, تنبت منه أجسام الناس، حتى تكون على أكمل هيئة شباب في سن ثلاث وثلاثين، الصغير والكبير يكونون على هذا السن إلا بعض الخلائق، ثم إذا كانوا و شبّت أجسامهم وأخرجت الأرض أثقالها ولم يكن في الأجسام أرواح، نُفخ في الصور نفخة البعث، فتنطلق الأرواح من الصور إلى نفس كل صاحب نفس، فتهتز الأجسام بالأرواح، ويحشرون إلى أرض المحشر، وصف ذلك ابن القيم رحمه الله في نونيته وصفا بليغا جيدا يحسن حفظه من طالب العلم فقال رحمه الله:

وإذا أرادالله إخراج الورى   بعد الممات إلى المعاد الثاني
ألقى على الأرض التي هم تحتها   والله مقتدر وذو سلطان
مطرا غليظا أبيضا متتابعا   عشرا وعشرا بعدها عشران
فتظل تنبت منه أجسام الورى   مثل النبات كأجمل الريحان
حتى إذا ما الأم حان ولادها   وتمخضت فنفاسها متداني
أوحى لها رب السماء فتشققت   فإذا الجنين كأكمل الشبان

ثم إذا بعث الله جل وعلا الناس ورجعت الأرواح إلى الأجسام سيق الناس إلى أرض المحشر؛ منهم الراكب، ومنهم من يُساق سوقا، منهم السعيد في حشره إلى أرض المحشر، ومنهم من يفد على الرحمن وفدا، ومنهم من يساق إلى جهنم وردا, في عرصات القيامة تكون أمور عظام.

ومنها حوض نبينا – صلى الله عليه وسلم –، والحوض يكون في أول ما يقدم الناس على عرصات القيامة، يكون حوض النبي – صلى الله عليه وسلم – وماؤه من نهر الكوثر في الجنة، كما جاء إثبات ذلك في غير ما حديث بأن الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة، وقد قال الله جل وعلا لنبيه: { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } [الكوثر:1]، والكوثر نهر من أنهار الجنة، وبعضهم قال الكوثر هو الحوض، وكلا القولين صحيح؛ لأن الحوض ماؤه من نهر الكوثر الذي في الجنة، ومن أهل العلم من يقول إن الحوض بعد الصراط، أي بعد عبور الصراط يكون الحوض. ولكل نبي حوض وقد جاء ذلك في بعض الأحاديث وفي إسنادها بعض الشيء، لكن أهل العلم منهم طائفة كبيرة يقولون: ولنبينا حوض ولكل نبي حوض، لكن يختص حوض نبينا عليه الصلاة والسلام بخصائص منها أنه أكثر الأحواض ورودا عليه، وأن الناس منهم من يرد و منهم من يذاد عنه, ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، آنيته كعدد نجوم السماء، وطوله شهر وعرضه شهر، يفد عليه من لم يحدث في الدين حدثا، ومنهم يُرَدُّ عن الورود عن حوض النبي – صلى الله عليه وسلم –، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام «أصحابي, أصحابي» وفي لفظ «أمتي, أمتي» فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك.

ولهذا قال أهل العلم: إن من أسباب عدم ورود حوض النبي – صلى الله عليه وسلم – و الذود عليه والحرمان منه المحدثات، فمن كان محدثا في الدين حدثا أو آوى محدثا فإنه يحرم من السقيا من حوض نبينا – صلى الله عليه وسلم –.

كذلك في عرصات يوم القيامة الميزان والميزان جنس للموازين قال جلّ وعلا { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [الأنبياء:47] وقال جل وعلا { فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } فهي موازين، ومن أهل العلم من قال إنه ميزان واحد، وهاهنا نبه المؤلف رحمه الله تعالى إلى أن الميزان حقيقة، فقال (له كفتان ولسان) ويعني بذلك مخالفة المعتزلة الذين قالوا إن الميزان لا يُعقل أن تكون حقيقته في الآخرة كحقيقته في الدنيا: أنه توزن به الأمور. ويوزن في الميزان العمل، وصاحب العمل، وصحائف الأعمال، العمل واحد، صاحب العمل يوزن، وصحائف الأعمال، ومنهم من قال يعني من أهل العلم: إن وزن صاحب العمل هو وزن عمله. لكن هذا جاء أحاديث فيها وزن صاحب العمل، وفيها وزن الصحائف؛ صحائف الأعمال.

كذلك ما في عرصات القيامة تطاير الصحف، والناس على صنفين: منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله وراء ظهره، فيكون ذلك التلقي للكتب من اليمين وعن الشمال، بشارة للمؤمن، وحسرة على الكافر، كما جاء ذلك في سورة الحاقة مبيّنا.

الصراط حق، وهو دحض مذلة، يمر عليه الناس، فمنهم من يمر عليه كالبرق، ومنهم من يمر عليه كأسرع جواد، ومنهم يمر عليه يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم من يمشي تارة ويكبو تارة، ومنهم من يزل عنه فيخر في جهنم، منصوب على متن جهنم، والمرور عليه ذلك هو الورود الذي قال الله تعالى فيه في سورة مريم { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } [مريم:71] فقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنّه فسّر ذلك بالمرور على الصراط.

وكل ما يكون في القيامة مما صحّت أسانيده عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، وعُدّلت نقلته، وأثبته أهل العلم، أو جاء في الآيات في الكتاب العظيم، كل ذلك يثبته أهل السنة دون أن ينفوا من ذلك ما لم تعقله عقولهم أو تدركه أفئدتهم، وإنما يجعلون ذلك الباب باب غيبيات، بابه التسليم، ومداره على الاستسلام لخبر من لا معقب لخبره، لخبر من هو صادق في خبره، لا يعلم حقيقة الأمر إلا هو، وليس أحدا يعلم إلا هو جلّ وعلا، أو ما أخبر به رسولُه – صلى الله عليه وسلم –، فكل ذلك حق من كل تفاصيل ما يجري في يوم القيامة.

وكذلك من الإيمان بالغيب إثبات الشفاعة يوم القيامة وهذا مما تميز به أهل السنة و الجماعة، فهناك شفاعة متفق عليها، وهي الشفاعة العظمى، وهو أنه – صلى الله عليه وسلم – يشفع للناس عند ربه جل وعلا في أن يسرع في حسابهم؛ ليرتاحوا من هول الموقف وما فيه من أمور عظام، وذلك كما جاء في حديث الشفاعة الطويل، مِنْ أنّ الناس يذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام، فيرجعون ويعتذرون عن الشفاعة، يسألهم الناس أن يدعوا الله جلّ و علا ليريحهم من الموقف، ويعجل عليهم الحساب، فيعتذرون عن الشفاعة، ثم يأتون النبي – صلى الله عليه وسلم – فيطلبون منه الشفاعة، فيقول: «أنا لها، أنا لها» وذلك أن الله جل وعلا أعطى كل نبي من الأنبياء دعوة يستجاب له فيها جزما، قال عليه الصلاة والسلام «لكل نبي دعوة مجابة، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» وهذا يحصل بالشفاعة العظمى، ويحصل أيضا

بالشفاعة الخاصة للمؤمنين؛ ممن دخل النار أن يخرج منها وممن استحق الجنة أن يدخل الجنة، فيأتي النبي – صلى الله عليه وسلم – بين يدي العرش فيسجد بين يدي الله جل وعلا، ويحمد الله بمحامد، فلا يتعجل الشفاعة، ولا يتعجل الدعاء؛ بل يُثني على الله جل وعلا بما هو أهله، قال عليه الصلاة والسلام «فأخرّ ساجدا بين يدي العرش، فأحمد الله بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن، ثم يقول جل وعلا: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع» وهذه هي الشفاعة العُظمى؛ الشفاعة في تعجيل حساب الناس، فيبدأ الحساب.

من الشفاعات التي يؤمن بها أهل السنة والجماعة ما أعطيه نبينا عليه الصلاة والسلام من أنه يشفع لأناس استحقوا النار ألاّ يدخلوها، ويشفع لأناس دخلوا النار أن يخرجوا منها، ويشفع لمن استحق الجنة أن يدخلها ولا يتأخر عنها، وكذلك هذا الجنس من الشفاعة ثابت أيضا للمؤمنين؛ فالمؤمنون يشفعون فيمن شاءوا أن يشفعوا فيه من بعد إذن الله لمن شاء ويرضى، يشفعون ويخرج بشفاعتهم بعض من شفعوا فيه من النار، وكذلك الملائكة تشفع، كما جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة من أن النبي – صلى الله عليه وسلم – روى عن ربه أنه يقول يوم القيامة «شفع الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، وبقيت رحمة أرحم الراحمين، فيُخرج من النار قوما لم يعلموا خيرا قط، فيلقيهم في ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السيل».

فهذه الشفاعات خالف فيها الخوارج، وخالف فيها المعتزلة، ولم يثبتوا تلك الشفاعات؛ لا للمؤمنين، ولا للملائكة، ولا الشفاعة في أهل النار أن يخرجوا منها؛ يعني لأهل الكبائر أن يخرجوا من النار.

كذلك نبينا – صلى الله عليه وسلم – أختص بشفاعة لكافر، وهو أبو طالب فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – يشفع له حتى يُخفَّف عنه من العذاب.

الجنة والنار، يعتقد أهل السنة والجماعة أنهما مخلوقتان الآن، وأنهما لا تفنيان، ولا تبيدان, الجنة حق والنار حق, الجنة دار لأولياء الله، والنار دار لأعدائه. يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش، فيذبح على قنطرة بين الجنة والنار، ثم ينادي مناديا: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. فالجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان، وينص أهل السنة والجماعة على ذلك مخالفة لبعض أهل الاعتزال والتجهم الذين يقولون: إن نعيم أهل الجنة

وعذاب أهل النار يفنى، وإن الجنة والنار تفنيان، أو أنهما اليوم ليستا بمخلوقتين. وأهل السنة يثبتون تجدد النعيم وتجدد العذاب في النار، كما أن النعيم يتجدد على أهل الجنة، والمسألة فيها مزيد تفصيل ليس هذا بمحل بيانه.

وهذا الفصل هو كالشرح لركن الإيمان الخامس؛ ألاَ وهو الإيمان باليوم الآخر، فالإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بما بعد الموت؛ من فتنة القبر، إلى ما يحصل في الحياة البرزخية، والنفخ في الصور، وما يحصل في عرصات القيامة، وما هو بعد ذلك من حال الجنة والنار والشفاعات إلى آخره، هذا كله يدخل في الإيمان باليوم الآخر،وقد فصلنا ذلك ولله الحمد.

أما لماذا ألحق المصنف هذا الفصل بفصل المغيبات؟

لأنه مطلوب فيها الايمان، ونص المصنف على ذلك حينما قال: ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر المصنف حكم الإيمان بالمغيبات وأنه واجب، وهو أصل من أصول أهل السنة والجماعة وركن من أركان الإيمان الستة عندهم كما في حديث جبريل.

ثم ذكر المصنف قدر الواجب باعتبار الكمية، فقال (كل ما أخبر به) فلابد من الإيمان بجميع المغيبات كلها، لكن على وجه الإجمال، فلو ترك واحداً منها فقد خرج من الدين.

واشترط المصنف شرطين في هذا الأصل:

الأول: أن تأتي هذه الإخبارات بالمغيبات من جهة الشرع، ولذا قال بكل ما أخبر به النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم –، ويقصد ما أخبر به النَّبِيّ سواء ما جاء من جهة القرآن – وهذا نوع – أو من جهة السنة – وهذا نوع – أو ما أخبر به الصحابة، مما لا مجال للرأي فيه، أما المغيبات التي تأتي من جهة العقل والطب الحديث، هذا لا يقصده المصنف ولا يتعلق به حكم، وهناك أشياء مغيبات يثبتها الطب الحديث مثلاً، فهذا لا يلزم أن يؤمن بها الناس وليست من الأصول مثل كريات الدم الحمراء والبيضاء والذرة.

الثاني: أن يصح بذلك الخبر فيأتي بالقرآن – فهذا صحيح – وإن أتى عن طريق السنة فيشترط أن يكون الحديث صحيحاً.

والمصنف أفاد أنه لا يشترط في المغيبات أنه يمكن إدراكها بالعقل وأنها لابد أن تكون معقولة المعنى وفي حدود الشيء المعقول، فهذا ليس شرطاً إلا عند أهل البدع والعصرانيين، ولذا قال المصنف: (سواء في ذلك ما عقلناه أوجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه).

سؤال: هل يشترط أن يكون من أحاديث التواتر بحيث لو جاء من طريق الآحاد لا يقبل؟

أما عند أهل البدع فهم لا يقبلون أحاديث الآحاد في العقائد بل لابد من التواتر، ومذهب السلف أن حديث الآحاد يكفي إذا صح.

ثم ذكر المصنف المطلوب في المغيبات، والجواب أن المطلوب هو الإيمان مع التصديق، ولذا قال المصنف، ونعلم أنه حق وصدق.

مسألة: ما هو كيفية الإيمان بالمغيبات، وحدها الواجب، وهل يجب أن نؤمن على التفصيل أم يكفي الإيمان الإجمالي؟

الجواب: يكفي الإيمان الإجمالي، القدر المجزئ لثبوت الإيمان بالغيب فيكفي أن تؤمن بالملائكة إجمالاً وباليوم الآخر إجمالاً .

أما التفصيل فهو فرض كفاية، فيجب على العلماء وأئمة الدين أن يعرفوا تفاصيل المغيبات، فيعرفوا عدد الملائكة فيما ذكر ومهمة جبريل وميكائيل، وأنواع الملائكة وصفاتهم على التفصيل، وكذا اليوم الآخر، والموازين والحساب وكيف يكون الحساب على وجه الدقة والتفاصيل والجزئيات.

ثم بعد ذلك ضرب المصنف أمثلة بالمغيبات التي يجب الإيمان بها ولم يرد الاستيعاب وإنما التمثيل، وهي كالتالي:

١ – بدأ بمثال الإسراء والمعراج فيجب الإيمان به وأنه كان يقظة لا مناماً، وكذا الإيمان بما دار وحصل في ليلة الإسراء والمعراج إجمالاً لعموم الناس وتفصيلاً على العلماء.

٢ – قصة موسى عليه السلام مع ملك الموت، فهذه من الأمور الغيبية التي صح بها النقل فيجب الإيمان بها، وأجمل المصنف قصة موسى مع ملك الموت، فقال في القصة: إن ملك الموت جاء إلى موسى ليقبض روحه فلطمه موسى ففقأ عينه، وهذه قصة ثابتة في الصحيحين، وقد أنكرها المعتزلة قديماً وأنكرها العصرانيون حديثاً كما سيأتي، وليس المقصود الآن بسط تفاصيل هذه القصة، إنما المقصود إنها غيب يجب الإيمان به.

٣ – الإيمان بأشراط الساعة وهذا هو الغيب الثالث الذي يجب الإيمان به سواء كانت أشراط الساعة الصغرى أم الكبرى، وذكر المصنف خمسة من أشراط الساعة ولم يقصد

الاستيعاب، فذكر الدجال، ثم عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم يأجوج ومأجوج، ثم الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها.

ثم قال المصنف وأشباه ذلك، ولم يرد الاستيعاب، فهناك المهدي مثلاً، وهو أول الساعات الكبرى، وخاتمة العلامات النار التي تسوق الناس إلى المحشر.وأفضل ماكتب في ذلك كتاب أشراط الساعة ليوسف الوابل ،وهو رسالة علمية جامعة مانعة في هذا الباب

٤ – ثم ذكر عذاب القبر وما يتعلق به وهو أمر غيبي يجب الإيمان به، وأحوال القبر ثلاثة، كلها منسوبة للقبر:

أ – نعيم القبر وهذا يحصل للمؤمنين.

ب – عذاب القبر وهذا يحصل للكفار عموماً وقد يحصل لبعض العصاة ممن شاء الله أن يعذبه.

جـ – فتنة القبر فمن جملة فتنة القبر سؤال منكر ونكير.

٥ – ما يتعلق باليوم الآخر، ابتداءً بالبعث إلى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وذكر من أحداث اليوم الآخر نفخ إسرافيل الصور وذكر الحشر، وهو جمعهم في صعيد واحد، ثم الوقوف بعدما يحشرون ويجمعون يقفون مدة طويلة، ثم أحداث الشفاعة وهو أنهم يملّون من طول القيام، فيستشفعون بالأنبياء حتى يشفع الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يبدأ الحساب فيجيء الله للحساب، ثم نصب الموازين ونشر الدواوين، ثم حوض النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام، وبعد الحساب وأخذ الصحف، ثم الصراط ثم دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم بعد ذلك شفاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وشفاعة الموحدين.

ثم ذكر من المغيبات مسألة ذبح الموت، فقال: ﴿ ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ... إلخ ﴾.

هذا ما يتعلق بأحداث الآخرة، ثم يبقى من في الجنة خالدون لا يفنون، ومن في النار خالدون فيها لا يفنون أبداً.

وهذا كله يجب الإيمان به إجمالاً لطائفة وتفصيلاً لطائفة، والإيمان بالمغيبات من أصول أهل السنة والجماعة، وخالف في ذلك العصرانيون، فأنكروا هذا الأصل وأنكروا المعجزات والمغيبات ولم يؤمنوا إلا بالماديات، والمحسوسات، وقد لخص صاحب كتاب (العصرانيون بين

مزاعم التجديد)، تأليف "محمد الناصر" لخص منهج العصرانيين، وموقفهم من المعجزات والغيب.

أما بالنسبة لغيبيات القيامة فهم يفسروها على التمثيل والتصوير، فحملة العرش تصوير لكمال العزة، وأخذ الكتاب بالشمال واليمين من باب التمثيل والتصوير، وأن معنى اليمين الابتهاج والسرور، وكذلك شككوا في معجزة انشقاق القمر في عصر النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – وكذا معجزة تكثير الطعام في تبوك والخندق، والجن يرون أنهم نوع من الميكروبات الخفية، وبعضهم جعل الميكروبات نوعاً من الجن، واستدلوا بحديث الطاعون وخز الجن، على أن الجن ميكروبات تسبب مرض الطاعون، وأَوَّل بعضهم حديث " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " وأنها الجراثيم التي تجري من خلال جسم الإنسان، وكذا ردوا الأحاديث التي فيها شيء من المغيبات، كحديث " نزول عيسى "، وحديث الدجال والجساسة، وحديث أن النَّبِيّ سُحر وحديث الإسراء والمعراج، وحديث وقوع الذباب بالإناء، وأنكروا حديث: " إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع ... " وأنكروا حديث قصة موسى مع ملك الموت، وحديث إسلام شيطان النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – ، إلى غير ذلك.

وهذه المدرسة – مدرسة العصرانيين – تعتبر خالفت السلف في هذا الأصل العظيم وهو الإقرار بالمغيبات ونهجوا منهج الإلحاد في هذا الباب، ولازالت هذه المدرسة موجودة ولها امتداد في واقعنا الحالي، وفي السنوات المتأخرة ظهروا في الخليج والجزيرة، وهم الآن يمرون بمرحلة التحالف مع الحكام والعلمانيين قاتلهم الله جميعا، ومرحلة إيجاد تيار شعبي لهم داخل الجزيرة ولهم صحفهم ومنتدياتهم في الإنترنت ولهم نواديهم وصوالينهم العفنة أخزاهم الله.

سؤال : كيف نجمع بين أن النبي ﷺ خاتم النبيين، ولن يأتي بعده نبي، وبين نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، فيقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، فهذا مشكل؟

الجواب: نحن أشرنا إلى هذا في شرح السنة للبربهارى ، وقلنا إن أدلة القرآن والأحاديث المتواترة دلت على أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، وأن هذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، أي: لا يتعارض مع ختم الرسالة، وذلك لعدة أمور: أولها: أن عيسى إذا نزل في آخر الزمان إنما ينزل ويحكم بالقرآن وبشريعة محمد ﷺ، فهو إذًا تابع للرسول صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في الحديث لما رأى الرسول مع عمر رضى الله عنه قطعة من التوراة قال له: (والله! لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني)، فعيسى يكون تابعًا.

ومن أدلة أنه تابع لمحمد ﷺ: أنه إذا نزل وقد تهيأ المسلمون لصلاة العصر يقولون لعيسى: صل بنا، فيقول: لا، فيصلي بهم واحد من أمة محمد ﷺ، فهذا دليل على أنه تابع.

الأمر الثاني: أنه لا يأخذ بما يوافق آراء أهل الكتاب، فالنصارى اليوم يأكلون الخنازير، ويشربون الخمور، واليهود منهم يتبعون الدجال، وكذلك أيضًا يعتقدون أن عيسى مصلوب، وهذه الأمور كلها يبطلها عيسى عليه السلام موافقة لما سبق أن بينه رسول الله ﷺ، أن عيسى يوضح الحقيقة الناصعة إذا نزل، ومن ذلك ما في القرآن العظيم والسنة من أن عيسى عبد الله ورسوله، وأنه ليس إلهًا، وأنه لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله، كل هذه الحقائق تظهر.

الأمر الثالث: أن عيسى عليه السلام إذا نزل يقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، بمعنى: أنه لا يقبل ممن يتسمون بأهل الكتاب الجزية كما كان سابقًا، وإنما يؤمرون بأحد أمرين: إما باتباع دين الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ وشريعة القرآن، أو السيف، ولا يقبل منهم أمرًا ثالثًا، وهو أن يبقوا على دينهم، ويُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

الأمر الرابع: أن نزول عيسى عليه السلام وتفاصيل نزوله جاء به الرسول ﷺ، فهو الذي أخبرنا، وهو الذي بلغنا أنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده.

إذًا: يتبين من خلال هذه الأوجه كلها أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان حق، وأنه لا يتعارض مع كون نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين.

سؤال ، هل السنة وحى مثل القرأن وهل يستغنى عنها ويكتفى بالقرأن كما يقول القرءانيون في عصرنا هذا ؟

الجواب :فلا شك أن القرآن مقدم على السنة، لكن لا يفصل بينهما، أي أنه لا يمكن أن تؤخذ السنة بدون القرآن، ولا يمكن أن يعمل بالقرآن كاملًا بدون سنة الرسول ﷺ، ولهذا تجدون أن هناك طوائف أنكرت السنة، ومنهم طوائف كثيرة في باكستان والهند يسمون بالقرآنيين،وأفراخهم الأن في بلاد العرب يرفضون السنة جملة وتفصيلًا، ولا يأخذون إلا بما في القرآن، وهؤلاء إذا فتشت عن أحوالهم تجد كأنهم أصحاب دين جديد في عبادتهم، وفي أمورهم كلها؛ لأنه لو جاء الإنسان إلى مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ [هود:١١٤]، وقال: أنا لا آخذ بالسنة في تفاصيل الصلاة، فكيف سيعمل بهذه الآية، هل سيرجع إلى اللغة العربية، ويقول: الصلاة في اللغة الدعاء، إذًا معنى قوله: (وأقم الصلاة) أنني أقف لحظات وأرفع يدي وأدعو، وأكون قد أديت الصلاة بنص القرآن؟! وهل تقبل منه صلاته هذه؟! وهكذا قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، إذا جاء الإنسان ليأخذ هذا الحكم بدون السنة يقع في الاضطراب، فأي سارق ولو سرق شيئًا تافهًا يعتبر سارقًا؛ فيقطع، ثم كيف تقطع اليد؟ ولهذا لما كان الخوارج قد ضلوا في هذا الباب ولم يأخذوا بسنة الرسول ﷺ، ورد من مذهبهم أن السارق تقطع يده من الكتف! وهذا كله ضلال، والله عزوجل بنص القرآن أمر باتباع السنة، والآيات في ذلك بالعشرات، أي: التي فيها الأمر لكل من يقرأ هذا القرآن أن يتبع السنة، ولهذا لما لعن ابن مسعود الواصلة والمستوصلة، نازعته إحدى النساء، فقال لها: إن هذا في القرآن، فبحثت في القرآن من أوله إلى آخره فلم تجد هذا الأمر أو هذا الحكم الشرعي، فقالت له: ما وجدته، قال: بلى، هو في القرآن، ثم أوقفها على قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، وقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقوله : (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ) سورة الحشر ،وقال لها: هذا الأمر جاء به رسول الله ﷺ.

إذًا: من اتبع القرآن فلا بد أن يؤدي به إلى أن يتبع سنة الرسول ﷺ.

أما الفصل بينهما فهو منهج خطير جدًا، بل هو من أخطر المناهج، خاصة في عصر المسلمين الحاضر؛ فإن كثيرًا من أصحاب الأفكار العقلانية المائلة للاعتزال يريدون الفصل بينهما، وهؤلاء يدّعون أنهم في دائرة الفكر المسمى بالفكر المستنير، وله دعاته، وهكذا غيرهم، ولا أقول: الحداثيين؛ لأن الحداثيين لهم جذور إلحادية، فهم أعمق كفرًا لكن أقول: حتى أصحاب الفكر المستنير من الإسلاميين تجدهم يميلون إلى ألا يؤخذ بسنة الرسول ﷺ أو على الأقل ببعضها.

الإيمان بفتنة القبر وسؤال الملكين

يقول المصنف رحمه الله تعالى: [وفتنة القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق] .

فتنة القبر هي سؤال القبر، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (إن هذه الأمة تفتن في قبورها)، أي تسأل، وورد أيضًا سؤال منكر ونكير، فكل إنسان يُسأل في قبره، والصحيح أنه عام لهذه الأمة ولغيرها، فيسأل الإنسان ملكان أحدهما منكر، والآخر نكير، يسألانه ثلاثة أسئلة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فالمؤمن يجيب إجابات صحيحة، والكافر أو المنافق يقول: ها ها لا أدري! كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومنها حديث البراء بن عازب الطويل، الذي ذكر فيه رسول الله ﷺ رحلة الموت بطولها.

وتسمية منكر ونكير ورد في حديث صحيح رواه الترمذي وغيره، ومن ثمَّ فلا مانع من أن نقول: يأتيه ملكان: أحدهما منكر، والآخر نكير.

وقد ورد أن الشهيد في سبيل الله إذا مات لا يفتن في قبره، وورد أيضًا أن المرابط في سبيل الله إذا مات وهو مرابط لا يفتن في قبره، وهؤلاء يستثنون من فتنة القبر، نسأل الله الكريم من فضله.

والمرابط هو المرابط في ساحات القتال، ولقد كانت الأمة الإسلامية إلى عهد قريب لها ثغور على حدود الممالك الإسلامية، وكان يقيم فيها المسلمون ثغورًا يرابطون فيها للجهاد في سبيل الله، فيذهب الواحد منهم يرابط هناك ستة شهورًا، أو سنتين، أو ثلاث سنوات، ثم يرجع إلى أهله، وهكذا، وهذا كله من باب إحياء الجهاد في سبيل الله تعالى الذي محي وأوقف هذه الأيام إلا ما عصم ربي.

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [والبعث بعد الموت حق] .

البعث لغة: الإرسال، وفي الاصطلاح: إحياء الناس وبعثهم من قبورهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

وهذا البعث حق، وقد وردت أدلته الصريحة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ.

وأحب أن أنبه هنا إلى أن الأدلة القرآنية على إثبات البعث بعد الموت كثيرة جدًا، وهي أكثر مما ورد من الأحاديث النبوية، يعني: أن من تأمل أدلة البعث يجد أن الذي ورد في السنة منها قليل، لكن ما ورد في القرآن العظيم فهو كثير.

ولقد تنوعت أدلة القرآن العقلية على إثبات البعث بعد الموت، منها: الاستدلال بإحياء الأرض الميتة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [فصلت:٣٩]، وهكذا في آيات كثيرة جدًا في القرآن يستدل بإحياء الأرض الميتة على قدرة الله تعالى على البعث وإحياء الناس من قبورهم.

ومنها دليل البدء على الإعادة: فإن الله خلق الإنسان من عدم، فهو قادر على أن يعيده مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وهذا دليل عقلي واضح جدًا، أي: أن الذي أحياها أول مرة قادر على أن يعيدها مرة أخرى، ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقوله: (أهون) هذا بالنسبة للبشر، أما بالنسبة لله تعالى فإن كلا الأمرين هين عليه تعالى؛ فلا فرق بين الأمرين.

ومنها الاستدلال بخلق الشيء الكبير على الشيء الصغير: كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١] .

وهكذا جاءت الأدلة كثيرة، بل جاءت الأدلة بشواهد عينية، فالإنسان ينام ويغيب عن الدنيا، ثم يصحو، وهذا بعث، كما قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى﴾ [الزمر:٤٢] .

وكذلك أيضًا: ذكر قصص أناس ماتوا فأحياهم الله، مثل أصحاب الكهف، ومثل إحياء صاحب الحمار الذي مر على قرية وقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة:٢٥٩] إلى آخر الآية، ومثل صاحب البقرة من بني إسرائيل.

المهم أن الأدلة القرآنية كثيرة جدًا، وهي أدلة عقلية صريحة في إثبات قدرة الله للبعث؛ **ولهذا قال أهل السنة الجماعة: والبعث بعد الموت حق.**

البعث والحشر والعذاب يكون على الأجساد والأرواح جميعًا

بقي هنا قضية، وهي أن البعث والحشر والنعيم وما يتعلق بذلك عند أهل السنة والجماعة يكون للأرواح وللأجساد، خلافًا للفلاسفة؛ فإن الفلاسفة يرون أن البعث يكون فقط للأرواح وليس للأجساد، وهذه عقيدة الفلاسفة، ومنهم فلاسفة الإسلام المعظمين عند كثير من الناس، فإنهم ينكرون بعث الأجساد، ويقولون: إن ذلك إنما هو على الروح، والروح لا تفنى ولا تموت أبدًا عندهم، بل تنعم بعدما يموت صاحبها إذا كان خيّرًا، أما أن يكون هناك بعث للأجساد، وحشر ونشر وميزان، ونعيم مادي في الجنة، وفواكه وأنهار وقصور، ونساء، وحبور، وكذلك في النار سلاسل وأغلال وسعير، فهذه كلها لا يقرون بها، وينكرونها، نسأل الله السلامة والعافية! والمسلمون جميعًا أتباع الرسل يرون أن البعث للأرواح وللأجساد حق.

وقد سبق أن قلنا في الدرس الماضي: إن عذاب القبر ونعيمه للروح وللجسد على أي شكل مات عليه الإنسان، وأما الكيفية فهذه حياة برزخية لا نعقلها نحن، لكن نؤمن أن الإنسان يكون بعد موته في روضة من رياض الجنة، أو في حفرة من حفر النار.

النفخ في الصور

قال المصنف: **[وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور: (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)]** .

إسرافيل هو أحد الملائكة المعروفين، والصور لغة هو القرن، والمقصود به هنا قرن لا يعلم قدره إلا الله تعالى، ينفخ فيه إسرافيل إذا أذن الله له بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، الأجداث هي القبور أي: إذا هم من القبور إلى ربهم يسرعون للحساب وللجزاء.

وبالنسبة للنفخ في الصور اختلف فيه العلماء، والوارد مؤكدًا أن هناك نفختين: نفخة الصعق، ونفخة البعث، وبعضهم يجعلها ثلاثًا: نفخة الصعق، ونفخة الفزع، ونفخة البعث، لكن الشيء المؤكد الذي دلت عليه الأدلة أن هناك نفخة يصعق منها الناس جميعًا، ويموت فيها من كان حيًا على وجه الأرض، وهذا معنى قولنا: إن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، ومعنى قيام الساعة هنا بدايتها، وهي النفخة الأولى التي يصعق فيها الجميع فيموتون، حتى الملائكة، وحتى حملة العرش، وحتى ملك الموت، ولا يبقى أحد حيًا إلا الواحد القهار، وحينئذٍ يأخذ الله السماوات بيمينه والأرضين بشماله ويهزهن ويقول: أنا الملك، أنا الجبار، أين ملوك الأرض؟! لمن الملك اليوم؟ لمن الملك اليوم؟ لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه سبحانه: لله الواحد القهار.

ثم تأتي النفخة الثانية التي هي نفخة البعث، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، فالنفخة الثانية تكون للبعث بعد الموت، وحينئذٍ يقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، وذلك بعد النفخة الثانية، فإنهم يخرجون من قبورهم إلى المحشر.

الإيمان بالحشر

قال المصنف: [ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا بهمًا] .

قوله: (يحشر الناس) أي يجمع الناس لمكان الحشر، (حفاة): غير منتعلين، (عراة) عراة الأجسام، (غرلًا) غير مختونين، (بهمًا) ليس معهم متاع، وهؤلاء يحشرون يوم القيامة في صعيد واحد، وتكون أرض المحشر مستوية، وقد شبهها رسول الله ﷺ بأنها تكون كقرص النقي، والنقي هو الدقيق المنخول، وقرصه يكون أبيض مائلًا إلى الحمرة، لكنه يكون مستويًا، هكذا شبه الرسول ﷺ أرض المحشر، فيجتمع الخلائق أولهم وآخرهم، وكلهم على تلك الحال حفاة عراة غرلًا؛ حتى قالت عائشة للرسول ﷺ: (يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: الأمر أكبر وأشد من أن يهمهم ذلك)، ونضرب لهذا مثالًا في الدنيا: لو أن الناس في مكان، فوقعت زلزلة، وبدأت البيوت تتهدم وخرج الناس، فهل سينظر بعضهم إلى بعض؟! وهل سيفكر الإنسان أن هذه امرأة خرجت نافشة شعرها أو كاشفة نحرها؟!

الجواب : لن يفكر في هذا، وإنما تفكيره في النجاة، فكيف إذا كان في وقت الوقوف بين يدي الله تعالى، والأعين شاخصة إلى السماء، لا شك أن الإنسان لن يفكر في هذه الأمور أي تفكير؛ لأن القضية أكبر من ذلك بكثير.

الشفاعة الكبرى لفصل القضاء

قال المصنف: **[فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمد ﷺ]** .

هذا بيان للشفاعة العظمى والكبرى المسماة بالمقام المحمود، وهي أن الناس يقفون في العرصات على هذه الحالة عراة حفاة، وتدنو الشمس منهم، ويشتد كربهم، فيطالب الجميع بفصل القضاء، فجميع الناس المؤمن منهم والكافر يطالب بفصل القضاء؛ لشدة الكرب الذي هم فيه، فيتساءلون فيقولون: ابحثوا عن وسيلة، ابحثوا عن شافع إلى ربكم حتى يقضي الله بينكم، فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، وكل واحد من هؤلاء يعتذر عن الشفاعة، وكل منهم يوجه الناس إلى النبي الذي بعده، حتى يقول عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتون إلى الرسول ﷺ ويقولون: يا محمد! نطلب منك أن تشفع لنا إلى ربك، فيقول النبي ﷺ: أنا لها، ثم يسجد تحت العرش ويلهمه الله بمحامد ما ألهمه إياها من قبل، فيقول الله له بعد ذلك: يا محمد! ارفع رأسك، وسل تعط واشفع تشفع، وحينئذٍ يحمده الخلائق على هذا، وينزل الرب عزوجل لفصل القضاء.

والمقصود هنا الشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود، أما أنواع الشفاعات الأخرى فسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

الإيمان بالحساب ،قال المصنف: [ويحاسبهم الله] .

لأن الحشر إنما هو للحساب والحساب أن يحاسب الله الإنسان على أعماله وأقواله كلها، ولهذا ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يدعو ويقول: (اللهم اجعل حسابي يسيرًا)، لأن الله تعالى أخبر أن من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وقال ﷺ في الحديث الآخر: (من نوقش الحساب عذب، قالت عائشة: ألم يقل الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟! قال ﷺ: إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب عذب) .

فكل من نوقش الحساب لابد أن ينتهي به الأمر إلى أن يعذب؛ حتى ذلك الرجل الذي عبد الله سبعين سنة، وتفرغ للعبادة ليلًا ونهارًا، وقدم بين يدي الله تعالى للحساب فقال الله له: أدخلك الجنة برحمتي أم بعملك؟ ونظرًا لأن هذا عبد الله سبعين سنة قال: بعملي، فقال الله للملائكة: حاسبوه، فحاسبوه عن عبادة السبعين سنة، فوجدوها لا تساوي نعمة البصر، فقال الله لهم: اذهبوا به إلى النار، أي أنه خرجت عبادته بالنسبة للقياس خاسرة؛ لأنها لم تساو إلا نعمة البصر، فيقول: يا رب! بل برحمتك، فيقول الله: أما برحمتي فاذهبوا به إلى الجنة.

إذًا: كل من حوسب لابد أن يكون خاسرًا، لكن الله يعفو ويتجاوز؛ ولهذا قال: (يحاسبهم الله)، وهذا في يوم الحساب، وسمي يوم الحساب لأنه يحسب للإنسان حسناته وسيئاته، ويطرح هذا من هذا إلى آخره.

نصب الموازين ونشر الدواوين ،قال المصنف: [وتنصب الموازين] .

أي: توضع الموازين لتوزن بها الأعمال، وقد ورد أنه ميزان، وورد أنها موازين متعددة، ولا خلاف في هذا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، والثابت عن النبي ﷺ أن الميزان ميزان حقيقي له كفتان، وأنه توزن به الأعمال.

وأما كيف توزن وهي أعراض؟ فنقول: إن الله على كل شيء قدير، فيؤتى بإيمان الإنسان بصدق الإنسان بإخلاص الإنسان بحبه لله بحبه للرسول الله ﷺ بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وتوزن كلها، ويشاهدها الإنسان وهي توزن، ولهذا ورد أن (لا إله إلا الله) توضع في كفة الميزان.

وكذلك أيضًا ورد أن العباد أنفسهم يوزنون، قال ﷺ: (يؤتى بالرجل السمين من أهل الدنيا -أي: من فجار أهل الدنيا- يوم القيامة، فلا يزن عند الله جناح بعوضة)، ولما تعجب الصحابة من دقة ساقي عبد الله بن مسعود وضحكوا، قال رسول الله ﷺ: (تعجبون من دقة ساقيه، لهما عند الله أثقل من جبل أحد) أو (في ميزان الله أثقل من جبل أحد)، ولهذا فالصحيح أنه ميزان حقيقي، وأنه توزن به الأعمال، وأيضًا يوزن به العاملون، هذا هو الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة.

ثم قال المصنف: [وتنشر الدواوين] .

والدواوين جمع ديوان، والديوان هو الصحيفة التي كتبت فيها الملائكة، وأحصت فيها أعمال العباد، ولكل شخص ديوان قد أحصيت فيه أعمال هذا الإنسان، وهذه الدواوين تنشر أمام أصحابها.

تطاير الصحف واستلام الكتب

قال: **[وتتطاير صحائف الأعمال إلى الأيمان والشمائل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-١٢]] .**

بعد الحساب وبعد الموازين وبعد نشر الدواوين تتطاير الصحف التي هي نتائج ذلك الحساب وتلك الموازين، فمن أوتي كتابه بيمينه فهو الناجي السعيد، نسأل الله الكريم من فضله، ومن أوتي كتابه بشماله من وراء ظهره فهو الخاسر، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي ذلك اليوم العظيم يتبين من هو الخاسر ومن هو الرابح، أما موازين الدنيا وخسارات الدنيا بجاهها وبمناصبها وبأموالها وبشهاداتها وبغير ذلك، فهذه كلها أمور لا تساوي شيئًا أمام ذلك الموقف العظيم، وليس بيننا وبين قربنا من ذلك الموقف إلا الموت، وكل منا لا يدري متى أجله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨]، أي: من أعطاه الله الكتاب باليمين فهذا هو الذي حوسب حسابًا يسيرًا.

وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٩]، أي: إلى أهله وبيته في الجنة مسرورًا أعظم السرور بنجاته من النار، وبفوزه بالجنة.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق:١٠]، وقد ورد أنه يعطى بالشمال، فقيل: يجمع بينهما بأنه يعطى بشماله من وراء ظهره، قال: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ [الانشقاق:١١]، أي: يدعو على نفسه بالويل وبالثبور والهلاك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠]، فهو يدعو بالهلاك والثبور على نفسه، متمنيًا أنه لم يكن شيئًا، وأنه لم يخلق، ولات ساعة مندم؛ ولهذا

قال تعالى: ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:١٢]، فلا ينفعه صراخه، ولا دعاؤه بالويل والثبور، وإنما تذهب به إلى النار ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

قال المصنف: [والميزان له كفتان، ولسان، توزن به الأعمال: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]]

سبق بيان ذلك، واللسان يكون في وسط الميزان وهو معروف، ثم احتج بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]، هذه هي نتيجة الحساب، فمن ثقلت موازينه فهو الرابح، وهو المفلح، وهو الناجي، ومن خفت موازينه فهو الخاسر؛ لأنه يوم القيامة ليس هناك إلا طريقان، وليس هناك طريق ثالث، ولا شيء وسط.

حوض النبي ﷺ

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [ولنبينا محمد ﷺ حوض في القيامة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأباريقه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا] .

حوضه ﷺ وردت فيه أحاديث كثيرة مفصلة في الصحيحين وفي غيرهما، وما ورد من وصفه هنا هو ثابت في الأحاديث الصحيحة، وأحب أن أشير هنا إلى أن حوض النبي ﷺ موجود الآن؛ لأنه ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن) . وورد في حديث حسن عند الترمذي وغيره: أن لكل نبي حوضًا، لكن حوض النبي ﷺ أكبرها وأكثرها واردًا، نسأل الله الكريم من فضله، ولهذا ورد أن الأنبياء يتباهون أيهم أكثر واردًا، يقول الرسول ﷺ: (ولعلي أكون أكثرهم واردًا يوم القيامة) .

وحوض النبي ﷺ هذا إنما هو في العرصات، يصب فيه من نهر الكوثر الذي في الجنة ميزابان، ولأنه من الجنة فإن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، لكن توجد حاجة للشرب من الناس الذين ألجمهم العرق بذنوبهم وبعضهم بلغ منه العرق إلى كعبيه، وليس أمرًا سهلًا أن يعرق الإنسان حتى يبلغ عرقه إلى كعبيه أو إلى ركبتيه أو إلى حقويه أو إلى منكبيه، ففي العرصات تدنو الشمس ويكثر الخوف، ويشتد العطش، فيا بشرى من رأى حوض رسول الله ﷺ وأقبل عليه، ثم شرب من يد رسول الله ﷺ شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، فهذه

لا شك أنها بشرى وأي بشرى! نسأل الله الكريم من فضله، ونعوذ به من أن نكون ممن يذاد عن حوض رسول الله ﷺ ويمنع من الشرب.

الإيمان بالصراط ،ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [والصراط حق] .

والصراط هو جسر ممدود على متن جهنم، أحد من السيف وأدق من الشعر، عليه كلاليب من نار، فيها ما هو كشوك السعدان، تختطف الناس، وهذا الصراط المنصوب على متن جهنم يمر منه الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، فالجميع يردونها.

قال المصنف: [يجوزه الأبرار، ويزل عنه الفجار] .

وهذه خلاصة لما يجري حينما ينصب الصراط على متن جهنم، وإلا فالوارد في الأحاديث الصحيحة أنه إذا نصب على متن جهنم يعبر منه الناس على قدر أعمالهم: فمنهم من يعبر الصراط كالبرق، ومنهم كالريح، ومنهم كأجاود الخيل، ومنهم كالرجل المسرع، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يخطو خطوة ويعثر أخرى، وكل هؤلاء على درجات.

أما بالنسبة للكافر أو المنافق فإنه إذا أراد أن يعبر خطفته الكلاليب التي على الصراط، فتزل به قدمه، فيكردس في نار جهنم، نسأل الله السلامة والعافية، ونسأله النجاة من النار، ولهذا قال العلماء: نؤمن بالصراط ونصدق به؛ لورود الأدلة الصحيحة فيه.

شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر

ثم قال المصنف بعد أن عرض مسائل اليوم الآخر كلها: **[ويشفع نبينا ﷺ فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر]** .

والشفاعة حق، والمقصود بالشفاعة الواسطة، أي أن النبي ﷺ يشفع إلى ربه عزوجل في أهل الكبائر من أمته أن يخرجوا من النار؛ ولهذا ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) وهو حديث صحيح.

وأيضًا شفاعته ﷺ لمن مات وهو يقول: لا إله إلا الله.

وهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة والجماعة، وينكرها المعتزلة والخوارج وغيرهم، فإن المعتزلة والخوارج ينكرون هذا النوع من الشفاعة، ويقولون: إن من مات من أهل الكبائر واستحق

الوعيد بالنار ودخل النار فإنه لا يخرج منها أبدًا، ولهذا قالوا بتخليد أهل الكبائر في نار جهنم.

ولا شك أن قولهم باطل مردود بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة عن رسول الله ﷺ، والتي فيها بيان أن الرسول ﷺ يشفع، وكذلك أيضًا الملائكة وبقية الأنبياء والصالحون والشهداء كلهم يشفعون.

لكن هذه الشفاعة لا تكون إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله تعالى بالشفاعة.

الشرط الثاني: الرضا عن الشافع والمشفوع له.

فلابد من الإذن من الله، ولابد من الرضا عن الشافع والمشفوع له.

ومن ثمَّ يشفع رسول الله والملائكة، بل ورد أن الشهيد يشفع لسبعين من أهل بيته فيشفعه الله فيهم، وورد أن الفرط الذي يموت صغيرًا يشفع لوالديه عند الله تعالى يوم القيامة، فيشفعه فيهما، فيدخلهما به الجنة، نسأل الله الكريم من فضله.

وهؤلاء الذين يشفع لهم على درجات: فمنهم من يكون قد أمر به إلى النار، فيشفع له قبل دخوله النار، ويدخل الجنة.

ومنهم من يدخل النار ويعذب فيها حتى يحترق ويصير فحمًا أسود وحممًا، ثم يشفع لهم النبي والأنبياء، ويخرجون بهذه الشفاعة، ويوضعون في نهر الحياة؛ حتى ينقون ويحيون مرة أخرى، ويدخلون الجنة برحمة الله تعالى، ولهذا قال: [فيخرجون بشفاعته بعدما احترقوا وصاروا فحمًا وحممًا، فيدخلون الجنة بشفاعته] .

شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين

ثم قال المصنف: **[ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات، قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]]** .

أي: أن هؤلاء الأنبياء وغيرهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته وخوفه تعالى مشفقون، وهذا قد دلت عليه الأحاديث عن الرسول ﷺ.

وقد فصلنا كل ذلك فيما سبق من دورات علمية في شروح كتب السنة

ثم قال المصنف: [ولا تنفع الكفار شفاعة الشافعين] .

هكذا كما قال تعالى عن الكفار: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، فإن الكفار لا ينالون الشفاعة، ولهذا فإن من شرط الشفاعة التي تقتضي إخراج المعذب من النار أن يكون مسلمًا، أما الكافر فلا شفاعة له.

أما شفاعة النبي ﷺ لـ أبي طالب فتلك شفاعة خاصة بتخفيف العذاب عنه، ومع ذلك فإن أبا طالب يعذب في النار، ولا يظن أن أحدًا من أهل النار أشد عذابًا منه، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (أهون الناس عذابًا في النار من يوضع تحت أخمص قدميه جمرتان من نار) وفي رواية: (أنه في ضحضاح من النار، يغلي منهما دماغه، ما يظن أن أحدًا من أهل النار أشد عذابًا منه)، أما الخروج من النار فلا، فكل من ماتوا على الكفر -نسأل الله السلامة والعافية- فإنهم لا يخرجون منها أبدًا؛ ولهذا قال المصنف: (ولا تنفع الكافر شفاعة الشافعين) .

الإيمان بوجود الجنة والنار

ومما يؤمن به أهل السنة والجماعة ما ذكره المصنف هنا بقوله: [والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان] .

وذلك لقوله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، وأيضًا لما ثبت من الأحاديث الصحيحة، منها قول النبي ﷺ: (دخلت الجنة فرأيت فيها، واطلعت على النار فرأيت فيها) فهذا كله يدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن.

ومما يؤمن به أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان ولا تبيدان أبدًا، خلافًا للجهمية وغيرهم الذين يقولون بفناء الجنة والنار، وخلافًا لمن قال: بأن النار تفنى.

فالجنة والنار باقيتان، وأهلهما فيهما خالدون أبد الآباد، كما وردت بذلك الأدلة الصريحة من كتاب الله تعالى والأدلة الصحيحة من سنة رسوله ﷺ.

قال المصنف: [فالجنة مأوى أوليائه، والنار عقاب لأعدائه، وأهل الجنة مخلدون: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٥]].

فهذا العذاب مستمر لا يفتر أبدًا، ولهذا ورد في الآيات أن أهل النار يدعون ربهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وفي آية أخرى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، ومع هذا لا يستجاب لهم، فهم في عذاب دائم، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وهم في هذا العذاب مبلسون، نسأل الله السلامة والعافية.

ولهذا ورد أنهم ينادون ويدعون ربهم ولا يستجاب لهم، وإنما يجيبهم الله بقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، وهذا غاية التسكيت لهم.

فأهل النار يخلدون، وأهل الجنة في الجنة مخلدون أبد الآباد، ومن أعظم نعيم الجنة الخلود، ولهذا تجد أنه كثيرًا ما يوصف نعيم الجنة بأنه نعيم دائم، وبأن أهله خالدون فيه أبدًا؛ لأنه والحالة هذه تنقطع الأحزان، وينقطع الخوف، فإن النعيم في الدنيا يكدره الخوف من زواله، حتى الغني إذا استوى له غناه، والملك إذا استوى له ملكه، أول ما يكدر عليه أنه يفكر في زوال هذا عنه، لكن أهل الجنة ليسوا كذلك، بل هم في نعيم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥]، أي: عند الله ، قد أحل الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، فهم في نعيم مقيم، نسأل الله الكريم من فضله.

قال المصنف : [ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت] .

ثبت في البخاري وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: (يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، ويقال لأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم نعرفه، ويقال لأهل الجنة: هل تعرفونه؟ فيقولون: نعم نعرفه فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة! خلود ولا موت، ويا أهل النار! خلود ولا موت)، وهذه كلها حقائق إيمانية عقدية دلت عليها الأدلة الثابتة الصريحة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ.

أهمية تدبر حقائق يوم القيامة

حقائق اليوم الآخر يجب أن يتدبرها المؤمنون، ونحن أيها الإخوة! في غفلة، فقد كان السلف الصالح يربون أولادهم ونساءهم وأطفالهم على معرفة أشراط الساعة؛ لأن معرفة أشراط الساعة تقرب الإنسان إلى الله، وهذا الحاجز الكبير -الذي هو طول الأمل في هذه الدنيا- تختصره تلك المعاني الإيمانية، بل تختصر هذه الدنيا بمشاكلها وتنقل الإنسان إلى الآخرة.

وكذلك أيضًا بالنسبة لليوم الآخر وفزع الناس، والحساب، والجزاء، والصراط، والموازين، وتطاير الصحف، والشفاعة إلى آخر هذه الأمور الإيمانية التي هي حقائق لا شك فيها، يجب أن تكون لنا فيها قراءات، وهي مما يقوي الإيمان، وينقل قلب الإنسان نقلة من هذه الدنيا الفانية إلى ربه تعالى، وينقل هذه النفس المتهالكة على الدنيا ومادياتها إلى عبادة الله، والسعي لابتغاء مرضاة الله عزوجل.

فهذه حقائق إيمانية لا شك فيها أبدًا، فالواجب علينا أن نتدبرها، وأن نتدارسها، وأن نتعرف عليها؛ علَّ الله أن يجعلها خيرًا لنا في دنيانا، وأن يجعلنا يوم القيامة ممن يكون آمنًا، وممن يكون فائزًا، وممن يكون قد أعيذ من عذاب جهنم.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من أهل الجنة، وأن تعيذنا من النار.

قال المصنف:ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته ولا يقضى بين الناس في القيامة إلا بشفاعته ولا يدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته.

صاحب لواء الحمد والمقام المحمود والحوض المورود وهو إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم أمته خير الأمم وأصحابه خير أصحاب الأنبياء عليهم السلام

وأفضل أمته أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم علي المرتضى رضي الله عنهم أجمعين لما روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال كنا نقول والنبي صلى الله عليه وسلم حي [أفضل هذه الأمة بعد نبيها] أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكره.

وصحت الرواية عن علي رضي الله عنه أنه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ولو شئت لسميت الثالث.

وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر)).

وهو أحق خلق الله بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لفضله وسابقته وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة على جميع الصحابة رضي الله عنهم وإجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة ثم من بعده عمر رضي الله عنه لفضله وعهد أبي بكر إليه ثم عثمان رضي الله عنه لتقديم أهل الشورى له ثم علي رضي الله عنه لفضله وإجماع أهل عصره عليه.

وهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)).

وقال صلى الله عليه وسلم ((الخلافة من بعدي ثلاثون سنة)) فكان آخرها خلافة علي رضي الله عنه.

ونشهد للعشرة بالجنة كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال ((أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد في الجنة وسعيد في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة)).

وكل من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم شهدنا له بها كقوله ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)) وقوله لثابت بن قيس ((إنه من أهل الجنة))

ولا نَجْزِمُ لأحدٍ مِنْ أهلِ القِبْلَةِ بجَنَّةٍ ولا نَارٍ إلاَّ مَنْ جَزَمَ لَهُ الرّسول – صلى الله عليه وسلم –، لَكِنَّا نَرجو للمُحْسِنِ ونَخَافُ على المُسيءِ.

– ولاَ نُكفِّرُ أحدًا مِنْ أهلِ القِبلةِ بذَنْبٍ، ولاَ نُخْرِجُهُ عَنِ الإسلامِ بِعَمَلٍ.

ونَرَى الحَجَّ والجِهَادَ ماضيًا مع طاعَةِ كلِّ إمامٍ بَرًّا كان أو فَاجِرًا، وصلاةُ الجمعةِ خلفَهم جائزةٌ.

قال أنَسٌ: قال النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – «ثَلاَثٌ مِنْ أصْلِ الإيمَانِ: الكَفّ عن مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاّ الله وَلاَ تُكَفِّرْهُ بِذَنْبٍ وَلاَ تُخْرِجْهُ مِنَ الإسْلاَمِ بِعَمَلٍ, وَالجْهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي الله عزّ وجلّ حتّى يُقَاتِلَ آخِرُ أُمّتِي الدّجّالَ لاَ يُبْطِلُه جَوْرُ جَائِرٍ وَلاَ عَدْلُ عَادِلٍ, وَالإيمَانُ بالأقْدَارِ» رواه أبو داود.

ذكر المصنف رحمه الله في هذه الجمل الكلام على معتقد أهل السنة و الجماعة في صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فهم يعتقدون أن خير هذه الأمة بعد نبيها – صلى الله عليه وسلم – هم صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، كما جاء ذلك في غير ما حديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال «خير هذه الأمة قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وهذا عام لكل الصحابة، فكل صحابي يثبت هذا الفضل، فجنس الصحابة أفضل من جنس من بعدهم، والصحابة متفاوتون في الفضل، فأفضل الصحابة وأعلاهم مقاما أبو بكر الصديق – رضي الله عنه –، ويليه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، ثم عثمان بن عفان – رضي الله عنه –، ثم علي – رضي الله عنه –، وهؤلاء هم الخلفاء الأربعة الراشدون، فترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة؛ ترتيبهم في الفضل عند أهل السنة كترتيبهم في الخلافة، وكان هناك خلاف في القرن الأول هل يقدم علي على عثمان في الفضل أم لا يقدم؟ مع إقرار الجميع أن عثمان أولى بالخلافة من علي، لكن هل علي أفضل أم عثمان؟ فكان من أهل الكوفة من أهل السنة من يقول إن عليا أفضل، وبعضهم وهم الجمهور والعامة يقولون إن عثمان أفضل، وهذا هو الذي استقرت عليه عقائد أهل السنة والجماعة

من الأخذ بقول عامة علمائهم، بل الأخذ بقول علي وقول الصحابة؛ من أن ترتيب الصحابة في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فعثمان مقدم على علي – رضي الله عنه –.
وأولئك كانوا يسمّون في الزمن الأول الشيعة؛ فمن فضّل عليّا على عثمان نُسِب إلى التشيّع، وهو غير الرفض الموجود بعد ذلك الذي من علاماته سب الشيخين ولعنهما والتبري من عثمان ومعاوية رضي الله عن جميع الصحابة والذين يقولون إنه لم يصح إيمان إلا نفر من الصحابة فقد ارتد الأكثرون إلا طائفة،ومعلوم كفر الروافض وخروجهم من أكثر من باب.

الصحابة طبقاتهم في الفضل من حيث الإجمال:

أنّ المهاجرين أفضل الصحابة، ويليهم الأنصار، ثم من شهد بيعة الرضوان، ثم من أسلم قبل الفتح – فتح مكة–، ثم من أسلم بعد ذلك، قال جل وعلا { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [الحديد:10]، والفتح المراد به هنا صلح الحديبية، فلا يستوي من بايع بيعة الرضوان ممن أسلم بعد ذلك، فهذه طبقاتهم في الفضل إجمالا، ونقول أيضا إن جنس الصحابة أفضل من جنس من جاء بعدهم؛ لكن قد يكون في أفراد من بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة، لكنه من حيث الجنس والعموم فالصحابة أفضل هذه الأمة، لكن قد يكون فيمن بعدهم أفضل من بعض الصحابة في مقامات الإيمان والجهاد والإحسان كما قرر ذلك أهل العلم, فالكلام على الجنس من حيث أن الصحابة هم أفضل.

أفضل المهاجرين وأفضل الصحابة؛ بل وأفضل هذه الأمة العشرة المبشرون بالجنة؛ وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه –، فهؤلاء العشرة هم أفضل المهاجرين، وهم أفضل الصحابة أيضا، وهم أفضل هذه الأمة.

قال (لا نشهد لمعين بجنة ولا نار).

قبل هذا نذكر حكم من سبّ الصحابة؛ سب الصحابة ينقسم إلى أقسام:

الأول: إن سبّ جميعهم، أو حكم على أكثرهم بالكفر والردة إلا نفر، فإن هذا كفر؛ لأنه ردّ شهادة الله جل وعلا بقوله { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }

[الفتح:18]، قد ثبت أن الذين بايعوا تحت الشجرة كانوا ألفا وأربع مائة، وفي بعض الروايات أنه كانوا ألفا وخمس مائة.

القسم الثاني: أن يسبّ بعضا منهم، فهذا فيه تفصيل، إن سبّ بعضا منهم من جهة اعتقاد؛ يعني اعتقد فيهم أنهم أخطئوا، وأنهم فرطوا، وأنهم أصابهم ما أصابهم من جهة اعتقاد، كما يعتقد الخوارج، فإن هذا من كبائر الذنوب، ولا يعد مخرجا من الملة، وإن كان سبّ بعضهم من جهة الغيظ تغيظا عليهم، وحقدا عليهم، فإن هذا كفر وخروج من الملة، قال أهل العلم: لأن الله جل وعلا قال في وصف صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – { لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ } [الفتح:29] فمن كان في قلبه غيظ على صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيوصف بما وصفه الله جل وعلا به من أنه من الكفار.

وأما أمهات المؤمنين فحكم سبهم حكم سب الصحابة.

وأما قذف أمهات المؤمنين أو واحدة منهن، عائشة وغيرها، يعني أنها لم تكن عفيفة فهو كفر بالله، من قذف امرأة من نساء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد كفر؛ لأنه ردّ قول الله جل وعلا، وما حكم به لنبيه – صلى الله عليه وسلم –، وهذا يختلف عن حال من قذف في عهده – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن أولئك نزلت الآيات بعد شأنهم في حادثة الإفك المشهورة، وأما بعد ذلك لما نزلت الآيات في التبرئة وبعد نزول قوله تعالى { يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [النور:17]، فجعل ذلك شرط الإيمان بعد ذلك، من قذف امرأة من نساء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه يكفر بذلك، كما قرره أهل العلم.،وفي المسألة مباحث أخرى يطلبها المستزيد من مظانها،مثل الصارم وغيره مما ذكره المؤلف أننا لا نشهد لمعين بجنة ولا نار، إلا من شهد له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وقد شهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأناس غير العشرة المبشرين؛ فشهد للحسن والحسين رضي الله عنهما، وشهد لعكاشة، وشهد لجماعة، فمن شهد له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شهدنا له بالجنة، وأما غيرهم لا ننزل أحدا جنة ولا نارا، لكن قال بعض أهل العلم مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، و مثل غيره من المتقدمين يُلحق بذلك من شهدت له الأمة بأجمعها بأنه من أهل الجنة واستفاض عنه أنه من أئمة الإسلام، فشهدت له الأمة، فإنه يلحق بذلك ولا بأس بالشهادة له، وهذا أخذا من قوله عليه الصلاة والسلام لما

مُر عليه بجنازة «هذه أثنيتم عليها خيرا وجبت لها الجنة، وهذه أثنيتم عليها شرا فوجبت لها النار، أنتم شهداء الله في أرضه».

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته و فضائل أمة

هذا الفصل يتحدث عن خصائص الرسول وصفاته، ويتحدث تبعاً لذلك عن فضائل أمة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ثم تحدث تبعاً لذلك عن فضائل بعض أفراد الأمة، وعليه **فالبحث ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

- قسم في فضائل الرسول – صلى الله عليه وسلم –.
- قسم في فضائل أمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بشكل عام.
- قسم في فضائل أفراد من هذه الأمة.

أما القسم الأول: فهو خاص بصفات الرسول وفضائله. قال فيه المصنف: (ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته ولا يقضى بين الناس في القيامة إلا بشفاعته ولا يدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته.

صاحب لواء الحمد والمقام المحمود والحوض المورود وهو إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم أمته خير الأمم وأصحابه خير أصحاب الأنبياء عليهم السلام)

وهي كالتالي:

١ – ذكر المصنف أول صفة من صفات الرسول فقال (رسول اللَّه) وقبل وصفه بالرسالة بدأ بذكر اسمه فذكر اسم محمد، وهذا أشهر أسماء الرسول، قال تعالى: {محمد رسول اللَّه} وجاء في القرآن تسميته بأحمد، قال تعالى: {ومبشراً برسول من بعدي اسمه أحمد} ووردت أسماء للرسول، في السنة كثيرة.

٢ – ثم ذكر صفة ثانية للرسول، فقال: (وخاتم النبيين) ومعنى خاتم النبيين أي آخر النبيين، فليس بعده نبي، أما نزول عيسى في آخر الزمان في عصر المهدي فليس معنى ذلك أن عيسى ينقض مسألة ختم الرسالة والنبوة بالنبي صلى الله عليه وسلم،وقد فصلنا ذلك فيما سبق.

٣ – ثم ذكر صفة من صفات الرسول وهي في نفس الوقت من فضائله، فقال (سيد المرسلين)، فوصفه بالسيادة، وتعني الشرف وأنه مقدمهم وكبيرهم، وقيد السيادة هنا فقال (سيد المرسلين) والسيادة إذا قيدت جاز إطلاقها، فيقال: "سيد المرسلين"، و"سيد بني آدم"، و "سيد الأنصار"، وقد جاء في الحديث عند أبي داود من قوله عليه السلام: " السيد الله " ، أي على وجه الكمال والإطلاق.

٤ – ثم ذكر صفة من صفاته وهي من فضائله وخصائصه وهي أنه صاحب الشفاعة العظمى وذكرها مرة أخرى وقال صاحب المقام المحمود، ويقصد به الشفاعة العظمى.

٥ – ثم وصفه بأنه صاحب لواء الحمد ويقصد بذلك أنه يحمد الله محامد عظيمة قبل أن يؤذن له بالشفاعة العظمى.

٦ – ثم وصفه بأنه صاحب الحوض وهذه ليست من خصائص الرسول بل من صفاته، فإن كل نبي له حوض، ولكن حوض النَّبِيّ عليه السلام أعظمها وأشرفها، وأكبرها، وقوله (المورود) أي يرده المؤمنون من هذه الأمة، وزمن الورود في عرصات القيامة في أرض الموقف والمحشر.

٧ – ثم قال (إمام النبيين) وقد أمّهم عليهم السلام في ليلة الإسراء والمعراج.

٩ – ومن صفاته وأيضاً من الخصائص، قال (وخطيبهم) والضمير يعود على الأنبياء.

هذه بعض صفات الرسول – صلى الله عليه وسلم –، منها ما اختص بها الرسول، ومنها ما شاركه غيره فيها، ولم يقصد المصنف الاستيعاب، وإلا خصائص الرسول كثيرة.

مسألة:

ثم ذكر المصنف حكم من لم يؤمن به، فقال: (لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته) وقوله لا يصح، لا نافية، نفت الصحة، وعلى ذلك فمن لم يؤمن برسالته فهو كافر.

مسألة: معنى الإيمان برسالته: معناه هو قول وعمل واعتقاد، هذا معنى الإيمان بالرسالة، ومعنى القول أي يشهد برسالته، ومعنى الاعتقاد أن يحصل في قلبه العلم برسالة الرسول والتصديق بذلك، ويقصد بالعمل شيئان:

أ – عمل القلب، وهو محبة الرسول واليقين والصدق والإخلاص والقبول لرسالته – صلى الله عليه وسلم –

ب – عمل الجوارح وهو الانقياد لأوامر الرسول وعملها بالجوارح، وطاعته بذلك، وهذا جزء من كلام السلف في الإيمان.

أما مذاهب الناس في الإيمان برسالة الرسول، فهي كالتالي:

١ – الكرامية: وهؤلاء عندهم الشهادة بالرسالة للرسول، هو قول فقط، فمن قال بلسانه: أشهد أن محمداً رسول الله، فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان بالرسالة.

٢ – الجهمية: وعندهم أن الإيمان بالرسالة هي قول القلب، ويُقصد بقول القلب العلم والمعرفة، فمن علم وعرف أن محمداً رسول الله فهو مؤمن بالرسالة كامل الإيمان.

٣ – الأشاعرة: فهؤلاء مرجئة في باب الإيمان، وعندهم أن الإيمان بالرسالة هي علم القلب ومعرفته، إلا أنهم أضافوا التصديق، فمن علم برسالة الرسول وعرفها وصدق بها فهو مؤمن بالرسالة كامل الإيمان، والأشاعرة والجهمية لا يشترطون القول.

٤ – الماتريدية: وهم كالأشاعرة الإيمان بالرسالة عندهم هو تصديق القلب بالرسالة والإقرار القلبي بها ولا يشترطون القول ولا أعمال القلوب في الإيمان بالرسالة.

٥ . مرجئة الفقهاء، وطريقة الإيمان بالرسالة عندهم، هي مجموع كلام الكرامية والجهمية والأشاعرة مع زيادة وعلى هذا الإيمان عندهم: قول اللسان والعلم والمعرفة والتصديق، ويضيفون بعض أعمال القلوب مثل محبة الرسول وتعظيمه واحترامه يدخلونه في مسمى الإيمان بالرسالة.

فمن أقر بهذه الثلاثة فهو مؤمن بالرسالة كامل الإيمان، إلا أن بعضهم ويضاف الاطمئنان بالقلب مع المحبة والتوقير للرسول .

٦ – الخوارج والمعتزلة: فالإيمان بالرسالة عندهم قول واعتقاد وعمل كمذهب السلف إلا أن الفرق أنهم يشترطون كل عمل، فإذا خالف الرسول ولو في عمل واحد فهو كافر، وأما السلف فيقولون من خالف الرسول في عمل فيه تفصيل، فبعضها يكفّر بالمخالفة، كما لو خالف أمر الرسول بترك الصلاة، أو خالف أمر الرسول فتولى الكفار من الأمريكان وغيرهم، أو خالف أمر الرسول فشرع قانوناً، فهنا يكفر،**لأنه نقض الأصل**

أما إن خالف أمر الرسول فعمل الكبائر كالزنا والكذب أو ترك الواجبات كصلاة الجماعة في المسجد، فهذا لا يكفر لكن ناقص الإيمان بالرسالة وهو من أهل الوعيد،**لأنه نقض الواجب**

٧ – **مذهب العلمانيين:** عندهم الإيمان بالرسالة هي الإقرار بعبقرية الرسول وأنه من عظماء التاريخ ويقرون بذلك لكن يعتبرونه عظيما كغيره من العظماء.

القسم الثاني: فضائل الأمة الإسلامية:

ذكر المصنف أن هذه الأمة هي أفضل الأمم، فقال: (ولا يدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته)، ثم قال: (وأمته خير الأمم).

هذا ما يتعلق بفضل الأمة الإسلامية، وهي أيضاً من أعظم الأمم باعتبار الكمية، فهم أكثر الأمم مؤمنين، كما جاء في الصحيح، ثم عرضت الأمم فرأيت سوادا عظيما ثم رأى أعظم من ذلك وهي أمته.

وأما عدد الأمم فهي سبعون أمة كما جاء في الحديث عند الترمذى وبن ماجة : " إنكم توفون سبعين أمة يوم القيامة " ، وأفضل هذه الأمم أمة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وقد جاء في الحديث أنهم ثلثي أهل الجنة، وجاء في الحديث أن الصفوف في المحشر مائة وعشرين صفاً، منها ثمانون صفاً من هذه الأمة، وأفضل أمة الإسلام الصحابة.

القسم الثالث: فضائل بعض أفراد هذه الأمة:

قال المصنف: وأفضل أمته أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم علي المرتضى رضي الله عنهم أجمعين لما روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال كنا نقول والنبي صلى الله عليه وسلم حي [أفضل هذه الأمة بعد نبيها] أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكره وصحت الرواية عن علي رضي الله عنه أنه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ولو شئت لسميت الثالث.

وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر)).

وهو أحق خلق الله بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لفضله وسابقته وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة على جميع الصحابة رضي الله عنهم وإجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة ثم من بعده عمر رضي الله عنه لفضله وعهد أبي

بكر إليه ثم عثمان رضي الله عنه لتقديم أهل الشورى له ثم علي رضي الله عنه لفضله وإجماع أهل عصره عليه.

وهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)).

وقال صلى الله عليه وسلم ((الخلافة من بعدي ثلاثون سنة)) فكان آخرها خلافة علي رضي الله عنه.

ونشهد للعشرة بالجنة كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال ((أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد في الجنة وسعيد في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة)).

فأفضل هذه الأمة بعد الرسول عليه السلام هو أبو بكر، قال المصنف: (وأفضل أمته أبو بكر الصديق) وهذا بالإجماع.

عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى بدأ يقرر ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ وعقيدة أهل السنة فيهم، فإن عقيدة أهل السنة فيهم هي الترضي عنهم جميعًا، وأن منهم المهاجرين، ومنهم الأنصار، وأن بعضهم أفضل من بعض بنص القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] فدل على أن بعضهم أفضل من بعض، لكن هؤلاء الصحابة نترضى عنهم جميعًا.

إمامة أبي بكر رضى الله عنه

ابتدأ بقضية من القضايا الكبرى في منهج أهل السنة والجماعة، إلا وهي قضية الإمامة بعد الرسول ﷺ، فأهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى يقولون ما قاله المصنف هنا حين قال:

[وأفضل أمته أبو بكر الصديق] .

وهو عبد الله بن عثمانرضى الله عنه وأرضاه، شهرته تغني عن التعريف به، ف أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه هو أفضل الأمة على الإطلاق عند أهل السنة والجماعة، وعندهم أيضًا أنه هو الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ.

وأما كيف ثبتت له الإمامة؟ فاختلف العلماء في ذلك: فبعضهم قال: ثبتت له بالنص، مثل قول الرسول ﷺ: (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)، ومثل قول الرسول ﷺ للمرأة التي سألته وواعدها من العام القادم قالت: (فإن لم أجدك يا رسول الله؟! قال: تجدين أبا بكر)، ومثل قوله: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، ومثل قوله: (يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)، ومثل حديث القليب حين دلى ﷺ رجليه في القليب، فجاء أبو بكر وجلس عن يمينه، ثم جاء عمر وجلس عن شماله، فأول ذلك بخلافتهم إلى آخره.

وبعض العلماء قالوا: إن خلافة أبي بكر رضى الله عنه وأرضاه إنما ثبتت بمبايعة الصحابة له بعد توجيه النبي ﷺ وإشارته عليهم بأن يختاروه.

وهذا القول الثاني هو الصحيح، والدليل عليه حديث عمر رضى الله عنه وأرضاه، لما قيل له حين طعن: استخلف، فقال: (إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني –يعني: أبا بكر – وإن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني) يعني رسول الله، فهذا دليل على أن الرسول لم يستخلف أبا بكر.**هذا الدليل الأول**.

والدليل الثاني: أنه لو كان الرسول ﷺ قد نص على أبي بكر لما تخلف الصحابة عن مبايعته لحظة، ولما كان هناك حاجة إلى اجتماع السقيفة، ولما جرى فيها كلام، ولا بايعوا أبا بكر، أي: أنه لو جاءهم واحد من الصحابة وقال: سمعت الرسول يقول: بايعوا أبا بكر، لبايعوه ولما ترددوا، لكن الصحابة فهموا ذلك من إنابته في الصلاة، ومن بعض أحاديثه، ولأنه كان يحب أن يكون هو من بعده، ثم إن الرسول عزم على أن يكتب كتابًا، ولكن لما اختلف الصحابة واشتد اللغط قال لهم: (قوموا)، فهذه الكتابة يحتمل أن تتعلق ببعض الأحكام مثل أحكام الجدة والعول والجد والإخوة والعقل، وغير ذلك من الأحكام التي تمنى الصحابة أن يكون الرسول ﷺ قد بلغهم علم عنها، ويحتمل أنه قد كان أراد أن يكتب لـ أبي بكر كتابًا يوصي فيه بأن يكون هو الخليفة من بعده.

طعن الرافضة في رسول الله لعدم وصيته لعلي

وهنا ملحوظة صغيرة هي أن بعض الرافضة يقولون: إنه لما حدث اللغط، وقد كان الرسول أراد أن يكتب بالخلافة لـ علي، قال عمر: حسبنا كتاب الله، فاختلف الصحابة، فغضب النبي ﷺ وقال: (قوموا عني، ما كان لصحابة نبي أن يختلفوا عنده)، فهؤلاء يقولون: إن هذه

مؤامرة، وإن الرسول أراد أن يكتب الوصية لـ علي، لكن لما علموا أنه سيكتب لـ علي قاموا وفعلوا هذا الفعل لأجل ألا يكتب الرسول ﷺ! وهذه فرية سخيفة، ويدل على سخفها أن الرسول بدأ معه المرض أيامًا، واشتد عليه يوم الخميس، ثم إن النبي ﷺ ما توفي إلا يوم الإثنين، فلو كان عازمًا على أن يولي عليًا أو غيره فهل يرده راد؟

الجواب لا يمكن أن يرده راد أبدًا، ولا يمكن أن يكتم الرسول ﷺ شيئًا.

ومن تأمل قضية الإمامة يرى أن الأحق بها هو أبو بكر، لكن يقول الرافضي عليه لعنة الله: صاحب المشكلة هو صاحب القبر! يعني: الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي قال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، وقال: (اقتدوا بـ أبي بكر وعمر)، وقال للمرأة: (تجدين أبا بكر)، فالرسول ﷺ في زعم هذا الرافضي الخبيث هو صاحب المشكلة.

إذًا: هذا إقرار منهم بأن اختيار الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم لـ أبي بكر بأن يكون خليفة من بعده كان اختيارًا موافقًا لرغبة رسول الله ﷺ.

كيف تمت مبايعة أبي بكر

قال بعض العلماء: وإنما لم يكتب الرسول لـ أبي بكر كتابًا لما علم أن الصحابة لن يعدلوا به غيره، وهذا هو ما حصل، فإنه باجتماع السقيفة جرى ما جرى بين الأنصار والمهاجرين، ثم بويع أبو بكر، وأبو بكر رضى الله عنه وأرضاه لم يكن مترتبًا للخلافة، ولهذا جاء في حديث السقيفة أنه لما أراد عمر أن يتكلم أجلسه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر وأحسن الكلام، وتكلم مع الأنصار بكلام عظيم، وقال: (إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، وإني قد رضيت لكم أحد هذين فبايعوهم يعني عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة)، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه، وقال: (لقد رضيك رسول الله ﷺ لديننا -يقصد: الصلاة- أفلا نرضاك لدنيانا، مد يدك)، فبايعه عمر، وبايعه المسلمون، وأجمعوا على مبايعته حتى علي رضى الله عنه وأرضاه كان من المبايعين له، وإن ورد في بعض الروايات أنه تأخر قليلًا جبرًا لخاطر فاطمة رضى الله عنها وأرضاها؛ لأنها رضى الله عنها وأرضاها ظنت أن لها ميراثًا من رسول الله ﷺ، فطلبته من أبي بكر، فأبى أبو بكر رضى الله عنه وأرضاه أن يعطيها هذا الميراث الموجود؛ لنص عنده، وهو أن النبي ﷺ قال (إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة) .

فهي رأت أن لها ميراثًا وأبو بكر رأى أن ميراث رسول الله ﷺ هو مال للمسلمين، فلما لحقت فاطمة البتول رضى الله عنها وأرضاها بأبيها بايع علي رضى الله عنه وأرضاه، وفي بعض الروايات أنه بايع قبل ذلك.

وعلى القول الثاني فإنه بايع وعاش مع أبي بكر وعمر وعثمان وزيرًا لهم، مؤيدًا لهم، ناصحًا لهم، قاضيًا لهم، حتى كان عمر رضى الله عنه وأرضاه يقول: (قضية ولا أبا حسن لها) يعني أن أي قضية ليس لها غير أبي الحسن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه.

فقد كانوا إخوة متآخين في الله، حتى وإن جرى بينهم ما جرى، فقد جرى من الفتن بينهم ما جرى، وكلهم مجتهدون، ولذا قال علي رضى الله عنه وأرضاه: (إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧])، لكن الذي أفسد بين المؤمنين وفرق بينهم، وسب صحابة نبيه ﷺ، هم أولئك الرافضة عليهم من الله ما يستحقون.

خلافة عمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم قال المصنف: [ثم عمر الفاروق] .

وعمر بن الخطاب هو الخليفة بعد أبي بكر باستخلاف أبي بكر له، ثم ببيعة المسلمين جميعًا.

قال المصنف: [ثم عثمان ذو النورين] .

وعثمان رضى الله عنه وأرضاه تولى الخلافة بعد ما استشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه، وذلك بعد أن جعل الأمر شورى في الستة، وبعد أن تشاوروا اجتمعوا على عثمان رضى الله عنه وأرضاه، وبايعه جميع الصحابة، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ثم علي المرتضى، رضى الله عنهم أجمعين] .

ثم الخلافة من بعده لـ علي رضى الله عنه وأرضاه بإجماع المسلمين، ولم يخالف أحد في أنه رضى الله عنه هو الأحق بالخلافة.

الأدلة على أفضل الخلفاء الراشدين

وهؤلاء الأربعة كل واحد له من الفضل العظيم ما ذكرته كتب الفضائل: فـ أبو بكر له فضائل، وعمر له فضائل، وعثمان له فضائل، وعلي له فضائل، ولو سردنا فضائل كل واحد

منهم لقلت: ما أعظم هذه الفضائل، فكل واحد منهم له المنزلة والمكانة الرفيعة عند أهل السنة والجماعة.

قال المصنف: [لما روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: (كنا نقول والنبي ﷺ حي: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره)] .

هذا الحديث رواه الطبراني، ومسلم وغير واحد، فهو صحيح، لكن الإشكال في عبارة المصنف في قوله: (ثم علي)، وأقول: لعلها هي الصواب.

وقوله: (أبو بكر ثم عمر ثم عثمان) هذا دليل على أن الصحابة مجمعون على تقديم هؤلاء الثلاثة رضى الله عنهم وأرضاهم.

قال المصنف: [وصحت الرواية عن علي رضى الله عنه أنه قال: (خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ولو شئت لسميت الثالث)] .

وقد ورد في بعض الروايات أنه قيل له: ثم أنت، فقال علي رضى الله عنه وأرضاه تواضعًا: (وهل أنا إلا رجل منكم)، ولهذا أجمع العلماء على تقديم أبي بكر ثم عمر، ثم قال جماهير أهل السنة: إن الأفضل بعد عمر هو عثمان، ثم بعد ذلك علي، وقليل جدًا من أهل السنة من قالوا: علي أفضل من عثمان.

والقول الصحيح في هذه المسألة هو أن عثمان أفضل من علي، ولهذا ورد عن بعض السلف رحمهم الله تعالى أنه قال: من قدم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار.

أي: لأنهم هم الذين اختاروه، كما في قصة مشاورة عبد الرحمن بن عوف بالخلافة، وكيف أنه أخذ يداول الأمر بين الصحابة جميعًا، ثم قال عند البيعة: (يا علي! لقد رأيت الناس لا يعدلون بـ عثمان، تعال يا عثمان فامدد يدك أبايعك، فبايعه)، فدل على أن الغالبية العظمى من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقدمون عثمان على عليّ رضى الله عنه وأرضاه.

وأما من قال بخلاف ذلك من أهل السنة فنقول: إن قوله مرجوح.

ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل كترتيبهم في الخلافة

قال المصنف: [وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: (ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر)] .

هذا ذكره المصنف وهو مما رواه أبو نعيم في الحلية وغيره، لكن في فضائل أبي بكر رضى الله عنه وأرضاه أحاديث كثيرة أخرى موجودة في كتب الفضائل.

ولهذا ذكر المصنف رحمه الله تعالى قضية الخلافة بعد ذكر الأفضلية فقال: [وهو أحق خلق الله بالخلافة بعد النبي ﷺ؛ لفضله، وسابقته، وتقديم النبي ﷺ له في الصلاة على جميع الصحابة ، وإجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته، ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة] .

وهذه أدلة قوية مختصرة ذكرها المصنف واحدًا واحدًا، فذكر فضله وسابقته في الإسلام، وتقديمه في الصلاة، وإجماع الصحابة عليه، وما كان الله ليجمع هذه الأمة على ضلالة، فهذا يدل على أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه هو أحق بالخلافة.

ثم قال المصنف: [وهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)،] .

والنواجذ هي الأضراس، وهؤلاء الخلفاء الأربعة هم المهديون، وهم الذين يجب أن نتبع سنتهم وطريقتهم رضى الله عنهم جميعًا.

قال المصنف: [وقال ﷺ: (الخلافة من بعدي ثلاثون سنة)] .

وهذا حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود وغيره من حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ.

قال المصنف: [آخرها خلافة علي رضى الله عنهم] .

لأن نهاية خلافة علي والحسن كانت عام (٤١هـ) والرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة إحدى عشرة من الهجرة، فالمدة منذ وفاة الرسول ﷺ إلى خلافة معاوية رضى الله عنه وأرضاه تبلغ ثلاثين سنة، وهذا موافق لما جاء في حديث الرسول ﷺ: (الخلافة من بعدي ثلاثون سنة) .

فضل العشرة المبشرين بالجنة ثم قال المصنف بعد ذلك: [ونشهد للعشرة بالجنة] .

وهذا أيضًا مما يختص به أصحاب النبي ﷺ، فإن هؤلاء العشرة المبشرين بالجنة لهم من الفضل ما هو معروف.

قال المصنف: [كما شهد لهم النبي ﷺ فقال: (أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة –وهو ابن عبيد الله – في الجنة، والزبير –وهو ابن العوام –

في الجنة، وسعد – وهو ابن أبي وقاص – في الجنة، وسعيد –وهو ابن زيد بن عمرو بن نفيل – في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة)] .

ولكل واحد من هؤلاء العشرة خصائص.

الثاني عمر بن الخطاب، ووصفه بأنه (الفاروق) وهذا الوصف نبوي، وصفه الرسول عليه السلام، كما أن وصف أبو بكر الصديق نبوي.

ثم عثمان، أما تفضيل أبو بكر وعمر هذا بالإجماع، وأما عثمان فهذا بإجماع المهاجرين والأنصار حيث قدموا عثمان على عليّ بالخلافة، ولم يختلف الصحابة بأن عثمان هو الشخص الثالث في الفضل بعد أبي بكر وعمر، لكن في عصر التابعين اختلفوا، فهناك بعض السلف وهم قلة، قدموا علياً، لكنهم رجعوا عن ذلك فيما بعد، وبعض السلف توقف فلم يفضل أحداً على أحد،، لكن استقر مذهب التابعين فيما بعد على تفضيل عثمان على علي ثم هجر القول بأفضلية علي وكذلك التوقف وأصبح من الأصول تقديم عثمان على علي في الخلافة والفضل.

ثم وصف المصنف عثمان بذي النورين وهذه الصفة والله أعلم جاءت في عصر التابعين، فقد نقل اللالكائي بسنده عن حسين الجعفي أنه قال: أتدري لماذا سموا عثمان بذي النورين، قال لأنه ما من أحد نكح ابنتي نبي من لدن آدم حتى محمد عليه السلام غير عثمان، فيكون سبب التسمية؛ لأنه تزوج بنتي رسول اللّه.

ثم بالأفضلية علي رضي اللّه عنه، وسماه المصنف (المرتضى) أما سبب التسمية والله أعلم أنها مأخوذة من الحديث الصحيح في البخاري، أن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – قال له: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون لموسى، إلا أنه لا نبي بعدي " ، والشاهد قوله: " أما ترضى ".

ثم بعد ذلك بقية العشرة، فهم أفضل الصحابة بعد الأربعة، وهم الستة الباقون وهم طلحة والزبير والسعدان (سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد) والعبدان (عبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة)، ثم أهل بدر وعددهم ثلاثمائة وبضع عشر، ثم يليهم أهل بيعة الرضوان وأهل أحد، ثم من أسلم بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة، ثم من فتح مكة إلى موت الرسول عليه الصلاة

والسلام. هذا باعتبار الافراد، أما باعتبار الجنس، فأفضل هذه الأمة المهاجرون، ثم الأنصار، ثم من أسلم بعد الحديبية إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى الله عن الصحابة.

مسألة: الخلافة وترتيبها والأحق بها:

الخلافة: أما بالنسبة للخلافة فقد أجمع السلف أن أحق الناس بالخلافة أبوبكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي بن أبي طالب، وهذا بإجماع السلف، فمن قدم أو أخر في هذا الترتيب فهو مبتدع عند أهل السنة والجماعة، ومن قال: إن علياً أحق من عثمان، فهذا ضال، وهو أضل من حمار أهله، كما قال ابن تيمية في الواسطية، فإن مسألة الخلافة وترتيب الخلفاء على النحو السابق، هذا بإجماع السلف، ولم يخالف فيه أحد، أما مسألة التفضيل، فقد وقع خلاف في عثمان وعلي، ثم استقر السلف على تفضيل عثمان على عليّ.

ثم ذكر المصنف الأدلة على ترتيب الخلفاء في الأحقية، **فأما الدليل على أحقية أبي بكرالصديق رضى الله عنه ، فهي كالتالي:**

١ – لفضله. ٢ – لسابقته. ٣ – تقديم النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – له في الصلاة على جميع الصحابة.

٤ . إجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته، ولم يكن اللّه ليجمعهم على ضلالة.

أما الأدلة على أحقية عمر رضى الله عنه: فذكره المصنف كالتالي: وذكر سببين:

السبب الأول: فضل عمر.

الثاني: عهد أبي بكر إليه.

أما أدلة أحقية عثمان بالخلافة بعد عمر رضى الله عنهما : ذكر المصنف دليلاً واحداً، وهو تقديم أهل الشورى له، ويمكن أن يضاف شيئاً واحداً وهو إجماع الناس على توليته واختيارهم له.

أما الأدلة على أحقية علي رضى الله عنه بالخلافة: ذكر المصنف دليلين على ذلك:

١ – فضله. ٢ – إجماع أهل عصره عليه.

وسمى المصنف هؤلاء الأربعة بالخلفاء الراشدين المهديين، وأن خلافتهم خلافة نبوة، واستدل بدليلين:

١ – قوله عليه السلام: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ".

٢ – حديث" الخلافة من بعدي ثلاثون سنة "الترمذي وأحمد،فكان آخرهم خلافة علي بن أبي طالب.

مسألة: هل هناك خلفاء راشدون غير هؤلاء الأربعة:

بعض أهل العلم يضيف عمر بن عبد العزيز، ويجعله من الخلفاء الراشدين، وبعضهم يضيف المهدي، لما ذكر النَّبِيّ عليه السلام من سيرته.

ثم انتقل المصنف إلى مسألة الشهادة، وهل يُشهد لأحد بالجنة أم لا، ثم ذكر قاعدة، أن كل من شهد له النَّبِيّ عليه السلام بالجنة يُشهد له بالجنة، وذكر العشرة المبشرين بالجنة، وذكر بعض الصحابة كالحسن والحسين وثابت بن قيس ولم يُرد المصنف الاستيعاب، وإلا هناك من شُهد له بالجنة كبلال وعبد اللَّه بن سلام وخديجة وحمزة رضى الله عنهم أجمعين، فكل من جاء فيه حديث خاص صحيح النسبة فإنه يُشهد له.

مسألة: بقية الصحابة الذين لم يُشهد لهم بالجنة، فهل يُشهد لهم؟

الصحيح أن الصحابة كلهم يُشهد لهم بالجنة ويدل على ذلك أدلة:

١ – قوله تعالى: {لقد تاب اللَّه على النَّبِيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة}. وهذه في المهاجرين والأنصار.

٢ – أما غيرهم ففيه قوله.: {لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة ... وكلاً وعد اللَّه الحسنى} ، أي الجنة، وكلاً أي الصحابة كلهم وعدهم اللَّه الحسنى. مع وعده تعالى لأهل الحسنى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها) الآية.

٣ ـ قوله: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من اللَّه ورضواناً وينصرون اللَّه ورسوله أولئك هم الصادقون.والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} وأولى من يدخل فيه الصحابة أهل ما بعد الهجرة.

٤ ـ قوله تعالى (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه، الآيات) وكل الصحابة آمنوا معه.

أما الأحاديث فمنها: الحديث المتفق عليه (أنتم شهداء الله في أرضه) فالصحابة مشهود لهم بالعدالة بالإجماع. وحديث (خير القرون قرني). واختاره ابن حزم في كتابه الدرة ص ٣٦٧ قال: وجميع الصحابة ممن صحبه ولو يوما من غير المنافقين في الجنة قطعا اهـ.
واستدلوا أيضاً بحديث رواه الضياء في المختارة، قال عليه السلام: " لا تمس النار رجل رآني "
وأيضا بعموم حديث (الله الله في أصحابي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه) رواه الترمذي وحسنه وغربه وحسنه السيوطي وصحح ابن حبان ورواه أحمد.
وعموم حديث (من سب أصحابي فعليه لعنة الله الحديث) رواه أحمد والطبراني
وعموم حديث (لا تسبوا أصحابي فإن الله قد أمرني بالاستغفار لهم) ذكره ابن بطة في الإبانة الصغرى ص١١٩، ورواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة

مسألة: هل يُشهد للتابعين بالجنة؟

أما التابعون فقد ذهب بعض العلماء إلى أنه يُشهد لهم بالجنة، واختار هذا القول عبد الغني النابلسي في كتابه لمعة الأنوار في المقطوع لهم بالجنة أو النار.وقال نشهد أيضاً للتابعين بالجنة، واستدل على ذلك بالحديث السابق: "لا يمس النار رجل رآني، ولا رأى من رآني"، والقول الثاني عدم الشهادة.إلا أن بعض السلف شهد لبعض التابعين بالجنة كعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، والإمام أحمد، فقد كان أبو ثور يحلف أن أحمد بن حنبل في الجنة، ذكر ذلك ابن تيمية في الفتاوى.

وهل يُشهد لأحد غير هؤلاء؟

ذهب بعض أهل العلم إلى أن من استفاض الثناء عليه فإنه من أهل الجنة، واستدلوا بالحديث الصحيح لما مرت جنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – وجبت، فلما سألوه قال: وجبت الجنة، ثم قال: أنتم شهداء اللَّه في الأرض).

وما هو الضابط لذلك؟

الضابط أنه إذا شهد له علماء الأمة وأهل الحل والعقد من أهل السنة والجماعة، فهذا يكون شهادة له بالجنة، لقوله: " أنتم شهداء اللَّه " يقصد الصحابة، ومن كان مثل صفات الصحابة في العدل والإنصاف ممن يعرف التعديل والقدح والإنصاف فهم شهداء اللَّه، وكل

عصر له شهداء، وكل مكان فيه شهداء لله في أرضه إلى قيام الساعة، ومن ذلك المهدي فقد جاء الثناء عليه في الحديث وكمالك والشافعي وأئمة أهل الحديث .

تفصيل حقوق النبي ﷺ وخصائصه

قال المصنف رحمه الله تعالى: **[فصل: ومحمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وسيد المرسلين]**

وهذا في بيان بعض حقوقه ﷺ، وما يجب له، ولهذا فإن الأمر يتعلق بقضيتين اثنتين بالنسبة للرسول ﷺ: **إحداهما**: ما هو الواجب على كل مسلم بالنسبة لهذا الرسول ﷺ.

والأخرى: ما هي خصائص الرسول ﷺ التي تميز بها عن غيره من الأنبياء.

حقوق النبي ﷺ

أما الأولى: فهي القضية الإيمانية المرتبطة بشهادة أن محمدًا رسول الله، ولهذا فإن هذه الشهادة مقتضاها عدة أمور، سأشير إليها فقرة فقرة باختصار شديد:

أولها: تصديقه في كل ما أخبر به.

ثانيها: طاعته في كل ما أمر به.

ثالثها: اجتناب ما نهى عنه الرسول ﷺ.

رابعها: ألا يعبد الله إلا بما شرعه ﷺ.

خامسها: الإيمان بأنه بلغ البلاغ المبين، فما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه.

سادسها: الإيمان بأنه ﷺ خاتم النبيين، ولا نبي بعده، فمن اعتقد أن هناك نبيًا بعده، وأن نبوته صحيحة، فإنه قد انتقضت عليه شهادة أن محمدًا رسول الله.

وقد سبق بيان أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان لا يتعارض مع ما هو مقرر من أن محمدًا خاتم النبيين.

سابعها: محبته ﷺ، وهي محبة واجبة، وتقديم هذه المحبة على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده وماله ونفسه والناس أجمعين) .

هذه أهم القضايا التي هي قضايا واجبة، وهي من مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله.

االنبي ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين

ومن خصائصه ﷺ أنه خاتم النبيين، فلا نبي بعده.

ومن خصائصه أنه سيد المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، ولهذا فإن أفضل الأنبياء والرسل هم الرسل، وأفضل الرسل هم أولو العزم، والقول الصحيح أنهم الخمسة المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧] .

وأفضل هؤلاء الخمسة محمد ﷺ، فهو أفضل الأنبياء والرسل، ولما كان الأنبياء والرسل هم أفضل الأمم، والرسول هو أفضل الرسل، فهو سيد ولد آدم، وهو أفضل خلق الله ﷺ.

ثم يقول المصنف: **[ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته، ويشهد بنبوته]** .

أي: أن يؤمن أنه رسول، وأن يشهد أنه نبي من أنبياء الله تعالى.

اختصاصه ﷺ بالشفاعة العظمى

ثم يقول: **[ولا يقضى بين الناس في القيامة إلا بشفاعته]** .

أي: لابد من الإيمان بهذه الخصيصة له ﷺ، وهي أنه صاحب الشفاعة العظمى، وقد سبق بيانها.

قول الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، قال كثير من المفسرين: المقام المحمود هو شفاعة محمد ﷺ، حينما يطلب الخلائق جميعًا من ربهم عزوجل فصل القضاء بينهم في العرصات، فيبحثون عن شفيع لهم عند الله تعالى، فيأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، إلى أن ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.

وورد أيضًا أن المقام المحمود هو استفتاح الجنة، وأن النبي ﷺ هو الذي يستفتح باب الجنة فيفتح له، وأن خازن الجنة حينما يقرع عليه رسول الله ﷺ بابها يقول: من؟ فيقول: محمد، فيقول: لقد أمرت بألا أفتح إلا لك؛ ولهذا يفتح للنبي ﷺ، ويدخل وتدخل أمته، ولهذا ورد عن النبي ﷺ أنه قال (نحن الآخرون السابقون)، أي: نحن جئنا في آخر الزمان لكننا السابقون يوم القيامة، أي: أننا نسبق الأمم جميعًا، فأمة محمد ﷺ هي أكثر الأمم داخلًا الجنة يوم القيامة، وكذلك أيضًا هي أول الأمم دخولًا إلى الجنة، نسأل الله الكريم من فضله.

ولهذا قال المصنف رحمه الله: [ولا يدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته] .

إثبات لواء الحمد للنبي ﷺ ثم قال المصنف: [صاحب لواء الحمد] .

ولواء الحمد ورد بيان شيء من معناه في حديث الرسول ﷺ الذي رواه أبو سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر)، هذا الحديث بتمامه رواه الترمذي، وهو حديث صحيح، لكن أوله: (أنا سيد ولد آدم) وآخره: (وأنا أول من تنشق عنه الأرض)، هو في صحيح مسلم، لكن ما يتعلق بالموضوع وهو قوله: (وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي) هذا هو الذي رواه الترمذي، وهو حديث صحيح.

وهذا اللواء للرسول ﷺ معناه أنه يكون قائد المرسلين، وقائد الأمم، ومن علامات هذه القيادة الشفاعة العظمى، ومن علاماتها دخوله صلى الله عليه وسلم وأمته الجنة أول الداخلين.

إثبات المقام المحمود والحوض المورود للنبي ﷺ

قال المصنف: [والمقام المحمود] الذي هو الشفاعة العظمى وسبق بيانه، [والحوض المورود] وهو أكبرها، وورد أن لكل نبي حوضًا، وقد سبق بيان ذلك في شرح السنة للبربهارى .

قال المصنف: [وهو إمام النبيين وخطيبهم] .

فهو إمامهم وسيدهم ﷺ ، وهو أيضًا خطيبهم، ولهذا ورد هذا في حديث حسن رواه أبي بن كعب رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، من غير فخر)، فهو ﷺ الإمام، وهو الخطيب، وهو صاحب الشفاعة، ولهذا فإنه ﷺ يقوم يوم القيامة مقامًا يحمده عليه جميع الخلائق.

فضل أمة النبي ﷺ قال المصنف: [وصاحب شفاعتهم، أمته خير الأمم] .

أمة النبي ﷺ هي خير الأمم، وعدد من يدخل الجنة منها أكثر ممن يدخل من الأمم، ومن ثمَّ تميزت هذه الأمة بعدد من الفضل والخير العميم، فكانت خير الأمم جميعًا، ولو لم يكن إلا أن عدد الداخلين إلى الجنة من أهلها أكبر، لكان كافيًا في بيان أفضليتها.

فضل أصحاب رسول الله ﷺ

قال المصنف: **[وأصحابه خير أصحاب الأنبياء عليهم السلام]** .

وهذا أيضًا من خيرية هذه الأمة، فأصحاب النبي ﷺ هم أفضل صحابة نبي، فهم خير من صحابة إبراهيم، ومن صحابة نوح، ومن حواريي عيسى، ومن أتباع موسى؛ ولهذا فإن هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم لهم من الفضل العظيم ما يجب أن يحفظه كل مسلم لهم؛ وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (خير القرون قرني، ثم الذي يلونهم، ثم الذي يلونهم، ثم يلونهم)، ومثل هذا الحديث قوله ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، والمد ربع الصاع والنصيف نصف الصاع، وهذا لبيان فضلهم.

وينبغي أن تعلموا أن فضل هؤلاء الصحابة إنما هو لصحبتهم لرسول الله ﷺ، ولهذا فإن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ، واجتمع به مؤمنًا به ، ومات على ذلك.

فيخرج بذلك من لقيه وهو كافر، ثم لم يجتمع به بعد ذلك ولو آمن، ويخرج أيضًا من لقيه وهو مؤمن ثم ارتد ومات كافرًا.

وهؤلاء الصحابة لهم أفضلية الصحبة التي لا يشاركهم فيها أحد ممن جاء بعدهم مهما بلغ عمله، وقد يقول قائل: فما معنى حديث: (يأتي في آخر الزمان أناس يكون أجر العامل منهم كأجر خمسين منكم)؟ فنقول: نعم، قد يأتي بعد الصحابة من هو أكثر عملًا، أي: أن أعماله الصالحات كثيرة أكثر من بعض آحاد الصحابة، فيكون أكثر منه عملًا بهذا الخصوص، ولكن هذا العمل كله لا يبلغ درجة الصحبة، أي أن ذلك الصحابي نال أفضلية خاصة اسمها درجة الصحبة، لا يبلغها ولا ينالها أحد إلا من كان صحابيًا، أما من جاء بعده ولو عمل ما عمل فإنه لا ينال هذه الدرجة، فهي درجة تشريف وفضل أجره عظيم عند الله، ولا يعلمها إلا الله ، ومن ثمَّ فإنه لا يناله إلا من كان صحابيًا، أما من جاء بعده فقد يكون له من العمل ما ينال به أجرًا كثيرًا عند الله ، فوضح الفرق بين الأمرين.

الكلام على الشهادة بالجنة والنار نشهد بالجنة لكل من شهد له الرسول ﷺ بها

ثم قال المصنف مقررًا لقاعدة من قواعد أهل السنة والجماعة: **[وكل من شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بها]** .

فأهل السنة والجماعة يشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ، أما من لم يشهد له الرسول فإنه يشهد له شهادة عامة، فيقال: كل من مات من المؤمنين فهو من أهل الجنة، نرجو له ذلك.لكن لا نشهد بأن فلانًا بعينه في الجنة إلا لمن شهد له الرسول مثل العشرة، ومثل ما أورده المصنف هنا في قوله: [كقوله: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)] .

أي: فنشهد لهما رضى الله عنهما وأرضاهما أنهما من أهل الجنة.

قال المصنف: [وقوله لـ ثابت بن قيس: (إنه من أهل الجنة)] .

وهذا أيضًا ثبت في الحديث الصحيح، وثابت بن قيس صحابي كان جهوري الصوت، ولما نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، خاف أن يكون هو المقصود، فقال: (أنا جهوري الصوت، وأرفع صوتي، فأخاف أن عملي قد حبط)، ولهذا ورد أنه بقي في بيته وقال: (والله لا أخرج منه حتى يرضى عني رسول الله ﷺ أو أموت)، وفي إحدى الروايات عند ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما: أنه رضى الله عنه وأرضاه حبس نفسه في اصطبل الفرس، وأمر زوجته بأن تضرب مسمارًا على صاج الباب؛ ليكون ذلك تصبيرًا نهائيًا، وقال: (والله لأبقين في هذا المكان حتى يرضى عني رسول الله ﷺ أو أموت)، فلما أخبر النبي ﷺ بما جرى لهذا الصحابي الجليل قال ﷺ: (أخبروه وبشروه أنه من أهل الجنة)، فلما بشر بذلك ما استطاع أن يخرج بسبب المسمار؛ لأنه كان قد سمره تسميرًا نهائيًا رضى الله عنه وأرضاه، فكسر المسمار، وفتح الباب وخرج.

ومثله أيضًا عكاشة بن محصن، ومثله خديجة بنت خويلد؛ فإن النبي ﷺ شهد لهما بالجنة، ومثله الرميصاء رضى الله عنها وأرضاها، فإن النبي ﷺ سمع لها صوتًا في الجنة فقيل: من هذه؟ قيل: هذه أرجل الرميصاء بنت ملحان، رضى الله عنها وأرضاها، وهي التي تزوجها أبو طلحة، فكان مهرها الإسلام، فإنه خطبها وهو مشرك، فقالت: لا أقبل وأنت على الشرك، لكن إن أسلمت فيكفيني مهرًا، فأسلم أبو طلحة، وتزوجها، فكان مهرها الإسلام.

فمن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة فإنا نشهد لهم. لا نجزم بالنار إلا لمن جزم له الرسول ﷺ

ثم قال المصنف في المقابل: [ولا نجزم لأحد من أهل القبلة بجنة ولا نار، إلا من جزم له الرسول ﷺ] .

بالنسبة لأهل الجنة نشهد لمن سبق، وبالنسبة لأهل النار نجزم بها لـ أبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب، ونجزم بها لزوجته؛ لورود النص القرآني بذلك، كما نجزم أن عمرو بن لحي من أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: (رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار)، فمن شهد له الرسول ﷺ بأنه من أهل النار فنشهد أنه من أهلها، نسأل الله السلامة والعافية.

عقيدة أهل السنة والجماعة في الحكم على المعين بجنة أو نار

ثم قال المصنف: [لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء] .

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة، فنحن نرجو للمحسن أنه من أهل الجنة، ونخاف على المسيء من عذاب الله تعالى.

أما الشهادة العامة فنطلقها، ونقول: كل من مات على الإيمان نشهد أنه من أهل الجنة، وكل من مات على الكفر نشهد أنه من أهل النار، لكن الكلام هنا في الشهادة لمعين، فأي معين لا نشهد له بجنة ولا بنار، فلا نقطع أن من مات على الكفر من أهل النار؛ لاحتمال أنه تاب وأنت لم تعلم بذلك، فأنت لا تشهد، لكن إذا رأيت كافرًا أو كفارًا فبشرهم بالنار، كما ورد عن النبي ﷺ، لكن لا تجزم بأن الشخص الفلاني من أهل النار، إلا إذا جاء الدليل؛ لأن هناك احتمالًا أن يكون قد أسلم ومات على ذلك،وهذه المسألة قد فصلناها في غير هذا الموضع وقلنا أن الإشكال الذى وقع عند البعض هو من عدم التفريق بين علم الله وخبره ،فإن الله تعبدنا بالخبر عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ،وكذلك تعبدنا الله بالظاهر، ولسنا نحن الذين ذكرنا هذا؛ لأن بعض الناس يخاف من مثل هذا الكلام، بل هذا منهج، فنحن نقطع بأن كل من مات وهو على الإيمان فهو من أهل الجنة، وكل من مات وهو على الشرك والكفر فهو من أهل النار، لكن لا نشهد لفلان وفلان إلا لمن دل عليه النص.

منهج أهل السنة والجماعة في الحكم على أصحاب الذنوب والكبائر

ثم انتقل المصنف رحمه الله تعالى إلى قضية من قضايا الأحكام وهي مسألة التكفير فقال:

- ولاَ نُكفِّرُ أحدًا مِنْ أهلِ القِبلةِ بذَنْبٍ، ولاَ نُخْرِجُهُ عَنِ الإسلامِ بِعَمَلٍ.

ونَرَى الحَجَّ والجِهَادَ ماضيًا مع طاعَةِ كلِّ إمامٍ بَرًّا كان أو فَاجِرًا، وصلاةُ الجمعةِ خلفَهم جائزةٌ.قال أَنَسٌ: قال النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – «ثَلاَثٌ مِنْ أصْلِ الإيمَانِ: الكَفّ عن مَنْ قَالَ لاَ إلَهَ إلاّ الله وَلاَ تُكَفّرْهُ بِذَنْبٍ وَلاَ تُخْرِجْهُ مِنَ الإسْلاَمِ بِعَمَلٍ, وَالجْهَادُ مَاضٍ

مُنْذُ بَعَثَنِي الله عزّ وجلّ حتّى يُقَاتِلَ آخِرُ أُمّتِي الدّجّالَ لاَ يُبْطِلُه جَوْرُ جَائِرٍ وَلاَ عَدْلُ عَادِلٍ, وَالإيمَانُ بالأقْدَارِ» رواه أبو داود.

مما تميز به أهل السنة أنهم لا يكفِّرون أحدا بذنب — دون الشرك – ما لم يستحله، والاستحلال اعتقاد، وليس فعل المعصية أو الإقرار عليها استحلال؛ فمن فعل المعصية أو أقرّ من يفعل المعصية من الكبائر أو ما دونها، فإن هذا كبيرة من كبائر الذنوب، ومحرم من المحرمات بحسب حال تلك المعصية، ولا يُعَدُّ استحلالا، فلا يُكفّر أهل السنة والجماعة بذنب ما لم يستحله صاحبه، واستحلاله أن يعتقد أنه حلال، أن يعتقد أن هذا الأمر الذي حرّمه الله جل وعلا في صورته التي حرمها الله جل وعلا أنه حلال؛ لأنه يكون ممن ردّ حكم الله جل وعلا فأحل الحرام، فلا يكفر أهل السنة أحدا بذنب –دون الشرك الأكبر– إلا إذا استحله؛ يعني اعتقد بقلبه أنه حلال.

من مميزات أهل السنة والجماعة أنهم يرون الحج والجهاد ماضيين مع أئمة المسلمين بارين كانوا أو فاجرين، فطاعة أئمة المسلمين الذين حصلت إمامتهم، إمّا باختيار من أهل الحل والعقد، أو غلبة بسيف وسنان، كلهم تنعقد لهم الإمامة الشرعية، ويبقون لهم حق الطاعة في المعروف، والجهاد معهم وعدم عصيانهم؛ لأن طاعتهم من طاعة الله ورسوله، فالخروج عليهم، أو عدم اعتقاد وجوب طاعتهم، هذا من اعتقادات الخوارج والمعتزلة.

فإنّ المعتزلة ضمنوا أصولهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا ذلك مضمّن للخروج على الأئمة؛ أئمة المسلمين، إذا رأوا منهم ظلما، أو رأوا منهم كثرة عمل للمعاصي، أو كثرة ممارسة للكبائر والمنكرات.

والخوارج خرجوا بها على هذا الأصل، وكذلك المعتزلة يرون الخروج ويعتقدونه دينا؛ لأجل هذا الأصل.(وقد مر معنا تفصيل ذلك والسلامة من مذهب الغلو والإرجاء من صفحة**289 –292**)

وكذلك جماعة كبيرة من الأشاعرة يرون الخروج جائز للجَوْرِ ولانتشار الكبائر ونحو ذلك.

أما أهل السنة والجماعة فيرون أنه ما دام أنّ اسم الإسلام باق على الإمام فإنه تجب طاعته في المعروف، ولا يجوز الخروج عنه، وهذا مما يميز أهل السنة والجماعة عن غيرهم؛ بل كان أئمة أهل الحديث، وأئمة أهل السنة يمتحنون الناس في زمن الفتن؛ في أواخر القرن الثالث والرابع يمتحنون الناس بهذا الأمر هل يرون الطاعة أم لا يرونها؟ بل قال الأئمة: **علامة أهل**

السنة الدعاء للأئمة يعني للسلاطين، وعلامة أهل البدعة الوقيعة في السلاطين. وهذا ظاهر لمن تأمل هدي أهل السنة والجماعة، وتأمل أصولهم، وارجعوا في هذا الأمر إلى الإبانة لابن بطة، وارجعوا إلى كتاب البربهاري وهو من أئمة أهل السنة والجماعة فقد فصّل في ذلك تفصيلا بيّنا لأجل ما ظهر في زمنه من كثرة المخالفين في هذا الأصل العظيم.

فأهل السنة يرون أن الوِلاية الشرعية تحصل عن أحد طريقين: إما باختيار من أهل الحل والعقد، وإما بغلبة، فمن غلب ودعا الناس إلى بيعته فتجب بيعته، ومن أُختير من أهل الحل والعقد ودعا أهل الحل والعقد إلى بيعته وجبت بيعته، وقد حصل هذا في الإسلام وهذا، فبيعة الخلفاء الراشدين كانت عن اختيار، وبيعة الولاة وأمراء المؤمنين من بني أمية وبني العباس وما بعدهم إلى زمننا هذا حصلت بالغلبة، لا بالاختيار، وكل من الحالين أمر شرعي، تلزم عنه وتتفرع عنه الأحكام الشرعية من الطاعة وعدم جواز الخروج، ومن المحبة والنصرة فيما أوجب فيه الله جل وعلا النصرة وأمر فيه، وهذا مما يتميز به أهل السنة عن الخوارج والمبتدعة.

وفي هذا الزمان كثرت المخالفة في هذا الأصل العظيم، والناجي من نجاه الله جل وعلا، وكثير ممن يعتني بمنهج أهل السنة والجماعة، لا يعتني بمنهجهم في الإمامة، وأهل السنة والجماعة عقائدهم يجب أخذها جميعا دون تفريق بين باب وباب، لأننا إذا فرقنا نكون على شيء من الهوى، فهذه الأبواب تسمى عند أهل العلم أبواب الاعتقاد في الإمامة، لأنهم خالفوا بذلك الخوارج والمعتزلة وطوائف من الأشاعرة.

[ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه عن الإسلام بعمل] .

أي: بعمل كبيرة، فمنهج أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بالذنوب كما فعلت الخوارج، ولا يخرجونهم من الإيمان بعمل كبيرة كما فعلت الخوارج، ولا يحكمون بخلودهم في النار، كما فعلت الخوارج والمعتزلة.

وليس معنى ذلك أن أهل السنة لا يكفرون أحدًا بأي ذنب مهما كان، وإنما المقصود بذلك الكبائر التي هي دون الشرك والكفر بالله تعالى، لهذا فإن من ارتكب مكفرًا فهو مذنب، وأهل السنة والجماعة يكفرون من سب الله تعالى، أو سجد لصنم وهو يعلم، أو أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو كان منافقًا، أو عمل ناقضًا من نواقض الإسلام، فأهل السنة والجماعة يقطعون بأن هذه الذنوب مكفرة لصاحبها، لكن مقصودهم هنا: أنهم لا يكفرون

مرتكب الكبيرة غير المستحل لها، فالذين يعملون ما دون الشرك بالله مثل: آكل الربا، والزاني، والسارق، وشارب الخمر، والعاق لوالديه إلى آخره، فهؤلاء إذا ماتوا وهم على التوحيد فإنهم عند أهل السنة والجماعة في الدنيا غير كفار، ولهذا تقام عليهم الحدود، ويورثون، ويدفنون في مقابر المسلمين، وكذلك أيضًا يقول أهل السنة والجماعة: إنهم يوم القيامة تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، وقد يُشفع لهم، ولا يخلدون في النار ولو دخلوها.هذا هو منهج أهل السنة والجماعة.

أما الخوارج فعندهم أن كل من ارتكب كبيرة فهو كافر في الدنيا حلال الدم والمال، ويوم القيامة يكون مخلدًا في نار جهنم.

والإباضية -وهم طائفة من الخوارج- قالوا: هو في الدنيا كافر وفي الآخرة مخلد في نار جهنم.

والمعتزلة قالوا: إذا ارتكب كبيرة من هذه الكبائر خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين، أي: أننا لا نستحل دمه وماله، لكن حكمه في الآخرة عندهم أنه خالد مخلد في نار جهنم، وهذا كله مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة.

بعد أن انتهى المصنف من الشهادة لأهل الفضل والثناء أنهم من أهل الجنة، انتقل فقال:

هل يشهد لأحد غيرهم بجنة أو نار؟

الجواب: أن غير السابقين مما ذكر، كالمسلم العادي الذي لم ينتشر فضله، فهذا لا يشهد له بالجنة، لكن يُرجى له الجنة، وكذا لا يُشهد لأحد منهم بنار، وإنما يخاف على المسيء من النار، فجعل الأمر دائر بين الرجاء للمحسن والخوف على المسيء

وقول المصنف (**ولا نجزم**) نفى الجزم، وقوله (**نجزم**) ولم يقل لا أجزم بالإفراد لأنه أراد باللفظ أهل السنة، وقوله (**من أهل القبلة**) يُقصد بأهل القبلة هو من أتى بالتوحيد ﴿ شهادة أن لا إله إلا الله ﴾ ولم يأتِ بناقض، **هذا تعريف أهل القبلة شرعاً، ويشترط شرطان**:

أ - أن يأتي بالشهادتين، وهذا شرط إيجابي.

ب - أن لا يأتي بناقض من نواقض الإسلام وهذا شرط سلبي.

فإذا لم يأت بالتوحيد فليس من أهل القبلة، وإن أتى بالتوحيد وأتى بناقض فليس من أهل القبلة، أما الذين ليسوا من أهل القبلة كالجهمية، فهؤلاء عندهم ناقض وهو إنكارهم وجحدهم للأسماء والصفات، وغيره من المكفرات التي عندهم.

ومثل الرافضة اليوم فهم ليسوا من أهل القبلة لوجود نواقض فيهم، وكالعلمانيين والحكام المرتدين في وقتنا ممن يدعي الإسلام فهم ليسوا من أهل القبلة لوجود ناقض، ويشمل الحداثين والقوميين والبعثيين والديمقراطيين والاشتراكيين وغيرهم من الطوائف الأخرى الذين ليسوا من أهل القبلة، وفائدة ذلك أن من مات من هؤلاء الطوائف على ذلك.

لا يدخل في هذه المسألة، ولا يقال لا نشهد له بالنار، ويدل على ذلك أن من مات من المرتدين يشهد له بالنار.

ويدل لذلك حديث بني المنتفق وهو حديث صحيح، فأتوا النَّبِيّ عليه السلام وسألوه في حديث طويل عمن مات من أهل الفترة فقال النَّبِيّ عليه السلام: " لعمر الله ما أتيت عليه من قبر عامري أو قرشي من مشرك فقل: أرسلني إليك محمد فأبشرك بما يسوءك تجر على وجهك وبطنك في النار " قال ابن القيم في (الهدى) من فوائد الحديث أنه يُشهد على من مات على الشرك بالنار.

٢ – قصة المرتدين، فإنهم لما تابوا وطلبوا الصلح من أبي بكر شرط عليهم شرط، وقال حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار " والشاهد قوله: " وقتلاكم في النار "، فدل على أنه يجوز الشهادة على المرتد إذا مات على الردة بالنار.

ثم تطرق المصنف إلى مسألة التكفير وهل يكفّر أحد من أهل القبلة أم لا يكفر.

قال المصنف: (ولا نكفر أحد من أهل القبلة بذنب ولا نخرجه عن الإسلام بعمل).

تكلم المصنف عن حكم تكفير أهل القبلة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما المقصود بكلمة "بذنب"، وكلمة "بعمل"

هاتان الكلمتان قد تفهم خطأ، وقد تفهم أحياناً على وجه التعميم، فيظن أن كلامه عام وليس كذلك، فيقصد "بذنب" أي المعاصي، التي تسمى الكبائر، ومثله كلمة" بعمل" فإنها تطلق على ثلاثة أشياء:

أ – على الكبائر: كالسرقة والزنا والغيبة والنميمة واللواط وما شابه ذلك فهذا لا يكفر به أهل السنة والجماعة.

ب – الشرك الأصغر، فهذا أيضاً يدخل ضمن كلام المصنف فلا يكفر بالشرك الأصغر.

ج – الصغائر وهي ما جاء تحريمها بالشرع ولم يرد فيها وعيد خاص، فهذه لا يكفر بها أهل السنة والجماعة.

وهناك ذنوب لم يقصدها المصنف هنا كالشرك الأكبر والكفر الأكبر، فهذه يكفر فيها أهل السنة والجماعة، سواء كان كفراً أكبر اعتقادي أو عملي أو قولي.

وقول المصنف (بعمل) يراد به عمل المعاصي.

المسألة الثانية: قول المصنف (أهل القبلة) ما المقصود بهم:

يقصد أهل القبلة طوائف:

أ – السابقون.

ب – المقتصدون.

وهذان القسمان هم أهل المدح والثناء وهم أهل الجنان، قال تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله}

وهؤلاء لا يكفرون.

ج – الظالم لنفسه، وهم أهل التوحيد الذي فعل شيء من المعاصي ومات عليها، أو مصراً عليها، ويشترط في هؤلاء حتى يسموا أهل القبلة، أن يأتوا بالتوحيد، وأن لا يأتوا بناقض من نواقض الإسلام.

د – المبتدعة: أو الذين فيهم بدعة، بشرط أن تكون بدعتهم غير مكفرة، كالذين يحيون ليلة النصف من شعبان وكتقديم الخطبة على الصلاة في العيد، وترك بعضهم للتكبير علناً، وكتأخير الصلاة لآخر وقتها الضروري، ومثل الكلابية ومثل متقدمي الأشاعرة كأبي الحسن الأشعري والباقلاني، ومثل الكرامية فإنهم مبتدعة ومثل الخوارج الأولى ويسمون المحكّمة، فهؤلاء مبتدعة وليسوا كفاراً.

ومثل مرجئة الفقهاء، هذه الطوائف هي التي تسمى أهل القبلة.

المسألة الثالثة: أهل القبلة ينقسمون إلى قسمين:

أ – أهل القبلة بالحقيقة، بمعنى أنه يجوز إطلاق هذا الاسم عليهم، وهم الطوائف السابقة.

ب – أهل قبلة بالادعاء والانتساب أو لمجرد التعريف، أو باعتبار ما قبل التكفير، وهو كل من انتسب إلى القبلة وقد قام به مكفر، فتسميته بأهل القبلة زور وبهتان. ولا يجوز إطلاق هذا الاسم عليه.

وهذا القسم لم يرده المصنف، وهم طوائف يتسمون بأهل القبلة وهم كفار، وهم كالتالي:

الجهمية، فهؤلاء على الصحيح كفار.

الرافضة: وهم ليسوا من أهل القبلة على الحقيقة وهم كفار، علماؤهم وعوامهم

عباد القبور: وهؤلاء مشركون بالإجماع وليسوا بمسلمين، نقل تكفيرهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، في نواقض الإسلام – الناقض الثاني –، وقبله نقله ابن تيمية كما في كشاف القناع، أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة كفر إجماعاً.

الصوفية الشركية القبورية ، الذين عندهم كفريات، كالاستغاثة بالأولياء ونحو ذلك، فهؤلاء مشركون وإن تسموا بأهل القبلة.

العلمانيين الذين يرفضون الشريعة ويفصلون الدين عن الحياة : بجميع أصنافهم، فإنهم كفار وإن تسموا بالإسلام، أو قالوا نحن دولة إسلامية وحكام مسلمين، وهم في حقيقة الأمر علمانيون كفار يرفضون الإسلام ويعادونه جهاراً ويصرحون بذلك .

ومِنَ السُّنّةِ تَوَلِّي أصحابَ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – ومحبَّتُهُم، وذِكْرُ محاسنِهم، والتَّرَحُّمُ عليهم، والاستغفارُ لهم، والكَفُّ عن ذِكْرِ مساوئِهم، ومَا شَجَرَ بَيْنَهُم، واعتِقادُ فَضْلِهم، ومعرِفةُ سابِقَتِهم. قال الله تعالى { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمان وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا } [الحشر:10]، وقال تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح:29].

وقال النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – «لا تَسبّوا أصحابِي, فلو أنّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهَباً ما بَلغَ مُدّ أحدِهم ولا نَصيفَه»

ومِنَ السُّنّةِ التَّرَضّي عَنْ أَزْوَاجِ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –، أُمَّهاتِ المؤمنينَ المُطهَّراتِ، المُبَرَّآتِ مِنْ كلِّ سوءٍ، أفضلُهنّ خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ وعائشةُ الصّديقةُ بنتُ الصّديقِ التي بَرَّأَهَا اللهُ فِي كتابِهِ، زوْجُ النبيّ – صلى الله عليه وسلم – في الدنيا والآخرةِ، فمَنْ قَذَفَهَا بما بَرَّأَها اللهُ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ باللهِ العظيم .

ومعاويةُ خالُ المؤمنينَ، وكاتِبُ وحْيِ اللهِ، أحدُ خلفاءِ المسلمينَ – رضي الله عنهم –.

ومِنَ السُّنَّةِ السَّمْعُ والطاعَةُ لأئمةِ المسلمينَ وأُمَرَاءِ المؤمنينَ بَرِّهِمْ وفَاجِرِهِمْ، ما لم يأمروا بمعصيةِ اللهِ، فإنَّه لا طاعةَ لأحدٍ في معصيةِ اللهِ.

ومَنْ وَلِي الخلافةَ، واجتمعَ عليه النّاسُ ورَضُوا بِهِ، أوْ غلبَهُم بسيْفِهِ حتَى صَارَ الخليفة، وسُمِّيَ أميرَ المؤمنينَ، وجبَتْ طاعتُهُ، وحَرُمَتْ مُخَالَفَتُهُ والخُروجُ عَلَيهِ وشَقُّ عصَا المسلمينَ.

موقف أهل السنة من أئمة الجور(وجوب إقامة الحج والجهاد مع الإمام وإن كان فاجرًا)

مسألة موالاة الصحابة وفيها مسائل:

الأولى: قوله: (ومن السنة) أراد بالسنة ما يضاد البدعة ولم يرد السنة الاصطلاحية التي هي بمعنى ما يثاب فاعله امتثالاً ولا يعاقب تاركه، وإنما أراد أنها هي طريقة أهل السنة والجماعة.

الثانية: قوله: (تولي أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –) قوله تولي أراد موالاة الصحابة، فالتولي هنا قول وعمل واعتقاد، واجب للصحابة،ثم قسم المصنف هذا التولي إلى **ثلاثة أقسام:**

أ – موالاة اعتقادية.

ب – موالاة عملية.

جـ – موالاة قولية.

أما الموالاة الاعتقادية فهي قول المصنف: (واعتقاد فضهلم ومعرفة سابقتهم وهذا يسمى قول القلب وهو العلم والمعرفة).

الموالاة العملية: أشار إليها بقوله (ومحبتهم) وما يتبع ذلك من احترامهم والثناء عليهم بالقلب، وقولنا عملية يشمل عمل القلب وهو المحبة والاحترام والتوقير لهم، ويشمل أيضاً عمل الجوارح، وهي نصرتهم ومتابعتهم والعمل بأعمالهم.

الموالاة القولية: وهي قول اللسان، وأشار إلى ذلك بقوله (وذكر محاسنهم والترحم عليهم والاستغفار لهم، والكف عن ذلك مساوئهم وما شجر بينهم) وهذه أربعة أمور تكون باللسان، منها ثلاثة إيجابية أي مطلوب فعلها وهي الثلاث الأول، ومنها واحد سلبي، أي المقصود عدمه وهو الكف والحبس عن التكلم فيهم، والكف وحده لا يكفي فلابد من الثناء والترحم والاستغفار.

ثم ذكر المصنف دليلين لذلك:

الأول: قوله تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا ... }

الثاني: قوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار} هذا من القرآن.

ثم ذكر المصنف مسألة سب الصحابة، وسبب ذكر مسألة السب لأن السب يضاد التولي فمن سب الصحابة أو أحداً منهم فهذا ينافي تولي الصحابة، **أما حكم سب الصحابة فهو على النحو التالي:**

١ – أن يسبهم كلهم أو أكثرهم فهذا كافر بالإجماع.

٢ – أن يسب بعضهم أو الواحد منهم أو النفر القليل، **فهذا على قولين:**

الأول: أن سب الواحد والاثنين من الصحابة من غير المشهورين كالخلفاء والعشرة أنه لا يكفر واستدلوا بالحديث الذي ذكره المصنف: " لا تسبوا أصحابي ... " وهذا نهي والنهي يقتضي التحريم ولم يذكر أنه كفر.

قالوا: وكذا خالد بن الوليد تكلم في عبد الرحمن بن عوف ولم يكفر بهذا السب.

الثاني: أن سب الواحد منهم يكفر بشرط أن يعرف أن الذي سبه صحابي ثم يعاند، فهذا يكفر ويدل عليه قوله عليه السلام: " إن الله جعل لي أصحاب وجعل لي منهم وزراء وأصهار فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"رواه الحاكم

الدليل الثاني: أن الله ذكر أنه رضي عنهم قال تعالى {لا يستوي منكم من أنفق)

فكل الصحابة مرضي عنهم وهم من أهل الجنة، وقال تعالى: ﴿ يوم لا يخزي الله النَّبِيّ والذين آمنوا معه ﴾ ويقصد بهم الصحابة من باب أولى.

فمن سب أحداً منهم فقد كذب هذه الآيات وأمثالها، وهذا هو الصحيح أن من سب واحداً منهم يكفر بعد التعريف والمعاندة، هذا إن كان سبه سب غيظ ومعادة وبغض وفي الحديث عن الأنصار لا يسبهم إلا منافق.

أما سب التأويل فحكمه حكم المسائل الخفية يكفر إذا فهم الحجة وعاند

وسماه أبو زرعة زنديقا كما نقل عنه الخطيب البغدادي في " الكفاية ". وسماه يحي بن معين دجالا لمن سب واحداً، وقال عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

مسألة: الطوائف التي خالفت في موالاة الصحابة، وهم الخوارج والرافضة:

فهؤلاء لا يتولون الصحابة، أما في وقتنا الحاضر فهناك االعصرانيون، وقسم منهم علمانيون، والقسم الآخر يسمون زورا (إسلاميين معتدلين متنورين عقلانيين، عليهم من الله ما يستحقون) وهم يتهجمون على الصحابة وخصوصاً عثمان ومعاوية وعبد الله بن الزبير وغيرهم.

ثم انتقل المصنف رحمه الله تعالى إلى قضية أخرى تتعلق بالإيمان، فقال رحمه الله: [ونرى الحج والجهاد ماضيين مع كل إمام، برًا كان أو فاجرًا] .

وهذا أيضًا تقرير لمذهب أهل السنة والجماعة: أن السمع والطاعة واجبة للإمام الشرعي المسلم وإن كان جائراً، سواء كان برًا أو فاسقًا، وطاعته إنما هي في المعروف، وفي غير معصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، فتجب الطاعة له ولو كان فاجرًا، أي: ولو كان مرتكبًا لكبيرة، كان ظالما يضرب هذا ويفعل مع هذا بعض الأفاعيل، هذه الأمور التي هي من قبيل الظلم والفسق والفجور لا ترفع طاعة هذا الإمام عند أهل السنة والجماعة، بل توجبها، وهذا قد دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، ولهذا قال ﷺ: (**اسمع**

وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) . وهذه الزيادة في صحيح مسلم ليست في المتن ولكن ذكرها من باب الشواهد والمتابعات ونصها (حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ عَسْكَرٍ التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ ح و حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ أَخْبَرَنَا يَحْيَى وَهُوَ ابْنُ حَسَّانَ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ يَعْنِي ابْنَ سَلَّامٍ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ سَلَّامٍ عَنْ أَبِي سَلَّامٍ قَالَ قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ كَيْفَ قَالَ يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَالَ تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ) لا خلاف في صحة الحديث إلا تلك الزيادة (تسمع و تطيع للإمام و إن ضرب ظهرك و أخذ مالك فاسمع و أطع) هذه الرواية هي ما اتفق عليها البخاري و مسلم،دون هذه الزيادة الضعيفة المنكرة والتي ذكرها الامام مسلم من باب الشواهد والمتابعات و قد صرح في مقدمة صحيحه أنه يذكر أحيانا الأحاديث في المتابعات ليبين علتها و هذا جزماً منه ،فالحديث بهذه الزيادة منقطع بإجماع المحدثين

لأن أبا سلام لم يسمع من حذيفة كما قال الدراقطني : وهذا عندي مرسل لأن أبا سلام لم يسمع حذيفة، و النووي وافقه في أن أبا سلام لم يسمع من حذيفة ، و إنما ذكر شاهدا ظن أنه يقويها ، و هذا ما لم يفهمه بعض من صحح الحديث بقول النووي وغيره ،فالبلاغات والمعلقات والشواهد في الصحيحين وغيرهما لايعني أنها صحيحة عندهما أو أنها مما يصح أن يقال فيها رواه البخاري ومسلم لأن الذي يقال فيه ذلك ماروه فيهما مسنداً

فعزو الحديث أو القصة إلي صحيح البخاري دون بيان أنها من البلاغات أو المعلقات أو الشواهد خطأ فاحش يوهم أن الحديث فى صحيح البخارى على شرطه ،وهذا من طرق الملحديين والعلمانيين والروافض فى التشكيك فى السنة وكتب السنة يقولون هذا فى صحيح البخارى أو صحيح مسلم أو رواه البخارى فى صحيحه دون أن يبينوا حقيقته خداعاً وتدليساً على عوام المسلمين،وهذا مايروجه عباد ولاة الأمور دعاة الدياثة

والانبطاح ،فلو اعتدى حاكم أو أمير على مال مسلم بغير حق واغتصب داره وفجر بزوجته أمامه هل سيصبر ويسلمها له أم سيقاتل دون عرضه ؟

وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم من غير زيادة(اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) ونصه : (حدثني محمد بن الْمُثَنَّى حدثنا الْوَلِيدُ بن مُسْلِمٍ حدثنا عبد الرحمن بن يَزِيدَ بن جَابِرٍ حدثني بُسْرُ بن عُبَيْدِ اللَّهِ الْحَضْرَمِيُّ أَنَّهُ سمع أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ يقول سمعت حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ يقول كان الناس يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ عن الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عن الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فقلت يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كنا في جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا الله بهذا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هذا الْخَيْرِ شَرٌّ قال نعم فقلت هل بَعْدَ ذلك الشَّرِّ من خَيْرٍ قال نعم وَفِيهِ دَخَنٌ قلت وما دَخَنُهُ قال قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ منهم وَتُنْكِرُ فقلت هل بَعْدَ ذلك الْخَيْرِ من شَرٍّ قال نعم دُعَاةٌ على أَبْوَابِ جَهَنَّمَ من أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فيها فقلت يا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لنا قال نعم قَوْمٌ من جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا قلت يا رَسُولَ اللَّهِ فما تَرَى إن أَدْرَكَنِي ذلك قال تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ فقلت فَإِنْ لم تَكُنْ لهم جَمَاعَةٌ ولا إِمَامٌ قال فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ على أَصْلِ شَجَرَةٍ حتى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ على ذلك) فكل الشواهد التي فيها الزيادة معلولة لا يصح التساهل في تصحيحها و جعلها أصلا من أصول الدين و تستباح بها الأعراض و الأموال و الأنفس.

ولما ذكر ﷺ الأمراء الذين يؤثرون أنفسهم بالأموال ونحوها، وأحيانًا يأمرون بالمنكرات، قال بعض الصحابة: (يا رسول الله! أفلا نناجزهم؟ -وفي بعض الروايات: أفلا نقاتلهم- فقال ﷺ: لا، حتى تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان) .

وورد عن النبي ﷺ أنه لما قيل له: (أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا)، فدل هذا على أن الإمام تجب له السمع والطاعة، ولا يجوز الخروج عليه إلا أن يترك الصلاة، أو يأمر بترك الصلاة، أو أن يأتي بكفر بواح ظاهر عندنا من الله فيه برهان، وهذا هو منهج جماهير أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى فى الحاكم المسلم الجائر الظالم ،أما الكافر المرتد فله تفصيل ومن ثمَّ فإن الحج والجهاد أيضًا عند أهل السنة والجماعة ماضيان مع الإمام، سواء تولى الإمامة باختيار المسلمين له، أو باستخلاف من قبله، وحالة ثالثة ذكرها كثير من السلف:

إذا تسلط بالقوة، وحكم بين الأمة بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ فالسمع والطاعة واجبة له، ففي هذه الحالات الثلاث يجب له السمع والطاعة، بشرط أن يحكم بين الأمة بالكتاب والسنة.

وكذلك أيضًا يجب الحج معه، فلا يأتي قائل ويقول: هذا فاجر، وعلى هذا فنحن لا نحج، فنقول: بل إذا قاد حجيج المسلمين فيجب الحج معه، وقد كان الخلفاء من قديم الزمان يقودون الحج، أو يرسلون من ينوب عنهم في قيادة الحج، وهذا كان موجودًا في زمن الدولة الأموية والعباسية، والمؤرخون في الحوليات إذا وصلوا إلى شهر الحج قالوا: وحج بالناس فلان، فيذكرون من حج بالناس، سواء كان الخليفة أو من ولاه أو غير ذلك.

وكذلك أيضًا الجهاد في سبيل الله، ولهذا قال علي رضى الله عنه وأرضاه: (لابد لهذه الأمة من إمامة برة أو فاجرة.قالوا: يا أمير المؤمنين! قد عرفنا البرة فما الفاجرة؟ قال رضى الله عنه وأرضاه: الفاجرة حتى تحمي البيضة، وتقيم الحق، وتقيم الحدود) .

إذًا: الجهاد لا بد منه حتى مع الفاجر، فما دام مجاهدًا للكفار وللمشركين فيجب أن يكون المؤمنون معه مطيعين مجاهدين في سبيل الله، وكل هذه الأمور إنما هي ما دام يحكم بالكتاب والسنة، وما دام لم ينقض ذلك بكفر بواح ظاهر عندنا من الله فيه برهان، وقد ذكرنا أنواع الحكام الثلاثة وفصلناها فى غير هذا الموضع ،وبينا من هو ولى الأمر التي تجب طاعته .

شروط الخروج على الإمام الكافر

السؤال :وهل يشترط القدرة في الخروج على الإمام الكافر؟

الجواب :نعم، لابد من القدرة؛ فإن الخروج من غير قدرة يؤدي بالمسلمين إلى التهلكة، فلو أن ،واحدًا يعيش في بريطانيا، والحكومة كافرة لا شك في ذلك، وقال: هل يجوز لي الخروج عليهم؟ فنقول: نعم يجوز، ونتمنى أن تقيموا دولة الإسلام هناك، لكن لو قال: ما رأيكم لو خرجت، فنقول: لا تخرج؛ لأنكم لا تستطيعون.

والرسول ﷺ بقي في مكة، وكثر العدد، وكان الرسول معهم، وكان بعض المسلمين يموت تحت التعذيب، ومع هذا لم يأمر الرسول بالانتقام، حتى إنه أمر بالإحصاء وقال: (أحصوا كم يلفظ الإسلام)، فإذا هم قرابة الخمسمائة.

بل لما أسلم بعض أهل المدينة وجاءوا في بيعة العقبة الكبرى في منى، وصاح الشيطان وقال بعضهم لما سمعوا صيحة الشيطان: يا رسول الله! إن شئت لنميلن على أهل منى، فقال الرسول ﷺ: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)، فكل ذلك دال على أنه إذا كان المسلمون مستضعفين ليس لهم مكان يؤويهم فلا يجب عليهم الجهاد، والرسول ما بدأ الجهاد إلا بعد أن كانت المدينة دارًا للمؤمنين تؤويهم، حيث كان يرسل الجيش ويرجع إلى مكان آمن.

وهذه القضية يخطئ فيها كثير من الجماعات الإسلامية، فلا يكون الجهاد إلا إذا وجد مكان يؤويهم، وهذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ ،وقد فصلنا ذلك أكثر من مرة ،في شرح كتاب الدولة الإسلامية ،وكتاب السياسة الشرعية ،وشرح كتاب الجهاد وكذلك شرح السنة.

وأسأل الله تعالى أن يرزقنا الأجر والثواب، وألا يحرمنا ذلك، وأن يوفقنا جميعًا إلى ما يحبه ويرضاه.

الصلاة والجهاد مع الإمام المسلم ،ولو كان فاجرًا

ثم قال أيضًا: [وصلاة الجمعة خلفهم جائزة] .

مذهب أهل السنة والجماعة أن الصلاة خلفهم جائزة ولو كانوا فجارًا، ولو كان يعلم أن هذا الإمام أنه يؤخر الصلاة، أو أنه يشرب الخمر؛ فإن الصلاة خلفه جائزة، وقد ورد في ذلك أحاديث عن النبي ﷺ.

ثم قال المصنف: [قال أنس: قال النبي ﷺ: (ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا إله إلا الله)] .قوله: (الكف) يعني: عدم الاعتداء على دمه وماله، فما دام قد أظهر الإيمان فنأخذه بظاهره، فإن كان باطنه كظاهره فالحمد لله، وإن لم يكن كذلك فإننا نحكم عليه بظاهره والله يتولى باطنه، إلا أن يظهر لنا ذنبًا آخر أو كفرًا وردة فيجب أن نقيم حد الردة عليه.قال: [(الكف عمن قال: لا إله إلا الله، ولا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله حتى يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار)، رواه أبو داود] هذا الحديث رواه أبو داود، لكنه حديث ضعيف، ضعفه المنذري وغيره، وسبب تضعيفه أن فيه يزيد بن أبي نشبة، ضعفه العلماء، لكن ما فيه من الإيمان بالأقدار، ومضي الجهاد، وأن لا نكفر أحدًا، كلها دلت عليها أدلة

أخرى من أحاديث الرسول ﷺ.والشاهد هو قوله: (لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل) أي: أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.

ثم تكلم المصنف عن مسائل الإمامة وما يتعلق بها.

وهي مسائل تتعلق بالموقف تجاه الأئمة والحكام وماذا يجب لهم.

قال المصنف (ونرى) ولم يقل (وأرى) وإنما عبر بقوله (نرى) وفاعل (نرى) جماعة والسبب لأن المصنف يتكلم عن مذهب أهل السنة والجماعة، مثل ما قال قبله (ونشهد) وقال (ولا نجزم) مما يدل على أنه ينقل اعتقاد أهل السنة والجماعة في مسألة الواجب للأئمة.

وذكر المصنف ثلاث شعائر: الحج، والجهاد، والجمعة. على أن هذه الشعائر الثلاث تفعل مع الأئمة ولا يخالفون فيها ويتعاونون معهم عليها، وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه المسالة ينبغي أن نعرف من هم الأئمة المقصودون هنا؟.

الجواب: الأئمة ينقسمون ثلاثة أقسام:

١ – **أئمة العدل:** فهؤلاء يجب إقامة الحج والجهاد والجمعة معهم، وغيرها من الشعائر الأخرى.

٢ – **الأئمة الفساق:** وهم على قسمين:

أ – أئمة فساق فسق متعدي: وهم ما يسمون أئمة الجور والظلم، فيظلمون الناس في أموالهم وأعراضهم ويجورون في الأحكام لكنهم مسلمون، لم يخرجوا بهذا الظلم والجور عن الإسلام.

ب – أئمة فسق غير متعدي: مثل الأئمة الذين يشربون الخمر ويزنون ويأكلون الربا، وهؤلاء أحسن حال أئمة الجور وكلا الصنفين يقام معهم الحج والجهاد والجمعة.

٣ – **الأئمة الكفار والعلمانيين والأئمة المرتدين:** فهؤلاء ليس لهم شيء من هذه الحقوق، أما صلاة الجمعة فلا تجوز الصلاة خلفهم، وإذا أجبروا الناس بالصلاة خلفهم، صلوا وأعادوا صلاتهم، وكذا لا يصل خلفهم العيد ولا بقية الصلوات، كالكسوف وغيرها ومثله صلاة الفريضة، فلا يصل خلفهم، وأما الجهاد، فالواجب أن يجاهدوهم، ويجب على أهل الحل والعقد وعلماء المسلمين أن يجاهدوهم ويقاتلوهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فإن لم يستطيعوا وجب تكفيرهم واعتقاد كفرهم وعدم إمامتهم وعدم الذب عنهم ويصبر حتى يأتي الله بالفرج، (للتفريق بين الأسماء والأحكام) ولكن لو قام الجهاد (جهاد الدفاع، أي دفع

الصائل) ورفعوا رايته، كما لو صالت دولة على دولة شعبها مسلم وحاكمها كافر ثم أعلن هذا الحاكم الكافر الجهاد ضد الصائل، فهنا لا مانع من الجهاد معه ضد الصائل، كما قال عليه السلام: " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ". فهناك يقاتل مع المسلمين ولو كان الحاكم كافرا ما دام ان المصلحة للمسلمين للدفع عنهم،وقد تحالف الرسول أول ما جاء للمدينة مع اليهود على أن يشتركوا بالدفاع عن المدينة، مع أن اليهود كفار، ومثله حلف الفضول فقد اشترك الرسول قبل البعثة مع الكفار في نصرة المظلوم ويأتي بسط أكثر لهذه المسألة بعد أسطر إن شاء الله.

وأما الحج، فلو أقام الحاكم الكافر الحج فإنه يُحج معه.

وقول المصنف (ونرى الحج) ثم قال ﴿ ماضياً ﴾ بمعنى أنه لا يُترك الحج من أجل كفر الحاكم، أو يُهجر الحج أو تهجر مكة لأن الإمام كافر، والسبب أن الحج فرض واجب، فلا يجوز تركه من أجل كفر الحاكم **هذا الأول**.

الدليل الثاني: حج أبي بكر، لما حج قبل السنة العاشرة مع الناس وفيهم كفار،

الدليل الثالث: وكان الصحابة يحجون قبل الفتح إلى مكة ويعتمرون مع أن الحكم في مكة للكفار، فلم يمنع عمل هذه الشعيرة وإن كان هناك كفار.

الدليل الرابع: قوله تعالى: {ومن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما}، فسبب نزول الآية أن الصحابة تحرجوا أن يطوفوا بالمسعى لأنه فيها أوثان في ذلك الوقت، فنزلت هذه الآية لنفي الحرج أن يؤدوا السعي وإن كان فيها أوثان وشرك.

ولم يذكر المصنف العمرة لأنها تختلف، فليس لها وقت معين كالحج وإنما هي راجعة للشخص، متى شاء اعتمر.

وقوله ﴿ **والجهاد ماضياً** ﴾ لابد من قيد في الجهاد، فيقصد به الجهاد الشرعي، هذا هو الماضي مع الأئمة ويشترك فيه أهل السنة جنوداً، وهو إما جهاد هجومي لمقاصد إسلامية، أو جهاد للدفاع عن أنفسهم وحرمتهم.

وضده الجهاد الدنيوي، وهو أن يقاتل الإمام من أجل إدخال بعض البلاد في حوزته وملكه ظلماً، أو كجهاد المسلمين ظلماً، أو يجاهد حمية، أو يجاهد لنصرة كفار، فكل هذه الأنواع الدنيوية، لا يجوز إعانة الإمام عليها سواء كان مسلماً أو كافراً، جائراً أو فاسقاً.

وقوله (**وصلاة الجمعة خلفهم جائزة**) قوله: خلفهم؛ لأنهم كان من عادة الحكام أن يكونوا أئمة صلاة الجمعة، وهذه العادة اختلفت في هذا الوقت، فالآن نادراً ما يكون إماماً، وينتقل الحكم إلى نوابه أي من عينهم ليصلوا بالناس.

وقول المصنف (**جائزة**) أراد أن الصلاة خلفهم صحيحة وتجوز، والجواز هو أحد الأحكام الخمسة، أي فليس بواجب ولا مستحب، لكنه مباح، وكل مباح يفيد أنه ليس محرما ولا مكروها، وهذا إذا لم يأمر أو يعاقب أو يتضمن مفسدة أكثر، أما إذا عاقب أو تضمن مفسدة، فيكون إما واجب أو مستحب، فيختلف الحكم.

ويقاس على الجمعة الصلوات الباقية كالعيدين والكسوف والاستسقاء والفرائض، وهذا أيضاً إذا كان المسجد واحدا، أما إذا تعددت المساجد، مثل أن يكون بالمدينة مسجدان للجمعة، فالسنة أن يصلي مع الإمام العادل إذا لم يكن هناك مشقة.

وقد صلى بعض الصحابة كابن عمر خلف الحجاج وصلى ابن مسعود خلف عقبة.

وقول المصنف ﴿ **براً كان أو فاجراً** ﴾ البر معروف وهو العدل، وأما الفجور فماذا يقصد به المصنف؟ يحتمل أنه يقصد الظلم والجور أو يقصد الفسق، وهذا صحيح.

بقي لو كان الفجور فجور كفر وردة فهنا فيه تفصيل، أشياء تفعل معه وأشياء لا تفعل معه، فأما الحج فيفعل معه، وأما الجهاد فعلى التفصيل السابق، فيفرق بين الجهاد الهجومي والجهاد الدفاعي، وبين الجهاد الشرعي والجهاد الدنيوي على ما سبق لما تكلمنا عن الأئمة الكفار.

وأما الشيء الذي لا يجوز أن يُفعل معهم فهي الصلاة، فلا يجوز أن يصلى خلفهم، فإن كان يضرب الناس ويقهرهم عليها، صلوا معه وأعادوها، والدليل على ذلك فعل السلف مع الأئمة لما كانوا جهمية فإنهم كانوا يعيدون الصلاة ويصلون قبل أن يأتوا إليهم.

ونقل ابن سحمان في كتابه كشف الشبهتين عن شيخه عبد اللطيف مقررا له (نقل اتفاق أهل العلم على تكفير الجهمية واتفاقهم أيضا على أن الصلاة لاتصح خلف كافر جهمي، ثم قالا وقد يفرق بين من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها وبين من لاشعور له بذلك وهذا القول يميل إليه شيخ الإسلام في المسائل التي قد يخفى دليلها على بعض الناس) كشف

الشبهتين ص ٢٠ - ٢١ - ٦٥ - ٦٦ – ٩٧ثم قاس على الجهمية فقال وقد يفعله المؤمن مع غيرهم من المرتدين إذا كان لهم شوكة ودولة والنصوص في ذلك معروفة مشهورةاهـ .

والمصنف اقتصر على ثلاث شعائر وبقي شعائر أخرى كإقامة الحدود وإقامة الثغور والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والجواب: أن المصنف لم يرد الاستيعاب، وإلا حكم هذه الأمور حكم الجهاد والحج، ولم يذكر المصنف أيضاً الصيام، أما الصيام فقد جاء في الحديث: "الصوم يوم تصومون" فيقال: إذا كان الإمام يهتم بالصيام ويعتمد على الرؤية الشرعية فيقام معه ويُفطر معه براً كان أو فاجراً مسلماً أو كافراً، وإن كان لا يهتم بالطرق الشرعية وإنما بالحساب فهنا يتحرى الإنسان بالطرق الشرعية ولا يتبعه إلاّ إن خشي على نفسه من ضرب أو سجن، فيصوم ويفطر سراً , فإن تعذر عليه الطرق الشرعية جاز أن يبتدأ وينتهي معهم من أجل ضرورة إقامة هذه الشعيرة.

بالنسبة للزكاة، فإن كان الأئمة أهل عدل تدفع لهم الزكاة وإن كانوا أئمة جور ويصرفونها في غير مصارفها، فيجوز (ولاحظ كلمة يجوز) دفعها لهم كما كان ابن عمر يدفع زكاته إلى أئمة الجور وهذا إن طلبوها منه، ولكن لا يتقصدهم ويذهب إليهم.

وأما إن كانوا كفاراً فلا يجوز الدفع إليهم إلاّ إن خشي على نفسه ويتحيل على أن لا يدفع إليهم شيئاً.

ثم ذكر المصنف الدليل على هذه المسألة وهو حديث أنس مرفوعاً قال: "ثلاث من أهل الإيمان، ثم قال: والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله عز وجل حتى يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل " رواه أبو داود.

قضايا معاصرة:

سبق أن ذكر المصنف أن مذهب أهل السنة والجماعة الجهاد مع الأئمة المسلمين سواء كانوا أبراراً أو فجاراً، هذه مسألة يتبعها قضايا معاصرة، وهي كالتالي:

١ – ما الحكم لو كان جزء من الجيش فجارا أو مبتدعة فهل يشترك معهم في الجهاد؟

الجواب: **نعم**؛ لأن قول المصنف ونرى الجهاد مع كل بر وفاجر فإنه يشمل سواء كان الفاجر هو الإمام أو قائد الجيش أو كان الفاجر متبوعاً، وهم بعض الجيش، ولذا لو قام الجهاد

الإسلامي (ولاحظ قيد إسلامي)، وكانت القيادة فاجرة أو أفراد الجيش فساقاً أو فجاراً فلا مانع من الجهاد معهم ويدل عليه غزوة حنين حيث خرج مع النَّبِيّ عليه السلام اثنا عشر ألف، منهم ألفان من مسلمة الفتح، لم يمض على إسلامهم سوى شهرين حتى إن بعضهم قال: " اجعل لنا ذات أنواط "

ويدل عليه أيضاً: أن في بعض غزوات النَّبِيّ عليه السلام كان يشترك معهم فجار، كالغزوة التي اشترك فيها رجل ثم قتل نفسه.

وكذا في غزوة أحد التي شارك فيها المنافقون، ولكن إذا شارك معنا فجار أو فسقة أو مبتدعة فيجب نصحهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع ردّ المخذل منهم والمثبط وكبته والحذر منه.

مع التنبيه أنه لو طلب كفار (وهم ضعفاء مخذولون على شكل أفراد) فلا يجوز تمكينهم من الجهاد معنا ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (فكيف بالجماعات والدول؟؟)، لقوله عليه الصلاة والسلام: " ارجع فلن نستعين بمشرك " ، رواه مسلم.

٢ – قوله (**ونرى الجهاد مع الفجار**) هناك فرق بين كون الإمام فاجراً وبين كون الراية فاجرة، بينهما فرق عظيم، فإذا كان الإمام فاجراً بمعنى أنه لم يأت بالمكفر، لكن يجاهد جهاداً شرعياً، أو لمقاصد شرعية، هذا هو المقصود، أن يجاهد معه.

أما لو كانت الراية فاجرة بمعنى أن هدف القتال دنيوي أو لإغراض غير شرعية فهنا لا يقاتل معهم، ما دامت الراية فاجرة، بل ولو فرضنا جدلا أن الإمام عادل ورايته فاجرة لم يجاهد معه.

٣ – لو قام جماعة بمجاهدة العلمانيين وجب على أهل السنة مساعدتهم ولو كانت هذه الجماعة من المبتدعة أو الفساق أو قاموا بمجاهدة الحكومة الكافرة، وجب علينا إعانتهم بما نستطيع من قول أو فعل.

وفي وقت مجاهدتهم للعلمانيين وللحكام الكفار نكف عن مهاجمة المبتدعة أو الفساق لأن هذا الوقت يحتاج إلى اجتماع ومساعدة والكف عنهم نصرة نوعاً ما ومهاجمتهم خذلان نوعاً ما، ولا يعني ذلك أننا لا نراهم مبتدعة أو ضُلاّل، بل هم أهل ضلال ومبتدعة، ووقت الأمن

نتكلم عن بدعهم، لكن إذا انتصبوا للجهاد وجب مساعدتهم، وهذا كله داخل في قول المصنف (ونرى الجهاد مع كل بر وفاجر).

عقيدة أهل السنة فيما شجر بين الصحابة

تولي أصحاب رسول الله ومحبتهم والترضي عنهم

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: **[ومن السنة تولي أصحاب رسول الله ﷺ، ومحبتهم، وذكر محاسنهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم]** .

هذه من حقوق أصحاب النبي ﷺ، فيجب توليهم، ونصرتهم، والدفاع عنهم، ومحبتهم، والترضي عنهم جميعًا، وذكر محاسنهم حين يذكرون؛ لأنهم نقلة كتاب الله ونقلة سنة رسول الله ﷺ إلينا، ولهذا فنحن نستغفر لهم جميعًا، ونترضى عنهم جميعًا، ونترحم عليهم جميعًا.

السكوت عما وقع بين الصحابة

ومن أهم ما يتعلق بهم ما قاله المصنف: [والكف عن ذكر مساوئهم، وما شجر بينهم] .

وهذا أصل عظيم من أصول أهل السنة والجماعة، فإن ما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم يجب الكف عنه، خاصة ما جرى في الجمل وصفين؛ فإن هؤلاء الصحابة كلهم كانوا مجتهدين، وصحيح أن بعضهم كان أحق من بعض، وأقرب إلى الحق من بعض، فـ علي رضى الله عنه وأرضاه كان أحق من غيره، وكان رضى الله عنه وأرضاه أفضل، لكن لا يجوز لنا في مقابل ذلك أن نطعن في بقية الصحابة: في أمنا عائشة أو في الزبير أو في طلحة أو في معاوية رضى الله عنهم جميعًا، بل يجب أن نكف عن ذكر مساوئهم وما شجر بينهم، ونقول كما قال أحد العلماء: تلك دماء طهر الله منها أيدينا فنحن نطهر منها ألسنتنا، فنترضى عنهم جميعًا، ونعتقد أنهم مجتهدون، ومن اجتهد منهم فأصاب فله أجران، ومن اجتهد منهم وأخطأ فله أجر واحد، وكلهم لهم الفضل ولهم القربى، فلا يجوز سبهم، ولا الطعن فيهم، فضلًا عن القول بردتهم، أو غير ذلك.

اعتقاد فضل الصحابة ومعرفة سابقتهم

قال المصنف: [واعتقاد فضلهم، ومعرفة سابقتهم] .

فلهم الفضل، ولهم السابقة؛ فهم أصحاب النبي ﷺ، وهم حواريوه، وهم نقلة سنته.

قال المصنف: [قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠]] .

وهذه الآية في سورة الحشر جاءت بعد ذكر المهاجرين والأنصار، فقد ذكر الله الذين هاجروا، وذكر الذين تبوءوا الدار والإيمان، ثم ذكر الذي جاءوا من بعدهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، وهذه الآيات هي في الفيء؛ لأن في الآيات السابقة: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر:٧] إلى آخره، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ [الحشر:٩]، ثم قال: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ)، قال الإمام مالك رحمه الله تعالى وغيره: (من كان في قلبه غلٍ على أصحاب رسول الله ﷺ فليس له من الفيء شيء)، وهذا اجتهاد منه رضى الله عنه وأرضاه؛ لأن الآية كانت في الفيء، وهذا منهج أهل السنة والجماعة.

ثم قال المصنف: [وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]] .وهذا أيضًا بيان لوصف أصحاب النبي ﷺ.

ثم قال المصنف: [وقال النبي ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)] .وهذا الحديث رواه البخاري، فهو حديث صحيح، وقد ورد في المفاضلة بين صحابيين، ومع هذا قال النبي ﷺ للصحابي المتأخر: (لا تسبوا أصحابي)، قال العلماء: فإذا كان هذا في المفاضلة بين صحابيين فما الشأن في المفاضلة بين الصحابة وبين من بعدهم؟ فدلالة الحديث على أن من بعدهم لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه أقوى وأكبر، وهذا ظاهر الدلالة لمن تأملها.

الترضي عن أزواج النبي ﷺ

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى أيضًا: [ومن السنة: الترضي عن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين المطهرات المبرآت من كل سوء] .ثم تكلم المصنف عن موالاة أزواج النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام، **وفيه مسائل:**

الأولى: قوله (ومن السنة):وهذه يقصد بها طريقة السلف، فمن خالف فيها فهو مبتدع، أما الواجب لزوجات النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم –، فقد مضى جزء منه وهو الواجب للصحابة، فإنهن داخلات فيما سبق، ويضاف على ذلك:

١ – اعتقاد أنهن أمهات المؤمنين.

٢ – وأنهن طاهرات ومبرئات.

٣ – واعتقاد أنهن أزواجه في الدنيا والآخرة.

ثم تعرض المصنف إلى مسألة المفاضلة بين زوجات النَّبِيّ عليه السلام.

والمسألة خلافية على ثلاثة أقوال:

ذكر ذلك ابن القيم في جلاء الأفهام، والسفاريني في عقيدته:

القول الأول: أن أفضلهن خديجة.

القول الثاني: أن أفضلهن عائشة.

القول الثالث: التوقف في عدم التفضيل.

وهناك قول رابع لم يذكره ابن القيم، لكن ذكره بعض أهل العلم وهو أن أفضلهن فاطمة بنت الرسول عليه السلام.

أما المصنف عليه رحمة الله فقد اختار قولاً وسط ولذا قال (أفضلهم خديجة بنت خويلد وعائشة الصديقة بنت الصديق)، ووافقه عليه ابن تيمية في الواسطية وهو عدم التفضيل مطلقاً، ولكن كل واحدة لها فضل باعتبار، فباعتبار السبق والنصرة فالأفضلية لخديجة، وباعتبار العلم والنفع العام فالأفضلية لعائشة، انتهى كلام ابن تيمية وابن قدامة.

ونضيف أنه باعتبار النسب فالأفضلية لفاطمة.

مسألة: هذا بالنسبة لأمنا خديجة وعائشة بقي بقية زوجات النَّبِيّ كأم سلمة وحفصة، إلخ، فما المفاضلة بينهن رضى الله عنهن اجمعين ؟

لم أجد أحداً تكلم في هذا الموضوع، فكل المفاضلة لعائشة وخديجة ويسكتون على ذلك، ويسعنا ما وسع السلف وهو السكوت.

مسألة: من قذف زوجات النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم –:

الجواب: أنه يكفر بالقذف وهو كفر عملي أكبر، فمن اتهم أحداً منهن بالزنا أو غيره كفر، ولا يقال ما هو اعتقادك.

وأزواج النبي ﷺ قد ألفت فيهن مؤلفات، وهن إحدى عشرة زوجة وفصلنا ذلك في شرح السنة ، فأزواج النبي ﷺ نترضى عنهن جميعًا، ونؤمن بأنهن زوجات النبي ﷺ في الدنيا وفي الجنة، رضى الله عنهن جميعًا.

حكم سب الصحابة

وبالنسبة لسب أصحاب النبي ﷺ فهذا السب على درجات:

الأولى: إن سب الصحابة فيما يتعلق بدينهم وإيمانهم أو قال بردتهم، فهذا لا شك في كفره وردته.

الثانية: أن يسبهم باللعن والشتم والغضب ونحو ذلك، فهذا فيه قولان للعلماء: فبعضهم يقول هو مرتد، وبعضهم يقول إنه غير مرتد، لكن يعزر ويؤدب، والقول الراجح في هذا – والعلم عند الله– أنه لا يلعنهم إلا من كان خارجًا عن دائرة الإسلام.

الثالثة: أن يسب الصحابي بغير هذين النوعين، مثل أن يسبه ببخل، أو بجبن، كأن يقول: فلان الصحابي بخيل، أو جبان، أو نحو ذلك، فهذا يجب تعزيره وتأديبه؛ حتى يرتدع عن مثل هذه الكلمات.

فضل معاوية

ثم قال: [**ومعاوية خال المؤمنين**] .

وإنما ذكر المصنف معاوية رضى الله عنه لأن كثيرًا من الرافضة يطعن في هذا الصحابي الجليل؛ نظرًا لما جرى بينه وبين علي رضى الله عنه وأرضاه في يوم صفين.

ومعاوية رضى الله عنه وأرضاه هو كاتب الوحي، وهو مجتهد، صحيح أن عليًا أولى منه في الحق، لكنه مجتهد، وأراد الخير للمسلمين، لهذا فنحن نترضى عنه، ولا يجوز لنا أن نطعن فيه، ولا أن نسبه، ومن طعن فيه وسبه فحكمه حكم الساب لأصحاب النبي ﷺ.

وقوله: (**خال المؤمنين**)؛ لأنه أخو أم حبيبة بنت أبي سفيانرضى الله عنها وعن أبيها وعن أخيها، وهي زوجة النبي ﷺ، والخال هو أخو الأم.

فهل يطلق على مثل معاوية أنه خال المؤمنين؟ صنيع المصنف هنا يدل على أنه يرى جواز الإطلاق، فمن كان أخًا لزوجة من أزواج النبي ﷺ فيصح أن يلقب بأنه خال المؤمنين؛ لأن زوجات النبي هن أمهات المؤمنين، وبعضهم لا يرى هذا الإطلاق والأمر فيه واسع.

ثم قال عنه: **[وكاتب وحي الله، أحد خلفاء المسلمين، رضى الله عنه]** .

ثبت أن معاوية من كتاب الوحي، ولو كان فيه شيء ما ائتمنه الرسول ﷺ على أعظم أمر، وهو أحد خلفاء المسلمين.

لماذا نص على معاوية بالذات؟

الجواب: للرد على الرافضة الذين تكلموا في معاوية ونزيد أيضاً للرد على العصرانيين والعلمانيين وأذنابهم؛ لأنهم يتكلمون في معاوية أيضاً.

الواجب لمعاوية: سبق ذكره، فإن ما يجب للصحابة يجب لمعاوية؛ لأنه فرد منهم، **فأضاف المصنف أمور تتعلق بمعاوية هي كالتالي**:

١ – أنه خال المؤمنين، لكنها ليست خصوصية تامة لمعاوية، بل والله أعلم يشاركه فيها كل من كان أخاً لأحد زوجات النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – كابن عمر فإنه خال المؤمنين لأنه أخٌ لحفصة، وكذا أولاد أبي بكر، وقد سمى الآجري في الشريعة معاوية خال المؤمنين

٢ – أنه كاتب وحي الله تعالى فهو مؤتمن وأمين.

٣ – أنه أحد خلفاء المسلمين.

وحكم من سب معاوية سبق ذكره قبل قليل في حكم من سب الصحابة حسب التفصيل السابق.

موقف أهل السنة والجماعة من أئمة المسلمين وأمرائهم

ذكرنا فيما سبق أن الأئمة ثلاثة ،إمام مؤمن عادل راشد ، وإمام مسلم جائر ظالم ،وإمام مرتد كافر ،وهذا الثالث يسمى إماماً بالصفة لا بالحكم ،يعنى بصفته إمام وحاكم على المسلمين ،بالقهر بالغلبة فهو بالصفة ،ولكن لما تولى إمارة المسلمين وإمامتهم وبدل وغير أحكام الله ونحى الشريعة واستبدلها بالقوانين الوضعية المخالفة ،وألزم الناس بالتحاكم إلى غير شرع الله ، مع قدرته وتمكنه على الحكم بما أنزل الله ،كان حكمه في دين الله الكفر والردة

،فهذا لا سمع له ولا طاعة ،لأن من شرط صحة الولاية وانعقادها، الإسلام وتحكيم شريعته ،فإن كان قادراً متمكناً باسطاً سلطانه على البلاد ،ومفاصل الدولة في يده ، من جيش ،وشرطة ،وقضاء ،وإعلام،و مع كل ذلك ،الشعب مسلم يريد حكم الله وأن تحكمه شريعة الله ،فأعرض هذا الحاكم عن دين الله والعمل بشريعة الإسلام ،ووالى أعداء الله من يهود ونصارى وغيرهم – وهذا هو حال حكامنا اليوم ،في زمن الغربة هذا ،نسأل الله السلامة.

ثم قال المصنف أيضًا: [ومن السنة السمع والطاعة لأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين، برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله؛ فإنه لا طاعة لأحد في معصية الله تعالى، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، أو غلبهم بسيفه حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين، وجبت طاعته، وحرمت مخالفته، والخروج عليه، وشق عصا المسلمين] .

أي: وحرم شق عصا المسلمين، وهذا بشرطين: **أحدهما:** أن يغلب بسيفه فيحكم بينهم بالكتاب والسنة،فإن تغلب ولم يحكم بالكتاب والسنة فهو من النوع الثالث من أنواع الحكام

الثانية: ألا يقع منه كفر بواح، وهذا الذي أشار إليه هو ما ذكره أئمة أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى من أن الخلافة تثبت إما بالمبايعة العامة، أو بوصية من سبقه إليه، أو بأن يتغلب بسيفه، فإذا تغلب بسيفه وحكم بينهم بالكتاب والسنة فإنه تجب طاعته، والسمع له، ويحرم الخروج عليه،كما فصلنا ذلك في شرح كتاب الدولة الإسلامية .

ما يجب للأئمة والولاة، وفيه مسائل:

الأولى: أن هذا حكم في ولاة المسلمين:

أما إن كان الحكام كفاراً أو مرتدين أو علمانيين، فإنه لم يقصدهم المصنف.

وقد مر علينا أن الحاكم الكافر والعلماني يجب الخروج عليه مع القدرة على ذلك وعدم المفسدة إن وجد جيش يغلب على الظن الإطاحة به.

ويدل عليه حديث عبادة بن الصامت قال: " بايعنا رسول اللَّه على السمع والطاعة، وأن لا ننازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كفراً بواحاً "

هذا منطوق الحديث، ومفهوم المخالفة في الحديث أنه إذا رأينا كفراً بواحاً فلا سمع ولا طاعة، بل ننازعهم على الأمر فهم ليسوا أهله.

وقد نقل القاضي عياض الإجماع على وجوب الخروج على الحاكم الكافر ولا سمع له ولا طاعة، نقله أبو يعلى والماوردي في الأحكام السلطانية والنووي في شرح مسلم وابن حجر في فتح الباري.

ولذا المصنف قال ولأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين، وذكره لهذين الوصفين يخرج الأئمة الكفار، والعلمانيين والملاحدة وأمثالهم، سواء كانوا كفاراً أصليين أو طرأ عليهم الكفر.

الثاني: ما هو الواجب للأئمة الشرعيين:

ذكر المصنف أربعة أشياء: فأوجب شيئين وحرم شيئين:

فالواجبان:

١ – السمع.

٢ . – الطاعة.

أما المحرمان:

١ – الخروج عليهم.

٢ – مخالفتهم.

وقول المصنف برهم وفاجرهم، أما البر فهو معروف، وأما الفاجر فيقصد به من أتى بالكبائر والمعاصي، سواء كانت قاصرة عليه أو متعدية إلى غيره بشرط أن لا يأتي بمكفر، فإن كان فجوره فجور كفر، فهذا لا يدخل لأنه قال: الأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين.

والمصنف هنا عرّف من هو إمام المسلمين أو أمير المؤمنين، ومن هو الذي يسمى خليفة، فقال: ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به أو غلبهم بسيفه، حتى صار خليفة،

فأصبح الخلفاء على قسمين:

أ – من تولى الخلافة والإمامة عن اختيار من الناس ورضا، ويقصد بالاختيار اختيار أهل الحل والعقد، وهذا أفضل الخلفاء.

ب – من تولى الخلافة بالقوة والسيف حتى غلب على الناس، ويسمى إمام الغلبة، فهذا أيضاً يعترف له بالخلافة إذا استقر له الأمر.وقد شرحنا هذا فيما سبق ولله الحمد.

موقف أهل السنة والجماعة من هجران أهل البدع والخصومات معهم

ومِنَ السُّنّةِ هِجْرانُ أهْلِ البِدعِ ومُبَايَنَتُهُم وتَرْكُ الجِدَالِ والخُصُومَاتِ فِي الدّينِ، وتَرْكُ النَّظَرِ فِي كُتُبِ المبتدعةِ، والإصْغاءُ إلى كلامِهِم، وكلُّ مُحْدَثَةٍ فِي الدِّينِ بِدْعَةٌ.

وكلُّ مُتَسَمٍّ بِغَيْرِ الإسلامِ والسُّنّةِ مبتدعٌ، كالرافضةِ والجهميةِ، والخوارجِ، والقَدَريّةِ والمرجئةِ، والمعتزلةِ، والكَرَّامية، والكُلاّبيّة، ونَظَرَائِهم، فَهَذِهِ فِرَقُ الضَّلالِ وطَوَائفُ البِدَعِ أعاذَنَا اللهُ منْها.

قال (من السنة هِجران أهل البدع ومباينتهم) وهذا هو الذي كان أئمة أهل السنة يوصون به من عدم غشيان المبتدعة في مجالسهم ولا مخالطتهم، بل هجرانهم بالكلام، وهجران بالأبدان، حتى تُخمد بدعهم، وحتى لا ينتشر شرهم، فالدخول مع المبتدعة ومساكنتهم، سواء كانت البدع صغيرة أو كبيرة، والسكوت عن ذلك، وعدم هِجرانهم، والاستئناس لهم، وعدم رفع الرأس بحالهم مع بدعهم، هذا من حال أهل الضلال، إذْ أهل السنة تميزوا بأنهم لهم الموقف الأعظم الذي فيه القوة والشدة مع أهل البدع مهما كانت البدع، فيهجرون أهل البدع، وهجر المبتدع من أصول الإسلام، بل من أصول أهل السنة، لأن جنس البدع أعظم من الكبائر، فالبدعة أشد وأعظم من الكبائر، وذلك من خمس جهات، نذكر بعضا منها: الأولى أن البدعة من باب الشبهات، والكبائر من باب الشهوات، وباب الشبهات يعسر التوبة منه، بخلاف أبواب الشهوات، ولهذا جاء في الأحاديث من حديث معاوية وغيره، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال في وصف أهل البدع «تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه لا يبقَى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»وقد بيّن عليه الصلاة والسلام إن صحّ الحديث وقد صحّحه جمع من العلماء أنه قال « إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته » وفى رواية ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة) رواه الطبرانى في الأوسط و الكبير،وقد ثبت في صحيح مسلم ("كل بدعة ضلالة")

ورُوي «من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».وهو مرسل كما قال الحافظ بن حجر رحمه الله ،ونلاحظ اليوم أنه في هذه المسألة فيه تَرْكٌ لهذا الأصل، فكثير من الناس يُخالط المبتدعة ولا يهجرهم بحجج شتى؛ إمَّا دنيوية، وإما تارة تكون دعوية أو دينية، وهذا مما ينبغي التنبه له والتحذير منه؛ لأن هِجران أهل البدع متعين، فلا يجوز مخالطتهم بدعوى أن

ذلك للدعوة، ولا مخالطتهم بدعوى أن ذلك للدنيا، ولا مخالطتهم وعدم الإنكار عليهم بدعوى أن هذا فيه مصلحة كذا وكذا، إلا لمن أراد أن ينقلهم لما هو أفضل لما هم فيه، وأن ينكر عليهم ويغيّر عليهم،كما جاء مفصلاً في كتاب هجر المبتدع للشيخ بكر رحمه الله تعالى والاهتمام بالسنة والرد على المبتدعة ،ظاهر في حال أئمة أهل الإسلام، فقد كانت حياتهم في الرد على المبتدعة، ولم يشغلوا أنفسهم بالرد على الكفار الأصليين من اليهود والنصارى، فإذا رأيت كلام الإمام أحمد، وسفيان، وحمّاد بن زيد، أو حمّاد بن سلمة، ونعيم وهم أئمة أهل السنة، والأوزاعي، وإسحاق، وعلي بن المديني، ونحوهم من أهل السنة والإسلام، وجدتَ أن جُلّ كلامهم وجهادهم إنما هو في الرد على المبتدعة وفي نقض أصول المبتدعة، وإن كانوا باقين على أصل الإسلام، ولم يشغلوا أنفسهم بالرد على اليهود والنصارى وسائر ملل أهل الكفر، وذلك لأن شر المبتدع لا يظهر على أهل الإسلام، ولا يؤمَن على أهل الإسلام، أما الكافر الأصلي من اليهود والنصارى فشرُّه وضرره بين وواضح لكل مسلم؛ لأن الله جل وعلا بيّن ذلك في كتابه، وهم ظاهرون، أما أهل البدع فالشر منهم كثير، ولهذا لا يحسن أن يُنسب لأهل السنة والجماعة أنهم مفرّطون في الرد على اليهود والنصارى ومنشغلون بالرد على أهل الإسلام، كما قاله بعض العقلانيين من المعتزلة وغيرهم: إن أهل السنة انشغلوا بالرد على أهل الإسلام، وتركوا الرد على الكفار من اليهود والنصارى، وسائر أهل الملل الزائفة. ،وهذه كلمة حق يراد بها باطل ، فعندما ينشغل أهل السنة بالرد على إخوانهم من أهل السنة المخالفين لهم في مسائل الفروع التي يسوغ فيها الخلاف ،أو مناطات الإجتهاد ويكون هذا الانشغال والرد سبباً في العداوة والبغضاء والشحناء بين أهل السنة ،وكسب العداوة ،وتكون سبباً في الافتراق ، نقول هذا حق لا يجب أن نعادى إخواننا من أهل السنة الذين خالفونا فيما اختلف فيه سلفنا الصالح ،مما يسع ويسوغ فيه الخلاف ،فالعلم رحم بين أهله ، وأهل السنة أرحم الناس بالخلق ، فمن باب أولى أن يرفقوا بإخوانهم من أهل السنة ،ويتعاونوا على البر والتقوى وما هو خير للأمة ،وكل واحد منهم على ثغر من ثغور الإسلام ،يعذر بعضهم بعضاً ،ويدعوا كل واحد منهم للآخر ،بالتوفيق والسداد والنصر والتمكين ،وهذا الذى كان عليه الصدر الأول ،رحمهم الله تعالى ورضى عنهم ، أما الباطل في كلام هؤلاء المبتدعة أنهم يريدون من أهل السنة غض الطرف عن المبتدعة وعدم الإنكار عليهم

وتركهم يفسدون فطرة الناس ودينهم بحجة أنهم ينتسبون إلى أهل القبلة !! وهذا عجيب منهم وهذا سببه هو ما بينته لك أن شر البدع أعظم؛ لأن هؤلاء يدخلون على المسلمين باسم الإسلام، وأما أولئك ففي القلب منهم نفرة من اليهود والنصارى، فهدي أئمة الإسلام كان ظاهرا في الرد على المبتدعة، والرد على أهل الأهواء، ولم يعرف عنهم كبير عمل في الرد على اليهود والنصارى، وليس معنى ذلك أن المؤمنين من أهل السنة لا ينشغلوا بالرد على اليهود والنصارى، لا، ولكن نذكر ما تميز به أئمة أهل السنة وإلا فالرد على كل معادٍ للإسلام من الكفار الأصليين، ومن أهل البدع متعيّن وفرض، لكن من انشغل بالرد على المبتدعة لا يقال له لما تركت اليهود والنصارى لم ترد عليهم وانشغلت بهؤلاء، نقول هذا هدي الأئمة الأولين، وكلٌّ يرد في مجاله؛ منا من يرد على اليهود والنصارى، ومنا من يرد على المبتدعة، ونحن جميعا نكون حامين لبيضة الإسلام من تلبيسات الملبِّسين، وبدع المبتدعين، وشرك المشركين، وضلالات الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم.

الموقف من أهل البدع.وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريف أهل البدع: يقصد بأهل البدع هو كل من التزم عقائد تخالف عقائد أهل السنة والجماعة، ويقصد بالعقائد ما هو مخالف لأصول أهل السنة والجماعة كأمثال المعتزلة والرافضة والأشاعرة والمرجئة

فذكر منهم المصنف ثماني طوائف من أهل البدع، هم كالتالي حسب ذكر المصنف لهم:
١ – الرافضة ٢ – الجهمية ٣ – الخوارج ٤ – القدرية ٥ – المرجئة ٦ . المعتزلة. ٧ – الكرامية. ٨ – الكلابية.

ونذكر من الطوائف المبتدعة اليوم على التفاوت بينهم في التكفير وعدمه ،فمنهم كفار ،ومنهم مسلمون مبتدعة خارجون عن أهل السنة ،داخلون في الإسلام ،كما فصلناه منهم الزيدية والبهائية والنصيرية والدرزية والقاديانية والبابية والباطنية الإسماعيلية والتيجانية والمرجئة المعاصرة والعصرانيين والانهزاميين وجماعة التبليغ والأخوان المسلمين أهل التحالف مع الحكومات والعلمانيين وحزب التحرير الإسلامي والخوارج المعاصرة أهل الغلو في التكفير الذين يكفرون ويبدعون ويقاتلون كل مخالف لهم بالعموم بدون استثناء ويجعلون الأصل اليوم فيمن يظهر الإسلام الكفر أو التوقف.

والملفت للنظر أن المصنف لم يذكر الأشاعرة مع أنهم مبتدعة معاصرون له.
وكذا الماتريدية مع أنهم معاصرون له، ويضاف إلى هذه الأصناف الطوائف المبتدعة المعاصرة التي على أصل يخالف أصول أهل السنة.

المسألة الثانية: هناك فرق بين قولنا مبتدع ورجل فيه بدعة:

أما الرجل المبتدع فهو من التزم عقيدة من عقائد أهل البدع مما يخالف أصول أهل السنة، أما من يقال فيه بدعة، فهو من أهل السنة والجماعة في الأصول وعقائده هي عقائد أهل السنة والجماعة، لكن تلبس ببدعة، مثل إحياء ليلة النصف من شعبان، ومثل بدع بني أمية كتقديم خطبة العيد على الصلاة أو التزام تأخير الصلاة لآخر وقتها، ومثل ابتداع أذكار معينة وأمثال ذلك، ومثل من عطل صفة من صفات الله دون التزام بأصل التعطيل في الصفات أو بعضها، فهؤلاء لا يسمون مبتدعة، وإنما يقال من أهل السنة وفيهم بدعة، وهذا الصنف الأخير لا يقصده المصنف هنا، ولا ينزل عليه كلام أهل السنة إذا تحدثوا عن أهل البدع.

المسألة الثالثة: ما هو الموقف من أهل البدع؟

المصنف ذكر موقفين: موقف يتعلق بالكلام، وموقف يتعلق بالسكنى والمخالطة.

أما الموقف الأول، فقال (ومن السنة هجران أهل البدع) ويقصد بالهجران ترك كلامهم والسلام عليهم وتهنئتهم، وكل كلام يدل على السرور والمحبة ونحو ذلك.

أما الكلام الدنيوي البحت، كما لو عقد معه بيع أو شراء أو أراد استرجاع حق له عليهم، مثل وديعة له على مبتدع أو قرض فكلّم المبتدع لأخذ حقه فلا مانع.

فقد توفي الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودرعه مرهونة عند يهودي.

وأما الموقف الثاني المتعلق بالسكنى والمخالطة فقال المصنف (ومباينتهم) والمباينة مفاعلة بمعنى المجانبة، أي تكون في جانب وهم في جانب، وهي بمعنى المباعدة، فلا تسكن معهم في بيت واحد.

وهذان الشيئان – المقاطعة الكلامية وعدم المساكنة – تعتبر أصل من أصول أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وهي أصل في هذه المسألة، إلاّ أنه قد يخرج عن هذا الأصل فيما لو لم يستطع أوأكره على ذلك، أو اضطر ضرورة شرعية فيجوز ترك هذا الأصل مؤقتاً إلى وقت زوال المانع، ثم يعود إلى ذلك الأصل.

ومثله أيضاً: لو رجى قبول هذا المبتدع، وظن أنه يقبل الحق فكلمه أو ساكنه فلا مانع بشرط أن يأمن على نفسه، ويدل عليه أدلة:

١ - ما ثبت في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام زار أبا طالب يدعوه إلى اللّه.

فهذا الحديث أصل في زيارة الكافر والمبتدع إذا رجي القبول.

٢ - ما رواه الإمام أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم زار يهودياً جاراً له يدعوه إلى الإسلام فأسلم.

٣ - أن الرسول الرسول صلى الله عليه وسلم كان يغشى أسواق الكفار بمكة يدعوهم إلى اللّه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ومن السنة هجران أهل البدع، ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين] .

هجران أهل البدع ومبيانتهم من منهج أهل السنة والجماعة؛ لأن أهل البدعة سواء كانت بدعهم عقدية مثل الخوارج والمعتزلة وغيرهم، أو عملية مثل المتصوفة الذين يبتدعون الأوراد والأذكار ونحوها، فإن من منهج أهل السنة هجران هؤلاء؛ لأن في هجرهم ومباينتهم ردعًا لهم، وهذا من الولاء والبراء.

قوله: **(وترك الجدال والخصومات في الدين)**، أيضًا من منهج أهل السنة ترك المجادلات التي لا يقصد منها الحق، وهكذا ترك الخصومات في دين الله.

أما ما كان منها من قبيل المناقشات العلمية والردود الطيبة بالأسلوب الطيب فإن هذا قد وقع بين أصحاب النبي ﷺ، ورد بعضهم على بعض، مع حبهم لبعض، وكذلك أيضًا فيمن جاء بعدهم من التابعين والأئمة، فهذا لا شيء فيه.

أما الجدال بالباطل والخصومات الباطلة فإنها منهي عنها، وكذلك أيضًا بالنسبة لأهل البدع؛ فمن لم يرتدع منهم بهجره أو مباينته، وخيف من شره ومن شر بدعته على المسلمين، فإن الواجب الرد عليه ونقض بدعته، كما فعل أئمة أهل السنة والجماعة فيما بعد.

قوله (ترك الجدال) هل الألف واللام للعموم، أي المقصود أن يترك مطلق الجدال، حتى مع المسلمين، أم هي للخصوص ويقصد بها ترك جدال المبتدعة؟ الثاني، وسبب الترجيح السياق

لأن السياق مع المبتدعة، وعلى ذلك فيكون هذا أمر ثالث بالنسبة للمبتدعة، مضى منه اثنان وهو مقاطعتهم كلامياً والابتعاد عنهم بدنياً.

ويضاف هذا الثالث وهو ترك الجدال معهم، ويقصد بالجدال ترك الحوار والمناقشة معهم، **وهل هذا عام باعتبار الأشخاص، أم خاص؟**

الجواب: أنه ليس على عمومه، وإنما هناك طائفة لابد أن تجادل المبتدعة وآخرون يتركون الجدال. أما الطائفة التي تجادل فهم العلماء وليس كل عالم، بل عالم خبير بمذهب هؤلاء المبتدعة المطلع على نقاط الضعف والتناقض في مذهبهم؛ لأن المجادلة كالمبارزة في القتال، ولذا لا يجوز المبارزة إذا التقاء الجيشين إلاّ من كان قوياً شجاعاً متدرباً على المبارزة.

أما الآخرون الذين يتركون الجدال فمثل عوام أهل السنة وشباب الصحوة، وطلبة العلم غير المطلعين وأمثال هؤلاء.

أما حكم جدال المبتدعة فهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين. ويتعين الواجب أكثر إذا أثاروا من البدع ما يُخشى أن يفتن المؤمنين، وقد كان السلف يردون على أهل البدع مثل كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد، والرد على الجهمية للدارمي، وكتاب الرد على بشر المريسي للدارمي أيضاً.

وقول المصنف (والخصومات في الدين) أي ومن السنة ترك الخصومات في الدين. والظاهر والله أعلم أن واو العطف في الخصومات أنه العطف على الترك، فيكون كلام المصنف: ومن السنة ترك الجدال في الدين وترك الخصومات في الدين.

على ذلك فلابد من التفريق بين الجدال والخصومات؛ لأن الترك منصب عليهما، فيكون الجدال والله أعلم أن يترك الحوار والنقاش الطارىء معهما، وأما الخصومات فهو أن ينتصب شخص ويعد نفسه للجدال ويتتبع المبتدعة للحوار معهم وعلى ذلك فالخصومات أخص من الجدال.

وقول المصنف (في الدين) هل المقصود أن لا يناقش ويجادل في الدين مع المسلمين؛ لأنه يورث البغضاء أم المقصود الخصومات مع المبتدعة؟

يحتمل الأمران والثاني أقرب، أي يترك الخصومات مع المبتدعة، إلاّ ما استثني وهذا يؤدي إلى وجود طائفة قادرة علمياً على الجدال مع المبتدعة، متفرغة وتكون مهمتها متابعة المبتدعة والتصدي لهم ومخاصمتهم.

ثم تكلم المصنف عن كتب المبتدعة ودروسهم ومحاضراتهم وأشرطتهم.

فقال: (ومن السنة ترك النظر في كتب المبتدعة والإصغاء إلى كلامهم).

ويقاس على النظر السماع فلا يسمع أشرطتهم، ومثله الرؤيا فلا يرى أشرطتهم المنظور بالآلات المرئية، ويقاس عليه قضية معاصرة وهي النظر في كتب العلمانيين وأشرطتهم وصحفهم ومجلاتهم، وكذا وسائل إعلامهم المسموعة كالمذيا ع أو المرئية.

أما السبب في المنع من النظر في كتب المبتدعة عدة أسباب:

١ – خشية الافتتان والتأثر بها.

٢ – لأنها تلهي عن أمر إما واجب أو أفضل منه.

٣ – لما يتضمن من الترويج لهم وتكثير سوادهم والمساعدة على نشر كتبهم، أما الدليل على ذلك، فقد نهى النَّبِيّ عليه السلام عمر بن الخطاب لما رآه يقرأ بالتوراة وزجره عن ذلك.

ويقاس عليه النظر في كتب العلمانيين وصحفهم وحضور أنديتهم لما يخشى من التأثر بهم، كما هو حاصل اليوم من تأثر الشباب بالصحف وما فيها من الكفريات والصور.

ثم بعد ذلك ذكر المصنف الموقف من البدع، أما الموقف من البدع فيجب تركها والابتعاد عنها.

وضابط البدعة ذكره المصنف، فقال: (وكل محدثة في الدين بدعة)، وقوله **(في الدين)** هذا قيد مهم؛ لأنه يخرج الأحداث في أمور الدنيا، فلا يسمى بدعة على الصحيح، كطريقة بنيان البيوت إذا أحدثت على غير طريقة الصحابة، فلا تسمى بدعة، ومثل وسائل المواصلات، فلا تسمى بدعة، إنما هي في الدين، مثل إحياء ليلة النصف من شعبان، ومثل الذكر الجماعي، وبدع الجنائز والأعياد إلخ.

خطر النظر في كتب أهل البدع والإصغاء إليهم

قال المصنف: [وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم] .

لأن المبتدعة قد يوردون شبهًا، ويميلون إلى ما تشابه من نصوص الكتاب والسنة، فإذا قرأ الإنسان كتبهم واطلع عليها وسمع كلامهم ربما تأثر بذلك، فالأصل أن تربى النفوس ويربى الطلبة على العقيدة الصحيحة، والأصل أيضًا ألا يمكَّن لأهل البدع، فالبدعة إذا ظهرت وانتشرت في الكتب، أو سجلت البدعة في أشرطة، أو أذيعت بوسائل الإعلام، وسمعها الكثير، فربما أن عشرة أو عشرين أو ثلاثين من العلماء ومن طلاب العلم لا يتأثرون، لكن كم من صغار الطلبة، وكم من ضعفاء الناس وعامتهم من إذا سمع مثل هذه الشبه، واستقرت في نفسه وقلبه سيتأثر! فلا شك أن هناك كثيرين سيتأثرون، لهذا فمنهج أهل السنة والجماعة عدم السماح لهم، وعدم فتح الحوار معهم؛ لأن الحوار معناه إيذان بأنه قد يكون الحق معهم، والأمر واضح جدًا أنهم مبتدعون، والحوار ليس بين حق وباطل، لا نأتي إلى يهودي ونقول له: تعال نتحاور معك أمام العالمين وأمام المسلمين جميعًا، وإنما نقول: أنت مبطل من أول الطريق، ونقول للنصراني: أنت مبطل من أول الطريق، ولا نفتح الحوار معهم؛ لأن الحوار يكون في مسائل الاجتهاد بين علماء المسلمين وفقهائهم، هذا هو الحوار الذي يفيد وينفع، أما أن يؤتى بمبطل ويقال: تعال ربما يكون باطلك حقًا، فهذا خطأ، ولم يفعله السلف رحمهم الله تعالى،بل ندعوهم إلى الإسلام وإلى السنة ،ونحن نعلم يقيناً أنهم كفار أو مبتدعة وإنما نتحاور معهم من باب الدعوة ،وليس من باب نسمع منهم ربما أنهم على حق،فهذا باطل ولهذا فإن السلف ما فتحوا باب الحوار، وإنما ناقشوا وردوا، فردوا في زمن محنة خلق القرآن على المعتزلة، وهكذا ردوا على القدرية، وردوا على الرافضة، وردوا على الخوارج، لكن لم يفتحوا باب الحوار معهم، وفرق بين هذا وهذا، ولهذا فإن من الواجب التربوي على الشباب وعلى المبتدئين في طلب العلم أن يغرسوا أولًا في أنفسهم العلم النقي الصافي من عقيدة السلف، ثم يأخذون مما عدا ذلك ما يحتاجون إليه، وحينما تنتشر بدعة أو حينما يظهر خطر شبهة أو نحو ذلك، يتعلمون الرد عليها بالطرق السليمة، وبمناهج سليمة، ومن علماء موثوقين ، **وهذا الذى نقوم به الأن في هذه الدورات العلمية والمحاضن التربوية** ، من غرس عقيدة السلف الصالح ومنهج أهل السنة في قلوب الشباب وطلبة العلم الشرعى ،وهذه

مهمة شاقة جداً تحتاج إلى علم وحلم وصبر وحكمة في التعامل مع هؤلاء الشباب في زمن الغربة هذا ، الذى فتحت فيه أبواب الفتن على مصراعيها وأحاطت بالأمة من كل جانب ،نسأل الله أن ينجينا ويسلمنا ويسلم منا ،فالذى يتصدر للدعوة ونشر دين الله في الأرض محتسباً هو على طريق الأنبياء يتحسس خطاهم ، ويتلمس منهجهم مقتدياً بهم كما أمر ربنا عز وجل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم (فاصبر كما صبر أولى العزم من الرسل) (ولا تستعجل عليهم) فلابد من الصبر على الناس عامة وطلبة العلم خاصة ، الصبر على غلظتهم ، الصبر على سوء أخلاقهم وطيشهم ،الصبر على ضبط غيرتهم على الدين وتوجيهها إلى السنة وحمايتهم من بدعة الغلو التي منشأها عندهم وقصدهم فيها قصداً حسناً ، كما كان هو حال الخوارج الأُوَل، حماية العقيدة وصون جناب التوحيد ، ولكن لم يجدوا بن عباسٍ يصبر عليهم ويرحمهم بكشف شبهاتهم وردها بالعلم ،ولكن رأينا بعض أهل العلم يغلظ عليهم وينفرهم وينفر منهم ولا حتى يسمع منهم ،ولم يراعى الفتن التي تعصف بهم من حولهم على مواقع التواصل والفضاء المفتوح الذى أصبح شيخاً ومعلماً لكثير من الشباب!! ، ونقول لهؤلاء المشايخ والدعاة وأهل العلم إنكم بمثابة الوالد ورب الأسرة لشباب الأمة ، فهل يجوز لرب الأسرة والمسؤول عنها أن يفر منها ويتركها للفتن والمحن ؟

لا يجوز للوالد أن يترك أبناءه لانحرافهم أو سوء فهمهم ،بل يصبر عليهم ويحلم عليهم ،ليخرج الخير الذى فيهم ،رجاء أن يهديهم الله وينفع بهم ،هكذا يجب أن يكون المربى والداعية إلى الله ،فهو في مقام الأنبياء ،وعليه أن يصبر كما صبروا حتى تثمر دعوته ثماراً طيبة مباركة، **فشتان بين من يغلظ ويشتد عليهم ليخرج أسوأ ما فيهم ،وبين من يصبر ويحلم عليهم ليخرج أحسن مافيهم** .وعليه، فلا يمكن لأهل البدع من نشر بدعتهم لحماية الناس من شرهم ،حتى لا يغتروا بهم وسبق أن بينا أن الدجال يؤيده الله بخوارق فتنة للناس: يأمر السماء فتمطر، ويأمر الأرض فتنبت، ويأمر الخربات فتأتي بكنوزها، ويقتل الرجل ويعيده، ولهذا صح عند الحاكم في المستدرك على الصحيحين، عن عمران بن حصين الخزاعى رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: (مَن سَمِعَ منكم بخُروجِ الدَّجَّالِ فلْيَنْأَ عنه؛ فإنَّ الرَّجلَ يَأتِيه فيَحسَبُ أنَّه مُؤمنٌ، فما يَزالُ يَتْبَعُه ممَّا يَرى مِنَ الشُّبهاتِ.)، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهنا جاء الخطر، وهذا الإنسان الذي صدق بالرسول ﷺ لو بقي بتصديقه وقال: لا حاجة لي في

أن أذهب إلى الدجال لسلم، وهكذا نفس الشيء بالنسبة لكثير منا، فالبعض منا يقول: أنا عقيدتي قوية، وما عندي مانع أن أقرأ في كتب الفلسفة، أو في كتب المنطق، أو في كتب المبتدعة من المفكرين اليساريين والشيوعيين والملاحدة، ثم لا يزال يقرأ ويقرأ حتى يتأثر، وكثير منهم قد لا يصل به ذلك إلى الإلحاد، لكن يضعف إيمانه ويضعف يقينه بالقرآن والسنة، وهذا من الآثار الخطيرة بالنسبة للبدع وعلم الكلام، فإنها حتى ولو لم توصل الإنسان إلى الإلحاد والكفر بالله إلا أنها تضعف إيمانه، وتضعف ثقته بالكتاب، وتضعف ثقته بالسنة، ولهذا تجد المتشبعين بكتب الفلسفة وعلم الكلام وأهل البدع ونحو ذلك، تجد هؤلاء عن بكرة أبيهم إلا ما عصم ربي يستهينون بالقرآن، ويستهينون بالسنة، حتى ولو لم يصرح أحدهم بذلك، فإن القرآن عنده ما وضع إلا للعوام، والسنة ما هي إلا أمور يسيرة ليس فيها حقائق علمية، هكذا يؤمنون.

فمن أين جاء هذا التهوين لتلك المصادر الحقة التي لا يأتيها الباطل أبدًا؟ جاءهم من خوضهم في علم الكلام والفلسفة والمنطق والنظر في كتب أهل البدع والانحراف، فظنوا أن تلك العقول وذلك المنطق وأولئك الفلاسفة عندهم من العلم واليقين والوصول إلى الحقائق ما ليس في الكتاب والسنة، ولهذا قال المصنف: (والإصغاء إلى كلامهم) .

ثم قال: [وكل محدثة في الدين بدعة] .

وهذا بنص حديث الرسول ﷺ، وتفصيل البدعة تكلمنا عليه في شرح السنة وبينا هناك حقيقة الإنتماء للإسلام ،والبعد عن التعصب والتحزب ، والتصنيف ،والأهواء والافتراق .

كل فرقة تسمت بغير الإسلام والسنة فهي مبتدعة

ثم قال: [وكل متسمٍ بغير الإسلام والسنة مبتدع] .

قوله: (بغير بالإسلام)، مثل ذلك الذي لا ينسب نفسه إلى الإسلام، أو لا ينسب نفسه إلى السنة، وإنما أتى ببدعة، فنسب نفسه إليها.

قال: [كالرافضة] .

والرافضة لهم أصول معروفة، وكثير منها أصول كفرية، تخرجهم عن دائرة الإسلام، ولو لم يكن من ذلك إلا اعتقادهم العصمة في الأئمة، وأنهم يعلمون المغيبات، وعبادتهم لأئمتهم والحج إلى قبورهم؛ لكفى، فإنهم يعبدونهم ويدعونهم من دون الله تعالى.

وكذلك اعتقادهم بردة الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم، ولو لم يكن إلا ذلك لكفى دليلًا على ردتهم وخروجهم عن دائرة الإسلام، ولهذا فإننا نقول: من كان من الرافضة يقول بهذه الأصول فهو مرتد خارج عن دائرة الإسلام ، وقد ذكرنا فيما سبق أن الروافض خرجوا من الإسلام من أكثر من باب ،وبينا خطأ من قال بالتقريب بين الرافضة وأهل السنة ،وأنه لا فرق بينه وبين من يقول بالتقريب بين المسلمين واليهود ، أو بين المسلمين والنصارى أو بين المسلمين والعلمانيين،أو بين الإسلام والإلحاد ، فهذا دين الله ، وذاك دين الشيطان .

ثم قال: [والجهمية] .

وهم أتباع الجهم بن صفوان، الذي قتله سلم بن أحوز بعد أن ظهرت بدعته، فهو من المبتدعة الذين أقيم فيهم حكم الله.

والجهمية لهم ضلالات كثيرة، ومن أعظم ضلالاتهم إنكار الأسماء والصفات ومنها القول بالجبر، أي أن العباد مجبورون، وأن العبد لا قدرة له ولا إرادة، وإنما يتحرك بأفعاله كما تتحرك الأوراق، فأوراق الشجر إنما تحركها الريح.

ومن ضلالاتهم أن الإيمان هو المعرفة، فعندهم أن من عرف الله فهو مؤمن، وهذا مذهب الإرجاء، وهو مذهب خطير، ففرعون كان يعرف الله، وإبليس كان يعرف الله.

إذًا: عندهم أن فرعون وإبليس وغيرهما من الملاحدة والطواغيت الذين عرفوا الله مؤمنون، وهذا خطير جدًا، ولهذا صار الجهمية من غلاة المرجئة، فقد اجتمعت في الجهمية ثلاث جيمات: جيم التجهم الذي هو نفي الصفات، وجيم الإرجاء، وجيم الجبر، فهم جبرية، جهمية، مرجئة.

ثم قال: [والخوارج] .

والخوارج هم المارقة الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه وأرضاه، وأجمع المسلمون على قتالهم، وأهم ما يميزهم في عقيدتهم تكفيرهم لمرتكب الكبيرة، فكل من ارتكب كبيرة فهو عندهم كافر في الدنيا مخلد في نار جهنم، ولهذا فإنهم كفروا عثمان في آخر خلافته، وكفروا عليًا، وكفروا الزبير، وعائشة، وطلحة، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم، فهؤلاء هم الخوارج المارقون الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ، ووردت فيهم أحاديث كثيرة،وقد سبق الحديث عنهم .

ثم قال: [والقدرية] .

والقدرية هم نفاة القدر، أي: الذين نفوا عن الله القدر، وقالوا إن الإنسان مستقل عن الله في الإرادة، ومستقل بفعله، فهو خالق الإرادة، وهؤلاء هم المعتزلة القدرية، وقد ورد في الحديث الذي يحسنه بعض العلماء: (القدرية هم مجوس هذه الأمة) سموا وشبهوا بالمجوس لأنهم يقولون: إن العبد خالق لفعله.

ثم قال: [والمرجئة] .

وهؤلاء المرجئة هم الذين يؤخرون الأعمال عن الإيمان، فلا يدخلونها، فكل من لم يدخل الأعمال في مسمى الإيمان فهو مرجئ.

وهؤلاء المرجئة على درجات: فغلاتهم هم الجهمية، وقد سبق بيان عقيدتهم؛ لأنهم يقولون: الإيمان هو المعرفة فقط، ومن المرجئة أيضًا **الكرامية** الذين يقولون إن الإيمان قول اللسان فقط، فكل من قال بلسانه فهو مؤمن، لكن يقولون: إن المنافق الذي لا يوافق قلبه لسانه يكون يوم القيامة مخلدًا في النار.

ومن المرجئة أيضًا الأشعرية والماتريدية الذين يقولون إن الإيمان هو التصديق فقط.

ومن المرجئة أيضًا مرجئة الفقهاء رحمهم الله تعالى الذين يقولون: إن الإيمان قول وتصديق، فهؤلاء الطوائف كلهم مرجئة؛ لأنهم لم يدخلوا العمل في مسمى الإيمان.

ثم قال: [والمعتزلة] .

والمعتزلة هم الذين بدأت حركتهم باعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري رحمه الله تعالى، وذلك لما جعلوا النقاش حول مرتكب الكبيرة، فقال واصل بن عطاء: لا أقول هو مؤمن، ولا أقول هو كافر، بل هو في منزلة بينهما، فاعتزل حلقة الحسن البصري، فسموا معتزلة.

والمعتزلة اشتهروا بأصولهم الخمسة:

الأول: **العدل**، وهو إنكار القدر، أي: إنكار المرتبة الثالثة والرابعة من مراتب القدر، وهما مرتبة المشيئة، ومرتبة الخلق، ونسبتهما إلى العبد.

الثاني: التوحيد، وهو نفيهم لجميع الصفات عن الله تعالى، فهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات، لكن إثباتهم للأسماء لم ينفعهم؛ لأنهم انقسموا حيالها إلى قسمين: قسم منهم قال: إنها أعلام محضة لا تدل على معانٍ ولا صفات، والقسم الثاني منهم قال: إن الله عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، فكان مؤدى قولهم نفي الصفات عن الله عزوجل.

الثالث من أصولهم: القول بمنزلة بين المنزلتين في مرتكب الكبيرة: أي أنه في الدنيا لا مؤمن ولا كافر.

الرابع: **إنفاذ الوعيد**: وهو أن مات من أهل الكبائر من غير توبة فلابد أن ينفذ فيه الوعيد فيكون مخلدًا في نار جهنم.

الخامس: **الأمر بالمعروف** والنهي عن المنكر، وربطوا بالأصل الخامس الخروج على أئمة الجور، وقالوا: إنه يجوز الخروج على الإمام إذا كان جائرًا.هذه أصول المعتزلة الخمسة التي اشتهروا بها.وأضافوا إلى ذلك أمورًا كثيرة، منها: إنكار الشفاعة، وقد سبق بيان ذلك، ومنها: إنكار رؤية الله تعالى يوم القيامة، وقد سبق أيضًا الإشارة إلى ذلك.

ثم قال: **[والكرامية]** .

والكرامية هم أتباع محمد بن سعيد بن كرام، وابن كرام هذا أشهر أقواله: إثبات الصفات مع الغلو أحيانًا في إثباتها، وأيضًا من أقواله: الإرجاء في باب الإيمان، فإنه يقول: إن الإيمان هو قول اللسان فقط، لكنه قال: إن المنافق الذي يقول بلسانه وإن قلنا عنه في الدنيا إنه مؤمن، لكنه إذا مات فهو يوم القيامة مخلد في النار، فوافق أهل السنة والجماعة في الحكم عليه على الظاهر.

ثم قال المصنف: **[والكلابية]** .

والكلابية هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وأشهر ما اشتهر عن ابن كلاب هو أنه نفى بعض الصفات وأثبت بعضها، وقبل ابن كلاب كان الناس على طريقتين: المعتزلة ينكرون جميع الصفات، وأهل السنة يثبتون جميع الصفات، فجاء عبد الله بن سعيد بن كلاب بشبه عقلية وردت عليه، فأثبت لله بعض الصفات، مثل: صفة العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، ومثل الوجه واليدين، والعينين وغير ذلك، ونفى عن الله ما يتعلق بمشيئته وإرادته، مثل: الاستواء، فإنه أثبت لله صفة الاستواء من باب أنها صفة علو لله تعالى

لكن لم يثبتها كصفة من صفات الفعل، فهو يثبت الاستواء لله تعالى، وينكر على من يتأوله بالاستيلاء؛ لأنه يثبت العلو لله.

وكذلك أيضًا يتأول بعض صفات الله ، كصفة النزول، وصفة الضحك، والعجب، والرحمة، والمحبة وغير ذلك، أي أنه في الجملة يتأول الصفات الفعلية، ويثبت لله الصفات الذاتية، وسار على منهاجه في باب الصفات الأشاعرة والماتريدية، فهم ساروا على خطاه، وإن كان متأخرو الأشاعرة ومتأخرو الماتريدية قد زادوا عنه بعدًا عن مذهب السلف الصالح في باب الصفات.

ثم قال المصنف: **[ونظائرهم]**، فهذه فرق الضلال، وطوائف البدع، أعاذنا الله منها؛ لكن طوائف الضلال متفاوتة، فمنها طوائف قد تصل أحيانًا فيها البدع إلى الكفر، ومنها ما قد تكون بدعًا دون الكفر، لكن نحن ننكر البدع، ونتبرأ من هذه كلها، ولا نسمي أنفسنا بهذه التسميات، وإنما نربط أنفسنا بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين .

المقصود بسنة الخلفاء الراشدين

السؤال : ورد في حديث العرباض: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)، فهل نعتبر سنة الخلفاء الراشدين كسنة رسول الله ﷺ، أم أن سنة الخلفاء الراشدين كغيرهم؟

الجواب :هذا أمر فيه تخصيص، فنتبع سنة الرسول ﷺ فقط، وما لم يأت في سنة الرسول ﷺ مما مشى عليه الخلفاء الراشدون فنحن نتبعه، وإذا اختلفوا نرجح، ولهذا فإن المقصود بالسنة هنا سنتهم العامة، فيما هو مميز لهم عن غيرهم.

أما ما كان رأيًا لواحد منهم، وقد خالف سنة رسول الله ﷺ الواردة، فهذا نحكم عليه بحكم أهل الحديث في باب الترجيح، وفي مسألة إذا عمل الراوي بخلاف روايته أو غير ذلك.

فالمقصود هو الاتباع في هديهم، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن النبي ﷺ فرق بين الشيخين أبي بكر وعمر وبين بقية الخلفاء، فقال في الخلفاء: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)، لكن قال في أبي بكر وعمر: (اقتدوا باللذين من بعدي)، والاقتداء أخف من ذلك، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أبا بكر وعمر لم يقع منهما شيء يخالف هدي الرسول ﷺ، فكان الاقتداء بهما مطلوبًا.

حكم الانتساب إلى إمام في فروع الدين

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأما النسبة إلى إمام في فروع الدين كالطوائف الأربع فليس بمذموم؛ فإن الاختلاف في الفروع رحمة ، وَالْمخْتَلِفونَ فِيهِ مَحْمُودُونَ فِي اخْتلافِهِمْ، مُثَابُونَ في اجْتِهَادِهِمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاتِّفَاقُهُمْ حُجَّةٌ قاطِعَةٌ.

نَسْأَلُ الله أَنْ يَعْصِمَنا مِنَ الْبِدَعِ وَالْفِتْنَةِ، وَيُحْيِينَا عَلَى الإِسْلامِ وَالسُّنةِ، وَيَجْعَلنَا مِمَّنْ يَتَّبِعْ رَسُولَ الله – صلى الله عليه وسلم – في الحَياةِ، وَيَحْشُرَنَا في زُمْرَتِهِ بَعْدَ المَمَاتِ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ آمِينَ.

وَهَذَا آخِرُ الْمُعْتَقَدِ.

وَالحَمْدُ لله وَحدهُ، وَصلَّى الله علىَ سَيِّدنَا مُحمدٍ وَآلهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

اختلف الأئمة في مسائل الفقه، قال الموفق بن قدامة(واختلافهم رحمة)وهذا صحيح باعتبار، وغير صحيح باعتبار آخر:فاختلافهم رحمة صحيح باعتبار أنهم بذلوا وسعهم لإرشاد الناس، وحصل مع بذل الوسع والاجتهاد الاختلاف، فيقال اختلافهم رحمة؛ يعني سبب الاختلاف من أنه بذل الاجتهاد والجهد في بيان المسائل ونفع الناس رحمة، ولو حصل الاختلاف، فإن كان المقصود هذا المعنى فهذا صحيح.

وأما إن كان المقصود أن اختلافهم على هذه الأنحاء، هذه الأقوال المتباينة أنه رحمة رُحمت بها الأمة، فهذا غير صحيح؛ لأن هذه الأقوال المختلفة منها ما هو مخالف للسنة، ومنها ما قد فرّق الأمة، فليست برحمة كما هو ظاهر.

فإذن قوله اختلافهم في الدين رحمة، يُمكن أن يُفسر بتفسير صحيح، ويمكن أن يفسر بتفسير خاطئ، فإن أريد به التفسير الصحيح صُحّح، وإن أريد به التفسير الخاطئ خُطِّئ.

هذا الاختلاف ما موقفنا منه؟

لم يرد في ذلك حديث صحيح، لكن قد رحم الله هذه الأمة بالتوسعة عليها، والصحابة كانوا يجتهدون ويختلفون.

فالانتساب إلى المذهب المالكي أو الشافعي أو الحنفي أو غير ذلك ليس فيه بدعة، إنما يكون بدعة إذا تحول إلى تعصب، ورفض للدليل الحق، أو إلى تنقص من الأئمة الآخرين،

فإذا أدى إلى تعصب مذموم، أو تنقص بالأئمة الآخرين، فإنه حينئذٍ يكون انتسابه إلى هؤلاء أو أحدهم مذمومًا.

فمن انتسب إلى الحنفية أو المالكية أو الحنابلة وقال: إن معهم الحق، وتعصب ولو جاءه الدليل الصحيح، أو انتقص الآخرين، وقال: المذهب الحق هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل أو أبي حنيفة وما عداهم فمذهبه غير حق، فنقول: هذا تعصب مذموم.الواجب أولا أن يترحّم على جميع العلماء، وأن يُعذروا في اختلافهم، وما أخطئوا فيه من اجتهادهم المخالف للسنة لا يتَّبعون فيه، فإن العالم لا يتبع بزلته، ولا يُتبع على ما أخطأ من قوله أو في فعله، ويُحب الجميع، ونعتقد أن المجتهد منهم مأجور بأجر واحد إن أخطأ، وبأجرين إن أصاب، وأما من تبعهم في أقوالهم، فإن كان ذلك الإتباع عن تعصب بعد معرفة الدليل فهذا مذموم وباطل، وهو الذي أقام السلف الصياحات على من سار على هذا النحو؛ يقدم أقوال الرجال على ما دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة، وأما إن كان إتباعه لا عن تعصب لكن عن اقتناع باستدلالاتهم وبأصولهم، فإن ذلك لا يلام ولا يعاب على صاحبه.

ثم تكلم المصنف عن مسألة الانتساب والتسمي والانتماء.وقسمه إلى قسمين:

القسم الأول: الانتساب العقائدي: وضابطه أن ينتسب إلى طائفة لها عقيدة تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة. أما هذا فحكمه حرام ولا يجوز ومن فعله فهو مبتدع ويكون حكمه حكم الطائفة التي انتسب إليها. فإن كانت مبتدعة بدعة غير مكفرة كالمرجئة والكلابية والكرامية فيكون مبتدع ولا يكفر.

أما إن انتسب إلى طائفة بدعتها مكفرة كالرافضة والجهمية والقدرية والنصيرية والدرزية (وقد أفتى ابن تيمية بكفرهم في فتوى مشهورة) والقاديانية (وقد أفتى علماء باكستان بكفرهم، وعلماء رابطة العالم الإسلامي) والبهائية والبابية والباطنية (أفتى بكفرهم المجمع الفقهي الإسلامي) وكذا الانتساب إلى العلمانية بجميع أصنافهم من شيوعيين أو اشتراكيين أو حداثيين أو برلمانيين أو ديمقراطيين أو عصرانيين أو قوميين أو وطنيين .فحكمه حكمهم إن كان يعرف مذهبهم وكفرياتهم.

وذكر المصنف ثمان طوائف الانتساب إليها بدعة، وهم: الرافضة، والجهمية، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، والمعتزلة، والكرامية، والكلابية.ووصف المصنف هذه الطوائف بوصفين:

١ . أنهم فرق الضلال.

٢ . أنهم طوائف بدع.

ومثله اليوم الانتساب إلى الطوائف المبتدعة المعاصرة على التفصيل السابق والمصنف لم يقصد الاستيعاب، ولذلك قال ونظرائهم، ومن نظرائهم الأشاعرة والزيدية والفلاسفة والإسماعيلية والبهائية، والقاديانية، والنصيرية والتيجانية، والإباضية، ومن الفرق المعاصرة التي لها عقائد كالعلمانية والديمقراطية والعصرانية والقومية والحداثية، والصوفية والبعثيين .وقد مر معنا.

القسم الثاني: **وهو الانتساب الفقهي** إلى إمام من أئمة الدين، مثل الانتساب إلى الإمام أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة.أما هذه فأجازها المصنف وقال: لا بأس بها وقال ليس بمذموم، واختاره أيضاً ابن تيمية (في كتابه الوصية الكبرى) إلاّ أن حكم الانتساب إلى المذاهب الأربعة **فيه خلاف على قولين**:

القول الأول: وهو قول بعض أهل الحديث أنه يحرم الانتساب إلى أحد الأئمة الأربعة وأمثالهم، وقالوا: إن الانتساب الفقهي مثل الانتساب العقائدي يحرم.

واستدلوا بعدة أدلة:

١ – قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا فاختلفوا

وجه الدلالة: أن الانتساب الفقهي تفرق.

٢ – قال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}

وجه الدلالة: أن الانتساب الفقهي تفرق وتحزب.

٣ – قال تعالى: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء}

وجه الدلالة: أن الانتساب الفقهي تفرق.

٤ – أن القرون المفضلة مضت وليس فيها انتساب فقهي، فهي من البدع المحدثة.

٥ – قالوا سداً للذريعة، فإنه يؤدي إلى الانقسامات والتفرق.

القول الثاني: أن الانتساب الفقهي جائز، وهو اختيار المصنف هنا، واختاره ابن تيمية في (الوصية الكبرى)، وهو اختيار كل من انتسب إلى الأئمة الأربعة، إلاّ أنهم اشترطوا عدم التحزب والتعصب، فإن أدى إلى ذلك، فهو محرم.قالوا: وتحمل أدلة القول الأول على التعصب.واستدلوا: بأن بعض الصحابة لما قال: يا للمهاجرين، وقال الآخر: ياللأنصار،

غضب الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وسمى ذلك دعوى جاهلية مع أن التسمي بالأنصار والمهاجرين اسم إسلامي جائز، بل هو من أسماء الثناء والرفعة لكن لما استغل استغلال تفرق وتحزب أصبح محرماً.

مسألة: بقي قضية معاصرة لم يتكلم عنها المصنف وإن كان بعضها موجودا في عصره كالانتساب إلى القبائل والمدن والدول والحكام و الجماعات.

القبائل مثل التميمي ونحوه والمدن كالنجدي، والدول كالمصري واليمني.

والقاعدة أن كل انتساب يؤدي إلى محرم أو كفر أو كذب أو موالاة محرمة أو تحزّب وتعصب وفرقة أو مداهنة فهو محرم.

أما الانتساب الذي هو النسب فهذا واجب ويحرم ترك الانتساب إلى آبائه أو قبيلته إلا إن كان هناك عذر شرعي. لحديث: " من انتسب إلى غير أبيه فقد كفر "

ثم ختم المصنف كتابه بمسألة الاختلاف في الفروع هل هو مذموم أو ممدوح؟ وهل هو رحمة أم لا؟

فقال: فإن الاختلاف في الفروع رحمة والمختلفون فيه محمودون في اختلافهم مثابون في اجتهادهم واختلافهم رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة.

فقوله: إنه رحمة أي توسعة على أمة محمد بمعنى أنه من اتبع أحداً من العلماء المجتهدين المعتبرين لا يعنف، وبمعنى أن الناس لا يلزمون اتباع مجتهد واحد، ويقصد بالناس العوام وكل من ليس له أهلية الاجتهاد وسائر الناس.

ومن معانيها أيضاً أن الإنسان لو اتبع إماماً مجتهداً معتبراً وقول هذا الإمام باعتبار الواقع خطأ فإنه معذور في ذلك وهذه من الرحمة، لكن الاختلاف إن جر إلى تحزب وتعصب وجر إلى تظلم وتعدي أحدهم على الآخر فهذا ليس رحمة وإنما نقمة وذنب.

وهذا واضح جدًا، فما اتفق عليه المسلمون وأجمعوا عليه فهو حجة، وما اختلفوا فيه فإننا نحمدهم عليه، لكن الواجب علينا أن نتبع من كان معه الدليل، ولو أن الإنسان انتسب إلى المذهب الحنفي أو المالكي أو الشافعي أو الحنبلي ثم رأى في مسألة من المسائل أن الدليل مع القول الآخر والمذهب الآخر، فالواجب عليه أن يتبعه.

قوله: ﴿ نسأل اللَّه أن يعصمنا من البدع والفتنة ويحيينا على الإسلام والسنة ويجعلنا ممن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة ويحشرنا في زمرته بعد الممات برحمته وفضله آمين ﴾.

ختم المصنف كتابه بالدعاء (بثلاث دعوات)

الأولى: طلب العصمة من البدع والفتن له ولسائر المسلمين.

الثاني: دعا بطلب الحياة على الإسلام والسنة.

الثالث: دعا بأن يكون من أتباع محمد في الدنيا والآخرة.

ثم ختمه بالصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم دعا المؤلف بدعوة عظيمة، ونحن ندعوا بها، ويجب دائما أن نحرص على مثل هذه الدعوات؛ لأن القلب يتقلب، وهذا الزمن زمن أهواء وفتن، لا يدري المرء هل يثبت على دينه، وعلى السنة حتى يتوفاه الله، أم تعصف به الأهواء والفتن، **قال: نسأل الله أن يعصمنا من البدع، وأن يمن علينا بلزوم السنة**

ونحن نسأله جل وعلا كذلك أن يمن علينا بلزوم السنة، والمحافظة عليها، وبنصرة أهلها، واعتقاد أئمة أهل السنة والجماعة وسلف هذه الأمة، وأن يباعد بيننا وبين الأهواء والفتن والبدع، وبين أصحابها، وأن يجعلنا قائمين بالحق ثابتين عليه، صادعين بالحق، رادّين على الباطل، على كل من جاء بباطل.

ونسأله جل وعلا أن يجعلنا من الهداة المهتدين، السائرين على هدي السلف الصالح، الآخذين بوصية النبي – صلى الله عليه وسلم – حين قال «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعظوا عليها بالنواجذ».

فهذا آخر المعتقد، وهذه العقيدة المختصَرة مع ما سمعتم من الشرح المقتضب جدًّا على هذه المسائل، لكن أحسبه أنه شمل أصول الاعتقاد، وينبغي عليكم أن تتموا دراسة العقيدة، وأن تتوسعوا في ذلك، حتى تعرفوا تفاصيل المعتقد، فإنما يشرف المرء منا بأن يكون في دراسته للعقيدة؛ أن يكون مقبلا متوسعا فيها، لأن الناس بحاجة إلى توضيح العقائد، واليوم المعتني بذلك في صفوف الشباب، بل وفي صفوف طلبة العلم قليل، والناس اليوم في العالم كله،

وخاصة في العالم الإسلامي، بحاجة إلى تبيين أصول الاعتقاد والتوحيد وما يضاده، لأن هذا هو أصل الأصول، وإذا استقام الأصل استقام ما بعده.

ثم دعا المصنف رحمه الله تعالى بهذا الدعاء العظيم فقال: **[نسأل الله أن يعصمنا من البدع والفتنة، ويحيينا على الإسلام والسنة، ويجعلنا ممن يتبع رسول الله ﷺ في الحياة، ويحشرنا في زمرته بعد الممات برحمته وفضله آمين]** .

ونحن أيضًا ندعو معه بهذا الدعاء ونقول: اللهم إن نسألك أن تعصمنا من البدع ومن الفتنة، وأن تحيينا على الإسلام والسنة، وأن تجعلنا ممن يتبع رسول الله ﷺ في الحياة، وتحشرنا في زمرته بعد الممات برحمتك يا أرحم الراحمين!

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

عبد الله بن محمد الغليفي

متن لمعة الاعتقاد

[وجوب الإيمان بكل ما جاء في القرآن أو صح عن المصطفى من صفات الرحمن وتلقيه بالتسليم والقبول]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود بكل لسان في كل زمان، الذي لا يخلو من علمه مكان ولا يشغله شأن عن شأن جل عن الأشباه والأنداد وتنزه عن الصاحبة والأولاد ونفذ حكمه في جميع العباد لا تمثله العقول بالتفكير ولا تتوهمه القلوب بالتصوير {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] له الأسماء الحسنى، والصفات العلى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى - لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى - وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: 5 - 7] أحاط بكل شيء علما، وقهر كل مخلوق عزة وحكما، ووسع كل شيء رحمة وعلما {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: 110] موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان نبيه الكريم.

وكل ما جاء في القرآن أو صح عن المصطفى عليه السلام

من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل.

وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظا، وترك التعرض لمعناه ونرد علمه إلى قائله، ونجعل عهدته على ناقله اتباعا لطريق الراسخين في العلم الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين بقوله سبحانه وتعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: 7] وقال في ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: 7] فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ، وقرنه بابتغاء الفتنة في الذم، ثم حجبهم عما أملوه، وقطع أطماعهم عما قصدوه، بقوله سبحانه: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: 7]

[كلام الإمام أحمد بن حنبل في الصفات]

قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا» ، أو «إن الله يرى في القيامة» ، وما أشبه هذه الأحاديث

نؤمن بها، ونصدق بها بلا كيف، ولا معنى، ولا نرد شيئا منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق، ولا نرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] ونقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه، لا نتعدى ذلك، ولا يبلغه وصف الواصفين، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت، ولا نتعدى القرآن والحديث، ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتثبيت القرآن .

[كلام الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الصفات]

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه: آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

[كلام السلف وأئمة الخلف في الصفات]

وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم، كلهم متفقون على الإقرار والإمرار والإثبات، لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله. وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم، والاهتداء بمنارهم وحذرنا المحدثات وأخبرنا أنها من الضلالات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» .

[كلام عبد الله بن مسعود وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما في الصفات]

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلاما معناه: قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم: حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من خالف هديهم ورغب عن سنتهم، ولقد وصفوا منه ما يشفي

وتكلموا منه بما يكفي، فما فوقهم محسر، وما دونهم مقصر. لقد قصر عنهم قوم فجفوا وتجاوزهم آخرون فغلوا وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم.

[كلام الإمام أبو عمر الأوزاعي في الصفات ورد الأدرمي على رجل تكلم ببدعة]

وقال الإمام أبو عمر الأوزاعي رضي الله عنه: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوه لك بالقول.

وقال محمد بن عبد الرحمن الأدرمي لرجل تكلم ببدعة ودعا الناس إليها: هل علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أو لم يعلموها؟ قال لم يعلموها، قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء أعلمته أنت؟ قال الرجل: فإني أقول: قد علموها، قال: أفوسعهم أن لا يتكلموا به، ولا يدعوا الناس إليه، أم لم يسعهم؟ قال: بلى وسعهم، قال فشيء وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه لا يسعك أنت؟ فانقطع الرجل. فقال الخليفة - وكان حاضرا -: لا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم.

وهكذا من لم يسعه ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان والأئمة من بعدهم والراسخين في العلم من تلاوة آيات الصفات وقراءة أخبارها ولإمرارها كما جاءت، فلا وسع الله عليه.

[ذكر بعض الآيات والأحاديث الواردة في الصفات]

فمما جاء من آيات الصفات قول الله عز وجل: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27] وقوله سبحانه وتعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64] وقوله تعالى إخبارا عن عيسى عليه السلام أنه قال: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة: 116] وقوله سبحانه: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22] وقوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ} [البقرة: 210] وقوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: 119] وقوله تعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54] وقوله تعالى في الكفار: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [الفتح: 6] وقوله تعالى: {اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ} [محمد: 28] وقوله تعالى: {كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ} [التوبة: 46]

ومن السنة، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا» وقوله: «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة» وقوله: «يضحك الله إلى رجلين قتل

أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة» فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعدلت رواته، نؤمن به، ولا نرده ولا نجحده ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره، ولا نشبهه بصفات المخلوقين، ولا بسمات المحدثين، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا نظير {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه.ومن ذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5] وقوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك» «وقال للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم، ومالك بن أنس، وغيرهما من الأئمة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين: «كم إلها تعبد؟ قال سبعة، ستة في الأرض وواحدا في السماء. قال من لرغبتك ورهبتك؟ قال الذي في السماء، قال فاترك الستة واعبد الذي في السماء،وأنا أعلمك دعوتين، فأسلم، وعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: " اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي» .

وفيما نقل من علامات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الكتب المتقدمة: أنهم يسجدون بالأرض ويزعمون أن إلههم في السماء. وروى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن ما بين سماء إلى سماء مسيرة كذا وكذا. . .» . وذكر الخبر إلى قوله: «وفوق ذلك العرش، والله سبحانه فوق ذلك» فهذا وما أشبهه مما أجمع السلف رحمهم الله على نقله وقبوله، ولم يتعرضوا لرده ولا تأويله، ولا تشبيهه ولا تمثيله.

سئل الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقيل: يا أبا عبد الله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ثم أمر بالرجل فأخرج.

[من صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم]

كلام الله ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164] وقال سبحانه: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [الأعراف: 144] وقال سبحانه: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة:

253] وقال سبحانه: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى: 51] وقال سبحانه: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى - إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه: 11 - 12] وقال سبحانه: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي} [طه: 14] وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء "، روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عبد الله بن أنيس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلا بهما فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان» ، رواه الأئمة واستشهد به البخاري وفي بعض الآثار أن موسى عليه السلام ليلة رأى النار فهالته ففزع منها فناداه ربه: يا موسى، فأجاب سريعا استئناسا بالصوت، فقال لبيك لبيك، أسمع صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ فقال: " أنا فوقك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك "، فعلم أن هذه الصفة لا تنبغي إلا لله تعالى. قال كذلك أنت يا إلهي، أفكلامك أسمع، أم كلام رسولك؟ قال: " بل كلامي يا موسى ".

[القرآن كلام الله]

القرآن كلام الله ومن كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين وحبله المتين وصراطه المستقيم وتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو سور محكمات وآيات بينات وحروف وكلمات من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، له أول وآخر وأجزاء وأبعاض، متلو بالألسنة محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42] وقوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88] ، وهو هذا الكتاب العربي الذي قال فيه الذين كفروا: {لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ} [سبأ: 31] وقال بعضهم: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: 25] فقال الله سبحانه: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: 26] وقال بعضهم: هو شعر، فقال الله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ

هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: 69] فلما نفى الله عنه أنه شعر وأثبته قرآنا لم يبق شبهة لذي لب في أن القرآن هو هذا الكتاب العربي الذي هو كلمات وحروف وآيات، لأن ما ليس كذلك لا يقول أحد: إنه شعر، وقال عز وجل: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [البقرة: 23] ولا يجوز أن يتحداهم بالإتيان بمثل ما لا يدري ما هو ولا يعقل، وقال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي} [يونس: 15] فأثبت أن القرآن هو الآيات التي تتلى عليهم. وقال تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: 49] وقال تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ - فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ - لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: 77 - 79] بعد أن أقسم على ذلك، وقال تعالى: {كهيعص} [مريم: 1] {حم - عسق} [الشورى: 1 - 2] وافتتح تسعا وعشرين سورة بالحروف المقطعة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة» حديث صحيح .

وقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمون حروفه إقامة السهم لا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه» وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه، وقال علي رضي الله عنه: من كفر بحرف منه فقد كفر به كله، واتفق المسلمون على عد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه.

ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفا متفقا عليه أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف.

[رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة]

رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة والمؤمنون يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ - إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22 - 23] وقال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: 15] فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى، وإلا لم يكن بينهما فرق، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»

حديث صحيح متفق عليه . وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي، فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير.

[القضاء والقدر]

القضاء والقدر ومن صفات الله تعالى أنه الفعال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور، أراد ما العالم فاعلوه، ولو عصمهم لما خالفوه، ولو شاء أن يطيعوه جميعا لأطاعوه، خلق الخلق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، قال الله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: 23] قال الله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49] وقال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2] وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [الحديد: 22] وقال تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام: 125] روى ابن عمر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فقال جبريل: صدقت.» رواه مسلم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره» ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي علمه الحسن بن علي يدعو به في قنوت الوتر: «وقني شر ما قضيت» ولا نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أوامره واجتناب نواهيه، بل يجب أن نؤمن، ونعلم أن لله علينا الحجة بإنزال الكتب وبعثة الرسل، قال الله تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: 165] ونعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك، وأنه لم يجبر أحدا على معصية، ولا اضطره إلى ترك طاعة، قال الله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 286] وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: 16] وقال تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر: 17] فدل على أن للعبد فعلا وكسبا يجزى على حسنه بالثواب، وعلى سيئه بالعقاب، وهو واقع بقضاء الله وقدره.

[الإيمان قول وعمل]

الإيمان قول وعمل والإيمان قول باللسان وعمل بالأركان، وعقد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، قال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: 5] فجعل عبادة الله تعالى وإخلاص القلب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كله من الدين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» . فجعل القول والعمل من الإيمان، وقال تعالى: {فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [التوبة: 124] وقال: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا} [الفتح: 4] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من الإيمان» فجعله متفاضلا.

[الإيمان بكل ما أخبر به الرسول]

الإيمان بكل ما أخبر به الرسول ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وصح به النقل عنه فيما شاهدناه، أو غاب عنا، نعلم أنه حق، وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه، مثل حديث الإسراء والمعراج وكان يقظة لا مناما فإن قريشا أنكرته وأكبرته، ولم تنكر المنامات. ومن ذلك أن ملك الموت لما جاء إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه لطمه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فرد عليه عينه. ومن ذلك أشراط الساعة،مثل خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل. وعذاب القبر ونعيمه حق وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منه، وأمر به في كل صلاة وفتنة القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والبعث بعد الموت حق، وذلك حين ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} [يس: 51] ، ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة، غرلا بهما، فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويحاسبهم الله تبارك وتعالى وتنصب الموازين، وتنشر الدواوين وتتطاير صحائف الأعمال إلى الأيمان والشمائل {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ - فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا - وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا - وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ - فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا} [الانشقاق: 7 - 11] (1) {وَيَصْلَى سَعِيرًا} [الانشقاق: 12] والميزان له

كفتان ولسان توزن به الأعمال {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ - وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: 102 - 103] ولنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حوض في القيامة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، وأباريقه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا والصراط حق يجوزه الأبرار، ويزل عنه الفجار، ويشفع نبينا صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر فيخرجون بشفاعته بعدما احترقوا وصاروا فحما وحمما فيدخلون الجنة بشفاعته ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات. قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: 28] ولا تنفع الكافر شفاعة الشافعين.والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان، فالجنة مأوى أوليائه، والنار عقاب لأعدائه، وأهل الجنة فيها مخلدون {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ - لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} [الزخرف: 74 - 75] ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: «يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت» .

[محمد خاتم النبيين]

محمد خاتم النبيين ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين، لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، ولا يقضى بين الناس في القيامة إلا بشفاعته، ولا يدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته صاحب لواء الحمد والمقام المحمود والحوض المورود، وهو إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم، أمته خير الأمم وأصحابه خير أصحاب الأنبياء عليهم السلام وأفضل أمته أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم علي المرتضى رضي الله عنهم أجمعين، لما «روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول والنبي صلى الله عليه وسلم حي: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكره» وصحت الرواية عن علي رضي الله عنه أنه قال: " خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ولو شئت سميت الثالث "، وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر» ، وهو أحق خلق الله بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لفضله وسابقته، وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة على جميع

الصحابة رضي الله عنهم، وإجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته، ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة ثم من بعده عمر رضي الله عنه لفضله وعهد أبي بكر إليه، ثم عثمان رضي الله عنه، لتقديم أهل الشورى له، ثم علي رضي الله عنه، لفضله وإجماع أهل عصره عليه.

هؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وقال صلى الله عليه وسلم: «الخلافة من بعدي ثلاثون سنة» فكان آخرها خلافة علي رضي الله عنه.

ونشهد للعشرة بالجنة كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة» وكل من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة شهدنا له بها كقوله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» وقوله لثابت بن قيس: «إنه من أهل الجنة» .

ولا نجزم لأحد من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا من جزم له الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء. ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه عن الإسلام بعمل، ونرى الحج والجهاد ماضيا مع طاعة كل إمام، برا كان أو فاجرا، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة. قال أنس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة من أصل الإيمان: الكف عمن قال: لا إله إلا الله، ولا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله عز وجل حتى يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار» ، رواه أبو داود .

ومن السنة تولي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم وذكر محاسنهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم والكف عن ذكر مساوئهم وما شجر بينهم. واعتقاد فضلهم ومعرفة سابقتهم قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر: 10] وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» .

ومن السنة: الترضي عن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين المطهرات المبرآت من كل سوء، أفضلهن خديجة بنت خويلد، وعائشة الصديقة بنت الصديق، التي برأها الله في كتابه، زوج النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، فمن قذفها بما برأها الله منه فقد كفر بالله العظيم.

ومعاوية خال المؤمنين، وكاتب وحي الله، أحد خلفاء المسلمين رضي الله عنهم.

ومن السنة: السمع والطاعة لأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين – برهم وفاجرهم – ما لم يأمروا بمعصية الله، فإنه لا طاعة لأحد في معصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، أو غلبهم بسيفه حتى صار الخليفة، وسمي أمير المؤمنين، وجبت طاعته وحرمت مخالفته والخروج عليه وشق عصا المسلمين.

ومن السنة: هجران أهل البدع ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم، وكل محدثة في الدين بدعة، وكل متسم بغير الإسلام والسنة مبتدع، كالرافضة والجهمية والخوارج والقدرية والمرجئة والمعتزلة والكرامية والكلابية ونظائرهم، فهذه فرق الضلال، وطوائف البدع، أعاذنا الله منها.

وأما بالنسبة إلى إمام في فروع الدين، كالطوائف الأربع فليس بمذموم، فإن الاختلاف في الفروع رحمة، والمختلفون فيه محمودون في اختلافهم، مثابون في اجتهادهم واختلافهم رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة .

نسأل الله أن يعصمنا من البدع والفتنة، ويحيينا على الإسلام والسنة، ويجعلنا ممن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة، ويحشرنا في زمرته بعد الممات برحمته وفضله آمين.

وهذا آخر المعتقد والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.